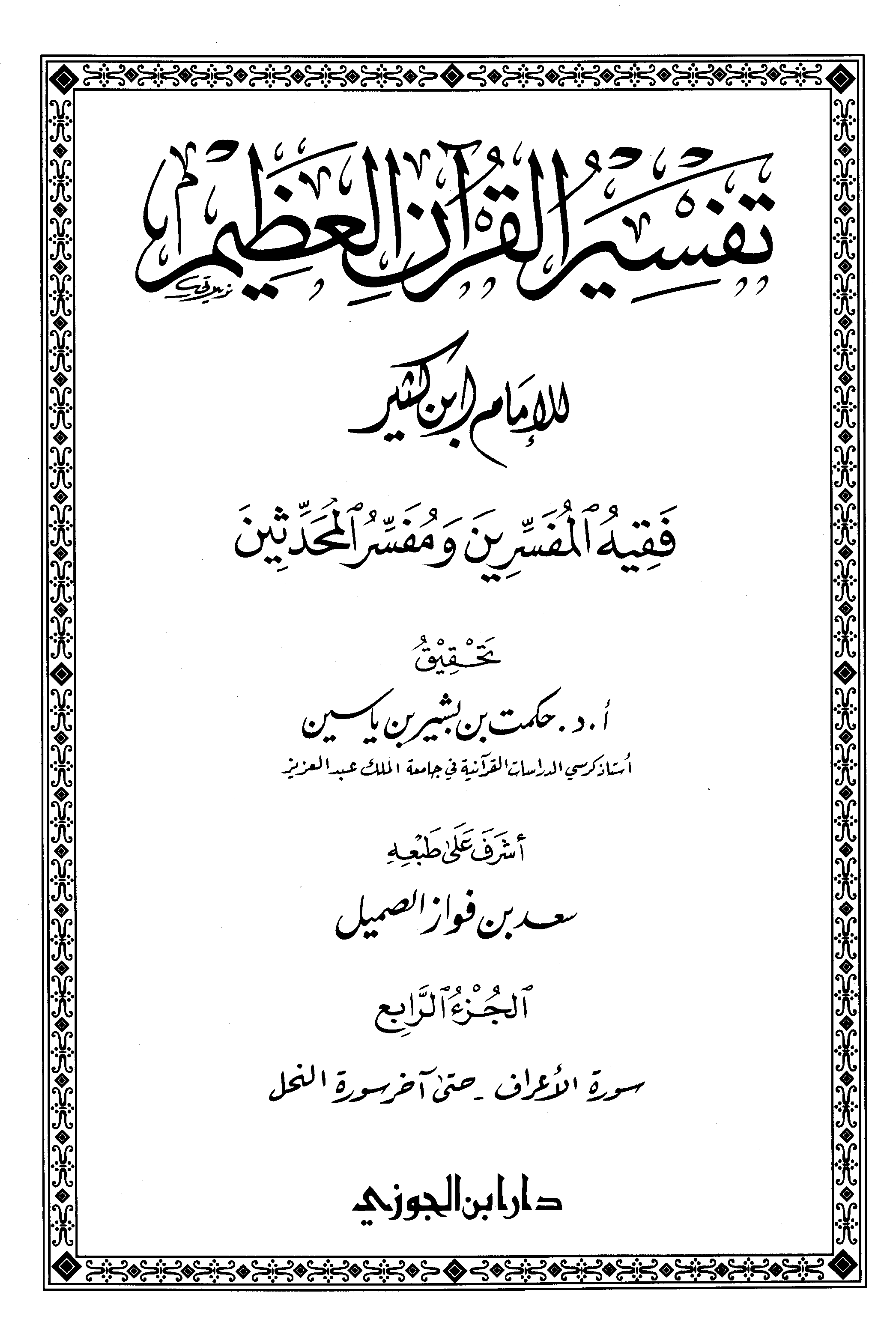


تفسير القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

فقيه المفسرين ومفسر المحدثين

تحقيق

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي الدراسات القرآنية في جامعة الملك عبد العزيز

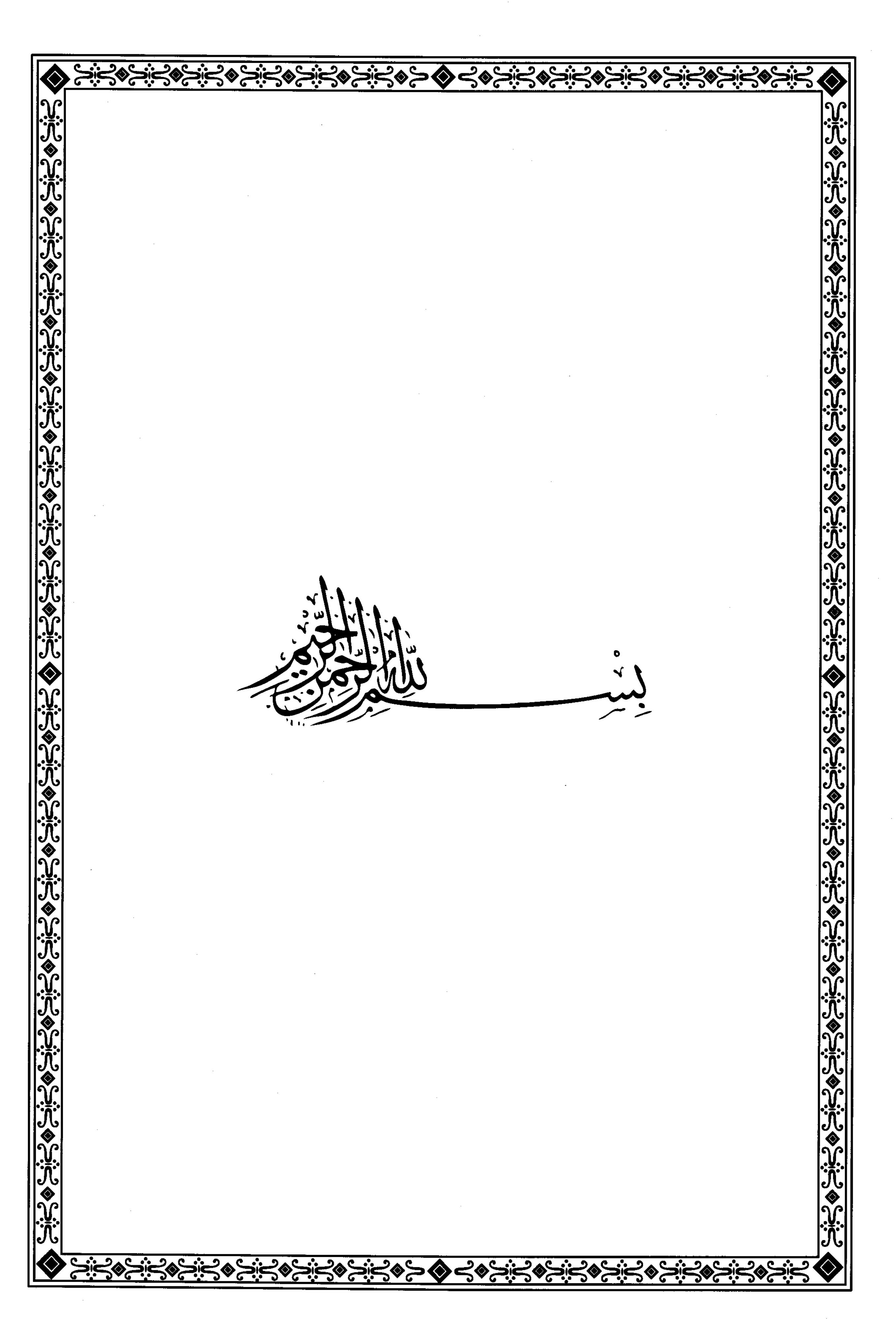
أشرف على طبعه

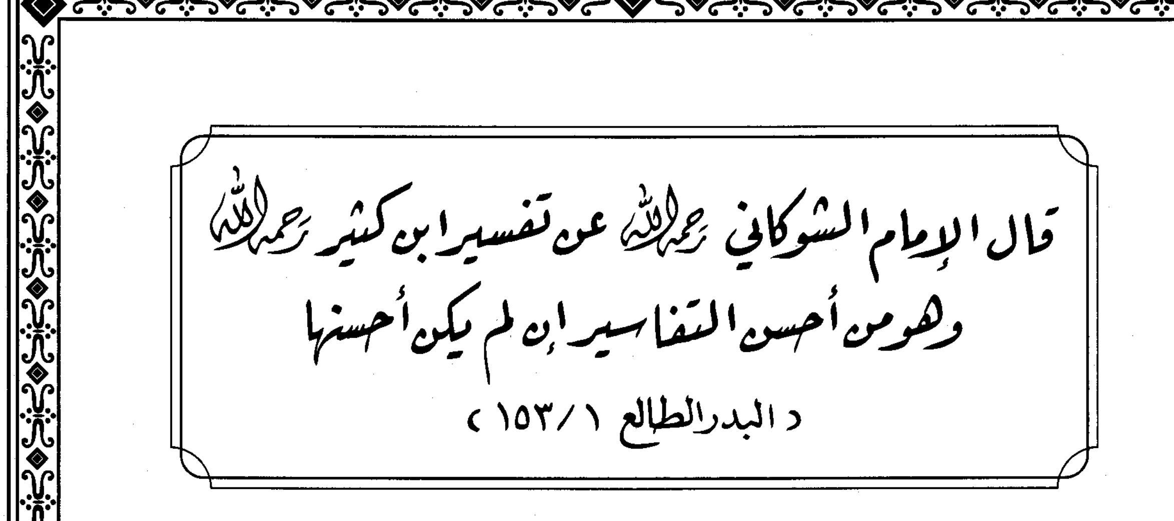
سعد بن فواز الصميل

الجزء الرابع

سورة الأعراف - حتى آخر سورة النحل

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

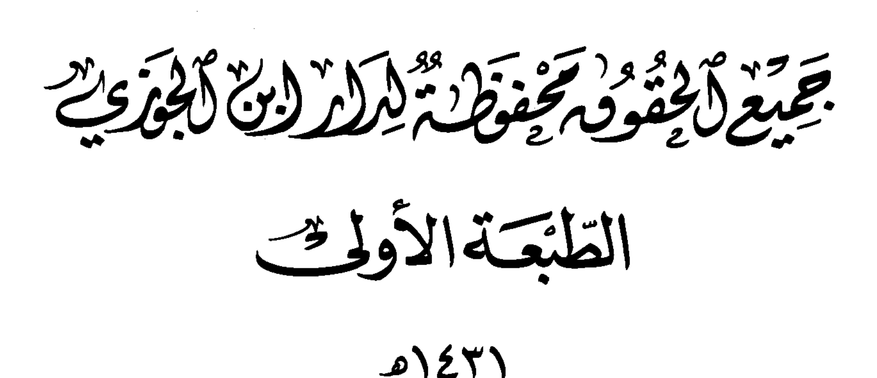


تفسير القرآن العظيم

للإمام ابن كثير

فَقِيهُ المُفَسِّرِينَ وَمُفَسِّرُ المُحَدِّثِينَ

٤

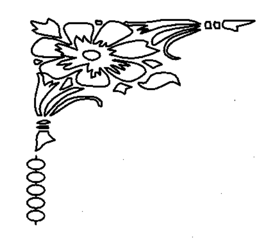
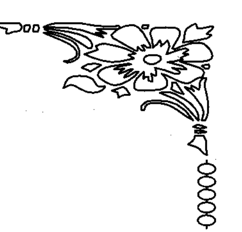




دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ -
الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ -
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com**

تفسير

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه.

قال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ أنا الله أفصل[(١)]، وكذا قال سعيد بن جبير[(٢)].

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي: شك منه[(٣)]، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من ربِّ كل شيء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف] وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف سفيان بن وكيع، وشريك هو ابن عبد الله القاضي: صدوق سيء الحفظ، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق شيبان عن عطاء به وقد توبع شريك وسفيان بن وكيع وبقي اختلاط عطاء.

(٢) أخرجه الطبري من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، فتارة يرويه عن سعيد بن جبير، وتارة يرويه عن أبي الضحى عن ابن عباس، فلعله بسبب اختلاطه.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص].

وقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتاً أي ليلاً، أو هم قائلون من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف] وقال: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء].

قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير، عن أبي سنان، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد، قال: قال عبد الله بن مسعود، قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾[١].

وقوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾. كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص] وقوله: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ قال: عما بُلّغوا[٢].

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا المحاربي، عن ليث، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيتٍ زوجها والعبد يسأل عن مال سيده» قال الليث: وحدثني ابن طاوس مثله، ثم قرأ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن عبد الملك بن ميسرة لم يسمع من ابن مسعود.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة[١].

وقال ابن عباس في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون[٢].

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾.

يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أي: للأعمال يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحداً كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون].

فصل

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس[٣]. كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف[٤].

ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: من

---

(١) صحيح البخاري، الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (ح٨٩٣)، وصحيح مسلم، الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (ح١٨٢٩)، وقد صرح كلاهما بالليث أنه ابن سعد، أما الزيادة أخرجها ابن أبي حاتم من طريق المحاربي عن الليث به، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٣) رواه البغوي معلقاً عن ابن عباس بنحوه (معالم التنزيل ٢/ ١٤٩).

(٤) تقدم تخريجه وصححته في فضل سورة البقرة.

أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك[١].

وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر: «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق[٢].

وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول: يا ربِّ وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه[٣].

وقيل: يوزن صاحب العمل كما جاء في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة» ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥][٤].

وفي مناقب عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهم في الميزان أثقل من أحد»[٥]. وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم، من أنه جعل الأرض قراراً وجعل فيها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقد قرأ الجميع: معايش بلا همز إلا عبد الرحمٰن بن هرمز الأعرج فإنه همزها[٦] والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز، لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشاً ومعيشة أصلها معيشة، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث بريدة رضي الله عنه (المسند ٣٨/ ٤١ ـ ٤٢ ح٢٢٩٥٠)، وقال محققوه: حسن في المتابعات والشواهد، وكذا أخرجه ابن ماجه (السنن، الأدب، باب ثواب القرآن ح٣٧٨١)، وقال البوصيري: إسناده صحيح، وقال الألباني: ضعيف يحتمل التحسين لصحيح سنن ابن ماجه (ح٣٠٤٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن البراء مطولاً (المسند ٣٠/ ٤٩٩ ـ ٥٠٣ ح١٨٥٣٤) وصحح سنده محققوه.

(٣) أخرجه الترمذي، السنن، الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (ح٢٦٣٩)، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢١٢٧)، وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بنحوه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥٢٩).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً (الصحيح، التفسير، باب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . .﴾ [الرعد: ٥] ح٤٧٢٩).

(٥) أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود (المسند ١/ ٤٢٠) وسنده حسن.

(٦) بالهمز أي: معائش قراءة شاذة.

معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال فقيل معايش ووزنه مفاعل، لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

ينبه تعالى بني آدم في هذا [المقام][1] على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عدوهم إبليس، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر] وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب، وصوّره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير سورة البقرة[2]، وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام.

وقال سفيان الثوري عن الأعمش، عن منهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ قال: خُلقوا في أصلاب الرجال، وصُوروا في أرحام النساء، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه[3]، ونقل ابن جرير: عن بعض السلف أيضاً أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية[4]، وهذا فيه نظر، لأنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع، لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] والمراد آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ الآية [المؤمنون] [فإن المراد من آدم المخلوق من السلالة][5] وذريته مخلوقون من نطفة، وصحَّ هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، والله أعلم.

---

(١) كذا في (عش) و(حم) و(مح)، وسقط في الأصل.
(٢) آية ٣٤.
(٣) أخرجه الحاكم من طريق الثوري به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣١٩).
(٤) قول الربيع بن أنس أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبيد بن سليمان عنه، ويشهد له ما أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٥) ما بين معقوفين من (حم) و(مح)، ولا يوجد في (عش) ولا في الأصل.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾.

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[1]: لا هنا زائدة، وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

مـا إن رأيـت ولا سـمـعـت بـمـثـلـه

فأدخل «إن» وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي[2]، قالوا: وكذا هٰهنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] حكاهما ابن جرير وردهما، واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر، تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] فشذّ من بين الملائكة لترك السجود فهذا أبلس من الرحمة أي وأيس من الرحمة فأخطأ، قبحه الله في قياسه، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفي صحيح مسلم عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» هكذا رواه مسلم[3].

وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا نُعيم بن حماد، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن[4]. وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: «وخلقت الحور العين من الزعفران».

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير، عن ابن شوذب، عن

---

(١) كذا في (عش) و(حم) و(مح) وفي الأصل: «أن لا تسجد» مقتصراً على الشاهد.

(٢) أي أن «لا» للتأكيد وهو أحسن من قول أنها زائدة.

(٣) الصحيح، كتاب الزهد، باب في أحاديث متفرقة (ح٢٩٩٦).

(٤) أخرجه مسلم من طريق عبد بن حميد عن عبد الرزاق به بدون الشق الأخير: وخلقت الحور العين من الزعفران (المصدر السابق)، وهذه الزيادة لعلها من خطأ نعيم بن حماد لأنه صدوق كثير الخطأ (التقريب ص٥٦٤)، لأن طريق عبد بن حميد ليس فيه هذه الزيادة.

مطر الوراق، عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أول من قاس[١]. إسناده صحيح.

وقال: حدثني [عمرو][٢] بن مالك، حدثني يحيى بن سليم الطائفي، عن هشام، عن ابن سيرين، قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس[٣]. إسناد صحيح أيضاً.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي، فما يكون لك أن تتكبّر فيها.

قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرّد، فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: كما أغويتني.

قال ابن عباس: كما أضللتني[٤]، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، لأضلّنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية كأنه يقول فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم[٥].

قال مجاهد: صراطك المستقيم يعني الحق[٦].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصححه الحافظ ابن كثير، وهذا التصحيح يُسعف أمثالنا طلاب العلم الذين لم يعثروا على ترجمة شيخ الطبري: القاسم.

(٢) كذا في (عش) و(مح) و(حم) وتفسير الطبري وفي الأصل: «عمر».

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده الحافظ.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٥) وقال بعضهم إنها سببية وذكر القولين أبو بكر بن الأنباري والزمخشري (ينظر الدر المصون ٣/ ٢٤١).

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقال محمد بن سوقة، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة[(١)].

قال ابن جرير: الصحيح أن الصراط المستقيم أعمّ من ذلك.

(قلت): لما روى الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل - يعني: الثقفي عبد الله بن عقيل -، حدثنا موسى بن المسيب، أخبرني سالم بن أبي الجعد، عن سبرة بن أبي الفاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ قال: فعصاه وأسلم» قال: «قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّول؟[(٢)] فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتُنكَح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه وجاهد».

وقال رسول الله ﷺ فمن ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[(٣)].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي[(٤)].

وقال ابن أبي طلحة في رواية العوفي كلاهما عن ابن عباس: أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم[(٥)].

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنّة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا بن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله[(٦)].

وكذا روي عن إبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة والسدي وابن جريج، إلا أنهم قالوا: من بني أيديهم الدنيا، ومن خلفهم الآخرة[(٧)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبد الله بن بكير عن محمد بن سوقه به، وعبد الله بن بكير ضعيف، ذكر له ابن عدي مناكير (ميزان الاعتدال ٢/ ٢٦).

(٢) الطِّول: هو الحبل الذي يُشدُّ طرفه في وتد، والآخر في يد الفرس. قاله السندي في حاشية المسند.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/ ٣١٥ - ٣١٦ ح١٥٩٥٨) قال محققوه: إسناده قوي.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به ومن طريق العوفي به.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة به.

(٧) أخرج الطبري قول النخعي والسدي بإسنادين صحيحين وقول الحكم وابن جريج بإسنادين ضعيفين ويتقويان بما سبق.

وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون[١]. واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ ولم يقل من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ قال: موحدين[٣].

وقول إبليس هذا إنما هو ظنّ منه وتوهّم، وقد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ] ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلّها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا نصر بن علي، حدثنا عمرو بن مُجمِّع، عن يونس بن خباب، عن ابن جبير بن مطعم يعني: نافع بن جبير، عن ابن عباس، وحدثنا عمر بن الخطاب يعني: السجستاني، حدثنا عبيد الله بن جعفر، حدثنا عبد الله بن عمرو، عن زيد بن أبي أنيسة، عن يونس بن خباب، عن ابن جبير بن مطعم، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللّهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللّهم استر عوراتي وآمن روعاتي، واحفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بك اللّهم أن أُغتال من تحتي»[٤]. تفرد به البزار وحسّنه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري، حدثني جرير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «اللّهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللّهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللّهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللّهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي، قال وكيع: من تحتي يعني الخسف[٥]، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد[٦].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق حفص بن عمر العدني عن الحكم به، وحفص ضعيف كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٤) أخرجه البزار بسنديه ومتنه وضعفه الحافظ ابن حجر لضعف يونس بن خباب (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٤٣٤ ح٢١٦٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه بدون ذكر وكيع في قوله: يعني الخسف (المسند ٨/ ٤٠٣ ح٤٧٨٥) وصححه محققوه

(٦) سنن أبي داود، الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (ح٥٠٧٤)، وسنن ابن ماجه، الدعاء، باب ما يدعو به الرجل (ح٣٨٧١) وسنن النسائي الاستعاذة، باب الاستعاذة من الخسف ٨/ ٢٨٢ والمستدرك ١/ ٥١٧.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أكّد تعالى اللعنة [عليه][1] والطرد والإبعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى، بقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ قال ابن جرير: أما المذؤوم فهو المعيب، والذأم غير مشدد العيب يقال: ذأمّه يذأمه ذأماً فهو مذؤوم، ويتركون الهمزة فيقول: ذمته أذيمه ذيماً وذاماً، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور: المُقْصي[2]، هو المبعد المطرود.

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذؤوم والمذموم إلا واحداً[3].

وقال سفيان الثوري: عن أبي إسحاق، عن التميمي عن ابن عباس: اخرج منها مذؤوماً مدحوراً قال مقيتاً[4].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: صغيراً مقيتاً[5].

وقال السدي: مقيتاً مطروداً[6]، وقال قتادة: لعيناً مقيتاً[7].

وقال مجاهد: منفياً مطروداً[8].

وقال الربيع بن أنس: مذؤوماً منفياً والمدحور المصغر[9].

وقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة[10]، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿وَقَالَ﴾ كذباً وافتراء

(١) كذا في (عش) و(حم) و(مح) وسقط من الأصل.
(٢) ذكره الطبري بنحوه.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.
(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الثوري به.
(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط به عن السدي.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عمرو به عن قتادة بلفظ: «لعيناً منفياً».
(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٩) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع.
(١٠) آية ٣٥ ـ ٣٦.

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: لئلا تكونا ملكين أو خالدين هاهنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] أي: لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧١] أي: لئلا تضلوا ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: لئلا تميد بكم.

وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن: (إلا أن تكونا مِلِكين) بكسر اللام[١]، وقرأه الجمهور بفتحها، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهم بالله ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فإني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير ابن عم أبي ذؤيب:

[وقاسمها][٢] بالله جَهداً لأنتُم ... ألذّ من السلوى إذ ما نَشُورها[٣]

أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله.

وقال قتادة في الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكم فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خادعنا بالله انخدعنا له[٤].

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، قال: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع به من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني. فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم أمنّي تفر؟ قال يا رب إني استحييتك[٥]. وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق، عن الحسن، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ مرفوعاً[٦]، والموقوف أصح إسناداً.

وقال عبد الرزاق: عن سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما، وكان الذي وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم عليه السلام مولياً

---

(١) مِلِكين بكسر اللام قراءة شاذة تفسيرية.
(٢) كذا في (حم) و(عش) وفي الأصل: و(مح): وقاسمهما.
(٣) استشهد به الطبري وعزاه محققوه إلى شرح أشعار الهذليين ١/ ٢١٥.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي عروبة به، وسنده ضعيف لأن الحسن لم يسمع من أُبي.
(٦) أخرجه الطبري من طريق أبي بكر الهذلي عن الحسن به، وسنده كسابقه، وفيه أيضاً أبو بكر الهذلي وهو متروك كما في التقريب.

في الجنة، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فناداه الله يا آدم أمنّي تفرّ؟ قال: لا ولكني استحييتك يا رب، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك، قال: بلى يا رب ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: وهو قول الله ﷿: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف] قال: فبعزتي لأهبطنّك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدّاً، قال: فأُهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغداً، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ[١].

وقال الثوري: عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين[٢]. صحيح إليه. وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب[٣].

وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما[٤]، رواه ابن جرير بسند صحيح إليه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة، قال: قال آدم أي رب أرأيت إن تبت واستغفرت، قال: إذاً أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن الحسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً، قال: فرنّت[٦] عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنّة عليك وعلى ولدك[٧].

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه[٨].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده ضعيف جداً لأن الحسن بن عمارة متروك (التقريب ص١٦٢).

(٢) أخرجه الطبري من طريق الثوري به وصحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند صححه الحافظ ابن كثير عن وهب. وهو معروف برواية الإسرائيليات.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند ومتنه، وسنده صحيح.

(٦) أي صاحت من الحزن.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف الحسين وهو ابن داود.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك، ويشهد له ما أخرجه الطبري بسند صحيح عن الحسن البصري وقتادة، وبسند جيد عن الربيع بن أنس نحوه.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قيل: المراد [بالخطاب باهبطوا][1] آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية [طه: ١٢٣]، وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول.

وقال ابن عباس: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ القبور[2]، وعنه قال: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ [فوق][3] الأرض وتحتها[4]، رواهما ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه] يخبر تعالى، أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلاً بعمله.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات.

قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب[5].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وحكاه البخاري عنه: الرياش المال[6]. وهكذا قال

(١) كذا في (حم) و(مح) و(عش) وفي الأصل: «بخطاب اهبطوا».
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عن عكرمة عن ابن عباس.
(٣) كذا في (مح) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل: و(عش) و(حم): «وجه».
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق حميد المدني عن كريب عن ابن باس، وحميد المدني صدوق يهم كما في التقريب.
(٥) ذكره الطبري بلفظه.
(٦) أخرجه البخاري معلقاً الصحيح، التفسير، سورة الأعراف، ووصله الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي طلحة به، وسنده ثابت.

مجاهد وعروة بن الزبير والسدي والضحاك[١] وغير واحد.

وقال العوفي، عن ابن عباس: الريش اللباس والعيش والنعيم[٢].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: الرياش الجمال[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصبع، عن أبي العلاء الشامي، قال: لبس أبو أُمامة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان في ذمة الله وفي جوار الله وفي كنف الله حياً وميتاً»[٤] ورواه الترمذي وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهني، وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه أبو العلاء الشامي لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرجه أحد، والله أعلم[٥].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار، عن أبي مطر، أنه رأى علياً رضي الله عنه أتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي. فقيل: هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي ﷺ؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي»[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرأ بعضهم ولباسَ التقوى بالنصب، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء[٧]، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره.

واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، رواه ابن أبي حاتم[٨].

وقال زيد بن علي والسدي وقتادة وابن جريج: ولباس التقوى الإيمان[٩]، وقال العوفي عن

---

(١) قول مجاهد والسدي أخرجهما الطبري بإسنادين ثابتين، وقول عروة والضحاك أخرجهما الطبري بسندين ضعيفين ويشهد لهما ما تقدم.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي ويشهد له ما سبق لأن اللباس من المال.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/٣٩٦ ح٣٠٥)، وضعفه محققوه لجهالة أبي العلاء الشامي.

(٥) سنن الترمذي، الدعوات، باب ١٠٨ (ح٣٥٦٠) وقال الترمذي: غريب، وسنن ابن ماجه، اللباس، باب ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً (ح٣٥٥٧)، وفي سنديهما أبو العلاء الشامي فالحكم كسابقه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/٤٥٨ ح١٣٥٥) وضعفه محققوه بسبب ضعف المختار، وجهاله أبي مطر البصري.

(٧) كلتاهما قراءتان متواترتان.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء الخراساني عن عكرمة.

(٩) قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من =

ابن عباس: [العمل الصالح[١]، قال الديال بن عمرو عن ابن عباس][٢]: هو السمت الحسن[٣] في الوجه.

وعن عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله[٤].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ولباس التقوى يتقي الله فيواري عورته فذاك لباس التقوى[٥]، وكلها متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال: حدثني المثنى حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثني إسحاق بن إسماعيل، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن، قال: رأيت عثمان بن عفان ﷺ على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزرّ، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده ما أسرّ أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال: السمت الحسن[٦]، هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف.

وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري، أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر[٧].

وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير له شاهداً من وجه آخر حيث قال حدثنا [محمود بن محمد المروزي، حدثنا حامد بن آدم المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: ما أسرَّ عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر][٨].

= طريق ابن أبي عروبة عنه، وأما قول زيد بن علي أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عيسىٰ بن المسيب عنه بلفظ: الإسلام.

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) ما بين معقوفتين سقط من الأصل واستدرك من (عش) و(حم) و(مح).

(٣) أخرجه الطبري من طريق زياد بن عمرو عن ابن عباس، ويشهد له قول عكرمة المتقدم، لأن زياد بن عمر مجهول (لسان الميزان ٢/ ٤٩٦).

(٤) أخرجه الطبري بسند فيه إبهام الراوي عن عروة ويشهد له قول السدي وقتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف سليمان بن أرقم كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٧) أخرجه الإمام أحمد من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن به (المسند ٢/ ٥٤٣ ح٥٢١) وضعفه محققوه بسبب مبارك لأنه صدوق يسوي ويدلس. وسماع الحسن من عثمان مختلف فيه فإن أبا زرعة نفىٰ سماعه وأما ابن المديني يؤيد سماعه (العلل لابن أبي حاتم ص٦٠)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح١٣٠١)، وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد. وأما الشاهد التالي فلم يصح أيضاً بل هو ضعيف جداً كما يلي.

(٨) ما بين معقوفين لا يوجد في النسخ، وقد استدرك من المعجم الكبير للطبراني ٢/ ١٧١، وهذه الرواية ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الفتح آية ٢٩، وجاءت أيضاً بعد رواية عثمان بن عفان، وفي سنده =

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

يحذِّر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على فرجها النِّسعة[1] أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحلّه[2]

فأنزل الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ الآية[3].

قلت: كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحُمْس[4] يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً، ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلۡ﴾ أي: يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ أي: هذا الذي تضعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

= العرزمي قال عنه الحافظ ابن كثير في سورة الفتح: متروك.اهـ. وفي سنده أيضاً حامد بن آدم: كذاب كذا قال الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥).

(١) النسعة قطعة من الجلد مضفورة عريضة تجعل على صدر البعير.

(٢) نُسب هذا القول إلى امرأة اسمها: ضُباعة بنت عامر بن صعصعة كما في الروض الأنف (٢/ ٢٩٠).

(٣) أخرجه الطبري من طريق منصور عن مجاهد، وسنده حسن لكنه مرسل ومخالف لما في الصحيح فإن هذه القصة سبب نزول الآية ٣١ من سورة الأعراف وليس هذه الآية كما سيأتي.

(٤) الحُمْس: جمع أحمس هم قريش، لتشددهم في دينهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله وما جاؤوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشريعة وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ اختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ يحييكم بعد موتكم(١).

وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء(٢).

وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم(٣).

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» وهذا الحديث مخرج في الصحيحن من حديث شعبة(٤)، وفي صحيح البخاري أيضاً من حديث الثوري به.

[وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد، عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، قال: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً(٥).

وقال أبو العالية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ رُدُّوا إلى علمه فيهم](٦)(٧).

وقال سعيد بن جبير: كما بدأكم تعودون كما كتب عليكم تكونون(٨)، وفي رواية كما كنتم عليه تكونون.

وقال محمد بن كعب القرظي: في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.
(٢) أخرجه الطبري من طريق عوف الأعرابي عن الحسن، وفي سنده وكيع بن سفيان فيه مقال، ويشهد له سابقه ولاحقه.
(٣) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة. وسنده صحيح.
(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب «وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم...» (ح٤٦٢٥) وصحيح مسلم، الجنة ونعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (ح٢٨٦٠).
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق وقاء به، وفي سنده وقاء لين الحديث.
(٦) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عش) و(حم) و(مح).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.
(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سالم الأفطس عن سعيد.

بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدؤوا عليه[١].

وقال السدي: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمناً وكافراً[٣].

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة»[٤].

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو [غسان][٥]، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم» هذا قطعة من حديث البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني في قصة قزمان يوم أحد[٦].

وقال ابن جرير: حدثني ابن بشار، حدثنا عبد الرحمٰن، حدثنا سفيان عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه»[٧] وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه، عن الأعمش به، ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[٨] وعن ابن عباس مثله، قلت: ويتأيد بحديث ابن مسعود، قلت: ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[٩].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «إني خلقت

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق موسىٰ بن عبيدة عن محمد بن كعب بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٤) صحيح البخاري، الخلق، باب ذكر الملائكة... (ح٣٨٠٨).
(٥) في الأصل بياض واستدرك من (عش) و(مح) و(حم) والتخريج.
(٦) أخرجه البخاري من طريق أبي غسان به (الصحيح، القدر، باب العمل بالخواتيم ح٦٦٠٧).
(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٨) صحيح مسلم، الجنة وصفه نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (ح٢٨٧٨) وسنن ابن ماجه، الزهد، باب النية (ح٤٢٣٠).
(٩) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩.

عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث[١]، ووجه الجمع على هذا، أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلّهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم، ومع هذا قدّر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وفي الحديث: «كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[٢] وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾ [الأعلى] و﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»[٣] ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ ثم علّل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها، لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسب أنه مهتدٍ، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية[٤].

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝﴾.

هذه الآية الكريمة ردّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه، من الطواف بالبيت عُراة كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير، واللفظ له من حديث شعبة، عن سلمة بن كُهيل، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أُحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٥].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عُراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس وهو: ما يواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البزِّ والمتاع، فأُمروا أن يأخذوا زينتهم عند كلّ مسجد[٦]. وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك ومالك، عن الزهري وغير واحد من

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩.

(٢) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة المائدة آية ٦ في آخرها.

(٣) أخرجه البخاري من حديث علي بن أبي طالب ﷺ (الصحيح، التفسير، باب ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل] ح٤٩٤٦) وباب ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [الليل] (ح٤٩٤٧) والباب الذي يليه (ح٤٩٤٨)، وصحيح مسلم القدر، باب كيفية الخلق الآدمي (ح٢٦٤٧).

(٤) ذكره الطبري بلفظه.

(٥) صحيح مسلم، التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (ح٣٠٢٨)، وسنن النسائي، الحج، باب ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ح٥/ ٢٣٣.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويشهد له ما يليه من أقوال.

أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عُراة[١].

وقد روى الحافظ ابن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً، أنها نزلت في الصلاة في النعال[٢]. ولكن في صحته نظر، والله أعلم، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك.

ومن أفضل اللباس البياض كما قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر»[٣] هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم به، وقال الترمذي: حسن صحيح[٤]. وللإمام أحمد أيضاً وأهل السنن بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفّنوا فيها موتاكم»[٥].

وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين: أن تميماً الداري اشترى رداء بألف وكان يصلي فيه[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، قال بعض السلف جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة[٨]،

---

(١) قول مجاهد والزهري وإبراهيم النخعي أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة.

(٢) أخرجه العقيلي من طريق عباد بن جويرية عن الأوزاعي به ونقل عن الإمام أحمد أن عباد بن جويرية كذاب (الضعفاء الكبير ٣/ ١٣٣)، وترجم له الحافظ ابن حجر ونقل أقوال النقاد في كذبه وضعفه ثم ذكره الحديث وقال: لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به (لسان الميزان ٣/ ٢٢٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٩٤ ح٢٢١٩)، وصححه محققه.

(٤) سنن أبي داود، الطب، باب في الأمر بالكحل (ح٣٨٧٨)، وسنن الترمذي، الجنائز، باب ما يستحب من الأكفان (ح٩٩٤)، وسنن ابن ماجه، الجنائز، باب ما جاء فيما يستحب من الكفن (ح١٤٧٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ١٠)، وأخرجه الترمذي (السنن، الأدب، باب ما جاء في لبس البياض (ح٢٨١١)، وقال: حسن صحيح، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، المستدرك (٤/ ١٨٥)، وصححه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٣/ ١٣٥).

(٦) المعجم الكبير (ح١٢٤٨)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٥/ ١٣٨)، وصححه الحافظ ابن كثير.

(٧) أخرجه البخاري معلقاً، ووصله الحافظ ابن حجر فأخرجه من طريق سفيان بن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس (تغليق التعليق ٥/ ٥٤)، وسنده صحيح.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصححه الحافظ ابن كثير.

إسناده صحيح، وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز، حدثنا همام، عن قتادة، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»(١). ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة»(٢) وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكناني، حدثنا يحيى بن جابر [الطائي](٣) سمعت المقدام بن معد يكرب الكندي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»(٤). ورواه النسائي والترمذي من طرق عن يحيى بن جابر به، وقال الترمذي: حسن وفي نسخة حسن صحيح(٥).

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا سويد بن عبد العزيز(٦)، حدثنا بَقيّة، عن يوسف بن أبي كثير، عن نوح بن ذكوان، عن الحسن، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت»(٧). ورواه الدارقطني في الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بَقيّة.

وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك(٨) ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم(٩).

وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله(١٠).

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف(١١).

وقال عطاء الخراساني: عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الطعام والشراب(١٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ١٨٢) وسنده حسن.
(٢) سنن النسائي، الزكاة، باب الاختيال في الصدقة ٥/ ٧٩، وسنن ابن ماجه، اللباس، باب البس ما شئت... (ح٣٦٠٥).
(٣) كذا في (عش) و(حم) و(مح) والمسند، وصحفت في الأصل إلى: «الطاري».
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٣٢)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ١٢١)، وحسنه الحافظ ابن حجر (الفتح ١٣/ ٢٤٨)، وصححه الترمذي كما يلي:
(٥) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (ح٢٣٨١)، وسنن النسائي (ح٦٧٦٨).
(٦) كذا في النُسخ، وفي مسند أبي يعلى: «سويد بن سعيد».
(٧) أخرجه أبو يعلى عن سويد بن سعيد به (المسند ٥/ ١٥٤ ح٢٧٦٥)، وهو حديث موضوع ذكره ابن الجوزي في (الموضوعات ٣/ ٣٠)، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ٢٠٩).
(٨) الودك: دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه.
(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً من طريق عبد العزيز عن أبي سعد عن مجاهد وعبد العزيز هو ابن أبان بن محمد الأموي متروك وكذبه ابن معين (التقريب ص٣٥٦).
(١١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.
(١٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق الخراساني به وسنده ضعيف لأن الخراساني لم يسمع ابن عباس.

وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المتعدّين حدّه في حلال أو حرام الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلّل ما أحلّ ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به[1].

﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى ردّاً على من حرّم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حباً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنّة مُحرّمة على الكافرين.

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو حُصين محمد بن الحسين القاضي، حدثنا يحيى الحماني، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون البيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ فأمروا بالثياب[2].

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله»[3] أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن شقيق، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود[4]، وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش، ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام[5].

وقوله: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قال السدي: أما الإثم فالمعصية والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق.

وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه[6]، وحاصل ما فسر به

---

(١) ذكره الطبري بلفظه.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١٢/ ١٣ ح١٢٣٢٤)، وسنده ضعيف قال الهيثمي: فيه يحيى الحماني وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٧/ ٢٣)، وفي سنده أيضاً يعقوب القمي صدوق يهم. (التقريب ص٦٠٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٣٨١)، وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، النكاح، باب الغيرة (ح٥٢٢٠)، وصحيح مسلم، التوبة، باب غيرة الله تعالى (ح٢٧٦٠).

(٥) الآية: ١٥١.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً من طريق عبد العزيز عن أبي سعد عن مجاهد، وعبد العزيز هو ابن أبان =

الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: قرن وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشر وحذر، فقال: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها مكثاً مخلداً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أحد أظلم، ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ اختلف المفسرون في معناه:

فقال العوفي، عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسودٌ[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال من عمل خيراً جزي به، ومن عمل شراً جزي به[٢].

وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر[٣]، وكذا قال قتادة والضحاك[٤] وغير واحد. واختاره ابن جرير.

= الأموي: متروك وكذبه ابن معين كما في التقريب.

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٣) أخرجه الطبري بعدة أسانيد ثابتة من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وقول الضحاك أخرجه الطبري =

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره[1]، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم[2]، وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ونظير المعنى في هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أقرّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله في أمم، ويحتمل أن يكون في أمم أي مع أمم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل ﷺ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: أخراهم دخولاً، وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون، لأنهم أشدّ جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون:

= بسند ضعيف من طريق عبيد بن سليمان عنه، ويشهد له ما سبق.

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي صخر، وهو حميد الخراط، عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) قول الربيع أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل] وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنبكوت: ١٣] وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل].

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدي: فقد ضللتم كما ضللنا[1]. ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير: ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وكذا رواه الثوري عن ليث، عن عطاء، عن ابن عباس[2].

وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وقاله السدي وغير واحد[3]، ويؤيده ما قاله ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن المنهال هو ابن عمرو، عن زاذان، عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُصعد بها إلى السماء فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يُدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يُفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[4] هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) هذه الأقوال أخرجها الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وأخرج بعضها ابن أبي حاتم أيضاً.

(٣) قول الضحاك عن ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف لأن الضحاك لم يسمع ابن عباس، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ثابت كما يلي.

والنسائي وابن ماجه من طرق عن المنهال بن عمرو به[(١)].

وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ـ مرتين أو ثلاثة» ثم قال ـ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ـ قال ـ فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟» فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ: «اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى».

قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد البصر ـ قال ـ: ويأتيه رجل حسن الوجه وحسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المُسُوح[(٢)] فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود[(٣)] من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت

---

(١) سنن أبي داود، السنة، باب في المسألة في القبر (ح٤٧٥٣)، وسنن النسائي ٤/ ٧٨، وسنن ابن ماجه (ح١٥٤٩)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٧ ـ ٤٠)، وصححه البيهقي (شعب الإيمان ٢/ ٣١٦)، وقد صنف فضيلة د. عاصم القريوتي رسالة في صحة حديث البراء بن عازب ونقل تصحيح القرطبي وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والألباني.

(٢) المُسُوح: جمع مِسح، كساء من الشعر غليظ. (٣) السفود: حديدة يُشوى بها اللحم.

على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا. فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ -: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً - ثم قرأ -: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه[١] لا أدري. فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: «أنا عملك الخبيث فيقول ربّ لا تقم الساعة»[٢].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه، وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كلُ ملك السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ﷻ أن يعرج بروحه من قبلهم، وفي آخره، ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم في يدهِ مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله ﷻ كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين»، قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار ويُمهد له فرش من النار»[٣].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب أدخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس

---

(١) هاه هاه: كلمة يقولها المتحيّر في الكلام.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٠/ ٤٤٩ - ٥٠٣ ح١٨٥٣٤)، وصححه محققوه، وتقدم تصحيح النقاد له.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه كاملاً (المسند ٣٠/ ٥٧٧ - ٥٧٨ ح١٨٦١٤)، وضعفه محققوه لضعف يونس بن خباب.

الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقولون: فلان فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر»[(١)].

وقد قال ابن جريج في قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم[(٢)]. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية زوج الناقة[(٣)].

وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة[(٤)] وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روى علي بن أبي طلحة العوفي عن ابن عباس[(٥)].

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس: إنه كان يقرؤها (يلج الجُمَّل في سم الخياط) بضم الجيم وتشديد الميم يعني الحبل الغليظ في خرم الإبرة[(٦)]، وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية أنه قرأ حتى (يلج الجُمْل)[(٧)] يعني: قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ. وقولهم: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظي ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال الفرش: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال اللحف[(٨)]، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي[(٩)] ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير (ح٤٦٢)، وابن ماجه في السنن، الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (ح٤٢٦٢)، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (مصباح الزجاجة ٢/ ٣٤٩)، وصححه الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه ح١٢٥٩) وأخرجه الطبري وصححه أحمد شاكر، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي. (المستدرك ١/ ٣٧ ـ ٤٠).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الحسين عن حجاج عن ابن جريج.

(٣) أخرجه الطبري بعدة أسانيد بلفظ الروايتين.

(٤) خرت الإبرة: أي ثقبها والأثر أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر بن راشد عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري عنهم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٦) أخرجه الطبري عنهم بأسانيد عدة يقوي بعضها بعضاً. والقراءة شاذة تفسيرية.

(٧) وهي قراءة شاذة أيضاً وتفسيرية أيضاً.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق موسىٰ بن عبيدة عن القرضي ويتقوىٰ بما يليه.

(٩) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي روق عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

واستكبروا عنها، وينبه تعالى على أنه الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حسد وبغض كما جاء في صحيح البخاري من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا»[(١)].

وقال السدي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غلّ فهو: الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً[(٢)].

وقد روى أبو إسحاق عن عاصم، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من هذا[(٣)] كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] إن شاء الله ربه وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال علي ﷺ إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ رواه ابن جرير[(٤)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسرائيل قال سمعت الحسن يقول قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[(٥)]. وروى النسائي وابن مردويه واللفظ له من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار»، فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكراً. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: «لو أن الله هداني فيكون له حسرة»[(٦)].

ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون؛ أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله

---

(١) صحيح البخاري، المظالم، باب قصاص المظالم (ح٢٤٤٠).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسير سورة الزمر وعبد الله بن المبارك (الزهد ص٥٠٨ ح١٤٥٠)، والضياء المقدسي (المختارة ٢/ ١٦٠ ح٥٤١)، من طريق حمزة الزيات عن أبي إسحاق به وصحح سنده محقق المختارة، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية المسند (ل١٩٨ ـ أ).

(٤) أخرجه الطبري من طريق معمر عن قتادة به، وقتادة لم يسمع علياً ﷺ، ويتقوىٰ بما يلي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، والحسن لم يسمع علياً ﷺ، ويتقوىٰ بالمرسل السابق.

(٦) أخرجه النسائي (التفسير ح٤٧٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٣٥)، وعزاه الهيثمي لأحمد وقال رجاله رجال الصحيح (المجمع ١٠/ ٣٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (ح٤٥١٤)، ويشهد له ما يليه وهو في الصحيحين:

الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(١)].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾.

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أي: قالوا لهم: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾ كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩﴾ [الصافات] أي: ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطور] وكذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى «يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قوماً قد جيفوا؟» فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: أعلم معلم ونادى مناد ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مستقرة عليهم ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ أي: يصدّون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾.

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً وهو: الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وهو الأعراف.

---

(١) صحيح البخاري، الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل (ح٦٤٦٣)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله... (ح٢٨١٦).

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه صحيح البخاري، المغازي، باب قتل أبي جهل (ح٣٩٧٦) وصحيح مسلم، الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (ح٢٨٧٣).

الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾[(١)]. ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو السور وهو الأعراف[(٢)].

وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب[(٣)].

قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرْف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه[(٤)].

وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبيد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف هو الشيء المشرف[(٥)].

وقال الثوري عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعراف سور كعرف الديك[(٦)].

وفي رواية عن ابن عباس: الأعراف جمع تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار، وفي رواية عنه هو سور بين الجنة والنار[(٧)]. وكذا قال الضحاك[(٨)] وغير واحد من علماء التفسير.

وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس[(٩)].

واختلف عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نصّ عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله، وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الله بن إسماعيل، حدثنا عبيد بن الحسين، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا النعمان بن عبد السلام، حدثنا شيخ لنا يقال له أبو عباد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[(١٠)]. وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سلمة، عن أبي الحسام، عن محمد بن المنكدر، عن رجل

---

(١) ذكره الطبري بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) ذكره الطبري بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده سفيان بن وكيع فيه مقال ولكنه توبع في رواية سعيد بن منصور فقد أخرجه عن ابن عيينة به (التفسير ح٩٥٧)، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين عن ابن عيينة، وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الطبري وهناد (الزهد ح٢٠٤)، من طريق الثوري به، وأخرجه ابن أبي حاتم والطبري كلاهما من طريق إسرائيل عن جابر به، وسنده ضعيف لضعف جابر وهو ابن يزيد الجعفي.

(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، ومن طريق آخر.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك ويتقوىٰ بسابقه.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١٠) في سنده سليمان بن داود الشاذكوني كذبه ابن معين وغيره (لسان الميزان ٣/ ٥٤ ـ ٥٨) وفي سنده إبهام شيخ النعمان بن عبد السلام وسنده ضعيف جداً.

من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا في سبيل الله»(١).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل، عن يحيى بن عبد الرحمن المزني، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم في سبيل الله» ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به(٢). وكذا رواه ابن ماجه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري(٣) وابن عباس، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة، وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين، عن الشعبي، عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم(٤).

وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يونس بن أبي إسحاق قال: قال الشعبي أرسل إليّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة. فقالا: هات. فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فبينما هم كذلك إذا طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم(٥).

وقال عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون]، ثم قال: الميزان يخف بمثقال حبة، ويرجح قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل

---

(١) سنده ضعيف، لم يذكر الراوي عن سعيد بن سلمة ومن بعده.

(٢) سنده ضعيف لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن السندي كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبراني من طريق محمد بن مخلد الرُعيني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد (المعجم الصغير ١/ ٢٣٨)، قال الهيثمي: فيه محمد بن مخلد الرعيني وهو ضعيف (المجمع ٧/ ٢٣)، وفيه أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف. وهذا الحديث ليس من رواية ابن ماجه ولو رواه ابن ماجه لما ذكره الهيثمي في الزوائد.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده الشعبي لم يسمع حذيفة ولكنه روي موصولاً فقد أخرجه الحاكم من طريق الشعبي عن صلة بن زفر عن حذيفة وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٠).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وحكمه كسابقه.

الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذٍ نوراً وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فكان الطمع دخولاً.

قال: فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول: هلك من غلبت [وحدانه](١) أعشاره. رواه ابن جرير(٢).

وقال أيضاً: حدثني ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن منصور، عن حبيب بن أبي ثابت، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس قال: الأعراف السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدا الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلّل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة(٣)، وكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن يحيى بن المغيرة، عن جرير به، وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد، وعن عبد الله بن الحارث من قوله وهذا أصح والله أعلم. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد.

وقال سُنيد بن داود: حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم»(٤) وهذا مرسل حسن.

وقيل: هم أولاد الزنى. حكاه القرطبي(٥).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى، عن شيبة بن عثمان، عن عروة بن رويم، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم، وعن مؤمنيهم. فقال: على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ فسألناه وما

(١) كذا في (حم) و(عش) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل: «واحدته».
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق ابن المبارك به، وسنده ضعيف جداً لأن أبا بكر الهذلي متروك كما في التقريب.
(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق جرير به، وقرر الحافظ أنه من قول عبد الله بن الحارث. وفي متنه غرائب.
(٤) أخرجه الطبري عن سُنيد به، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق جرير به وهو مرسل.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢١٢.

الأعراف؟ فقال حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار[١]. ورواه البيهقي عن ابن بشران، عن علي بن محمد المصري، عن يوسف بن يزيد، عن الوليد بن موسى به[٢].

وقال سفيان الثوري: عن خصيف، عن مجاهد قال أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال: فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩][٤]. وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه، وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضاً، والله أعلم، وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تهرعوا من فزع الآخرة، وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل: هم أنبياء وقيل هم ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه[٥]. وكذا روى الضحاك عنه[٦]، وقال العوفي، عن ابن عباس: أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه. ويتعوذوا بالله أن يجعلوهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله[٧]. وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم[٨].

وقال معمر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم[٩].

---

(١) في سنده الوليد بن موسىٰ: متروك يروي الموضوعات (لسان الميزان ٦/٢٢٧)، فسنده ضعيف جداً وفي متنه غرابة.

(٢) البعث والنشور (ح١١٧) وسنده كسابقه.

(٣) أخرجه هناد (الزهد ٢٠٣)، وابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وفي سنده خصيف صدوق سيء الحفظ كما في التقريب.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق زهير بن معاوية عن سليمان التيمي به مقطعاً، وسنده صحيح وصححه الحافظ ابن كثير.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري ويشهد له سابقه.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٨) قول مجاهد والسدي وعبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر به.

وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع[١].

وقوله: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ قال الضحاك عن ابن عباس إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين[٢].

وقال السدي: وإذا مرّوا بهم ـ يعني: بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار ـ قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين[٣].

وقال عكرمة: تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم[٤].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: فرأوا وجوههم مسودّة وأعينهم مزرقّة ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: كثرتكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: أصحاب الأعراف[٦].

﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس ﴿قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا يعني: أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾[٧].

وقال حذيفة: إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار، فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا: يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك. فقال: هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه[٨] ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن الضحاك به لأن الضحاك لم يسمع ابن عباس.
(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي مكين نوح بن ربيعة عن أخيه عن عكرمة.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.
(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به. (٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف.
(٨) كنه الشيء: قدره وغايته وحقيقته.

ابني إبراهيم. فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم، فيقول: تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه بالنار في الله غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم، ولكن ائتوا ابني موسى، فيأتون موسى ﷺ فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري؟ فيقولون: لا. فيقول: ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى. فيأتونه ﷺ فيقولون له: اشفع لنا عند ربك. فيقول: هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب؟ فيقولون: لا. فيقول: هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري؟ قال: فيقولون: لا، فيقول: أنا حجيج نفسي ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا محمداً ﷺ. فيأتوني فأضرب بيدي على صدري، ثم أقول: أنا لها، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش، فآتي ربي ﷻ، فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط، ثم أسجد فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي ثم أثني على ربي ﷻ ثم أخر ساجداً، فيقال لي: ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: ربي أمتي. فيقول: هم لك. فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطني بذلك المقام وهو المقام المحمود، فآتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم، فيُذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان حافتاه قصب مكلّل باللؤلؤ، ترابه المسك وحصباؤه الياقوت، فيغتسلون منه، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرّية ويبقى في صدورهم شامات بيض يُعرفون بها يقال: مساكين أهل الجنة[١].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يخبر تعالى عن ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدي: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: الطعام[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم[٣].

وقال الثوري، عن عثمان الثقفي، عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفضْ عليَّ من الماء. فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤].

وروي من وجه آخر عن سعيد، عن ابن عباس، مثله سواء[٥].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق السدي عن حذيفة، وسنده ضعيف لأن السدي لم يسمع حذيفه رضي الله عنه، ولكثير منه شواهد في الصحيحين تقدم في حديث الشفاعة في سورة البقرة.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الثوري به لكنه مرسل يتقوىٰ بتاليه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الثوري بمثل سابقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: طعام الجنة وشرابها(١).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نصر بن علي، أخبرنا موسى بن المغيرة، حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس أو سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»(٢).

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح قال: لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به، فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ﷺ فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين(٣).

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة.

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كما قال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ قال نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر(٤).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا(٥).

وقال مجاهد: نتركهم في النار(٦).

وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا(٧).

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوِّجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتَرْبَع؟ فيقول: بلى. فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني(٨).

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.
(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لجهالة موسىٰ بن المغيرة (ميزان الاعتدال ٤/ ٢٢٤)، وجهالة أبي موسى الصفار (لسان الميزان ٧/ ١١٣).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال أبي صالح.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن بنحوه.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٨) تقدم تخريجه وصححه في تفسير سورة البقرة آية ٤٦ في آخرها.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصّل مبين كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم منا بما فصلناه به كما قال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦] قال ابن جرير وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وهذا الذي قاله فيه نظر فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد(١)، وقال مالك: ثوابه.

وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار فتمّ تأويله يومئذٍ(٢).

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: يوم القيامة قاله ابن عباس(٣).

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام] كما قال ههنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾](٤) أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) آخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق ابن أبي جعفر الرازي الربيع.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس. ومعناه صحيح.
(٤) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (حم).

ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة. وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خُلق آدم عليه السلام.

واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة كما نصّ على ذلك مجاهد[(١)] والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس[(٢)]، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا حجاج، حدثنا ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدوابّ يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور، عن ابن جريج[(٣)] به. وفي استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعاً والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم: نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال من شبّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس] فقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر عن مجاهد.

(٢) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يسمع ابن عباس.

(٣) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة البقرة آية ٢٩ في آخرها.

﴿ٱلنَّهَارَ﴾ أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع[١] وكلاهما قريب المعنى أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ولهذا قال منبهاً: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بَقيّة بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري، عن عبد العزيز الشامي، عن أبيه وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه» لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعاً «اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله»[٣].

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل معناه تذللاً واستكانه، وخفية كما قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربِعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إن الذي تدعون سميع قريب» الحديث[٤].

وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قال السر[٥].

وقال ابن جرير تضرعاً: تذللاً واستكانة لطاعته، وخفية يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهاراً ومراءاة[٦].

وقال عبد الله بن المبارك، عن المبارك بن فضالة، عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان

---

(١) أي نصب: النجوم، ورفعها، وكلاهما قراءتان متواترتان.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً لإن عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصاري: وضاع متروك (لسان الميزان ٤/٤٣).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة الفاتحة آية رقم ٢.

(٤) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة البقرة آية ١٨٦.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به، والخراساني لم يسمع ابن عباس، ومعناه صحيح.

(٦) ذكره الطبري بنحوه.

على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ③﴾ [مريم][١].

وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة[٢].

ثم روي عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره[٣].

وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء[٤].

وقال أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا شعبة، عن زياد بن مخراق، سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء» وقرأ هذه الآية ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ⑤⑤﴾ وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل»[٥]. ورواه أبو داود من حديث شعبة عن زياد بن مخراق، عن أبي نعامة، عن مولى لسعد، عن سعد فذكره[٦] والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا الجريري، عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بُني سلِ الله الجنة وعُذْ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»[٧].

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان به وأخرجه أبو داود عن موسى بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة، عن سعيد بن إياس الجُرَيْري، عن أبي نعامة واسمه قيس بن عباية الحنفي البصري[٨]. وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم.

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك عن ابن فضالة به (الزهد ١٤٠) وسنده حسن.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري عن عطاء به، وسنده ضعيف لأن عطاء الخراساني لم يسمع ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند حسن من طريق عباد بن عباد بن علقمة عن أبي مجلز.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسند ومتنه وزيادة (المسند ٣/ ٧٩ ـ ٨٠ ح١٤٨٣)، وقال محققوه: حسن لغيره. وصححه الألباني كما سيأتي.

(٦) سنن أبي داود، الصلاة، باب الدعاء (ح١٤٨٠)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح١٣١٣).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٤/ ١٧٢ ح٢٠٥٥٤)، وقال محققوه: حسن لغيره، وحسنه أيضاً الحافظ بن كثير كما سيأتي.

(٨) سنن ابن ماجه، الدعاء، باب كراهية الاعتداء بالدعاء (ح٣٨٦٤)، وسنن أبي داود، الطهارة، باب الإسراف =

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضرّ ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية [الأعراف] وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وقال مطر الوراق: تنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم[1].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدير المسخر، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشْراً﴾[2] أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ بشراً كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي بين المطر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى] وقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم] وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له — المُزْنُ تحمل عذباً زلالاً
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له — الأرض تحمل صخراً ثقالاً[3]

وقوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣] الآية ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم

= في الماء (ح٩٦) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٨٧).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق جعفر عن مطر.

(٢) ﴿نُشْراً﴾ بالنون وهي قراءة متواترة.

(٣) ورد ذكر البيتين في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٣١.

القيامة ينزل الله ﷻ ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال مجاهد وغيره كالسباخ[١] ونحوها.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر[٢].

وقال البخاري: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٣]. رواه مسلم والنسائي من طرق عن أبي أسامة حماد بن أسامة به[٤].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾.

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو: نوح بن لامك بن متوشلح بن أخنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون، وهو أول من خط بالقلم - ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهما السلام. هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب[٥].

قال محمد بن إسحاق: ولم يلقَ نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قُتل[٦].

وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوح لكثرة ما ناح على نفسه[٧].

---

(١) السباخ جمع سبخة وهي الأرض المالحة الغير صالحة للزراعة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه، العلم، باب فضل من عَلِمَ وعلّم (ح٧٩).

(٤) صحيح مسلم، الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدي والعلم (ح٢٢٨٢)، والسنن الكبرى للنسائي (ح٥٨٤٣).

(٥) ذكره بنحوه الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء ١/ ٦٠.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو نعيم (الحلية ٣/ ٥١)، كلاهما من طريق مسلم أبي عبد الله العباداني عن يزيد الرقاشي.

وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عشرة قرون كلهم على الإسلام[(١)].

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونَسراً[(٢)]، فلما تفاقم الأمر بعث الله ﷻ وله الحمد والمنة رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢﴾ [المطففين] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١﴾ [الأحقاف] إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ أي: ما أنا ضالّ ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٢﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول: «اللّهم اشهد اللّهم اشهد»[(٣)].

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ الآية؛ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نصّ عليه تعالى في موضع آخر ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: السفينة كما قال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء (١/ ٦٠)، ونسبه إلى البخاري في صحيحه وأخرجه ابن حبان بسند صحيح عن أبي أُمامة مرفوعاً بنحوه (الإحسان ١٤/ ٦٩ ح٦١٩٠) وصححه محققه، وأخرجه الطبراني (المعجم الكبير ح٧٥٤٥) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة (المجمع ٨/ ٢١٠)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٦٢).

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (الصحيح، التفسير، سورة نوح باب: ﴿وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ ح٤٩٢٠).

(٣) صحيح مسلم، الحج، باب حجة النبي ﷺ (ح١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر].

وهذه سُنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز(٢).

وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم وكان لسانه عربياً رواه ابن أبي حاتم(٣)، وروي متصلاً من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما(٤).

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح.

قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر] وذلك لشدّة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت] وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن وهب عن مالك به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب به، لأن ابن وهب لم يدرك ابن عباس. وهذه من الروايات الإسرائيلية.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق المؤمل بن أهاب، ثنا زيد بن حباب، ثنا الحسين بن واقد، عن أبي نهيك عن ابن عباس به بدون: وكان لسانه عربياً، وفي سنده المؤمل وهو صدوق يهم كما في التقريب، وأبو نهيك هو عثمان بن نهيك الأزدي وهو مقبول كما في التقريب.

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة: سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة[(١)] حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت. هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؟ والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه، قال: لا ولكني قد حدثت عنه فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود ﷺ رواه ابن جرير[(٢)].

وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن فإن هوداً ﷺ دفن هناك وقد كان من أشرف قومه نسباً لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدّد خلقهم شدّد على قلوبهم، وكانوا من أشدّ الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] الآية. ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمه ومننه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [والآلاء جمع إلى وقيل إلى][(٣)].

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود ﷺ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ

---

(١) المدرة: الطين الذي لا رمل فيه.

(٢) أخرجه الطبري عن ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرزاي، عن سلمة عن ابن إسحاق به، وابن حميد ضعيف وقد توبع إذ أخرجه البخاري من طريق أحمد بن عاصم عن عبد الله بن هارون عن أبيه عن ابن إسحاق به وصرح ابن إسحاق بالتحديث (التاريخ الكبير ١/ ١٣٥)، ويبقىٰ في سنده محمد بن عبد الله بن أبي سعيد سكت عنه البخاري وذكره ابن حبان في (الثقات ٥/ ٣٧٦)، ولم يكف هذا التوثيق ولكن الرواية تاريخيه مقبولة، واعتمدها الحافظ ابن كثير إذ استنبط منها الفائدة المذكورة أعلاه.

(٣) زيادة من (مح) و(حم).

وَحْدَهُۥ﴾ الآية كقول الكفار من قريش ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً فصنم يقال له: صُداء، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقالُ له: الهباء[1]. ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجسٌ قيل؛ هو مقلوب من رجز.

وعن ابن عباس: معناه: سخط وغضب.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية أخرى ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة] لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء في تنكسه على أم رأسه، فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفّوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم، فلما عتّت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء] ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي بجنون ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت له أم من قوم عاد واسمها كلهدة ابنة الخيبري، قال: فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم، فمرّوا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان: قينتان لمعاوية، وكانوا قد وصلوا إليه في شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعراً يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قُم فَهيَنم ... لعلّ الله يُصبحنا غماما
فيسقي أرض عاد إنّ عاداً ... قد أمسوا لا يُبينون الكلاما
من العطش الشديد وليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد ... أمست نساؤهم عيامى[1]
وإن الوحش تأتيهم جهاراً ... ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبحَ وفدكم من وفد قوم ... ولا لُقّوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا على الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو: قيل بن عِنز، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً بيضاء وسوداء وحمراء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد: اخترت رماداً رمدداً، لا تبقي من عاد أحداً لا والداً تترك ولا ولداً، إلا جعلته همداً، إلا بني اللوذية المهندا، قال: وبنو اللوذية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال وهم من بقي من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة.

قال: وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥] أي: تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها: مميد، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مميد؟ قالت ريحاً فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً كما قال الله تعالى. والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس، وإنها لتمرّ على عاد بالظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

وذكر تمام القصّة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود][2].

---

(١) كذا في النسخ، وفي البداية والنهاية (١/ ١٢٦): «نساءهم أيامىٰ»: جمع أيم، التي هلك زوجها.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق بنحوه مطولاً.

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ اللهُ، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي، حدثنا عاصم بن أبي النجود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربَذَة، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها، فأتيت المدينة فإذا المسجد غاصّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلّد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً قال: فجلست فدخل منزله أو قال: رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت وسلمت فقال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم وكانت لنا الدائرة عليهم.

ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب، فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت. وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: معزى حملت حتفها[1]، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد. قال لي: «وما وافد عاد؟» وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستعظمه. قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمدداً[2]، لا تبقي من عاد أحداً قال: فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد[3]. هكذا. رواه الإمام أحمد في المسند، ورواه الترمذي عن عبد بن حميد، عن زيد بن الحباب به نحوه، ورواه النسائي من حديث سلام بن أبي المنذر، عن عاصم وهو: ابن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضاً عن أبي وائل، عن الحارث بن حسان البكري[4] به، ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن زيد بن حباب به ووقع عنده عن الحارث بن يزيد البكري فذكره، ورواه أيضاً عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم، عن الحارث بن حسان البكري، فذكره ولم أر في النسخة أبا وائل[5]، والله أعلم.

---

(١) أي: لا تكن كالعنز تبحث عن المُدية (فصل المقال لأبي عبيد البكري ص٤٥٦).

(٢) رِمدداً: المتناهي في الاحتراق والدقة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٠٧/٢ ح١٥٩٥٤)، وحسنه محققوه.

(٤) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة الذاريات (ح٣٢٧٠)، والسنن الكبرى للنسائي (ح٨٦٠٧)، وسنن ابن ماجه، الجهاد، باب الرايات والألوية (ح٢٨١٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٢٧٢) وذكره في السلسلة الصحيحة (ح٢١٠٠).

(٥) أخرجه الطبري عن أبي كريب بالإسنادين ولم يذكر أبا وائل فيهما في نسخة الأستاذ أحمد شاكر، ولكن ورد ذكره في الرواية الثانية في نسخة معالي د. التركي، وهذه فائدة الرجوع إلى عدة نسخ في التحقيق.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع[1].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحِجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»[2].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحِجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[3]. وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه[4].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يزيد بن هارون المسعودي، عن إسماعيل بن أوسط، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه قال: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحِجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله؟ قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك. رجل من أنفسكم ينبئكم

---

(١) وقد صح ذلك كما سيأتي في رواية الإمام أحمد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٠/ ١٩٢ ح٥٩٨٤)، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٩/ ٣٢٢ ح٥٤٤١) وسنده كسابقه.

(٤) صحيح البخاري، الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (ح٤٣٣)، وصحيح مسلم، الزهد، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا... (ح٢٩٨٠).

بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»(١) لم يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه: عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»(٢) وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ﴾ أي: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به.

«وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صمّاء عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه. فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم (جُندع بن عمرو) ومن كان معه على أمره، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمعر بن جلهس وكان لجندع بن عمرو ابن عمّ يقال له: شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله:

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبي دعوا شهابا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه بنحوه (المسند ٢٩/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩ ح١٨٠٢٩)، وضعفه محققوه بسبب لين محمد بن أبي كبشه. اهـ. وحسنه الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية ١/ ١٥٩)، وحسنه الهيثمي أيضاً (المجمع ١٠/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٩٦)، وأخرجه الحاكم من طريق عبد الرزاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٤٠)، وحسنه الحافظ ابن حجر (الفتح ٦/ ٢٧٠)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح (المجمع ٦/ ١٩٤) وقال الحافظ ابن كثير: على شرط مسلم.

عزيز ثمود كلهمُ جميعاً فهمّ بأن يُجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حُجر تولوا بعد رُشْدهم ذئابا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها، فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر] وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فجّ، وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: (إنهم اتفقوا كلهم على قتلها)(١).

قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان(٢).

قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾ [الشمس] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل علىٰ رِضى جميعهم بذلك والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة ابنة غنم بن مجلز، وتكنى أُم غنم كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حِسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود. وامرأة أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن دهر بن [المحيا](٣) ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له: الحباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها فدعت ابن عمّ لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا، فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جذع وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً - يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: صهياد ولكن ولد على فراش سالف -. وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق قدار بن سالف، ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل] وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا

---

(١) ما بين قوسين أخرجه الطبري عن ابن إسحاق تارة وتارة أخرى عن ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بنحوه مطولاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة بنحوه بدون قوله: بلغني، ولكن هذه الرواية من أخبار أهل الكتاب.

(٣) كذا في (مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل: «المختار»، وهو تصحيف.

الناقة حين صدرت من الماء، وقد كَمُن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرّت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أُم غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها لقدار، وذمّرته وشدّ على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن في لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعاً فصعد أعلى صخرة فيه ورغا(١). فروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصري أنه قال: يا رب أين أُمي؟ ويقال إنه رغا ثلاث مرات(٢) وإنه دخل في صخرة فغاب فيها، ويقال بل اتبعوه فعقروه مع أُمه فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الآية [هود: ٦٥].

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ الآية [النمل]، فلما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله ﷻ وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياذاً بالله من ذلك لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾) أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى، قالوا: إلا جارية كانت مقعدة واسمها: كلبة ابنة السلق، ويقال لها: الزريقة، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت(٣).

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رُغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحلّ جاءه حَجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك وذكروا أن أبا رُغال هذا هو والد

---

(١) أخرجه الطبري بالإسناد المتقدم عن ابن إسحاق. وهي من روايات أهل الكتاب.
(٢) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به وأطول، وأخرجه عبد الرزاق به، والرواية من أخبار أهل الكتاب.
(٣) أخرجه الطبري بنحوه من طريق ابن إسحاق. والرواية كسابقتها.

ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف، قال عبد الرزاق عن معمر: أخبرني إسماعيل بن أُمية أن النبي ﷺ مرَّ بقبر أبي رُغال فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا الله ورسوله أعلم، قال: «هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن»[1] وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رُغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد روي متصلاً من وجه آخر كما قال محمد بن إسحاق: عن إسماعيل بن أُمية، عن بُجير بن أبي بُجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفع عنه. فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن» وهكذا رواه أبو داود، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه، عن ابن إسحاق به[2]، قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز[3].

(قلت): تفرد بوصله بُجير بن أبي بُجير هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث، قال يحيى بن معين: ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أُمية، (قلت) وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث. وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين، قال شيخنا أبو الحجاج بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم[4].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا تقريع من صالح ﷺ لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريعاً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشدّت بعد ثلاث من آخر الليل، فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون»[5].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده منقطع وسيأتي موصولاً موقوفاً حسناً عن عبد الله بن عمرو ﵄.

(٢) سنن أبي داود، الخراج والإمارة، باب نبش القبور العادية (ح٣٠٨٨)، وحسنه المزي (تهذيب الكمال ٤/ ١١).

(٣) تهذيب الكمال ٤/ ١١.

(٤) ذكره الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء (ص٢/ ١١٣) وزاد: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له. ويبقى القول أن وقفه على عبد الله بن عمرو أرجح.

(٥) تقدم تخريجه وصحته في آخر تفسير آية رقم ٤٥ من هذه السورة الكريمة.

وفي السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم»(١).

[وهكذا](٢) صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين: أن كلّ نبي هلكت أُمته كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حجّ قال: «يا أبا بكر أي وادٍ هذا؟» قال: هذا وادي عسفان، قال: «لقد مرّ به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن(٣) الليف أزرهم العباء وأرديتهم النِّمار(٤)، يُلبّون يَحجُّون البيت(٥) العتيق».

هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه أحد منهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿وَلُوطًا﴾ أو تقديره ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو: ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله.

قال عمرو بن دينار في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ما نزا ذكرُ على ذكرٍ حتى كان قوم لوط(٦).

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

---

(١) أخرجه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم. (سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٩ وفتح الباري ٧/ ٣٠٢) وسنده ضعيف.

(٢) كذا في (حم) و(مح) وفي الأصل: «وهذا».

(٣) بكرات جمع بكرة: الفتيّة من الإبل، والخُطُم: جمع خطام.

(٤) النِّمار: جمع نُمِرة الشملة المخططة، كأنها أخذت من لون النمر.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٤٩٥ ح٢٠٦٦)، وضعفه محققوه لضعف زمعة.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن عمرو بن دينار.

[هود] أي: لقد علمت أنه لا أربَ لنا في النساء[١] ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: ما أجابوا لوطاً إلا بأن همّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب[٢].

وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء[٣]. وروي مثله عن ابن عباس أيضاً[٤].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات] إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام أن يسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول: بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين، وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود] ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله.

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويُتبع بالحجارة، كما فُعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يُرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولي

---

(١) لا أرب لنا في النساء: أي لا شهوة لنا في النساء.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري بعدة أسانيد عن مجاهد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يسمع ابن عباس، ويشهد له سابقه.

الشافعي رَحِمَهُ اللهُ والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رُجم، وإن لم يكن محصناً جُلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة(٢).

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن إبراهيم وشعيب وهو: ابن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: يثرون.

(قلت): مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان(٣) من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بينة من ربكم، أي قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان وتدليساً كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ينهاهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ عن قطع الطريق الحسّي والمعنوي بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

---

(١) المسند ١/ ٣٠٠، وسنن أبي داود، الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط (ح٤٤٦٢)، وسنن الترمذي، الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي (ح١٤٥٦)، وسنن ابن ماجه، الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط (ح٢٥٦١)، وقال الألباني حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح٣٧٤٥)، وأخرجه الحاكم من طريق عمرو بن أبي عمرو به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣٥٥).

(٢) في آية ٢٢٣.

(٣) مدينة تقع في جنوب الأردن.

قال السدي وغيره: كانوا عشّارين(١).

وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه(٢).

والأول أظهر لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزّة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم علي ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم أي يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عمّا واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملّة.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً وهذا تعبير منه عن اتباعهم ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا ردّ إلى المشيئة فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن شدّة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جُبلت عليه قلوبهم

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي نحوه.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: بكل سبيل حق.

من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فلهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود] والمناسبة في ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قوله: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء] وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الشعراء: ١٨٧].

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿أصابهم عذاب يوم الظلة﴾ وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرّعاً لهم وموبخاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: حوّلنا الحالة من شدّة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا ٱلضَّرَّاءُ وَٱلسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضرّاء كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»[١].

فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء، ولهذا جاء في الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه»[٢] أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي على بغتة، وعدم شعور منهم أي أخذناهم فجأة كما في الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر»[٣].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا وذلك بعدما عاينوا العذاب، كماقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه، واتقوابفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

---

(١) أخرجه مسلم فقط من حديث صُهيب ﷺ (الصحيح، الزهد، باب المؤمن أمره كله خير ح٢٩٩٩).

(٢) الشطر الأول فيما يخص المؤمن أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ (الصحيح، صفات المنافقين، باب مثل المؤمن كالزرع ح٢٨٠٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة ﷺ (المسند ٤١/ ٤٩١ ح٢٥٠٤٢)، وقال محققوه: إسناده واهٍ، عبيد الله بن الوليد، وهو الوصافي وهو متروك.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أو لم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم[1]، وكذا قال مجاهد[2] وغيره.

وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم وعتَوا [عن أمر ربهم][3] ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيراً[4].

(قلت) وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة] وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم] أي: هل ترى لم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) كذا في تفسير الطبري، وفي النُسخ: علىٰ ربهم.
(٤) ذكره الطبري بلفظه.

نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ [سبأ] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

لما قصّ تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي: من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي: الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ الباء سببية، أي فيما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاه ابن عطية رحمه الله وهو متجه حسن كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [الأنعام]، ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو فأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع، وفي الفطرة السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم، يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[1].

وفي الصحيحين: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[2] الحديث.

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا

---

(١) تقدم تخريجه في آخر تفسير آية ٧٩ من سورة الأنعام.

(٢) تقدم تخريجه في آخر تفسير آية ٧٩ من سورة الأنعام.

فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق[(١)]، أي: فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس[(٢)]، واختاره ابن جرير.

وقال السدي: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً[(٣)].

وقال مجاهد في قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨][(٤)].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بحججنا ودلائلنا البينة إلى فرعون، وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: قومه ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل] أي: الذين صدّوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي انظر كيف فعلنا بهم أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربه ومليكه، ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي جدير بذلك وحري به.

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية.
(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقالوا: والباء وعلى يتعاقبان يقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وجاء على حال حسنة وبحال حسنة، وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق.

وقرأ آخرون من أهل المدينة: (حقيق عليّ)[1] بمعنى واجب وحق علي ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمٰن ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الحية الذكر[2]، وكذا قال السدي والضحاك، وفي حديث «الفتون» من رواة يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل[3].

وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة[4].

وقال السدي في قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذُعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك، وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصاً[5]، وروي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا[6].

وقال وهب بن منبه: لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم. قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]؟ قال: فردّ إليه موسى الذي ردّ، فقال فرعون: خذوه فبادر موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت[7]،

---

(١) وهي قراءة متواترة.
(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق العباس بن الوليد عن يزيد به.
وسيأتي حديث الفنون بتمامه في تفسير سورة طه آية ٤٠.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة وفيه: وقال غيره: مثل المدينة.
(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٦) أخرجه الطبري من طريق عكرمة به ويشهد له ما سبق.
(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والإمام أحمد في الزهد (ص٧٩) بسند حسن كلهم من طريق عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبه. وهذه الروايات كلها من الإسرائيليات.

رواه ابن جرير والإمام أحمد، في كتابه الزهد، وابن أبي حاتم، وفيه غرابة في سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ الآية [النمل: ١٢]، وقال ابن عباس في حديث الفتون: من غير سوء يعني من غير برص ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول[١]، وكذا قال مجاهد وغير واحد[٢].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

أي: قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فوافقوا وقالوا كمقالته، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره؟ وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه؟ وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، فلما تشاوروا في شأنه وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾ أخره[٣].

وقال قتادة: احبسه[٤] ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أي: ابعث ﴿فِى ٱلْمَدَآئِنِ﴾ أي: في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حَـٰشِرِينَ﴾ أي: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم وقت كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه] وقال تعالى هٰهنا:

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس كما تقدم في تفسير هذه الآية.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس، ومعناه اللغوي صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنّهم وليعطينّهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثّقوا من فرعون لعنه الله.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي: قبلك كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] فقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا أي أنتم أولاً، قيل الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لميجئه، فيكون أوقع في النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوا له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه].

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس: ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً، قال فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى(١).

وقال محمد بن إسحاق: صفّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف أهل مملكته ثم قال السحرة: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه] فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعدُ. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال والعصي، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً(٢).

وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل وليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يقول: فرّقوهم(٣)؛ أي: من الفرق.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن هشام الدستوائي، حدثنا القاسم بن أبي بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن عيينة به.
(٢) أخرجه الطبري من طريق سلمة عن ابن إسحاق.
(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

عصا حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى[(١)]. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ﴾ أي: تأكل ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾ أي: ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل.

قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجّداً وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[(٢)].

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت ووقع السحرة سجداً قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون لو كان هذا ساحراً ما غلبنا[(٣)].

وقال القاسم بن أبي بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك فألقي عصاه فإذاهي ثعبان مبين فاغر فاه يبتلع حبالهم وعصيهم، فألقي السحرة عند ذلك سجداً، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما[(٤)].

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ أي: إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضاً منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: ٧٠] وهو يعلم وكل من له لبّ أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح، وكل هذه الروايات من أهل الكتاب.

(٢) أخرجه الطبري بالإسناد المتقدم عن سفيان بن عيينة إلى ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري من طريق سلمة عن ابن إسحاق.

(٤) أخرجه الطبري بالسند الحسن السابق عن القاسم بن أبي بزة.

اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤] فإن قوماً صدقوه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم.

وقال السدي في تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق. قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومننّ بك ولأشهدنّ أنك حق - وفرعون ينظر إليهما -. قالوا: فلهذا قال ما قال[1].

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعني: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على الجذوع.

قال ابن عباس: وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون[2].

وقول السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك فلنصبرنّ اليوم على عذابك لنخلص عن عذاب الله ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه] فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة.

قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء[3].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق السدي به، وسنده ضعيف لأن السدي خلط بين الأسانيد الضعيف منها والصحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير، وأخرجه الطبري من هذا الطريق إلى ابن عباس، ولكن في سنده ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

(٣) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق السدي عن ابن عباس، والسدي لم يسمع ابن عباس، وقول عبيد بن عمير أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال. وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الحسين، وهو ابن داود، عن حجاج عن ابن جريج ورواه عن مجاهد.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أي: أتدعهم ليفسوا في الأرض أي يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك. يا لله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ قال بعضهم: الواو هاهنا حالية. أي: أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أُبي بن كعب: (وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك) حكاه ابن جرير[١].

وقال آخرون: هي عاطفة أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك، وقرأ بعضهم (إلاهتك) أي: عبادتك وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره[٢]. وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده.

قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر[٣]. وقال في رواية أخرى كان له جمانة في عنقه معلقة يسجد لها[٤].

وقال السدي في قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ وآلهته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار[٥]. فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده.

ولما صمّم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ﴾ ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ أي: قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه في ثاني الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾

---

(١) أخرجه الطبري بسند منقطع من طريق هارون عن أُبي، وبين هارون وأُبي مفاوز. وهي قراءة شاذة تفسيرية.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح، وهذه الرواية قرينه على أن الواسطة بين ابن أبي طلحة وابن عباس هو مجاهد. والقراءة شاذة تفسيرية.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من ثلاثة طرق يقوي بعضها بعضاً.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن السدي لأن السدي لم يسمع ابن عباس.

الآية، وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحنّاهم وابتليناهم ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي سني الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

قال مجاهد، وهو دون ذلك[١].

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة[٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أي: من الخصب والرزق ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وقال ابن جريج، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا من قِبل الله[٤].

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

هذا إخبار من الله ﷻ عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها، فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ اختلفا في معناه:

فعن ابن عباس - في رواية -: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وبه قال الضحاك بن مزاحم[٥].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بدون كلمة: «وهو».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق شيبان بن عبد الرحمن النحوي عن أبي إسحاق، وهو السبيعي، به.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن جريج به، وابن جريج لم يسمع ابن عباس.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، وقول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بنحوه بسند ضعيف من طريق الضحاك عنه، لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

وعن ابن عباس في رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء[١].

وقال مجاهد: الطوفان الماء والطاعون على كل حال[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن هشام الرفاعي، حدثنا [يحيى بن يمان][٣] حدثنا المنهال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن ميناء، عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت»[٤]. وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به[٥]، وهو حديث غريب.

وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم][٦].

وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[٧].

وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أُحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد والكبد والطحال» ورواه أبو القاسم البغوي عن داود بن رشيد، عن سويد بن عبد العزيز، عن أبي تمام الأيلي، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر مرفوعاً مثله[٨].

وروى أبو داود عن محمد بن الفرج، عن محمد بن زبرقان الأهوازي، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه»[٩].

وإنما تركه ﵇ لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي، حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد ولا الكلوتين ولا الضبّ من غير أن يحرمها. أما الجراد فرجز وعذاب، وأما الكلوتان فلقربهما من البول، وأما الضبّ فقال: «أتخوف أن يكون مسخاً»[١٠] ثم قال: غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه.

---

(١) قول عطاء: الموت. أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن جريج عن عطاء.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) كذا في (حم) و(مح) وصحفت في الأصل إلى: «يحيى بن ثمان».

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف المنهال.

(٥) وسنده ضعيف أيضاً بسبب ضعف المنهال.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق قابوس عن ابن عباس.

(٧) صحيح البخاري، الذبائح والصيد، باب أكل الجراد (ح٥٤٩٥) وصحيح مسلم، الصيد والذبائح، باب إباحة الجراد (ح١٩٥٢).

(٨) تقدم تخريجه وصحته موقوفاً في بداية تفسير آية ٣ من سورة المائدة.

(٩) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الأطعمة، باب في أكل الجراد ح٣٨١٣)، وسنده ضعيف لأن محمد بن الزبرقان وهو صدوق ربما وهم ولم يتابع، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح١٥٣٣).

(١٠) سنده ضعيف لأن يحيىٰ بن خالد مجهول وروى مناكير (لسان الميزان ٦/ ٢٥١).

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يشتهيه ويحبه، فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قفعة[١] أو قفعتين نأكله[٢].

وروى ابن ماجه: حدثنا أحمد بن منيع، عن سفيان بن عيينة، عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق[٣].

وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بقية بن الوليد، عن يحيى بن يزيد القيني، حدثني أبي، عن صدي بن عجلان، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران ﷺ سألت ربها ﷻ أن يطعمها لحماً لا دم له فأطعمها الجراد فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياع» وقال نمير: الشياع الصوت[٤].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك اليزني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي زهير النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «[لا تقاتلوا][٥] الجراد فإنه جند الله الأعظم»[٦] غريب جداً.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب[٧].

وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي، عن محمد بن كثير: سمعت الأوزاعي يقول: خرجت إلى الصحراء فإذا أنا برِجْل من جراد[٨] في السماء فإذا برجل راكب على جرادة منها، وهو شاك في الحديد، وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الحريري: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، أنبأنا عامر قال: سئل شريح القاضي عن الجراد فقال: قبَّح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة، رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب.

---

(١) القفعة: شبيه الزنبيل من الخوص ليس له عرىٰ وليس بالكبير (النهاية ٤/ ٩١).
(٢) ذكره ابن الأثير بنحوه عن عمر ﷺ (النهاية ٤/ ٩١).
(٣) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه (السنن، الصيد، باب صيد الحيتان والجراد ح٣٢٢٠)، وسنده ضعيف لضعف سعيد بن المرزبان.
(٤) سنده ضعيف لجهالة نمير بن يزيد القيني (التقريب ص٥٦٦)، وبقية مدلس ولم يصرح بالتحديث.
(٥) كذا في (حم) والتخريج، وفي الأصل صحفت إلى: «لا تقابلوا».
(٦) أخرجه الطبراني من طريق إسماعيل بن عياش به (المعجم الكبير ٢٢/ ٢٩٧)، وكذا أبو الشيخ في العظمة (ح١٢٩٣)، وسنده ضعيف لأن ضمضم بن زرعه وهو صدوق يهم (التقريب ص٢٨٠)، ولم يتابع ومتنه فيه نكارة.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٨) أي الجراد والكثير (النهاية ٢/ ٢٠٣).

وقدمنا عند قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبي المهزم، عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصي ونحن مُحرِمون، فسألنا رسول الله ﷺ فقال: «لا بأس بصيد البحر»[1].

وروى ابن ماجه عن هارون الحمال، عن هشام بن القاسم، عن زياد بن عبد الله بن علاثة، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أنس وجابر، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء» فقال له جابر: يا رسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت في البحر» قال هشام أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت[2].

قال من حقق ذلك: إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفقس كله جراداً طياراً.

وقدمنا عند قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] حديث عمر رضي الله عنه: إن الله خلق ألف أمة ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وإن أولها هلاكاً الجراد[3].

وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمٰن بن قيس، حدثنا [سلم] بن سالم[4]، حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وباء مع السيف ولا نجاء مع الجراد»[5]. حديث غريب.

وأما القُمَّل فعن ابن عباس هو: السوس الذي يخرج من الحنطة[6]، وعنه أنه الدّبي وهو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له[7].

وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة، وعن الحسن وسعيد بن جبير: القُمَّل دواب سود صغار[8].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: القُمَّل: البراغيث[9].

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة المائدة آية ٩٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه، وفي آخره: قال هشام: قال زياد: فحدثني من رأىٰ الحوت ينثره (السنن، الصيد، باب صيد الحيتان والجراد ح٣٢٢١)، ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٤)، وضعفه البوصيري بسبب موسىٰ بن محمد بن إبراهيم (مصباح الزجاجة ٣/ ٦٥)، وضعفه الحافظ ابن حجر (الفتح ٦٢١/١).

(٣) تقدم تخريجه وتضعيفه في سورة الأنعام آية ٣٨.

(٤) كذا في (حم) وفي ترجمته، وفي الأصل صحفت إلى: «سالم بن سالم».

(٥) سنده ضعيف لأن سلم بن سالم قال الخليلي: أجمعوا على ضعفه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس.

(٨) قول مجاهد وقتادة وأسباط أخرجه بأسانيد ثابتة عنهم.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

وقال ابن جرير: القُمَّل جمع واحدتها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكلها الإبل فيما بلغني وهي التي عناها [الأعشى][(١)] بقوله:

قـوم يـعـالـج قـمـلاً أبـنـاؤهـم وسـلاسـلاً أجـدى وبـابـاً مـؤصـدا

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة، يزعم أن القمل عند العرب الحمنان واحدتها حمنانة وهي صغار القردان فوق القمقامة[(٢)].

وقال أبو جعفر ابن جرير: حدثنا ابن حميد الرازي، حدثنا يعقوب القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى ﷺ فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر، فصبّ عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأنبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ فقالوا: هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطّه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت، فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة[(٣)] إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهمّ أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عَبِطاً[(٤)]. فكشفوا إلى فرعون فقالوا: إنا ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال: إنه قد سحركم، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دماً عبيطاً؟ فأتوه وقالوا يا موسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل[(٥)].

وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ اللهُ: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً

---

(١) كذا في «حم» و«مح»، وفي الأصل صحف إلى «الأعمش».

(٢) ذكره الطبري بلفظه مع تقديم وتأخير وأطول.

(٣) أجربة: جمع جراب وهو مكيال يزن الواحد منه ثلاثة أقفزة (الأساس باب ج ر ب).

(٤) أي الدم الطري.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده ابن حميد وقد توبع فأخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق جرير عن يعقوب القمي به مقطعاً.

مغلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر فيما بلغني حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذُكر لي أن موسى ﷺ أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال[1] عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، أنبأنا النضر، أنبأنا إسرائيل، أنبأنا جابر بن زيد، عن عكرمة، عن عبيد الله بن عمرو قال: لا تقتلوا الضفادع فإنها لما أرسلت على قوم فرعون انطلق ضفدع منها، فوقع في تنور فيه نار يطلب بذلك مرضاة الله فأبدلهنّ الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح[3]، وروي من طريق عكرمة، عن ابن عباس نحوه[4]. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم الرعاف[5]. رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

يخبر تعالى أنهم لما عتّوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليمّ وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) أي انصب انصباباً من كل وجه.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يزيد النحوي عن عكرمة به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق زهير بن محمد عن زيد بن أسلم.

وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان].

وعن الحسن البصري وقتادة في قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام[١].

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ قال مجاهد وابن جرير وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ يبنون[٢].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾.

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى ﷺ حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا۟﴾ أي: فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾.

قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين وقيل: كانوا من لَخم قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٣] أي: تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: هالك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان، عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال: وكان للكفار سِدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال: فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: «قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبل حُنين، فمررنا بسِدرة فقلت يا نبي الله: اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ـ وكان الكفار ينوطون سلاحهم

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وأخرجه سفيان الثوري بسند صحيح من طريق فرات القزاز عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الحسين وهو سُنيد ضعيف، عن حجاج عن ابن جريج.

(٤) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وسنده حسن وقد توبع ابن إسحاق كما سيأتي.

بسدرة ويعكفون حولها ـ، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم»(١) أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المُزني، عن أبيه، عن جده مرفوعاً(٢).

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾.

يُذكّرهم موسى عليه السلام بنعمة الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم تفسيرها في البقرة(٣).

﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾.

يقول تعالى ممتنّاً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة.

قال المفسرون: فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تمّ الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي: فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروي عن ابن عباس وغيره(٤).

فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠] الآية فحينئذٍ استخلف موسى عليه السلام على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٦/ ٢٣١ ح٢١٩٠٠) وصحح سنده محققوه.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو به وسنده ضعيف لضعف كثير بن عبد الله (التقريب ص٤٦٠).

(٣) آية ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول مسروق أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي إسحاق السبيعي عنه، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف ويتقوىٰ بسابقيه، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف في سنده محبوب بن محرز وهو لين الحديث كما في التقريب، ويتقوىٰ كسابقه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾.

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله تعالى سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، وقد أشكل حرف لن هٰهنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدلّ به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة].

وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين] وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤيا في الدار الآخرة.

وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام] وقد تقدم ذلك في الأنعام.

وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي، حدثنا قُرة بن عيسى، حدثنا الأعمش، عن رجل، عن أنس عن النبي ﷺ قال: لما تجلّى ربه للجبل أشار بأصبعه فجعله دكاً. وأرانا أبو إسماعيل بأصبعه السبابة[1]، هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم.

ثم قال: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن ليث[2]، عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قال: هكذا بأصبعه، ووضع النبي ﷺ أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل[3].

هكذا وقع في هذه الرواية حماد بن سلمة عن ليث عن أنس والمشهور حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس كما قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قال: «ووضع الإبهام قريباً من طرف خنصره»، قال: «فساخ الجبل»، قال حُميد لثابت: يقول هكذا! فرفع ثابت يده فضرب صدر حُميد وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس وأنا أكتمه[4]؟

وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده، حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري، حدثنا حماد بن

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام شيخ الأعمش، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٢١)، والسيوطي في اللآلي (١/ ٣٠).

(٢) هكذا في جميع النسخ، والصواب: ثابت كما في نسخ تفسير الطبري المحققة.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، من طريق ثابت، وسنده صححه أحمد شاكر وغيره كما سيأتي.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الحاكم من طريق حماد بن سلمة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٠).

سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: قال: «هكذا» يعني أنه أخرج طرف الخنصر قال أحمد: أرانا معاذ فقال له حُميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة، وقال: من أنت يا حُميد؟ وما أنت [يا حُميد][1]؟ يحدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ يقول ما تريد إليه؟[2].

وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق، عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن سلمة به. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد.

وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

ورواه أبو محمد بن الحسن بن محمد بن علي الخلال، عن محمد بن علي بن سويد، عن أبي القاسم البغوي، عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة فذكره[3]. وقال: هذا إسناد صحيح لا علّة فيه، وقد رواه داود بن المحبر، عن شعبة، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً [وهذا ليس بشيء، لأن داود بن المحبر كذاب. رواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه من طريقين، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس مرفوعاً[4] بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلماني، عن أبيه، عن عمر مرفوعاً ولا يصح أيضاً][5].

وقال السدي، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: تراباً ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: مغشياً عليه[6] رواه ابن جرير.

وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: ميتاً[7].

وقال سفيان الثوري: ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه[8].

وقال سنيد، عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبي بكر الهذلي: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ انقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة[9]، وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة رواه ابن مردويه.

---

(١) كذا في (حم) و(مح) ومسند أحمد، وفي الأصل: «يا أبا حميد».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وفي آخره: فتقول انت: ما تريد إليه؟ (المسند ١٩/ ٢٨١ ح١٢٢٦٠) وصححه محققوه.

(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأعراف (ح٣٠٧٤ والمستدرك ٢/ ٣٢٠).

(٤) طريق سعيد بن أبي عروبة أخرجه ابن أبي عاصم وصححه الألباني (السنة ح٤٨٢، ٤٨٣).

(٥) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل سقط وتداخل إذ ورد بلفظ: «وأسنده ابن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعاً ولا يصح أيضاً».

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي به.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٨) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن المبارك عن سفيان.

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف سُنيد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن شبة، حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكناني، حدثنا عبد العزيز بن عمران، عن معاوية بن عبد الله، عن الجلد بن أيوب، عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقع بمكة حراء وثبير وثور»[(١)] وهذا حديث غريب بل منكر.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج، حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف، عن عروة بن رويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صماً ملساء فلما تجلّى الله لموسى على الطور دُكّ، وتفطرت الجبال، فصارت الشقوق والكهوف[(٢)].

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل دكّ من الدكاك[(٣)].

وقال بعضهم: جعله دكاً أي فتنة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾: فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخرّ صعقاً[(٤)].

وقال عكرمة: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً[(٥)]، وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء[(٦)] واختارها ابن جرير.

وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشي هاهنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان صحيحاً في اللغة كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر] فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي. وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية[(٧)] ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل[(٨)]، واختاره ابن جرير.

---

(١) حديث موضوع لا أصل له، قاله ابن حبان (المجروحين ١/ ٢١٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه معلقا، وسنده ضعيف إذ لم يسم شيخه.

(٣) أخرجه الطبري سند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق يزيد بن حازم عن عكرمة.

(٦) أي قراءة ﴿دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨] وهي قراءة متواترة.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن رجل مبهم عن مجاهد.

(٨) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عن عكرمة عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد[١]. وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة[٢]، وهذا قول حسن له اتجاه.

وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثراً طويلاً فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحاق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم.

وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي ﷺ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هٰهنا فقال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لُطم وجهه، وقال: يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي. قال: «ادعوه». فدعوه قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول: «والذي اصطفى موسى على البشر قال: وعلى محمد؟ قال: فقلت: وعلى محمد، وأخذتني غضبة فلطمته فقال: «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبل أم جوزي بصعقة الطور»؟[٣] وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه ومسلم في أحاديث الأنبياء، وأبو داود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازني الأنصاري المدني، عن أبيه، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري به[٤].

وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو كامل، حدثنا إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن وعبد الرحمٰن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استبّ رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين. فقال اليهودي: والذين اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل»[٥]. أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به[٦].

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله أن الذي لطم اليهودي في هذه القضية هو أبو

---

(١) كذا أورده مختصراً وأخرجه الطبري كاملاً بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «أنا أول من يؤمن أنه لا يراك شيء من خلقك».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] ح٤٦٣٨).

(٤) صحيح مسلم، الفضائل، باب من فضائل موسىٰ (ح٢٣٧٤)، وسنن أبي داود، السنة، باب في التخيير بين الأنبياء (ح٤٦٦٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٢٦٤)، وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، مطلع كتاب الخصومات (ح٢٤١١)، وصحيح مسلم، الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (ح٢٣٧٣).

بكر الصديق رضي الله عنه[١]، ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح والله أعلم.

والكلام في قوله ﷺ: «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى» قيل: من باب التواضع، وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الدّيان، كما صعق موسى من تجلّي الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال ﷺ: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»؟.

وقد روى القاضي عياض في أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق، [حدثنا هانئ بن يحيى السلمي[٢]]، حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما تجلّى الله لموسى ﷺ كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ»[٣] ثم قال: ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى[٤]. انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفي صحته نظر ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يُعرفون[٥]، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى منتهاه، والله أعلم.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب البعث واستدل بأن الذي لطم هو أبو بكر رضي الله عنه (الفتح ٦/ ٤٤٣).

(٢) في النُسخ بلفظ قتادة، والصواب ما أُثبت حسب ما ذكره شُراح كتاب «الشفاء» إذ صرح به أحمد الشمني مؤلف «مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء» ١/ ٦٩ ونقل ذلك ملا علي القاري عن الحلبي (شرح الشفاء ١/ ١٧٢) علماً أنه ورد في الشفاء بلفظ: «همام»، وقد صححه الشُراح المذكورون. ويؤيد هذا رواية الطبراني وتعليقه التالي في التخريج، وترجمته في اللسان كما يلي.

(٣) الفرسخ يساوي: ٥,٥٤٤ كيلاً (المقادير في الفقه الإسلامي ص٧١).

(٤) أخرجه القاضي بسنده ومتنه مع الخلاف الموضح في سابقه (شرح الشفاء ١/ ١٧٢) وسنده ضعيف لضعف هانئ بن يحيٰى السلمي، قال الحافظ: يروي عن الحسن بن أبي جعفر الرازي قال ابن حبان في الثقات: يخطئ (لسان الميزان ٦/ ١٨٧)، وأخرجه الطبراني من طريق هاني ثم قال: لم يروه عن قتادة إلا الحسن بن أبي جعفر تفرد به هاني بن يحيىٰ. (المعجم الصغير ٧٧)، ومزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء ١/ ٦٩ وفي سنده أيضاً الحسن وهو ابن أبي جعفر ضعيف (التقريب ص١٦٩).

(٥) قال هذا الحافظ ابن كثير بسبب الخلل في إيراد السند.

أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمٰن عليه السلام، ولهذا قال الله تعالى له: «فخذ ما آتيتك» أي: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء.

قيل: كانت الألواح من جوهر وإن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة والله أعلم، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه[١].

وقوله: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب.

قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلامَ يصير إليه حال من خالف أمري! على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره[٢]، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري[٣].

وقيل: معناه: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل: منازل قوم فرعون، والأولى أولى، والله أعلم لأن هذا بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه. والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سفيان بن عيينة به.

(٢) ذكره الطبري بلفظه.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مبارك عنه.

بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذلك الجهل أبداً.

وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة(١).

قلت: ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أُمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس] وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد أي طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علّل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مما فيها، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله.

وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر وكما تَدين تُدان.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضلال من ضلّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري، من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكّل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار: والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه].

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ

(١) ذكره الطبري بنحوه.

﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطّى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبكَ الشيء يعمي ويصمّ»[١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم: ﴿لئن لم ترحمنا﴾ بالتاء المثناة من فوق[٢] ﴿رَبَّنَا﴾ منادى ﴿وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب[٣]. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ قيل: كانت الألواح من زُمُردّ، وقيل: من ياقوت، وقيل: من برد، وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[٤] ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً.

وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة[٥]، وقد ردّه ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالردّ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه] وقال

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٩٣.

(٢) القراءة بالتاء «ترحمنا» متواترة.

(٣) أخرجه الطبري من طريق نصر بن علقمة عن أبي الدرداء وأطول. وسنده منقطع لأن نصراً لم يسمع أبا الدرداء رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً (المسند ٤/ ٢٦٠ ح٢٤٤٧)، وصححه محققوه وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢١).

(٥) سيأتي بطوله في الآية ١٥٤ من هذه السورة، وهو خبر مردود كما قال الحافظ ابن كثير.

هٰــهــنــا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسوقني سياقهم وتجعلني معهم وإنما قال: «ابن أُمِّ» ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه] فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ﷻ أن قومه فُتنوا بعده فلم يلقِ الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح»[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وأما الذلّة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة فإن ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذلّ البدعة على أكتافهم، وإن هملجت[٢] بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين.

وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة[٣].

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل[٤].

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة ﴿مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبان، حدثنا قتادة، عن عزرة، عن الحسن العرني، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعني: عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، وتقدم نحوه وتصحيحه في الحديث السابق برواية الإمام أحمد.

(٢) أي سارت بهم سيراً حسناً في سرعة.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر وحماد بن زيد عن أيوب به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق محمد بن أبي عمر العدني عن سفيان.

الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها(١).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي: سكن ﴿عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: غضبه على قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة، وأما التفصيل فذهب وزعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية والله أعلم بصحة هذا، وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عدّاها باللام.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة خير أُمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أُمتي. قال: تلك أُمة أحمد. قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة هم الآخرون السابقون ـ أي: آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة ـ ربِّ اجعلهم أُمتي قال: تلك أُمة أحمد. قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قبلهم يقرؤون كتابهم نظراً حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأُمم. قال: ربِّ اجعلهم أُمتي. قال: تلك أُمة أحمد. قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلون الأعور الكذاب فاجعلهم أُمتي. قال: تلك أُمة أحمد. قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم من الأُمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتها وإن رُدّت عليه تركت فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم قال: ربِّ فاجعلهم أُمتي. قال: تلك أُمة أحمد. قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، ربِّ اجعلهم أُمتي. قال: تلك أُمة أحمد. قال: ربِّ إني أجد في الألواح أُمة هم المشفوعون والمشفوع لهم فاجعلهم أُمتي، قال: تلك أُمة أحمد. قال قتادة فذُكر لنا أن نبي الله موسى ﷺ نبذ الألواح وقال: اللهم [اجعلني](٢) من أُمة أحمد(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٢) كذا في (حم) و(مح) وفي الأصل: «اجعله».

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وردّه الحافظ ابن كثير وغيره، وإن هذا الأثر من أخبار أهل الكتاب. وذلك في تفسير الآية ١٥٠ ـ ١٥١ من هذه السورة الكريمة.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً، فاختار سبعين رجلاً، فبرز بهم ليدعوا ربهم، وكان فيما دَعوا الله أن قالوا: اللّهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ الآية[1].

وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ على عينيه، ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ يا موسى ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: ٥٥] فإنك قد كلمته فأرناه ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء: ١٥٣] فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾[2].

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً الخيِّرُ فالخيِّر، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم - فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه - وعلم، فقال له السبعون فيما ذُكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كلّه، دنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا وكان موسى إذا كلّمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا: يا موسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة) وهي الصاعقة فاقتلعت أرواحهم فماتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل؟[3].

وقال سفيان الثوري: حدثني أبو إسحاق، عن عمارة بن عبيد السلولي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انطلق موسى وهارون وشبر وشبير فانطلقوا إلى سفح جبل. فنام هارون على سرير فتوفاه الله عز وجل، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله عز وجل، قالوا: أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه أو كلمة نحوها قال: فاختاروا من شئتم قال: فاختاروا سبعين رجلاً قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ فلما انتهوا إليه قالوا: يا

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه.
(٣) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

هارون من قتلك؟ قال: ما قتلني أحد ولكن توفاني الله، قالوا: يا موسى لن تُعصى بعد اليوم فأخذتهم الرجفة، قال فجعل موسى يرجع يميناً وشمالاً وقال: يا ربِّ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم[١].

هذا أثر غريب جداً وعمارة بن عبيد هذا لا أعرفه، وقد رواه شعبة عن أبي إسحاق عن رجل من بني سلول عن علي فذكره.

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جريج: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم[٢]، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس[٣] وغير واحد من علماء السلف والخلف، ولا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان، تضلّ من تشاء وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت ولا مضلّ لمن هديت ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ الغفر هو: الستر وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قُرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ أي: لا يغفر الذنب إلا أنت ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦] هناك الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة. وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة[٤].

﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك، قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمي والسدي وقتادة[٥] وغير واحد: وهو كذلك لغة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن شريك، عن جابر، عن عبد الله بن يحيى، عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[٦] جابر هو ابن يزيد الجعفي ضعيف.

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كلاهما من طريق الثوري به، وفي سنده: عمارة بن عبيد السلولي قال ابن أبي حاتم: شيخ مجهول لا يحتج به (الجرح والتعديل ٣/ ٣٦٧ وميزان الاعتدال ٣/ ١٧٧).

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن حيان عن ابن عباس.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: إن هو إلا عذابك، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع وهو سفيان بلفظ: «إلا بليتك». ومعناه صحيح، وقول أبي العالية والربيع بن أنس أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية بلفظ ابن عباس.

(٤) آية ٢٠١.

(٥) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول سعيد بن جبير ومجاهد والسدي وقتادة أخرجه بأسانيد ثابتة.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف جابر بن يزيد الجعفي.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

يقول تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٥]، قال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ الآية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله، أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا الجريري، عن أبي عبد الله الجشمي، حدثنا جندب ـ هو: ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه ـ، قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلّى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلّى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضلُّ أم بعيره ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى، قال: «لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضلُّ أم بعيره؟»[(١)] رواه أحمد وأبو داود، عن علي بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به[(٢)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا يحيى بن سعيد، عن سليمان، عن أبي عثمان، عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: «إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخرّ تسعة وتسعين إلى يوم القيامة[(٣)]»، تفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سليمان هو: ابن طرخان وداود بن أبي هند، كلاهما عن أبي عثمان واسمه: عبد الرحمن بن مُلّ، عن سلمان هو الفارسي، عن النبي ﷺ[(٤)] به».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمّها إليه»[(٥)] تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، به يتراحم الناس والوحش والطير»[(٦)]. ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن الأعمش[(٧)] به.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣١/ ٩٩ ح١٨٧٩٩) وضعف سنده محققوه.
(٢) سنن أبي داود، الأدب، باب من ليس له غيبة (ح٤٨٨٥).
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٤٣٩) وسنده صحيح.
(٤) صحيح مسلم، التوبة، باب في سعة رحمه الله تعالى (ح٢٧٥٣).
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٥٥) وسنده حسن.
(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٥٥) وسنده صحيح.
(٧) سنن ابن ماجه، الزهد، باب ما يرجىٰ من رحمة الله يوم القيامة (ح٤٢٩٤)، قال البوصيري: صحيح رجاله ثقات (مصباح الزجاجة ٣/ ٣١٨).

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني، عن حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن صِلة بن زفر، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليدخلنّ الجنة الفاجر في دينه الأحمق في معيشته، والذي نفسي بيده ليدخلنّ الجنة الذي قد محشته النار بذنبه، والذي نفسي بيده ليغفرنّ الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه»(١). هذا حديث غريب جداً وسعد هذا لا أعرفه.

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منّةً مني وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: الشرك والعظائم من الذنوب.

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أُممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم. كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل، عن الجريري، عن أبي صخر العُقيلي، حدثني رجل من الأعراب قال: جَلبت جَلُوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغتُ من بيعي قلت: لألقيَّن هذا الرجل فلأسمعنَّ منه قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي»؟ فقال برأسه هكذا أي: لا. فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفنه [وجَنَنه](٢) والصلاة عليه(٣). هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس.

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٣/١٦٨ ح٣٠٢٢) وسنده ضعيف جداً لأن شيخ الطبراني محمد بن عثمان بن أبي شيبة كذبه عبد الله بن الإمام أحمد، واتهمه ابن خراش بالوضع، وقال البرقاني: لم أزل أسمعهم يذكرون أنه مقدوح فيه (لسان الميزان ٥/ ٢٨٠).

(٢) في الأصل غير منقوطة، وضبطت حسب مسند الإمام أحمد، ومعنى جَنَنه: دفنه وستر عليه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/ ٤٧٦ ح٢٣٤٩٢)، وضعفه محققوه لجهالة أبي صخر العُقيلي. وقواه الحافظ ابن كثير برواية الحاكم التالية، لكنها مشخونة بالغرائب.

وقال الحاكم صاحب المستدرك: أخبرنا محمد بن عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي أُمامة الباهلي، عن هشام بن العاص الأموي قال: بُعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا الغوطة ـ يعني: غوطة دمشق ـ، فنزلنا على جَبَلَة بن الأيهم الغساني، فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسوله نكلمه فقلنا: والله لا نكلمُ رسولاً وإنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلّمناه وإلا لم نكلّم الرسول، فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك قال: فأذن لنا فقال: تكلّموا، فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثياب سود فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا والله لنأخذنّه منك ولنأخذنّ ملك الملك الأعظم إن شاء الله، أخبرَنا بذلك نبينا محمد ﷺ قال: لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملئ وجهه سواداً فقال: قوموا. وبعث معنا رسولاً إلى الملك، فخرجنا حتى إذا كنا قريباً من المدينة قال لنا الذي معنا: إن دوابّكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال، قلنا: والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحلنا، فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله والله أكبر، فالله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عِذق تصفقه الرياح، قال: فأرسل إلينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له وعنده بطارقة من الروم، وكلُّ شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حُمرة، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك. فقال: ما عليكم لو حييتموني بتحيّتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحلُّ لك وتحيّتك التي تحيا بها لا يحلُّ لنا أن نحيّيك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليكم. قال: فيكف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: فكيف يردُّ عليكم؟ قلنا: بها، قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله والله أكبر، فلما تكلمنا بها ـ والله أعلم ـ لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتموها حيث انتفضت الغرفة أكلما قلتموها في بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك، قال: لوددت أنكم كلّما قلتم انتفض كلُّ شيء عليكم وإني قد خرجت من نصف ملكي قلنا لِمَ؟ قال لأنه كان أيسر لشأنها وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة، وأنها تكون من حيل الناس، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه، ثم قال كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير فأقمنا ثلاثاً، فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه، ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتاً وقفلاً فاستخرج حريرة سوداء فنشرها فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم عليه السلام وإذا هو أكثر الناس شعراً، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر كشعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا لا، قال: هذا نوح عليه السلام،

ثم فتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يبتسم فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إبراهيم ﷺ، ثم فتح باباً آخر فإذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله ﷺ فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم. هذا محمد رسول الله ﷺ قال: وبكينا قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس. وقال: والله إنه لهو قلنا: نعم إنه هو كأنك تنظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط غائر العينين حديد النظر عابس متراكب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا موسى ﷺ وإلى جنبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قَبَل فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا لا، قال: هذا لوط ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسحاق ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة تشبه إسحاق إلا أنه على شفته خال فقال هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا يعقوب ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أقنى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف في وجهه الخشوع يضرب إلى الحُمرة قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا إسماعيل جد نبيكم ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه الشمس فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا يوسف ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمش الساقين أخفش العينين ضخم البطن رَبَعة مُتقلد سيفاً فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا لا، قال: هذا داود ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل ضخم الأليتين طويل الرجلين راكب فرساً فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا سليمان بن داود ﷺ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللّحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا عيسى ابن مريم ﷺ، قلنا من أين لك هذه الصور؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء ﷺ لأنا رأينا صورة نبينا ﷺ مثله، فقال: إن آدم ﷺ سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم، فكانت في خزانة آدم ﷺ عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي وإني كنت عبداً لأشركم ملكةً حتى أموت، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا، قال فبكى أبو بكر، وقال: مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم[(١)].

---

(١) أخرجه البيهقي عن الحاكم بسنده ومتنه بنحوه (دلائل النبوة ١/ ٣٨٥ ـ ٣٩٠)، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به.اهـ. لكن في متنه غرائب.

وهكذا أورده الحافظ الكبير البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب دلائل النبوّة عن الحاكم إجازة فذكره وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ [الأحزاب] وحرزاً للأميين أنت عبدي ورسولي اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً، قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته: قال قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً(١)، وقد رواه البخاري في صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح، عن هلال بن علي فذكر بإسناده نحوه، وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ: ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح(٢)، وذكر حديث عبد الله بن عمرو، ثم قال: ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس بن عمر - وراق بن الحميدي -، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم من ولد جبير بن مطعم قال: حدثتني أم عثمان بنت سعيد وهي جدتي، عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير، عن أبيه محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم قال: خرجت تاجراً إلى الشام فلما كنت بأدنى الشام لقيني رجل من أهل الكتاب فقال: هل عندكم رجل تنبأ؟ قلت نعم، قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها؟ قلت نعم، فأدخلني بيتاً فيه صور فلم أر صورة النبي ﷺ، فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه فذهب بنا إلى منزله فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبي ﷺ وإذا رجل آخذ بعقب النبي ﷺ قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال إنه لم يكن نبي إلا كان بعده نبي إلا هذا النبي فإنه لا نبي بعده، وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبي بكر رضي الله عنه(٣).

وقال أبو داود: حدثنا [حفص بن عمر](٤) أبو عمرو الضرير، حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريري أخبرهم، عن عبد الله بن شقيق العقيلي، عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بعثني عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له عمر: هل تجدني في الكتاب؟ قال

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح، والشق الأول أخرجه البخاري كما يلي.

(٢) أخرجه البخاري من طريق محمد بن سنان عن فليح به (الصحيح، البيوع، باب كراهية السَّخب في الأسواق ح٢١٢٥).

(٣) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٢/ ١٢٥ ح١٥٣٧)، قال الهيتمي: فيه من لم أعرفهم (المجمع ٨/ ٢٣٣)، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (ح٨٢٣١)، ثم قال: لا يروي هذا الحديث عن جبير بن مطعم إلا بهذا الإسناد تفرد به محمد بن إدريس وراق الحميدي. وأخرجه البخاري من طريق محمد، كذا غير منسوب، عن محمد بن عمر به مختصراً (التاريخ الكبير ١/ ١٧٩)، وأخرجه البيهقي من طريق أبي سعيد الرَّبعي عن محمد بن عمر به (دلائل النبوة ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥).

(٤) في النسخ الخطية باسم: عمر بن حفص والتصويب من سنن أبي داود.

نعم، قال: كيف تجدني؟ قال: أجدك قرناً، فرفع عمر الدرّة وقال: قرن مه؟ قال: قرن حديد أمير شديد، قال: فكيف تجد الذي بعدي؟ قال: أجد خليفة صالحاً غير أنه يؤثر قرابته، قال عمر يرحم الله عثمان ثلاثاً قال: كيف تجد الذي بعده؟ قال: أجده صدأ حديد، قال فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا دَفراه[١] يا دفراه. قال: يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٤] فارعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه[٣]، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر - هو: العقدي عبد الملك بن عمرو -، حدثنا سليمان هو - ابن بلال -، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد، عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه»[٤]. رواه الإمام أحمد رضي الله عنه بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن علي رضي الله عنه قال: إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهدى والذي هو أهنى والذي هو أتقى[٥]. ثم رواه عن يحيى بن سعيد، عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن أبي عبد الرحمن، عن علي رضي الله عنه قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه[٦].

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: يحلّ لهم ما كانوا حرّموه على

---

(١) الدفر: النتن. (سنن أبي داود، السنة، باب في الخلفاء، بعد حديث ٤٦٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود من طريق حفص بن عمر به (المصدر السابق) وسنده ضعيف على الرغم من أن رجاله ثقات لأن عبد الله بن شقيق العقيلي فيه نصب (التقريب ص٣٠٧)، وأخرجه اللالكائي من طريق عبد الله بن شقيق به (شرح أصول الاعتقاد ح٢٦٥٨).

(٣) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٠٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/ ٤٥٦ ح١٦٠٥٨)، وصحح سنده محققوه، وجود سنده الحافظ ابن كثير.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٢٨٢ ح٩٨٥)، وسنده منقطع لأن أبا البختري، واسمه سعيد بن فيروز، لم يسمع علياً ولكن رواه الإمام أحمد موصولاً من طريق أبي البختري عن أبي عبد الرحمن السُّلمي عن علي رضي الله عنه (المسند ٢/ ٢٨٣ ح٩٨٧) وصححه محققوه.

(٦) المصدر السابق.

أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرّم عليهم الخبائث.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى[١].

قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين، وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له، وكذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلى أن المرجع في حلّ المآكل التي لم ينصّ على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته. وفيه كلام طويل أيضاً.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة»[٢].

وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسراً وتطاوعا ولا تختلفا»[٣].

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره[٤].

وقد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»[٥] وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٦] ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت قد فعلت[٧].

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أي: عظموه ووقروه، وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسند حسن من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً (المسند ٤١/٣٤٩ ح٢٤٨٥٥).

(٣) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة البقرة آية ١٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه مطولاً (الصحيح، العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة ح١٢١١).

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٨٤.

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٦٨.

(٧) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما صحيح مسلم، الإيمان، باب بيان أنه تعالى لم يكلف إلا ما يطاق (ح١٢٦).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الله بن العلاء بن زبر، حدثني بُسْر بن عبيد الله، حدثني أبو إدريس الخولاني قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول؛ كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي: غاضب وحاقد. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلّم وجلس إلى النبي ﷺ وقصّ على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر صدقت» انفرد به البخاري(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهنّ نبي قبلي ولا أقوله فخراً بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأعطيت الشفاعة فأخّرتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً»(٢) إسناد جيد ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا قُتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر، عن ابن الهاد، عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . .﴾ [الأعراف: ١٥٨] ح٤٦٤٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٤٧٢ ح٢٧٤٣) وحسنه محققوه بالمتابعة، ولهذا جود سنده الحافظ ابن كثير.

وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهنّ أحد قبلي أمّا أنا فأرسلت إلى الناس كلِّهم عامّة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لمُلئ مني رعباً وأحلّت لي الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحّت وصلّيت، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم، والخامسة هي ما هي قيل لي: سلّ، فإن كل نبي قد سأل، فأخرّت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[١] إسناد جيد قوي أيضاً ولم يخرجوه. وقال أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة»[٢] وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس ـ وهو: سليم بن جبير ـ، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[٤] تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً: بُعثت إلى الأحمر والأسود، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي، ونُصرت بالرعب مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة،وإني قد اختبأت شفاعتي ثم جعلتها لمن مات من أُمتي لم يشرك بالله شيئاً»[٥]. وهذا أيضاً إسناد صحيح ولم أرهم خرجوه والله أعلم، وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضاً، وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضاً من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يطعهنّ أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١١/ ٦٣٩ ح٧٠٦٨)، وحسن سنده محققوه، وصححه المنذري (الترغيب ٤/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٢/ ٣٠٥ ح١٩٥٣٦) وقال محققوه: صحيح لغيره.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وليس عن أبي موسىٰ الأشعري (الصحيح، الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ح١٥٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣٥٠)، وأخرجه مسلم من طريق عمرو عن أبي يونس به (المصدر السابق).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٤١٦)، وصحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٦) صحيح البخاري، كتاب التيمم (ح٣٣٥) وصحيح مسلم، المساجد (ح٥٢١).

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى في قوله ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم.

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ...﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الآية [القصص]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله ﷻ أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا، قال ابن جريج: قال ابن عباس فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء] ووعد الآخرة عيسى ابن مريم قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السَّرب سنة ونصفاً[(١)].

وقال ابن عيينة، عن صدقة أبي الهذيل، عن السدي ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شُهْدٍ[(٢)(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف فقد رواه ابن جريج بلاغاً، وفيه أيضاً الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

(٢) نهر من شُهد: يعني نهر من عسل، قاله الأستاذ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن عيينة به، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق حامد بن يحيىٰ عن ابن عيينة به بلفظ: =

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة[١] وهي مدنية وهذا السياق مكي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا. ولله الحمد والمنة.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة] يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحلّ بهم ما حلّ بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي: أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم[٢].

قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هي قرية يقال: لها أيلة بين مدين والطور[٣]. وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي[٤].

وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة[٥]. وقيل: هي مدين وهو رواية عن ابن عباس[٦]. وقال ابن زيد: هي قرية يقال لها: مقنا بين مدين وعينونى[٧][٨].

= بينكم وبينهم نهر من سهل، قال حامد: سهل نهر من رمل يجري، وكذا نقله السيوطي في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم، وفي سنديهما صدقة أبو الهذيل ذكره ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح ٢/ ٤٣٣).

(١) سورة البقرة: ٦٠، ٦١.

(٢) أي البحر الأحمر، وتقع في شماله.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وفيه عنعنة بن إسحاق، وداود ثقة إلا في عكرمة، ولكن معناه صحيح، وتشهد له الآثار التالية.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري بسندصحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف، ويتقوى بسابقه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس، وداود ثقة إلا في عكرمة، ولعله بسببه الخلاف عن ابن عباس فتارة يروي أنها أيلة كما سبق، وهنا إنها مدين.

(٧) هي قرية من قرى بيت المقدس (معجم البلدان ٣/ ٧٩٥).

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ظاهرة من كل مكان(٢).

قال ابن جرير، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام(٣).

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»(٤). وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه، وباقي رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة(٥)، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذه معذرةٌ وقرأ آخرون بالنصب(٦) أي نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ﴾ فنصّ على نجاة الناهين

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف لأن الضحاك لم يسمع ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به. (٣) ذكره الطبري بنحوه.

(٤) أخرجه ابن بطة بسنده ومتنه (إبطال الحيل ص٤٦، ٤٧)، وجود سنده الحافظ ابن كثير، وقد تقدم ذكره في سورة البقرة آية ٦٥ - ٦٦، وحسنه السخاوي في (الفتاوىٰ الحديثية ص٢٣٦).

(٥) آية ٦٥ - ٦٦. (٦) وكلا القراءتين متواترة.

وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها: أيلة، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم، فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حقّ عليهم العذاب ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشدّ غضباً لله من الطائفة الأخرى فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وكلّ قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة[١].

وروى العوفي عن ابن عباس قريباً من هذا[٢].

وقال حماد بن زيد، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في الآية، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرَّفته أنهم قد نجوا فكساني حلّة[٣].

وقال عبد الرزاق[٤]: أخبرنا ابن جريج، حدثني، رجل، عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في سورة الأعراف. قال تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حيّ من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كدّ ومؤنة شديدة كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضاء سماناً كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهِيتُم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون: ويلكم، الله، الله، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال الأيمنون: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به، ويتقوىٰ بسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حماد بن زيد به.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام شيخ ابن جريج.

أي ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم، فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله، والله لا نبايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله، قردة والله تعادى تعاوى لها أذناب قال: ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي فيقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي نعم ثم قرأ ابن عباس ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت: جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم؟ وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين(١). وكذا روى مجاهد عنه(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال: زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] قال: كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ لذلك رجل خيطاً ووتداً فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم فإنه جلد حوت وجدناه، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك، ولا أدري لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاؤوا فسألوه فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك، وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوروا عليهم فإذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به(٣).

وقد قدمنا في سورة البقرة(٤) من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة.

(القول الثاني): أن الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبري بنحوه، وسندهما ضعيف لإبهام شيخ ابن جريج، ولبعضه شواهد سابقة ولاحقة، والرواية إسرائيلية.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مختصراً.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح، لكنه من روايات أهل الكتاب.

(٤) آية ٦٥ _ ٦٦.

رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية قال: فقالت: طائفة للذين ينهونهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قال ابن عباس: كانوا ثلاثاً؛ ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم[(١)]، وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. وبئيس فيه قراءات كثيرة[(٢)] ومعناه في قول مجاهد: الشديد[(٣)]. وفي رواية: أليم[(٤)].

وقال قتادة: موجع[(٥)]. والكل متقارب والله أعلم، وقوله: ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿تَأَذَّنَ﴾ تفعل من الأذان، أي: أعلم قاله مجاهد[(٦)]، وقال غيره: أمر، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أُتبعت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى ﷺ ضرب عليهم الخراج، سبع سنين[(٧)]، وقيل ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية.

قال العوفي، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم[(٨)].

وقال علي بن أبي طلحة، عنه: هي الجزية والذي يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم مقطعاً من طريق ابن إسحاق به، وجود سنده الحافظ ابن كثير، ولعله بطرقه المتعددة.

(٢) المتواتر منها: بئسٍ، بِيْسٍ، بئيسٍ، بيئسٍ.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عيسىٰ بن ميمون عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «أمرَ ربك».

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن سعيد بن جبير، فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف، والرواية من أخبار أهل الكتاب.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويشهد له لاحقه.

وأُمته إلى يوم القيامة[١]. وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقتادة[٢].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية[٣]. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه وخالف شرعه ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

يذكر تعالى أنه فرقّهم في الأرض أمماً أي: طوائف وفرقاً كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فيهم الصالح وغير ذلك كقول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أي: اختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ الآية يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة.

وقال مجاهد: هم النصارى[٤]. وقد يكون أعم من ذلك ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله فإن عرض ذلك الذنب أخذوه[٥].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة[٦].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، وقال قتادة في الآية: إي واللهِ لخلفُ سوء

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) قول قتادة والسدي أخرجه الطبري بإسنادين ثابتين، وقول سعيد بن جبير وابن جريج أخرجه الطبري بإسنادين ضعيفين، ويتقويان بما سبق.

(٣) رجاله ثقات وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند حسن من طريق منصور، وهو ابن المعتمر، عن سعيد بن جبير.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله تعالى في آية أخرى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩] قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ تمنوا على الله أماني و«غرة» يغترون بها ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء ولا ينهاهم شيء عن ذلك كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالاً كان أو حراماً(١).

وقال السدي: قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ ما فيه، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه(٢). قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الآية يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنبوهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤](٤).

وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾(٥).

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع ابن عباس.
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به بلفظ: «خذوا ما آتيناكم بقوة وإلا أرسلته عليكم».
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سفيان به، وسنده حسن.

وقال القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم رواه النسائي[1] بطوله.

وقال سُنيد بن داود في تفسيره: عن حجاج بن محمد، عن أبي بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها؟ فراجعوه مراراً، فأوحى الله إلى الجبل، فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خرّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فَرقاً[2] من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر. يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تُقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه [أي حوّل كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أي: يحركونها][3].

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية على هذه الملة - فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء»[4] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[5].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي من طريق القاسم به مطولاً وهو جزء من حديث الفتون (السنن الكبرىٰ، التفسير باب قوله عز وجل: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾ [طه: ٤٠] ح١١٣٢٦)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٦٥ - ٦٦).

(٢) أي خوفاً.

(٣) زيادة من نسخة (عم).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩.

(٥) تقدم تخريجه كسابقه.

السري بن يحيى، أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم، عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية». فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين ألا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها» قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية[١].

وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية، عن يونس بن عبيد، عن الحسن البصري به، وأخرجه النسائي في سننه من حديث هشيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن قال: حدثني الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك[٢].

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي»[٣] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به[٤].

(حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا جرير - يعني: ابن حازم -، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم[٥] عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها[٦]، فنثرها بين يديه [كالذرّ][٧] ثم كلمهم قِبلاً[٨] قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٩] وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده منقطع لأن الحسن لم يسمع من الأسود لكنه صرح بالتحديث فأخرجه الإمام أحمد من طريق محمد بن جعفر عن السري بن يحيىٰ به بدون كلام الحسن في آخره، (المسند ٢٦/ ٢٣١ ح١٦٣٠٣) وضعفه محققوه لانقطاعه رغم تصريح الحسن بالسماع من الأسود، وقد أخرجه البخاري من طريق الحسن البصري مصرحاً بالسماع من الأسود (التاريخ الكبير ١/ ٤٤٥).

(٢) المسند ٣/ ٤٣٥، والسنن الكبرىٰ، السير، باب النهي عن قتل ذراري المشركين (ح٨٦١٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١٢٧) وسنده صحيح.

(٤) صحيح البخاري، الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (ح٣٣٣٤)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب طلب الكافر الفداء... (ح٢٨٠٥).

(٥) ظهر آدم أي: ذريته، سُمِّي ظهر لخروجهم منه. (٦) ذرأها: أي خلقها في ظهره وأودعها فيه.

(٧) زيادة من المسند، والذرّ: واحدها بذرة، قيل: هي النملة وقيل: غير ذلك.

(٨) قِبَلا: أي عيانا ومقابلة.

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٢٦٧ ح٢٤٥٥)، قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبر فمن رجال مسلم.اهـ. وكلثوم بن جبر: صدوق يخطئ (التقريب ص٤٦٢) وأظنه هو الذي =

سننه عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حسين بن محمد المروذي به، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره، عن جرير بن حازم، عن كلثوم بن جبر به، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر(١)، هكذا قال، وقد رواه عبد الوارث، عن كلثوم بن جبر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فوقفه(٢)، وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم ابن جبر، عن أبيه به(٣)، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس(٤) فهذا أكثر وأثبت. والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبي، عن أبي هلال، عن أبي جمرة الضبعي، عن ابن عباس قال: أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء.

وقال أيضاً: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا أبو مسعود، عن جويبر قال: مات ابن الضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال: فقال: يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحلّ عنه عقده، فإن ابني مُجْلِس ومسؤول، ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله عما يسأل ابنك من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت: يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذٍ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفّى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يُقرّ به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة(٥). فهذه الطرق كلها مما تقوي وقف هذا على ابن عباس، والله أعلم.

(حديث آخر) قال ابن جرير: حدثنا عبد الرحمٰن بن الوليد، حدثنا أحمد بن أبي طيبة، عن سفيان بن سعيد، عن الأجلح، عن الضحاك، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾؟ قالت الملائكة: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾(٦). أحمد بن أبي طيبة هذا هو: أبو محمد الجرجاني

= رفعه لأن ابن أبي حاتم رواه موقوفاً وكذا الطبري وابن سعد كما سيأتي، فكلثوم تارة يرفعه وتارة يوقفه، وبما أنه صح موقوفاً فله حكم الرفع لأنه من الغيبيات، والحافظ ابن كثير قرر أن الوقف أكثر وأثبت كما سيأتي.

(١) ووافقه الذهبي، المستدرك ٢/ ٥٤٤ ووافقه الذهبي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٦٢٣).

(٢) أخرجه الطبري من طريق عبد الوارث عن كلثوم به.

(٣) أخرجه ابن سعد عن ابن علية به (الطبقات الكبرىٰ ١/ ٢٥).

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من هذه الطرق موقوفاً أيضاً.

(٥) أخرجه الطبري من طريق جويبر به، وسنده ضعيف لضعف جويبر وأن الضحاك لم يلق ابن عباس، ويتقوىٰ بسابقه.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده أحمد بن أبي طيبة فيه مقال كما قرر الحافظ ابن كثير والأصح =

قاضي قومس كان أحد الزهاد أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي: يكتب حديثه. وقال ابن عدي: حدث بأحاديث كثيرة غرائب وقد روى هذا الحديث عبد الرحمٰن بن مهدي، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، وكذا رواه ابن جرير عن منصور به[١] وهذا أصح والله أعلم.

(**حديث آخر**) قال الإمام أحمد: حدثنا روح ـ هو: ابن عبادة ـ، حدثنا مالك. وحدثنا إسحاق، حدثنا مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، أن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني، أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية. قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»[٢]. وهكذا رواه أبو داود، عن القعنبي والنسائي، عن قتيبة والترمذي في تفسيرهما، عن إسحاق بن موسى، عن معن. وابن أبي حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب. وابن جرير، عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به، قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة[٣].

وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه، عن محمد بن مصفى، عن بقية، عن عمر بن جعثم القرشي، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فذكره[٤]. وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمرُ بنَ جعثم يزيدُ بنُ سنان أبو فروة الرهاوي، وقولهما أولى بالصواب

= وقفه، فقد أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يحيىٰ بن يمان عن سفيان به موقوفاً على عبد الله بن عمرو، ولكن له حكم الرفع كسابقه.

(١) الذي في الطبري من طريق يحيىٰ بن سعيد عن سفيان به، وليس عن عبد الرحمن بن مهدي، وقد يكون ذلك في نسخة الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٣٩٩، ٤٠٠ ح٣١١)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف، مسلم بن يسار الجهني لم يسمع من عمر.اهـ. وهذا التصحيح بالشواهد. وضعف سنده ابن عبد البر ثم قال: ولكن معنىٰ الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها (التمهيد ٦/ ٣ ـ ١٢).

(٣) سنن أبي داود، السنة، باب في القدر (ح٤٧٠٣)، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأعراف (ح٣٠٧٥) والسنن الكبرىٰ للنسائي كتاب التفسير (ح١١١٩٠) وتفسير ابن أبي حاتم.

(٤) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القدر (ح٤٧٠٤).

من قول مالك والله أعلم[١].

قلت: الظاهر أن الإمام مالكاً إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمداً لما جهل حال نعيم بن ربيعة ولم يعرفه فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم، ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم.

(**حديث آخر**) قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم، حدثنا هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم فقال: أي ربِّ من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال: أي ربِّ من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأُمم من ذريتك يُقال له: داود. قال ربِّ وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي ربِّ وقد وهبت له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ[٢]. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين به وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[٣].

ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه حدث، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم: يا ربِّ لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كي تشكر نعمتي. وقال آدم: يا ربّ من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نوراً؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك» ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم[٤].

(**حديث آخر**) قال عبد الرحمٰن بن قتادة النصري، عن أبيه، عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسّرون لعمل أهل النار» رواه ابن جرير[٥] وابن مردويه من طرق عنه.

---

(١) العلل للدارقطني ٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٣.
(٢) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأعراف (ح٣٠٧٦) وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٤٥٩).
(٣) ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٥).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن.
(٥) أخرجه الطبري من عدة عدة طرق عن عبد الرحمن بن قتادة به وفي سنده اضطراب وقد أفاض الأستاذ أحمد شاكر في ضبط سنده ثم ختم بقوله: وبعد ذلك كله فمعنىٰ الحديث صحيح مروي عن جماعة من الصحابة بأسانيد ليس فيها هذا الاضطراب.

(حديث آخر) روى جعفر بن الزبير ـ وهو ضعيف ـ، عن القاسم، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين، فقالوا: لبيك وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: يا أصحاب الشمال، قالوا: لبيك وسعديك، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم خلط بينهم فقال قائل له: يا ربِّ لِمَ خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم في صلب آدم» رواه ابن مردويه[(١)].

(أثر آخر) قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، قال: فجمعهم له يومئذٍ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم، فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية قال: فإني أُشهد عليكم السمٰوات السبع والأرضين السبع، وأُشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا ربّ غيري ولا تشركوا بي شيئاً، وإني سأرسل إليكم رسلاً لينذروكم عهدي وميثاقي وأُنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذٍ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا ربّ لو سويت بين عبادك؟ قال: إني أحببت أن أشكر، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذي يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب] وهو الذي يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠] ومن ذلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ [النجم] ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾ [الأعراف][(٢)] رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية أبي جعفر الرازي به.

وروي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار[(٣)] كلها وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار، أما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر، عن سعيد بن

---

(١) سنده ضعيف لضعف جعفر بن الزبير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي به، وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق سليمان بن يعقوب الربالي عن الربيع به بنحوه وفيه بعض النكارة (المسند ٣٥/ ١٥٥ ح٢١٢٣٢) وضعفه محققوه لضعف سليمان. وسند ابن أبي حاتم أقوى وأجود.

(٣) وتخريج الأحاديث كذلك يغني عن تخريج تلك الآثار.

جبير، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثَم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع وقد فسّر الحسن الآية بذلك قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] [وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]][(١)] وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات] كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كما في قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كافٍ في وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جُعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧﴾.

قال عبد الرزاق: عن سفيان الثوري، عن الأعمش ومنصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآية قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن باعوراء[(٢)]. وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به[(٣)].

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن ابن عباس: هو صيفي بن الراهب[(٤)].

---

(١) زيادة من (حم) و(عم) و(مح).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن منصور به، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن بشير عن قتادة به، وقتادة لم يسمع ابن عباس وسعيد ضعيف، فسنده ضعيف، ويخالف ما ثبت عن ابن عباس أنه: بلعم.

قال قتادة وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين(١).

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنه: هو رجل من أهل اليمن يقال له: بلعم آتاه الله آياته فتركها(٢).

وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل وكان مُجابٌ الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام(٣).

وقال سفيان بن عيينة، عن حصين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء(٤)، وكذا قال مجاهد وعكرمة(٥).

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا إسرائيل، عن مغيرة، عن مجاهد عن ابن عباس قال: هو بلعام. وقالت ثقيف: هو أُمية بن أبي الصلت(٦).

وقال شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن نافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية قال: هو صاحبكم أُمية بن أبي الصلت(٧). وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه وكأنه إنما أراد أن أُمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا [ابن أبي عمر](٨)، حدثنا سفيان، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد فقالت: اجعل لي منها واحدة، قال: فلك واحدة فما الذي تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بقول ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار.

(٤) سنده حسن، وحصين هو ابن عبد الرحمن الأشهلي.

(٥) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند ضعيف ويتقوى بما سبق.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٧) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي عدي عن شعبة، وسنده حسن، قال الهيتمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٧/ ٢٨)، وصححه الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٨) كذا في (حم) و(عم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل تصحفت إلى: «ابن أبي نمر».

بني إسرائيل، فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر، فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان، فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها، فادع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله فعادت كما كانت، وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس[1]، غريب.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر[2].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف: كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه[3].

وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال: كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها، حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه ـ يعني: بلعم ـ أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يردّ عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يردّ موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[4].

وقال السدي: لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦] بعث يوشع بن نون نبياً، فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعام فكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر ـ لعنه الله ـ وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن، فكان ينكح أتاناً[5] له وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه بنحوه، وسنده ضعيف لضعف أبي سعد البقال الأعور وهو مدلس أيضاً.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به. (٥) الأتان: أنثى الحمار.
(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وهذه الرواية أيضاً من الإسرائيليات كسابقاتها.

حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا محمد بن بكر، عن الصلت بن بهرام، حدثنا الحسن، حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني: ابن اليمان ﵁ حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك» قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»[(١)].

هذا إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يُرمَ بشيء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى، وقال [أبو الزاهرية][(٢)] في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة [بايناس][(٣)]، فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان[(٤)]، وكذا قال عبد الرحمٰن بن جبير بن نفير وغير واحد[(٥)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ﵀: وكان من قصة هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له: بلعام وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال: الشام قال: فرعب الناس منه رعباً شديداً فأتوا بلعام فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه، قال: حتى أؤامر ربي أو حتى أوامر، قال فوامر في الدعاء عليهم فقيل له: لا تدعوا عليهم فإنهم عبادي وفيهم نبيهم، قال: فقال لقومه: إني قد وامرت ربي في الدعاى عليهم. وإني قد نهيت فأهدوا له هدية، فقبلها ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم فقال: حتى فوامر ربي، فأمر فلم يأمره بشيء فقال: قد وامرت فلم يأمرني بشيء فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى، قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحواً من ذلك إن شاء الله، قال: فقالوا: ما نراك تدعو إلا علينا، قال: ما يجري على لساني إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لي ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه

---

(١) أخرجه البزار من طريق محمد بن مرزوق به كما في مختصر زوائد البزار (ح١٣١) وحسنه الهيثمي (المجمع ١/ ١٨٨) وأخرجه ابن حبان من طريق أبي يعلىٰ به (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ح٨١) وجود سنده الحافظ ابن كثير.

(٢) كذا في (حم) و(عم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صحفت إلى: «أبو الراهوية»، وفي «مح»: أبو الزهرا. وأبو الزاهرية هو: حدير بن كريب.

(٣) كذا في (عم)، وفي (حم) وتفسير ابن أبي حاتم: بليناس، وفي الأصل: «باساس»، وفي (مح): «الساس».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق شريح بن عبيد، عن أبي الزاهرية.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير مختصراً.

هلاكهم، إن الله يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله، فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا قال: ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال: وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما الله أعلم به فقال: فقال أبوها أو بلعام: لا تمكني نفسك إلا من موسى، قال: ووقعوا في الزنا قال: فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكّنة نفسي إلا من موسى: قال: فقال: إن منزلتي كذا وكذا وإن من حالي كذا وكذا، فأرسلت إلىٰ أبيها تستأمره قال: فقال لها: فأمكنيه، قال: ويأتيهما رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنهما. قال: وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعاً ورفعهما على رمحه فرآهما الناس - أو كما حدث - قال: وسلّط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً. قال أبو المعتمر: فحدثني سيار أن بلعاماً ركب حمارة له حتى أتى العلولي أو قال طريقاً من العلولي جعل يضربها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت: علام تضربني؟ أما ترى هذا الذي بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه قال: فنزل وسجد له قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ - إلى قوله - ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال: فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره[1].

(قلت): هو بلعام ويقال: بلعم بن باعوراء ويقال: ابن أبر، ويقال: ابن باعور بن شهتوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران، ويقال: ابن حران بن آزر، وكان يسكن قرية من قرى البلقاء.

قال ابن عساكر: وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلخ من دينه له ذكر في القرآن ثم أورد من قصته نحواً مما ذكرناه هاهنا أورده عن وهب وغيره والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلُّها بني إسرائيل، وإنّا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم، قال: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ قالوا له: ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حُسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم ينزع عنها يضربها فخلّى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، قال: واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ونحو متنه، والرواية فيها ضعف كما صرح في آخره أبو المعتمر: ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره.اهـ. وعلى كل حال فإن الرواية إسرائيلية لا تستحق الذكر إلا على سبيل التحذير.

قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جَمِلّوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومروهنّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا فلما دخلت النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبى ـ ابنة صور رأس أمته ـ برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبّته فوقع عليها وأرسل الله ﷻ الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس فيهم، فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحييه ـ وكان بِكْرِ العيزار ـ، وجعل يقول: اللّهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من النهار، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها، لأنه كان بكر أبيه العيزار، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم أبي النضر أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر.

وقيل: معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهيثه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ونحو ذلك.

وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سُئل به

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به نحوه، وفيه عنعنة ابن إسحاق، والرواية من أهل الكتاب.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن الحسن.

أعطى، وإذا دُعي به أجاب في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمٰن وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميّزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يقول تعالى: ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»[(١)].

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الرّكون إلى دار البلى، والإقبال على التحصيل اللّذات وموافقة الهوى.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضلَّ له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضلَّ له ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم[(٢)].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري، الهبة، باب لا يحلّ لأحد أن يرجع في هبته (ح٢٦٢٢).

(٢) أخرجه أبو داود، السنن، الصلاة، باب الرجل يخطب على قوس (ح١٠٩٧)، والترمذي في سننه، النكاح، باب خطبة النكاح (ح١١٠٥)، وحسنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٨٨٢)، وأخرجه النسائي في سننه، النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح ٦/ ٨٩، وسنن ابن ماجه، النكاح، باب خطبة النكاح (ح١٨٩٢)، والإمام أحمد في (المسند ٦/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣ ح٣٧٢٠) وصححه محققوه.

(٣) صحيح مسلم، القدر، باب حِجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام (ح٢٦٥٣).

وفي صحيح مسلم أيضاً: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعي النبي ﷺ إلى جنازة صبيّ من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»(١)، وفي الصحيحن من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد»(٢) وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»(٣) والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة] هذا في حق المنافقين. وقال في حق الكافرين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال] وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١] أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول. ولهذا قال في هؤلاء ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدوابِّ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنسَ بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدوابُّ أتمَّ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة

---

(١) صحيح مسلم، القدر، باب معنىٰ كل مولود يولد على الفطرة (ح٢٦٦٢).
(٢) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (ح٣٢٠٨)، وصحيح مسلم، القدر، الحديث الأول (٢٦٤٣).
(٣) تقدم في تفسير الآية ١٧٢ من هذه السورة الكريمة.

عن أبي الزناد عن الأعرج عنه[١]، ورواه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد به[٢]، وأخرجه الترمذي في جامعه عن الجوزجاني عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار، المتكبّر الخالق البارئ المصوّر الغفّار، القهّار الوهّاب الرزّاق الفتّاح العليم القابض الباسط، الخافض الرافع المعزّ المذل السميع البصير، الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور، الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم، الرقيب المجيب الواسع الحكيم، الودود المجيد الباعث الشهيد الحق، الوكيل القويّ المتين الوليّ الحميد المحصيّ المبدّئ المعيد، المحيّي المميت، الحيّ القيّوم الواجد الماجد الواحد الأحد، الفرد الصمد، القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر، الظاهر الباطن الوالي المتعالي، البر التواب المنتقم العفو الرؤوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني، المانع الضّار النافع، النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور» ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب[٣]. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به[٤].

وقد رواه ابن ماجه في سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً فسرد الأسماء كنحو مما تقدم بزيادة ونقصان[٥]، والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مُدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي أنهم جمعوها من القرآن. كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي[٦]، والله أعلم.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمٰن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود ﵁، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب

---

(١) صحيح البخاري، الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحدة (ح٦٤١٠)، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى (ح٢٦٧٧).

(٢) صحيح البخاري، الشروط، باب المكاتب وما لا يحل من الشروط التي تخالف كتاب الله (ح٢٧٣٦).

(٣) السنن، الدعوات، باب رقم ٨٣ (ح٣٥٠٧)، وقد حرر ابن كثير الحكم على هذه الرواية بأن سرد هذه الأسماء مدرج من الرواة وليس عن النبي ﷺ، وقرر أنها ليست منحصرة في التسعة والتسعين كما سيأتي.

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (ح٨٠٨).

(٥) سنن ابن ماجه، الدعاء، باب أسماء الله ﷻ: (ح٣٨٦١)، وضعفه البوصيري لضعف عبد الملك بن محمد الصنعاني إذ يرويه عن زهير بن محمد التميمي عن موسى بن عقبة به.

(٦) قال الحافظ ابن حجر: وروينا في «فوائد تمام» من طريق أبي طاهر بن السرح عن حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث يعني حديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً» فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال: نعم هي هذه... (الفتح ١١/٢١٧).

أحداً قط همّ ولا حزن فقال: اللَّهم إن عبدك ابن أَمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً» فقيل يا رسول الله: أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»[(١)] وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله[(٢)].

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوذي في شرح الترمذي»[(٣)] أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال: إلحاد الملحدين أن دَعوا اللّات في أسماء الله[(٤)].

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال اشتقّوا اللات من الله، والعزى من العزيز[(٥)].

وقال قتادة: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ يشركون في أسمائه[(٦)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب[(٧)].

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللّحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر[(٨)].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: بعض الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون.

وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية، قال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية: بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف]»[(٩)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٢٤٦ ح٣٧١٢)، وضعفه محققوه اعتماداً على تضعيف الدارقطني في العلل ٥/ ٢٠١.
(٢) موارد الظمآن بزوائد ابن حبان (ح٢٣٧٢).
(٣) وهو كتاب: عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به وهو لم يسمع مجاهد.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.
(٨) ذكره الطبري بنحوه.
(٩) أخرجه الطبري من طريق سعيد به، وسنده ضعيف للإرسال.

وقال أبو جعفر الرزاي: عن الربيع بن أنس في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أُمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل»(١).

وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة»(٢) وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» وفي رواية: «وهم بالشام».

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام] ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ﴾ أي: وسأملي لهم، أي أطول لهم ما هم فيه، ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: قوي شديد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير] وقال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ] يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً.

وقال قتادة بن دعامة: ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً، فجعل يُفخِّذهم فخذاً فخذاً يا بني فلان، يا بني فلان فحذَّرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي جعفر الرازي به وسنده ضعيف كسابقه.

(٢) صحيح البخاري، المناقب، باب ٢٨ (ح٣٦٤١) وصحيح مسلم، الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي...» (ح١٠٣٧).

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وسنده ضعيف بسبب إرسال قتادة.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

يقول تعالى: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السمٰوات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما؟ فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، ويُنيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله ﷻ؟

وقد روى الإمام أحمد: عن حسن بن موسى وعفّان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، كلهم عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي كذا، فلما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقي فإذا أنا برعد وبرق وصواعق، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيّات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السمٰوات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب»[(١)]. علي بن زيد بن جدعان له منكرات.

ثم قال تعالى:

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وكما قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت في قريش[(٢)]، وقيل: في نفر من اليهود[(٣)]، والأول أشبه لأن الآية مكية،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣٥٣)، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن عن قتادة لكنه مرسل، ورجحه الحافظ ابن كثير، أما الطبري فاحتمل الوجهين.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن إسحاق قال حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن =

وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يس] وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى].

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: منتهاها[١]. أي: متى محطّها؟ وأيّان آخر مدة الدنيا؟ الذي هو أول وقت الساعة ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يردَّ علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجلّيها لوقتها أي يعلم جليّة أمرها ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

قال عبد الرزاق: عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السمٰوات والأرض أنهم لا يعلمون، قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثقُلت على أهل السمٰوات والأرض، يقول: كبُرت عليهم[٢].

وقال الضحاك: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة[٣].

وقال ابن جريج: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء وانتثرت النجوم، وكُورت الشمس، وسُيرت الجبال، وكان ما قال الله ﷻ، فذلك ثقلها[٤]، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثقل علم وقتها على أهل السمٰوات والأرض كما قال قتادة، وهو كما قالاه كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السمٰوات والأرض، والله أعلم.

وقال السدي: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يقول: خَفيت في السمٰوات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ يبغتهم قيامها تأتيهم على غفلة[٥].

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾: قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ قال: وذُكر لنا أن نبي الله كان يقول: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفض ميزانه ويرفعه»[٦].

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، أنبأنا أبو الزناد، عن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها

= سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه إذ ذكر أسماء النفر من اليهود.

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به. (٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٣) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد وهو ابن أبي عروبة، أما الحديث المرفوع فهو ضعيف لأنه مرسل.

الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»(١).

وقال مسلم في صحيحه: حدثني زهير بن حرب، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة يبلغ به، قال: تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم(٢).

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه:

فقيل: معناه كما قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً(٣).

وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾(٤). وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي(٥)، وهذا قول.

والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها(٦)، وكذا قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأنك عالم بها لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(٧).

وقال [معمر](٨)، عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك عالم بها(٩).

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤](١٠)، وهذا القول أرجح في

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، الرقاق، باب رقم ٤٠ ح٦٥٠٦).
(٢) صحيح مسلم، الفتن، باب قرب الساعة (ح٢٩٥٤).
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٤) أخرجه الطبري بسند مرسل عن قتادة، ويتقوىٰ بالآثار التالية.
(٥) قول مجاهد سيأتي في الذي يليه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول أبي مالك أخرجه الطبري بسند حسن، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.
(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وسنده صحيح.
(٧) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.
(٨) كذا في (حم) و(مح) و(عم) وفي الأصل صحفت إلى: «يعمر».
(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق محمد بن ثور عن معمر.
(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

المقام من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلّم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك ولا أحد بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية[(١)] [لقمان: ٣٤].

وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة، فبيّن له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمس لا يعلمهن إلا الله» وقرأ هذه الآية، وفي هذا كلّه يقول له بعد كل جواب: صدقت، ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» وفي رواية قال: «وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه»[(٢)] وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»، فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث[(٣)]، وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: المرء مع من أحب» وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين، ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعيين وقته. ولهذا قال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبو أُسامة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم» يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة[(٤)].

ثم قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يونس بن محمد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» انفرد به مسلم[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري، الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (ح٥٠)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام... (ح٥).
(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (المسند ١/ ٤٣٩ - ٤٤٠ ح٣٧٤) وصحح سنده محققوه.
(٣) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب عمر رضي الله عنه (ح٣٦٨٨) وصحيح مسلم، البر والصلة، باب المرء مع من أحب (ح٢٦٣٩).
(٤) صحيح مسلم، الفتن، باب قرب الساعة (ح٢٩٥٢).
(٥) صحيح مسلم، الفتن، باب قرب الساعة (ح٢٩٥٣).

وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا سعيد بن أبي هلال المصري، عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزدشنوءة فقال: «إن عُمِّر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» قال أنس: ذلك الغلام من أترابي[١].

وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن أنس قال: مرّ غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابي فقال النبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة»[٢]. ورواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه عن عمرو بن عاصم، عن همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس، أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفي آخره: فمرّ غلام للمغيرة بن شعبة وذكره[٣]، وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم في حديث عائشة ﷺ.

وقال ابن جريج: أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة». رواه مسلم[٤].

وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام، عن جبلة بن سحيم، عن مؤثر بن [عفازة][٦] عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة قال: فردّوا أمرهم إلى إبراهيم ﷺ، فقال: لا علم لي بها، فردّوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها فردّوا أمرهم إلى عيسى فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ﷻ، وفيما عهد إلي ربي ﷻ أن الدجال خارج. قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله ﷻ إذا رآني حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله ﷻ ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطأون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه: قال: ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم فأدعو الله ﷻ عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أي تنتن، قال: فينزل الله ﷻ المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر.

قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال وتُمد الأرض مدَّ الأديم، ثم رجع

---

(١) (٢) أخرجهما الإمام مسلم، الصحيح، الفتن، باب قرب الساعة (ح٢٩٥٣/١٣٧ وح٢٩٥٣/١٣٨).
(٣) صحيح البخاري، الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك (ح٦١٦٧).
(٤) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسه اليوم» (ح٢٥٣٨).
(٥) صحيح البخاري، العلم، باب السمر في العلم (ح١١٦) وصحيح مسلم، الباب السابق (ح٢٥٣٧).
(٦) كذا في (عم) و(حم) و(مح) ومسند أحمد، وفي الأصل صحفت إلى: «عثمان».

إلى حديث هشيم، قال: ففيما عهد إليَّ ربي ﷻ أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتمم لا يدري أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلاً أو نهاراً[١].

ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده نحوه، فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردّوا الأمر إلى عيسى ﷺ، فتكلم على أشراطها لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا عبيد بن إياد بن لَقيط، قال: سمعت أبي يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي ﷻ لا يجلّيها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً» قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج؟ قال: «بلسان الحبشة القتل» قال: «ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحداً»[٢] لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

وقال وكيع: حدثنا ابن أبي خالد، عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الآية، ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبي خالد به[٣]، وهذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة والعاقب والمقفِّي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها[٤]، ومع هذا كله قد أمره الله أن يردّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا

---

(١) تقدم تخريجه وتحسينه في تفسير سورة النساء آية ١٥٩ ضمن ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسىٰ بن مريم إلى الأرض من السماء. وقد ضعفه محققو المسند ٦/ ٢٠ (ح٣٥٥٦)، لأنهم جعلوا مؤثر بن عفازة مجهولاً، وقد ردّ على مثل هذه المقالة الإمام الحاكم كما فُصِّل هناك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/ ٣٣٥ ح٢٣٣٠٦)، وصحح سنده محققوه لغيره بالشواهد لأن إياد بن لَقيط لم يسمع حذيفة.

(٣) أخرجه الطبري من طريق وكيع به، وأخرجه النسائي من طريق عيسىٰ بن يونس عن ابن أبي خالد به (السنن الكبرى ح١١٦٤٥)، وله شاهد أخرجه الحاكم من حديث عائشة ﵂ وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥١٣)، ولهذا قال عنه الحافظ ابن كثير: إسناد جيد قوي.

(٤) حديث أنس أخرجه البخاري، الصحيح، الرقاق، باب قول النبي ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين (ح٦٥٠٤)، ومسلم، الصحيح، الفتن، باب قرب الساعة (ح٢٩٥١)، وحديث سهل أخرجه البخاري، الصحيح الباب السابق (ح٦٥٠٣)، ومسلم، الصحيح، الباب السابق (ح٢٩٥٠).

اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾.

قال عبد الرزاق: عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قال: لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً[(١)]. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد[(٢)]، وقال مثله ابن جريج[(٣)]، وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة[(٤)]، وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبته[(٥)]، فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله ﷻ في جميع أحواله، اللّهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: من المال[(٦)].

وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ ولا يصيبني الفقر[(٧)].

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص[(٨)].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشرّ قبل أن يكون واتقيته[(٩)].

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم].

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

ينبّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم ﷺ. وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الرزاق به.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف ويشهد له سابقه.
(٤) أخرجه البخاري بسنده عن عائشة كان عمله ديمه (الصحيح، الصوم، باب هل يخص شيئاً من الأيام؟ ح١٩٨٧)، وأخرجه مسلم (الصحيح، باب فضيلة العمل الدائم... ح٧٨٣).
(٥) أخرجه أبو داود بسنده عن عائشة (السنن، الصلاة، باب ما يؤمر من القصد في الصلاة ح١٣٦٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٢١٩).
(٦) (٧) أخرجهما ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك به، وهو لم يلق ابن عباس.
(٨) ذكره الطبري بنحوه.
(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية [النساء: ١]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله[١]، وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه[٢].

وقال [عمرو بن][٣] ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته[٤]. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي إنما هي فاستمرّت[٥] به. وقال قتادة: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ استبان حملها[٦].

وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت[٧].

وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكّت أحملت أم لا؟[٨] ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها[٩] ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة[١٠]، وكذلك قال أبو البَخْتَرِي وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً[١١].

وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾[١٢]. ذكر المفسرون هٰهنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) قول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٣) ما بين معقوفين زيادة من تفسير ابن أبي حاتم، إذ تفرد به ابن أبي حاتم بذلك، وذكره السيوطي ونسبه إلى ابن أبي حاتم فقط.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) ذكره الطبري بلفظه.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الضحاك به، لأنه لم يلق ابن عباس.

(١١) ذكرهما ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول أبي البَختري أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(١٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»[١]. وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار بندار، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية، عن محمد بن المثنى، عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً[٢].

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً، قلت: وشاذ هو هلال، وشاذ لقبه، والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

(أحدها): أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً[٣]، فالله أعلم.

(الثاني): أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، [حدثنا بكر بن عبد الله بن سليمان التيمي][٤] عن أبي العلاء بن الشخير، عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه: عبد الحارث[٥].

(الثالث): أن الحسن نفسه فسّر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٣/ ٣٠٥ ح٢٠١١٧)، وضعفه محققوه لضعف رواية عمر بن إبراهيم عن قتادة.اهـ.
وقال الذهبي: حديث منكر (ميزان الاعتدال ت٦٠٤٢)، وقد سرد علله الحافظ ابن كثير كما سيأتي.
تنبيه: الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا﴾ يعود إلى المشركين من ذرية آدم وحواء. وهذه الآية من قبيل الموصول لفظاً المقطوع معنىً (ينظر الاتقان في علوم القرآن النوع التاسع والعشرون ١/ ١١٨).

(٢) تفسير الطبري وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الأعراف (ح٣٠٧٧) والمستدرك ٢/ ٥٤٥.

(٣) وفيه أيضاً الحسن وسماعه لهذا الحديث عن سمرة لم يثبت.

(٤) ما بين معقوفين كذا في النسخ الخطية وأراه مقحماً فإن النسخ المحققة والمطبوعة من تفسير الطبري لا يوجد فيها هذا الاسم، وكذلك فإن والد معتمر هو سليمان بن طرخان يروي مباشرة عن أبي العلاء بن الشخير ويروي عنه ابنه كما في (تهذيب التهذيب ٤/ ٢٠١).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه ولكن بدون ذكر بكر بن عبد الله بن سليمان التيمي.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده الحافظ ابن كثير، مع أن فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال ولعله قواه بالذي يليه، لأن الذي يليه صحيح السند.

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾[١].

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا[٢]. وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسّر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً، فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ إلى آخر الآية[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله في آدم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ - إلى قوله -: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ شكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكم؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية[٤].

وقال عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ فأتاهما إبليس لعنه الله فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلنّ له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلنّ ولأفعلنّ يخوفهما، فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلنّ أو لأفعلنّ يخوفهما فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حبُّ الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم[٥].

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح. (٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق مدلس ولم يصرح بالسماع، وداود بن الحصين ثقه إلا في عكرمة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن المبارك به، وسنده ضعيف لأن كلاً من شريك وخصيف فيهما مقال.

الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أُبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد ـ يعني: ابن بشير ـ، عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك، سميه عبد الحارث، فلم تفعل، فولد فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيّبهما فأطاعا[1].

وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[2]، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام، فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[3] وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، [فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الآية [الملك: ٥]، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، لهذا نظائر كثيرة في القرآن، والله أعلم][4].

ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف سعيد بن بشير.

(٢) تقدم تخريجه في تفسر سورة البقرة آية ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (الصحيح، الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح٣٤٦١).

(٤) ما بين معقوفين زيادة من (عم) و(مح).

لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج] أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعني: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء] وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما، وكانا شابّين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيداً في قومه ـ صنم يعبده ويطيّبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسّانه على رأسه ويلطّخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرّة فقرناه مع جرو كلب ميّت، ودلّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مُستدن ... لم تكُ والكلب جميعاً في قرن[١]

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أُحد شهيداً رضي الله عنه[٢] وأرضاه وجعل جنّة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]. ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها علي فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: الله حسبي وكافني، وهو

---

(١) هذه القصة والرجز رواها ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٦/ ٣٥٤، وذكرها ابن الأثير عن ابن إسحاق (أسد الغابة ٤/ ٢٠٧).

(٢) ينظر الإصابة لابن حجر ٧/ ٩٤ ـ ٩٥.

نصيري وعليه مُتّكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو وليّ كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود] وكقول الخليل: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ الآيات [الشعراء]، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذلك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صورة مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعبّر عنها بضمير من يعقل.

وقال السدي: المراد بهذا المشركون[١]، وروي عن مجاهد نحوه[٢]، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة[٣].

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعني: خذ ما عفي لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذه، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات[٤]، وقاله السدي[٥].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أنفق الفضل[٦].

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: الفضل.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم[٧]، واختار هذا القول ابن جرير. وقال: غير واحد

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) لم أجده مروياً عن قتادة.
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.
(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك به، لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس[١].

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[٢]، وفي رواية قال: خذ ما عفي لك من أخلاقهم.

وفي صحيح البخاري، عن هشام، عن أبيه عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس[٣].

وفي رواية عن أبيه، عن ابن عمر[٤]، وفي رواية عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك[٥]، والله أعلم.

وفي رواية سعيد بن منصور، عن أبي معاوية، عن هشام، عن وهب بن كيسان، عن ابن الزبير: خذ العفو، قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنّه منهم ما صحبتهم[٦]. وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس، حدثنا سفيان هو: ابن عيينة، عن أُمَيّ قال: لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك[٧]، وقد رواه ابن أبي حاتم أيضاً عن أبي يزيد القراطيسي كتابة، عن أصبغ بن الفرج عن سفيان [عن][٨] أُمَيّ، عن الشعبي نحوه[٩]، وهذا مرسل على كل حال، وقد روي له شواهد من وجوه أخر، وقد روي مرفوعاً عن جابر[١٠] وقيس بن سعد بن عبادة عن النبي ﷺ[١١] أسندهما ابن مردويه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم عن أبي أُمامة الباهلي، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة صِلْ من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمّن ظلمك»[١٢] وروى الترمذي نحوه من طريق عبيد الله بن زُحر عن علي بن يزيد به. وقال: حسن.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) أخرجه البخاري من طريق هشام به (الصحيح، التفسير، باب «خذ العفو وأمر بالعرف...» ح٤٦٤٤).
(٣) أخرجه البخاري من طريق هشام به بلفظ: «ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس» (المصدر السابق ح٤٦٤٣).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم (المستدرك ١/١٢٤) كلاهما من طريق عروة عن ابن عمر وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٥) أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف (ينظر فتح الباري ٨/٣٠٥) ويتقوىٰ بما سبق.
(٦) أخرجه سعيد بن منصور (ينظر فتح الباري ٨/٣٠٥) ويشهد له ما سبق في رواية البخاري.
(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسنده وستته، وسنده صحيح إلى أُميّ لكنه معضل فإن أُميّ تابع تابعي.
(٨) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وفي الأصل صُحفت إلى: «بن».
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكنه مرسل.
(١٠) أخرجه ابن مردويه من طريق عبد العزيز بن عبد الله الماجشون عن محمد بن المنكدر عن جابر بنحو رواية أُميّ. (ينظر تخريج الزيلعي على الكشاف ل ٢٢١)، وحسنه العراقي (ينظر اتحاف السادة المتقين ٧/٣١٨).
(١١) قال العراقي: رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وقيس بن عبادة بن الصامت وأنس بأسانيد حسان (المصدر السابق).
(١٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/١٤٨)، وسنده ضعيف لضعف علي بن يزيد وشيخه القاسم كما قرر الحافظ ابن كثير.

قلت: ولكن علي بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمٰن فيهما ضعف.

وقال البخاري: قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ العرف: المعروف، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري، أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرُّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحرُّ، يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ وإن هذا من الجاهلين، واللهِ ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله ﷻ[1]، وانفرد بإخراجه البخاري.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى - قراءة -، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن عبد الله بن نافع، أن سالم بن عبد الله بن عمر مرَّ على عير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهي عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلْجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2].

وقول البخاري: العرف: المعروف، نصَّ عليه عروة بن الزبير والسدي وقتادة وابن جريج[3] وغير واحد.

وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفاً وعارفاً وعارفة، كلّ ذلك بمعنى المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمَّن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمَّن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب[4].

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودلّه عليها[5]، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس، فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما ... أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولِن في الكلام لكلّ الأنام ... فمستحسن من ذوي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلّفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسيء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه وما قبله (الصحيح، التفسير الباب نفسه (ح٤٦٤٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده عبد الله بن نافع: ضعيف كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة عنهم.

(٤) ذكره الطبري بلفظه تقريباً.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد به.

عليك واستمر في جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يردّ كيده، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت] [أي هذه الوصية][1] وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهنّ، فإنه تعالى، يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن فإن ذلك يكفّه عمّا هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإن لا يكفّه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

وقال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: وإما يغضبنّك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه[2].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: لما نزل ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قال: يا ربِّ كيف بالغضب؟، فأنزل الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾[3].

قلت: وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابّا بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمرغ غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل له: فقال: ما بي من جنون[4].

وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] والعياذ: الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشرّ، وأما الملاذ ففي طلب الخير، كما قال أبو الطّيب المتنبي في شعره:

يا من ألوذُ به فيما أؤمّله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره[5]

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هٰهنا.

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من (عم).
(٢) ذكره الطبري بلفظه وأطول.
(٣) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات عن عبد الرحمن لكنه معضل لأن عبد الرحمن تابع تابعي.
(٤) تقدم تخريجه في تفسير الاستعاذة.
(٥) ديوان المتنبي ٢/ ٢٧٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ﴾ أي: أصابهم طيف. وقرأ الآخرون طائف[١]، وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان، فقيل بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسّر ذلك بالغضب، ومنهم من فسّره بمسّ الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسّره بالهمّ بالذنب، ومنهم من فسّره بإصابة الذنب.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده، ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف[٢] فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك» فقالت: بل أصبر ولا حساب عليّ[٣]، ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت: يا رسول الله إني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة» فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف[٤]. وأخرجه الحاكم من مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شاباً كان يتعبد في المسجد، فهويته امرأة فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ فخرّ مغشياً عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزّى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً فذهب فصلّى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن] فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنّة مرتين[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ﴾ أي: وأخوان الشياطين من الإنس كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم يمدّونهم في الغيّ أي: تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسّنها لهم.

---

(١) وكلا القرائتين متواترة.

(٢) أصل الطيف الجنون ثم استعمل في الغضب ومسّ الشيطان ووسوسته (النهاية ٣/ ٥٣٩).

(٣) أخرجه ابن حبان (الإحسان ح٢٩٠٩) والحاكم كلاهما من طريق محمد بن عمرو به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢١٨)، وحسنه الهيثمي بعد عزوه إلى البزار (المجمع ٢/ ٣١٠).

(٤) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (صحيح البخاري، المرضىٰ، باب فضل من يصرع من الريح ح٥٦٥٢)، وصحيح مسلم، البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض (ح٢٥٧٦).

(٥) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٩/ ١٩٠.

وقال ابن كثير: المدّ الزيادة[١]. يعني: يزيدونهم في الغيّ يعني الجهل والسّفه ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمدّ الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ الآية، قال: لا الإنس يقصّرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم[٢].

وقيل: معناه كما رواه العوفي عن ابن عباس قي قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون، يقول: لا يسأمون[٣]، وكذا قال السدي وغيره يعني: أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم في الشر[٤]، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً[٥].

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها[٦].

وقال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك[٧]، وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٨]، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله تعالى[٩].

وقال الضحاك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء[١٠].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ أي: معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء] يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج عن عبد الله بن كثير، وفي سنده الحسين، وهو ابن داود ضعيف. ومعناه اللغوي صحيح.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بمعناه.

(٥) سيأتي تخريجه في سورة مريم آية ٨٣.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٧) أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف ويشهد له سابقه.

(٨) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بالرواية الأولى عن ابن عباس.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

﴿رَبِّيۚ﴾ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتّبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبيَن الدلالات وأصدق الحجج والبيّنات، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان «يتعمده» كفار قريش المشركون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك من الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتمّ به فإذا كبّر فكبّروا، وإذا قرأ فأنصتوا»[(١)]. وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة أيضاً، وصححه مسلم بن الحجاج أيضاً، ولم يخرجه في كتابه، وقال إبراهيم بن مسلم الهجري، عن أبي عياض، عن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ والآية الأخرى، أمروا بالإنصات[(٢)].

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم، عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود: كنّا يسلّم بعضنا على بعض في الصلاة، فجاء القرآن: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربي، عن داود بن أبي هند، عن يُسير بن جابر قال: صلّى ابن مسعود فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ كما أمركم الله[(٣)].

قال: وحدثني أبو السائب، حدثنا حفص، عن أشعث، عن الزهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلّما قرأ شيئاً قرأه، فنزلت: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[(٤)].

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الزهري عن [أبي أُكَيمة][(٥)] الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ أحد منكم معي آنفاً؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقول ما لي أنازع القرآن» قال: فانتهى الناس عن

---

(١) صحيح مسلم، الصلاة، باب التشهد في الصلاة (ح٤٠٤).

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري به، وسنده ضعيف لضعف إبراهيم ولكنه يتقوىٰ بالمتابعة إذ رواه ابن أبي شيبة من طريق البختري عن أبي عياض به (المصنف، الصلوات في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ٢/٤٧٨) ويشهد له ما يلي عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري الروايتين سنداً ومتناً، والرواية الأولىٰ فيها انقطاع بين المسيب وابن مسعود والرواية الثانية فيها انقطاع بين داود ويسير ولكن ابن أبي حاتم أخرجه بسند صحيح متصل من طريق داود بن أبي هند عن أبي نضرة، وهو المنذر بن مالك: ثقة، عن يسير به.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال الزهري.

(٥) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وترجمته في التقريب، وفي الأصل صُحف إلى: «ابن أكتمة».

القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ[١]. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازي[٢].

وقال عبد الله بن المبارك، عن يونس، عن الزهري: قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[٣].

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قوليّ الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفاً[٤]، وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة[٥]، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ يعني: في الصلاة المفروضة[٦]، وكذا روي عن عبد الله بن المغفل[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريري، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: رأيت عُبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان، والقاصّ يقصّ، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إليّ ثم أقبلا على حديثهما، قال: فأعدت فنظرا إليّ وأقبلا على حديثهما، قال: فأعدت الثالثة قال: فنظرا إليّ فقالا: إنما ذلك في الصلاة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾[٨] وكذا قال سفيان الثوري، عن أبي هشام إسماعيل بن كثير، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ح٧٨١٩)، وصححه محققوه، وأخرجه أبو داود في سننه، الصلاة، باب من كره القراءة بفاتحة الكتاب إذا جهر الإمام (ح٨٢٦) والترمذي وحسنه في سننه، الصلاة، باب ما جاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام بالقراءة (ح٣١٢)، والنسائي في «سننه» الإفتتاح، باب ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر ٢/ ١٤٠، وابن ماجه في سننه، إقامة الصلاة، باب إذا قرأ الإمام فانصتوا (ح٨٤٨) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٦٩٠).

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (ح١٨٤٣).

(٣) سنده صحيح إلى الزهري.

(٤) تقدم تخريجه في مطلع تفسير سورة الفاتحة.

(٥) وقد طبع عدة طبعات.

(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي المقدام، ـ وهو ثابت بن هرمز الكوفي ـ، عن عبد الله بن المغفل.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

قال: في الصلاة[١]، وكذا رواه غير غير واحد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم[٢]. وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وقتادة والشعبي والسدي وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: إن المراد بذلك في الصلاة[٣].

وقال شعبة، عن منصور: سمعت إبراهيم بن أبي حمزة يحدث أنه سمع مجاهداً يقول في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة[٤]، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله[٥].

وقال هشيم، عن الربيع بن صبيح، عن الحسن قال: في الصلاة وعند الذكر[٦].

وقال ابن المبارك، عن بقية: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبير يقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة[٧]. وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة.

وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن ليث، عن مجاهد أنه كره إذا مرّ الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت[٨].

وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عبَّاد بن ميسرة، عن الحسن، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كُتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»[١٠]. تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح. (٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٣) قول سعيد بن جبير وقتادة والسدي وعبد الرحمن أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة.
(٤) أخرجه الطبري من طريق شعبة به وأخرجه من طرق أخرىٰ يقوي بعضها بعضاً عن مجاهد.
(٥) أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء، وسنده صحيح.
(٦) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده حسن.
(٧) أخرجه الطبري من طريق ابن المبارك به، وسنده حسن.
(٨) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده حسن.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق مبارك بن فضالة به، وسنده حسن.
(١٠) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٤/ ١٩١ ـ ١٩٢ ح٨٤٩٤)، وضعف سنده محققوه لضعف عباد، والحسن لم يسمع من أبي هريرة.

ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هٰهنا: بالغدو، وهو أول النهار، والآصال: جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً وجهراً بليغاً، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦][١].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[٢].

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبّوه وسبّوا من أنزله وسبّوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم[٣] أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد منافٍ للإنصات المأمور به، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم أو في الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحضّ على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبّحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود هٰهنا لما ذكر سجودهم لله ﷻ، كما جاء في الحديث: «ألا تصفّون كما تصفّ الملائكة عند ربها يتمّون الصفوف الأول فالأول، ويتراصون في الصف»[٤] وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع، وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه عدّها في سجدات القرآن[٥].

آخر تفسير سورة الأعراف، ولله الحمد والمنّة.

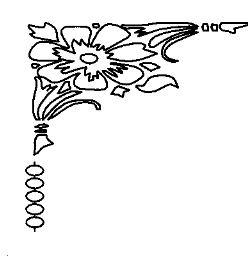
---

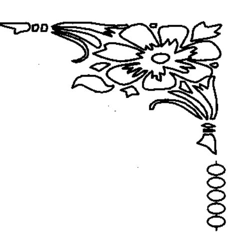
(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٨٦. (٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٨٦.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بلفظ: «لا يجهر بذلك».

(٤) صحيح مسلم، الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة (ح٤٣٠).

(٥) سنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب عدد سجود القرآن (ح١٠٥٦)، وضعفه البوصيري بسبب وجود عثمان بن فائد وهو ضعيف (مصباح الزجاجة ١/٣٥٣).





سُورَةُ الأنفَال

وهي مدنية

آياتها سبعون وست آيات. كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة. حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال المغانم، حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هشيم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر[١].

أما ما علَّقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء[٢]. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد: أنها الغنائم[٣].

وقال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم[٤].

قال فيها لبيد[٥]:

إن تقوى ربنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي وعجل

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفرس من النفل والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته فقال ابن عباس ذلك أيضاً ثم قال الرجل:

---

(١) أخرج البخاري المعلق والموصول بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير باب قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ [الأنفال] ح٤٦٤٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) ذكرهم كلهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول مجاهد وعطاء، وهو ابن أبي رباح، وقتادة وعبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة إليهم، وقول عطاء الخراساني أخرجه في تفسيره بتحقيقي.

(٤) سنده ضعيف لضعف الكلبي وأبي صالح ويتقوىٰ بما سبق.

(٥) وهو الصحابي الجليل الشاعر لبيد بن ربيعة رضي الله عنه، والبيت ورد في ديوانه ٢/ ١١ ومجاز القرآن ١/ ٢٤٠ وتفسير الطبري.

الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ[١] الذي ضربه عمر بن الخطاب[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا سئل عن شيء قال لا آمرك ولا أنهاك. ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً آمراً محللاً محرماً. قال القاسم: فسلّط على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل يُنفَّل فرس الرجل وسلاحه، فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك، ثم عاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه، فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك[٣]. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، أنه فسر النفل بما ينفِّله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخُمس بعد الأربعة من الأخماس، فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[٤].

وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزَّحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف، رواه ابن أبي حاتم عنهما[٥].

وقال ابن المبارك وغير واحد، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذَّ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابّة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء[٦]. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو: ما أُخذ من الكفار من غير قتال.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا، حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا علي بن صالح بن حُيّ، قال: بلغني في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ قال السرايا[٧].

ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش. وقد صرح بذلك الشعبي[٨].

---

(١) هو صبيغ بن عسل ذكر قصته الحافظ ابن حجر (الإصابة ٢/١٩٨).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الإمام مالك به (الموطأ ٢/٣٦٣) وسنده صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح وصححه الحافظ ابن كثير.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي نجيح به، وسنده ضعيف للإرسال.

(٥) قول ابن مسعود أخرجه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة من طريق جابر بن يزيد الجعفي عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه عن ابن مسعود (المصنف، الجهاد، باب في النفل ح١٥١٢٨) وسنده ضعيف لضعف جابر ويتقوىٰ بقول مسروق فقد أخرجه ابن زنجويه بسند صحيح من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن مسروق (الأموال ١/٦٦٨ رقم ١١٦٢).

(٦) أخرجه الطبري والطحاوي (شرح معاني الآثار ٣/٢٧٨) كلاهما من طريق ابن المبارك به وسنده صحيح.

(٧) أخرجه الطبري معلقاً وبسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق صالح بن حُيّ.

واختار ابن جرير أنها زيادة على القسم، ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد، حيث قال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا أبو إسحاق الشيباني، عن محمد بن عبيد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير قتلتُ سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يُسمى ذا الكَتيفة[١]، فأتيت به النبي ﷺ فقال؛ «اذهب فاطرحه في القبض» قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سلبك»[٢].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن عاصم بن أبي النجود، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن مالك، قال: قلت يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لي هذا السَّيف، فقال: «إن هذا السَّيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت فقلت: عسى أن يعطي هذا السَّيف من لا يبلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي قال: قلت: قد أنزل الله فيّ شيئاً؟ قال: كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي، فهو لك. قال: وأنزل الله هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٣]. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش به، وقال الترمذي: حسن صحيح[٤].

وهكذا رواه أبو داود الطيالسي، أخبرنا شعبة أخبرنا سماك بن حرب قال: سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد، قال: نزلت فيّ أربع آيات، أصبت سيفاً يوم بدر فأتيت النبي ﷺ فقلت نفلنيه، فقال: «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾[٥] الآية وتمام الحديث، في نزول ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] وآية الوصية، وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة به[٦].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردّوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فرآه الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه[٧] ورواه ابن جرير من وجه آخر.

---

(١) أي السيف العريض.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١٢٩ ح١٥٥٦)، قال محققوه: حسن لغيره.اهـ. ويتقوىٰ بلاحقه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (٣/ ١١٧ ح١٥٣٨) وحسنه محققوه.

(٤) سنن أبي داود، الجهاد، باب في النفل (ح٢٧٤٠)، وسنن الترمذي تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال (ح٣٠٧٩)، والسنن الكبرى، التفسير (ح٢١٦).

(٥) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٨ ح٢٠٨).

(٦) صحيح مسلم، الجهاد، باب الأنفال (ح٣٤/ ١٧٤٨).

(٧) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لإبهام شيخ عبد الله بن أبي بكر.

(سبب آخر في نزول الآية):

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الرحمن، عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن أبي أُمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال فقال: فينا أصحاب بدر، نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، عن بواء يقول: عن سواء[١].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية بن عمرو، أخبرنا أبو إسحاق، عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى، عن أبي سلام، عن أبي أمامة، عن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّة[٢]، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرَّة فاشتغلنا به، فنزلت ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفَّل الرُّبع، فإذا أقبل راجعاً نفَّل الثلث، وكان يكره الأنفال[٣].

ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، قال الترمذي: هذا حديث حسن، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الرحمن بن الحارث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه[٤].

وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له، وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شُبَّان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا رِدءً لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق محمد بن سلمة عن ابن إسحاق، ومن طريق يعقوب عن أبيه عن ابن إسحاق به وفي آخر كل طريق بلفظ: «على السواء» (المسند ٣٧/ ٤١٠ ح٢٢٧٤٧ و٣٧/ ٤١٤ ح٢٢٧٥٣) وقال محققوه: حسن لغيره.

(٢) أي غفلة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده نحوه (المسند ٣٧/ ٤٢١ ح٢٢٧٦٢)، قال محققوه: حسن لغيره.

(٤) سنن الترمذي، السير، باب في النفل (ح١٥٦١) مختصراً وحسنه، وسنن ابن ماجه، الجهاد، باب في النفل (ح٢٨٥٢)، موارد الظمآن (ح١٦٩٣ والمستدرك ٢/ ١٣٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه أبو داود، السنن، الجهاد، باب في النفل (ح٢٧٣٧)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، التفسير =

وقال الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أتى أسيراً فله كذا وكذا». فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، أنت وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا ونزل القرآن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، قال: ونزل القرآن ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] إلى آخر الآية[١].

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها»: أما الأنفال فهي المغانم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمِّسها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى[٢].

قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس سواء[٣]، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي[٤].

وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة[٥].

قال أبو عبيد: وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة، ومعنى الأنفال في كلام العرب كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحلَّه الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصَّهم الله به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت الغنائم محرَّمة على الأمم قبلهم، فنفلَّها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل[٦].

قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي ـ فذكر الحديث إلى أن قال: ـ وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي». وذكر تمام الحديث[٧].

ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على

= (ح٢١٧)، وتفسير الطبري وتفسير ابن مردويه (كما في تغليق التعليق ٤/ ٢١٥، فقد ذكره بسنده كاملاً) وموارد الظمآن (ح١٧٤٣)، والمستدرك ٢/ ١٣١ وصححه ووافقه الذهبي.

(١) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري به وسنده ضعيف جداً لأن الكلبي قد صرح أن كل ما رواه عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب.

(٢) الأموال ص٤٢٦.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) قول مجاهد وعكرمة أخرجه الطبري بسندين صحيحين عنهما، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً ويشهد لها ما سبق.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بمعناه.

(٦) الأموال ص٤٣١.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٤٣.

بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو، وفي النفل الذي ينفِّله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى:

(فإحداهن): في النفل لا خمس فيه وذلك السلب.

(والثانية): النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو أن يوجِّه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس.

(والثالثة): في النفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخُمس في يدي الإمام، نفل منه على قدر ما يرى.

(والرابعة): في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمِّس منها شيء، وهو أن يعطي الأدلاء ورعاة الماشية والسوّاق لها. وفي كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخُمس شيء غير السلب.

قال أبو عبيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم وذلك من خُمس النبي ﷺ، فإن له خُمس الخُمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدَّت شوكتهم وقلَّ من بإزائه من المسلمين، نفَّل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ وإذا لم يكن ذلك لم ينفل.

(والوجه الثالث): من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللِّقاء من غنم شيئاً، فهو له، بعد الخمس فهو لهم على ما شرط الإمام، لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا[١]، انتهى كلامه.

وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: إن غنائم بدر لم تُخمَّس نظر. ويردُّ عليه حديث علي بن أبي طالب، في شارفيه[٢] اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر، وقد بينّت ذلك في كتاب السيرة[٣] بياناً شافياً، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف.

وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم[٤]. وكذا قال مجاهد[٥]، وقال السدي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا.

ولنذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي رحمه الله، في مسنده

---

(١) الأموال ص٤٣١.
(٢) الشارف: الناقة المُسنَّة.
(٣) ينظر السيرة النبوية لابن كثير ٢/٢٦٦ وقد وردت القصة في الصحاح.
(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مجاهد عن ابن عباس.
(٥) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عبَّاد بن شيبة [الحبطي][(١)]، عن سعيد بن أنس، عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان من أُمتي جثيا بين يديّ ربِّ العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا ربِّ خذ لي مظلمتي من أخي. فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يا ربِّ لم يبق من حسناتي شيء قال: ربِّ فليحمل عني من أوزاري». قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا ربِّ أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه، قال: ربِّ ومن يملك ثمنه؟ قال أنت تملكه، قال: ماذا يا ربّ؟ قال: تعفو عن أخيك، قال: يا ربِّ، فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: خذ بيد أخيك، فادخلا الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[(٢)].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه. ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقول زادتهم تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره[(٣)].

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرِقت[(٤)]. أي: فزعت وخافت، وكذا قال السدي[(٥)] وغير واحد، وهذه صفة المؤمن حق الإيمان الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي: خاف منه، ففعل أوامره وترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران]،

---

(١) كذا في (عم) ومسند أبي يعلم وفي الأصل و(مح) صحفت إلى: «الحنظلي».
(٢) سنده ضعيف جداً أخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن بكر السهمي به وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: عباد بن شيبة الحبطي عن سعيد، والأول ضعيف، وشيخه لا يُعرف (المستدرك ٤/٥٧٦)، وضعف سنده ابن حبان (المجروحين ٢/١٧١)، وقال البخاري: سعيد بن أنس عن أنس عن النبي ﷺ في المظالم لا يُتابع عليه. (التاريخ الكبير ٣/٤٥٩).
(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] ولهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية فيقال له: اتقِّ الله فيجلّ قلبه[(١)].

وقال الثوري أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن شهر بن حوشب [عن أبي الدرداء][(٢)] في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: الوجل في القلب كاحتراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك[(٣)].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

وقد استدلَّ البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان[(٤)].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى.

وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها[(٥)].

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها[(٦)]. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عواري

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن المبارك عن الثوري به.
(٢) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وتفسير الطبري وفي الأصل: «عن أم الدرداء».
(٣) أخرجه الطبري من طريق الثوري به. وسنده منقطع لأن شهراً لم يسمع من أبي الدرداء (جامع التحصيل ص٢٤٠).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق محمد بن فضيل عن أبي سنان ضرار بن مرة عن سعيد بن جبير (المصنف ١٣/٥٣٨ رقم ١٧١٩١).
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان.

وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها[١].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب، حدثنا [زيد][٢] بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد السكسكي، عن سعيد بن أبي هلال، عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري، أنه مرَّ برسول الله فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقًّا، قال: «انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربّي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالزم» ثلاثاً[٣].

وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة. وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجّار. وفلان شاعر حقًّا، وفي القوم شعراء[٤].

وقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران] ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحّاك في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد[٥]، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال: «بلى والذي نفسي بيده، لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٦]. وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغابر في أفق

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) كذا في (عم) و(مح) والمعجم الكبير للطبراني وفي الأصل صحف إلى: «يزيد».

(٣) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٣/٢٦٦) قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه (المجمع ١/٥٧)، وأخرجه البزار من طريق يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس بنحوه ثم قال: تفرد به يوسف وهو لين الحديث. قال الحافظ ابن حجر: وله شاهد من حديث حارثة نفسه في المعجم الكبير، ولكنه قال: عن الحارث بن مالك، وفي إسناده ابن لهيعة، وله طرق ذكرتها في ترجمة الحارث بن مالك من كتابي الصحابة (مختصر زوائد مسند البزار ١/٧٦ ح٢٣)، ويقصد بكتاب الصحابة: الإصابة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي سنان سعيد بن سنان عن عمرو بن مرة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سلمة بن نبيط عن الضحاك.

(٦) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب صفة الجنة (ح٣٢٥٦)، وصحيح مسلم، الجنة، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (ح٢٨٣١).

السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[(١)].

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شُبِّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله، ثم روى عن عكرمة نحو هذا[(٢)]، ومعنى هذا: أن الله تعالى يقول كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه، وقسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامَّة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البقرة].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم[(٣)]. ثم روىٰ عن مجاهد نحوه أنه قال: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق[(٤)].

وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه، فقال: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾[(٥)].

وقال بعضهم: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خفَّ منهم فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق عطية به (المسند ١٧/ ٣٠٢ ح١١٢٠٦) وضعفه محققوه، وكذا أخرجه أبو داود، السنن، الحروف والقراءات (ح٣٩٨٧)، والترمذي في سننه، المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق (ح٣٦٥٨)، وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (ح٩٦)، وهذا الحديث يتقوىٰ شقه الأول بما تقدم في الصحيحين، وأما الشق الثاني فيشهد له حديث: أصحابي كالنجوم... أورده الألباني في السلسلة الصحيحة، فيكون الحديث حسناً لغيره.

(٢) ذكره الطبري بلفظه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود عن عكرمة.

(٣) ذكره الطبري بلفظه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر، فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني، حدثنا بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران، حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أُخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعلَّ الله أن يغنمناها؟» فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا: «ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكنَّا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك. فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] قال: فتمنَّينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحبّ إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾(٢). وذكر تمام الحديث ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن لهيعة بنحوه(٣).

وروى ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر: مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرنَّ معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فَصِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ

---

(١) هذه القصَّة ذكرها ابن هشام في السيرة ٢/٦٠٦ ـ ٦٠٧ وابن كثير في البداية والنهاية ٣/٢٦٠.

(٢) أخرجه الطبراني عن بكر بن سهل به (المعجم الكبير ٤/٢٠٨ ـ ٢١١ ح٤٠٥٦) وحسنه الهيثمي (المجمع ٦/٧٣)، وفي سنده ابن لهيعة ويتقوىٰ برواية الطبري فقد روي من طريق عبد الله بن وهب وابن المبارك عن ابن لهيعة دون ذكر سبب النزول وسندها حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق زيد بن الحباب عن ابن لهيعة به، وسنده حسن.

وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ الآيات[١].

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيئوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾[٢].

[وقال مجاهد: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ في القتال.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾][٣] أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم[٤].

وقال السدي: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ أي: بعدما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به[٥].

قال ابن جرير: وقال آخرون: عُنى بذلك المشركين، حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ قال: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يُساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام وهم ينظرون. قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر[٦].

ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله، لأن الذي قبل قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان والذي يتلوه خبر عنهم. والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق: أنه خبر عن المؤمنين[٧].

وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يحيى بن بكير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق وهو أسير في وثاقه ـ: إنه لا يصلح لك، قال ولِمَ؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك[٨]. إسناد جيد ولم يخرجوه.

---

(١) سنده حسن بسابقه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٣) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(حم) و(مح).

(٤) ورد في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٢٢، وأخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق به.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٧) ذكره الطبري بنحوه مع تقديم وتأخير.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٤٦٦ ح٢٠٢٢)، وأخرجه الترمذي من طريق إسرائيل به وحسنه، (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال ح٣٠٨٠)، وكذا الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٣٥)، وجوده الحافظ ابن كثير.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي: يحبون أن الطائفة التي لا حدّ لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يُحبّون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق ﵀: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس، كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلّكموها، فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنُّوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ وادياً يقال له: ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر ﵁ فقال، فأحسن. ثم قام عمر ﵁ فقال، فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد، - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ، خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس». وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إنا برآء من زمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في زمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». فقال: آمنَّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله فوالّذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبر عند الحرب صُدق عند اللقاء، ولعلَّ الله يريك منَّا ما تقرّ به عينك،

فسِر بنا على بركة الله، فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم»[(١)].

وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا[(٢)]، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق[(٣)].

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قُراد، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زُميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرده ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ فلما كان يومئذٍ التقوا، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: ما أرى ما رأىَ أبو بكر ولكني أرى أن تمكنِّي من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكِّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. قال النبي ﷺ: «للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨] من الغداء ثم أحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقُتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده حسن إذ يشهد له ما سبق وما لحق.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوى بما سبق.

(٣) قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه مختصراً وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه، مختصراً، وهذه الروايات يقوي بعضها بعضاً وتتقوىٰ بما سبق أيضاً.

النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكُسرت رَباعيته، وهشِّمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنـزل الله: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران] بأخذكم الفداء[١]. ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه علي بن المديني والترمذي وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليمامي[٢].

وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ في دعاء النبي ﷺ[٣]، وكذا قال: [زيد بن يُثيع][٤] والسدي وابن جريج.

وقال أبو بكر بن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشدَّ المناشدة يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا رسول الله بعض نشدتك فوالله ليفينَّ الله لك بما وعدك[٥].

قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١]: حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن مخارق، عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليَّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنَّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره[٦].

حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك. فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾[٧] [القمر]. ورواه النسائي عن بندار، عن عبد الوهاب، عن عبد المجيد الثقفي[٨].

وقوله تعالى: ﴿بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ أي: يردف بعضهم بعضاً كما قال [هارون بن عنترة][٩]، عن ابن عباس ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ متتابعين[١٠].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ح٢٢١) وحسن سنده محققوه.

(٢) صحيح مسلم، الجهاد، باب كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين (ح١٧٦٣) وسنن أبي داود، الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال (ح٢٦٩٠) مختصراً وسنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال (ح٣٠٨١) وتفسير الطبري.

(٣) أخرجه الطبري من الطريقين مختصراً، وطريق علي يقوي طريق العوفي.

(٤) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل صُحفت إلى: «يزيد بن تبيع».

(٥) أخرجه الطبري بأسانيده عن السدي وابن جريج وزيد بن يثيع وأبي صالح، وهذه الأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٦) و(٧) أخرجهما البخاري بسنديه ومتنيه وكتابه وبابه (ح٣٩٥٢، ٣٩٥٣).

(٨) السنن الكبرى، التفسير (ح١١٥٥٧).

(٩) كذا في (عم) و(حم) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صحف إلى: «هارون بن هبيرة».

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس، وسنده حسن، وقد أخرجه الطبري من طرق أخرى كما يلي.

ويحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم: أي نجدة لكم كما قال العوفي عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يقول المدد، كما تقول: ائت الرجل فزده كذا وكذا[١].

وهكذا قال مجاهد وابن كثير القاري وابن زيد: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ ممدين[٢].

وقال أبو كدينة، عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس ﴿مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال: وراء كل ملك ملك[٣]. وفي رواية بهذا الإسناد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال: بعضهم على إثر بعض، وكذا قال أبو ظبيان[٤] والضحّاك وقتادة[٥].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران، عن الزمعي، عن أبي الحويرث، عن محمد جبير، عن علي ﵁ قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة[٦]. وهذا يقتضي إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ولهذا قرأ بعضهم: ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الدال[٧]، والله أعلم.

والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمدَّ الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة[٨]، وميكائيل في خمسمائة مجنبة[٩].

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم من حديث عكرمة بن عمار، عن أبي زُميل سماك بن وليد الحنفي، عن ابن عباس، عن عمر الحديث المتقدم، ثم قال أبو زميل: حدثني ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً. قال: فنظر إليه، فإذا هو قد حطِّم وشق وجهه كضربة السوط فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ قال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذٍ سبعين وأسروا سبعين[١٠].

وقال البخاري: باب شهود الملائكة بدراً. حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير، عن يحيى بن سعيد، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٢) أخرجه الطبري بأسانيد عنهم يقوي بعضها بعضاً.
(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق محمد بن الصلت عن أبي كدينة به.
(٤) أخرجه الطبري بسند فيه سفيان بن وكيع، ويشهد له ما سبق.
(٥) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند فيه إبهام شيخ الطبري ويشهد له ما سبق، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً بسبب عبد العزيز بن عمران متروك (التقريب ص٣٥٨).
(٧) القراءة متواترة، ولكن الإسناد السابق لم يصح.
(٨) المجنبة: الكتيبة التي تأخذ إحدى ناحيتي الجيش.
(٩) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.
(١٠) تقدم تخريجه في بداية تفسير هاتين الآيتين.

نحوها قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة[١]. انفرد بإخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج[٢] وهو خطأ، والصواب رواية البخاري، والله أعلم.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لمّا شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ الآية، أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إيّاكم بهم إلا بشرى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي بدون ذلك ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران] فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذِّبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطُّوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيّحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجِّيل، وقوم شعيب بيوم الظُلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليمِّ، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ﴾ [القصص: ٤٣] وقتل المؤمنين للكافرين، أشدُّ إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة] ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم، وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشدُّ إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة[٤] بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته ﷻ.

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، المغازي، باب شهود الملائكة بدراً ح٣٩٩٢).

(٢) المعجم الكبير ٤/ ٢٧٧ ح٤٤١٢.

(٣) صحيح البخاري، الجهاد، باب الجاسوس (ح٣٠٠٧) وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر (ح٢٤٩٤).

(٤) العدسة: هي بثرة تخرج في البدن كالطاعون.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

يذكِّرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً أمنَّهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلَّة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ الآيــــة [آل عمران: ١٥٤]، قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف[١].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا ابن مهدي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مُضرِّب، عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلّا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلِّي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح[٢].

وقال سفيان الثوري، عن عاصم، عن أبي رزين، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان[٣].

وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب[٤].

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جداً، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالّة على وقوع ذلك أيضاً وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدَّة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح] ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصدِّيق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سِنة من النوم ثم استيقظ مبتسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[٥] [القمر].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة، وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله

---

(١) رواية أبي طلحة رضي الله عنه صحيحة تقدم تخريجها في بداية تفسير آية ١٥٤ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٤٢ ح٢٨٠)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن مهدي به (المسند ٢/ ٢٩٩ ح١٠٢٣) وصحح سنده محققوه..

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن الثوري به. وسنده حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد بن بشير ضعيف.

(٥) نسبه الحافظ ابن كثير إلى كتاب المغازي للأموي (البداية والنهاية ٣/ ٢٨٤) وحسنه الألباني في تعليقه على كتاب فقه السيرة للغزالي ص٢٤٣.

وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلُّون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهَّروا، وأذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبَّت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدوابّ فساروا إلى القوم، وأمدَّ الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة(١).

وكذا قال العوفي، عن ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلُّون مجنبين محدثين حتى تعاطوا ذلك في صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي فشرب المؤمنون وملؤوا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً وثبَّت به الأقدام، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام(٢).

ونحو ذلك روي عن قتادة والضحاك والسدي(٣)، وقد روي عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه طشٌّ أصابهم يوم بدر(٤). والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجده، فتقدم إليه الحُباب بن المنذر فقال: يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سرّ بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم، ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول الله ﷺ وسلم ففعل كذلك.

وفي مغازي الأموي أن الحُباب لما قال ذلك، نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ فقال ذلك الملك: يا محمد إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن الرأي ما أشار به الحُباب بن المنذر، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال: «هل تعرف هذا»؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان.

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبَّد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه(٥).

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوى بسوابقه ولواحقه.

(٣) قول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط وهو مرسل يتقوى بالمراسيل الثابتة وغيرها من الموصول.

(٤) أخرج بعض هذه الآثار الطبري وابن أبي حاتم وهذه الآثار يقوي بعضها بعضاً، وقد ثبت عن ابن عباس نحو كما تقدم من رواية ابن أبي طلحة.

(٥) أخرجه ابن إسحاق بسنده ومتنه (السيرة النبوية ١/ ٦٢٠)، وسنده حسن لكنه مرسل ويتقوى بسوابقه ولواحقه.

وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبَّدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم[١].

وقال ابن جرير: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق، عن حارثة، عن علي ﷺ قال: أصابنا من الليل طشٌّ من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ وحرضَّ على القتال[٢].

وقوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنَّة ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي: مطهِّراً لما كان من غلٍّ أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ وهذه نعمة خفيَّة أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدَّس وتبارك وتمجَّد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبِّتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وآزروهم[٣]. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثَّروا سوادهم. وقيل: كان ذلك بأن المَلك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم - يعني: المشركين - يقولون: واللهِ لئن حملوا علينا لننكشفنَّ، فيحدِّث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم[٤] حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: ثبِّتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك سألقي الرعب والذلَّة والصَغار على من خالف أمري وكذَّب رسولي ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلِقوها، واحتزوا الرقاب فقطِّعوها، وقطِّعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة[٥].

وقيل: معناه: أي على الأعناق وهي: الرقاب، قاله الضحاك وعطية العوفي[٦]. ويشهد لهذا

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وصحح سنده الأستاذ أحمد شاكر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير.

(٤) ذكره الطبري بلفظه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يزيد بن سعيد النحوي عن عكرمة.

(٦) قول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، وقول عطية أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه عنه.

المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم قال: قال النبي ﷺ: «إني لم أبعث لأعذِّب بعذاب الله، إنما بعثت لضرب الرِّقاب وشدِّ الوثاق»[١].

واختار ابن جرير أنها قد تدلُّ على ضرب الرِّقاب وفلق الهام.

قلت: وفي مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمرُّ بين القتلى يوم بدر فيقول: «نفلِّق هاماً» فيقول أبو بكر:

من رجال أعزَّة علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما[٢]

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت، ويستطعم أبا بكر رضي الله عنه إنشاد آخره، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به[٣].

وقوله: ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وقال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كلَّ طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر[٤]:

ألا ليتني قطعت منِّي بنانةً ولاقيتهُ في البيت يقظانَ حاذرا[٥]

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني: بالبنان الأطراف[٦]. وكذا قال الضحاك وابن جريج[٧].

وقال السدي البنان: الأطراف، ويقال كل مفصل.

وقال عكرمة وعطية العوفي والضحاك في رواية أخرى: كل مفصل[٨].

وقال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كلّه عليك[٩].

وقال العوفي، عن ابن عباس: فذكر قصَّة بدر إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذاً حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللّات

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة بسنده ومتنه، وسنده مرسل (المصنف ١٢/ ٣٩٠).
(٢) قاله الحصين بن الهمام المري كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٦٤٨.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع.
(٤) هو العباس بن مرداس السلمي كما في مجاز القرآن ١/٢٤٢.
(٥) ذكره الطبري باختصار.
(٦) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٧) قول الضحاك وابن جريج أخرجه الطبري بأسانيد ضعيفة ويشهد له سابقه.
(٨) قول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق يزيد النحوي عنه وقول عطية العوفي أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الله بن إدريس عن أبيه عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق هقل بن زياد عن الأوزاعي.

والعزى، فأوحى الله إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين ـ يعني قتيلاً ـ[1]. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شقِّ العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى لا إله ولا ربَّ سواه ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ هذا خطاب للكفار أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ أي: تفرُّوا وتتركوا أصحابكم ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: يفرُّ بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكرُّ عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك نصّ عليه سعيد بن جبير والسدّي[2].

وقال الضحّاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرَّة من العدو فيصيبها ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: فرَّ من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه[3] فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففرَّ إلى أميره أو الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا زهير، حدثنا يزيد بن أبي زياد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة[4]، فكنت فيمن حاص، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة، فبتنا، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرّارون فقال: «لا بل أنتم العكّارون[5] أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبَّلنا يده[6]. وهكذا رواه أبو

(١) سنده ضعيف بسبب ضعف عطية العوفي، ويتقوىٰ بآثار سابقه نصّت على القصة.

(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عنه وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك، ويشهد له سابقاه.

(٤) أي جالوا جولة يطلبون الفرار.

(٥) أي الكرارون إلى الحرب.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٩/ ٢٨٢ ح٥٣٨٤)، وضعف سنده محققوه لضعف يزيد بن أبي زياد.

داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن يزيد بن أبي زياد وقال الترمذي: حسن لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زياد[١]. ورواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن أبي زياد به، وزاد في آخره وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[٢].

قال أهل العلم: معنى قوله: «العكَّارون» أي: العطَّافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عُبيد[٣] لما قُتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيَّز إليَّ لكنت له فئة هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر[٤]. وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال: لما قتل أبو عُبيد قال عمر: أيها الناس أنا فئتكم[٥].

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كلِّ مسلم[٦].

وقال عبد الملك بن عُمير، عن عمر: أيها الناس لا تغرنَّكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكلِّ مسلم[٧].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا خلّاد بن سليمان الحضرمي، حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال إن الفئة رسول الله ﷺ فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ الآية، فقال: إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها[٨].

وقال الضحّاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: المتحيّز الفارُّ إلى النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك من فرَّ اليوم إلى أميره أو أصحابه[٩] فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١٠]. وله شواهد من وجوه أخر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ

---

(١) سنن الترمذي، الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف (ح١٧١٦).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من الطريق نفسه مع الزيادة، وفيه أيضاً يزيد.
(٣) أبو عبيد هو الصحابي الجليل ابن مسعود الثقفي، وهو صاحب يوم الجسر، المعروف بجسر أبي عبيد الذي قاتل الفرس وأنكىٰ فيهم، وكان قائد المعركة بعد خالد بن الوليد.
(٤) أخرجه ابن المبارك عن ابن عون عن محمد بن سيرين به (الجهاد ٢٣٣)، وكذا ابن أبي شيبة (المصنف ٥٣٦/١٢)، وفيه محمد بن سيرين لم يسمع عمر ولكنه توبع بواسطة أبي عثمان النهدي كما يلي:
(٥) أخرجه ابن المبارك (الجهاد ٢٣٤)، وابن أبي شيبة (المصنف ٥٣٨/١٢)، وكلاهما من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان به، وسنده صحيح.
(٦) أخرجه الثوري في تفسيره وابن المبارك (الجهاد ٢٦٢) به، ومجاهد لم يسمع عمر، ويقويه ما سبق.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم، وفي سنده إسماعيل بن إبراهيم البجلي ضعيف ويشهد له ما سبق.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(١٠) صحيح البخاري، الوصايا باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] (ح٢٧٦٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الكبائر (ح٨٩).

﴿بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبد الله بن عمر الرقي، عن زيد بن أبي أنيسة، حدثنا جبلة بن سُحيم، عن أبي المثنى العبدي سمعت السدوسي - يعني: ابن الخصاصية وهو بشير بن معبد - قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحجَّ حجَّة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولّى الدبر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت، والصدقة فوالله ما لي إلا غنيمة وعشر ذَوْدٍ هنّ رِسلُ أهلي وحمولتهم، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذاً؟» قلت: يا رسول الله أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهنَّ[(١)]، هذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه في الكتب الستة. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر، حدثنا يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ينفع معهنَّ عمل: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف»[(٢)]. وهذا أيضاً حديث غريب جداً.

وقال الطبراني أيضاً: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر الشني، حدثني عمرو بن مرة قال: سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت أبي يحدث عن جدي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه غفر له، وإن كان قد فرّ من الزحف»[(٣)]. وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل به وأخرجه الترمذي، عن البخاري، عن موسى بن إسماعيل به وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، قلت: ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ عنه سواه.

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة لأنه كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحّاك وغيرهم[(٤)]، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه ٣٦/ ٢٨٤ (ح٢١٩٥٢)، قال الهيثمي: ورجال أحمد موثقون (المجمع ١/ ٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٢/ ٩٥)، وضعفه الهيثمي لضعف يزيد بن ربيعة (المجمع ١/ ١٠٤).

(٣) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٥/ ٨٩ ح٤٦٧٠)، وأخرجه أبو داود من طريق موسىٰ بن إسماعيل به (السنن، الصلاة، باب في الاستغفار ح١٥١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٣٤٣)، وكذا الترمذي أخرجه من طريق موسىٰ بن إسماعيل به (السنن، الدعوات، باب في دعاء الضيف ح٣٥٧٧).

(٤) بعض هذه الأقوال أخرجها الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد ثابتة، وقول أبي سعيد أخرجه أبو داود من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد، وهو الخدري، (السنن، الجهاد، باب في التولي يوم الزحف ح٢٦٤٨)، وصححه =

النبي ﷺ: «اللَّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»[(١)]. ولهذا قال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة، عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ قال: ذلك يوم بدر فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر - أحسبه قال - فلا بأس عليه[(٢)].

وقال ابن المبارك أيضاً، عن ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فرَّ يوم بدر النار قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥] ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[(٣)] [التوبة: ٢٧].

وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرك الحاكم وتفسير ابن جرير وابن مردويه من حديث داود بن أبي هند عن أبي نضرة، عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾: إنما أنزلت في أهل بدر[(٤)]، وهذا كلُّه لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دلَّ عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات[(٥)] كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يُبيِّن تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ولهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلّة عددكم. أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة] يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال: «شاهت الوجوه»[(٦)]،

= الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٣٠٦)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٧).

(١) أخرجه مسلم من حديث عمر (الصحيح، الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ح١٧٦٣).

(٢) أخرجه ابن المبارك به (الجهاد ٢٣٢) وسنده حسن لكنه مرسل ويتقوىٰ بما سبق.

(٣) سنده ضعيف لإرسال يزيد بن أبي حبيب.

(٤) تقدم تخريجه وصححه قبل روايتين.

(٥) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٦) سيأتي تخريجه من عدة طرق في تفسير هذه الآية.

ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني: يوم بدر فقال: «يا ربِّ إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولُّوا مدبرين[(١)].

وقال السدي: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه يوم بدر: «أعطني حصباً من الأرض» فناوله حصباً عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم فلم يبقَ مشرك إلا دخل عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٢)].

وقال أبو معشر المدني، عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فدخلت في أعينهم كلِّهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(٣)].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال: هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا[(٤)]. وقد روي في هذه القصة، عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنه أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر[(٥)] وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن عمران، حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا[(٦)]. غريب من هذا الوجه.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٢) أخرجه الطبري من طريق أسباط به، وسنده ضعيف للإرسال والسدي فيه تشيع.
(٣) أخرجه الطبري من طريق أبي معشر به، وسنده مرسل وأبو معشر هو السندي فيه ضعف ويتقوى بما يلي.
(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن سنده مفصل ويتقوى بما يليه.
(٥) قول مجاهد وعكرمة وقتادة أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة وهي مراسيل يقوي بعضها بعضاً.
(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وضعفه الأستاذ أحمد شاكر وأخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٣/٢٠٣ ح٣١٢٨) وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ٦/٧٧).

وههنا قولان آخران غريبان جداً:

(أحدهما): قال ابن جرير: حدثني محمد بن عوف الطائي، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثنا عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر دعا بقوس فأُتيَ بقوس طويلة وقال: «جيئوني بقوس غيرها»، فجاؤوه بقوس كبداء فرمى النبي ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(١) وهذا غريب وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

(والثاني): روى ابن جرير أيضاً والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في ترقوته فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم موصولاً بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة(٢)، وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه خاصَّة كما تقدم والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلَّة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته(٣). وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث: «وكل بلاء حسن أبلانا»(٤).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغر أمرهم، وأنهم وكلُّ ما لهم في [تبار(٥)] ودمار، ولله الحمد والمنة.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى للكفار: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن الزهري،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق صفوان به، وسنده مرسل.

(٢) أخرجه الحاكم من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه بنحوه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق محمد بن إسحاق به.

(٤) أخرجه النسائي (السنن الكبرى ح١٠١٣٣)، وابن السني (عمل اليوم والليلة ح٤٦)، والحاكم كلهم من حديث أبي هريرة مطولاً مرفوعاً وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥٤٦)، وحسنه سليم الهلالي في عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب عمل اليوم والليلة ٢/ ٥٥٥ (ح٤٨٦).

(٥) في الأصل صحفت إلى: «سال».

عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل قال يوم بدر: اللّهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف فأحِنْهُ الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد ـ يعني: ابن هارون ـ، أخبرنا محمد بن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللّهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان المستفتح[٢]. وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان عن الزهري به[٣]، وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري به وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وروي نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد[٤].

وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللّهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ[٥].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية[٦] [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

وقال السدي: ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ أي: إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه[٧]. والأول أقوى ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

---

(١) سنده حسن كما يلي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٦٥ ح٢٣٦٦١)، وحسنه محققوه، وأخرجه الحاكم من طريق الزهري به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٨).

(٣) التفسير (من السنن الكبرىٰ ١/ ٥١٨ ح٢٢١).

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك ويزيد بن رومان أخرجه الطبري بسندين ضعيفين وهذه المراسيل الأربعة يقوي بعضها بعضاً وتتقوىٰ بالروايات السابقة.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي لكنه مرسل.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن لكنه معضل ويتقوى بما سبق.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ قيل: المراد المشركون واختاره ابن جرير[١].

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك[٢]، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شرُّ الخلق والخليقة فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن فهمه ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شرُّ البريَّة لأن كل دابَّة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبَّههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١] الآية، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش روي عن ابن عباس ومجاهد[٣] واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون[٤]. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا لأن كلّاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم وتقدير الكلام ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قال البخاري: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ﴾ أجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يصلحكم. حدثني إسحاق، حدثنا رَوح، حدثنا شعبة، عن خُبيب بن عبد الرحمٰن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث، عن أبي سعيد بن المعلَّى ﷺ قال: كنت أصلي فمرَّ بي النبي ﷺ، فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، ثم قال: لأعلمنَّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ

---

(١) ذكره الطبري بدون سند.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق بنحوه.

(٣) قول ابن عباس أخرجه البخاري (الصحيح، التفسير، سورة الأنفال، باب ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ . . .﴾ ح٤٦٤٦)، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق، ابن أبي نجيح عنه.

(٤) تكرر قبل ثمانية سطور.

ليخرج فذكرت له. وقال معاذ: حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمٰن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بهذا وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة] هي السبع المثاني[١]. هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: للحق[٢].

وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة[٣].

وقال السدي: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر[٤].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الإيمان، رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال صحيح ولم يخرجاه[٦]، ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً، ولا يصح لضعف إسناده والموقوف أصح، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي[٧].

وفي رواية عن مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: حتى يتركه لا يعقل[٨].

وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه[٩].

وقال قتادة: هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦][١٠].

وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية، وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها»[١١].

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، تفسير سورة الأنفال، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ...﴾ [الأنفال: ٢٤] ح٤٦٤٧).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به.

(٦) ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٢٨).

(٧) أخرجه عنهم الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد ثابتة وبعضها ضعيفة تتقوى بالثابتة.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(١١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٩/ ١٦٠ ح١٢١٠٧)، قال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم.

وهكذا رواه الترمذي في كتاب القدر من جامعه عن هناد بن السري، عن أبي معاوية محمد بن خازم الضرير، عن الأعمش، واسمه سليمان بن مهران، عن أبي سفيان واسمه طلحة بن نافع، عن أنس، ثم قال: حسن، وهكذا روي، عن غير واحد عن الأعمش، ورواه بعضهم عنه، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي ﷺ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح[١].

(حديث آخر): وقال الإمام عبد بن حميد في مسنده[٢]: حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا شعبة، عن الحكم، عن ابن أبي ليلى، عن بلال رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[٣]. هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبيد الله الحضرمي أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول: سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمٰن ربِّ العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه» وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» قال: «والميزان بيد الرحمٰن يخفضه ويرفعه»[٤] وهكذا رواه النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمٰن بن يزيد بن جابر فذكر مثله[٥].

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا حماد بن زيد، عن المعلى بن زياد، عن الحسن أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» قالت: فقلت: يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فقال: «إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه»[٦].

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم، حدثنا عبد الحميد، حدثني شهر سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللّٰهم مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك» قالت: فقلت: يا رسول الله أوَ إنّ القلوب لتقلَّب؟ قال: «نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه، فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب» قالت: فقلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى قولي اللّٰهم ربِّ النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلّات الفتن ما أحييتني»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه وحكمه وتعليقه (السنن، القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ح٢١٤٠)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي سفيان عن جابر وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٨٨).

(٢) كذا في (عم) و(حم) وفي الأصل: قال الإمام أحمد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده.

(٣) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومتنه (المنتخب من مسنده عبد بن حميد ح٣٥٩) وفي سنده انقطاع بين ابن أبي ليلىٰ وبلال رضي الله عنه وقد جوده الحافظ ابن كثير بالشواهد السابقة واللاحقة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٩/ ١٧٨ ح١٧٦٣٠) وصحح سنده محققوه.

(٥) السنن الكبرى (ح٧٧٣٨) وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح١٩٩).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٩١) وسنده حسن بالشواهد السابقة واللاحقة.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/ ٢٠٠ ح٢٦٥٧٦)، قال محققوه: بعضه صحيح بشواهده، =

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمٰن، حدثنا حيوة، أخبرني أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمٰن الحبلي، أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفها كيف شاء» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللَّهم مصرف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك» انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به[١].

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

يُحذِّر تعالى عباده المؤمنين فتنة - أي: اختباراً ومحنة - يعمُّ بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا شداد بن سعيد، حدثنا غيلان بن جرير، عن مطرّف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير ﷺ: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ﷺ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت مِنَّا حيث وقعت[٢]، وقد رواه البزار من حديث مطرّف عن الزبير وقال: لا نعرف مطرّفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث[٣]، وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم، عن الحسن، عن الزبير نحو هذا[٤].

وقد روى ابن جرير حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا مبارك بن فضالة، عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها يعني: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننَّا أنَّا خصصنا بها خاصة، وكذا رواه حميد، عن الحسن، عن الزبير ﷺ[٥].

وقال داود بن أبي هند، عن الحسن في هذه الآية قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير ﷺ[٦].

وقال سفيان الثوري، عن الصلت بن دينار، عن [عقبة بن صهبان][٧]: سمعت الزبير يقول:

= وهذا إسناد ضعيف لضعف شهر وهو ابن حوشب.

(١) المسند ٢/١٦٨ وصحيح مسلم، القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب (ح٢٦٥٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/٣١ ح١٤١٤)، قال محققوه: إسناده جيد.اهـ. وصححه أحمد شاكر برقم ١٤١٤ أيضاً، وأخرجه الضياء المقدسي من طريق الإمام أحمد به (المختارة ٣/٦٦ ح٨٧٢ وحسن سنده محققه).

(٣) أخرجه البزار من طريق الحجاج بن نصير عن شداد به (المسند ح٩٧٦)، وما قاله البزار فإن فيه نظر فقد رواه عن الزبير الحسن البصري وعقبة بن صهبان كما سيأتي في الروايات التالية.

(٤) السنن الكبرى (ح١١٢٠٦).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ويشهد له سابقه في المسند.

(٦) أخرجما الطبري وحكمهما كسابقهما.

(٧) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وفي الأصل صُحفت إلى: «عقبة بن ضبيان».

لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾[١] وقد روي من غير وجه عن الزبير بن العوام.

وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصّة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني: أصحاب النبي ﷺ خاصّة. وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمُّهم الله بالعذاب[٣]، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ هي أيضاً لكم[٤]، وكذا قال الضحّاك ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلّات الفتن[٥] رواه ابن جرير.

والقول بأن هذا التحذير يعمُّ الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف، ومن أخصِّ ما يذكر هٰهنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أحمد بن الحجاج، أخبرنا عبد الله ـ يعني: ابن المبارك ـ، أنبأنا سيف بن أبي سليمان، سمعت عَدي بن عَدي الكندي يقول: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعني: عدي بن عميرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ﷻ لا يعذِّب العامَّة بعمل الخاصَّة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذَّب الله الخاصَّة والعامَّة»[٦] فيه رجل مبهم، ولم يخرجوه في الكتب الستة، ولا واحد منهم، والله أعلم.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان الهاشمي، حدثنا إسماعيل ـ يعني: ابن جعفر ـ، أخبرني عمرو بن أبي عمرو، عن عبد الله بن عبد الرحمٰن الأشهل، عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم»[٧]، ورواه عن أبي سعيد

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وسنده ضعيف لأن الصلت بن دينار متروك كما في «التقريب».

(٢) أخرجه الطبري مرسلاً وفي سنده السدي فيه تشيع.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري من طريق القاسم عن ابن مسعود بنحوه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٩٢) وسنده ضعيف لإبهام شيخ عدي بن عدي الكندي، وله شاهد أخرجه الطبراني من حديث العرس بن عميرة قال عنه الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٧/ ٢٦٧) كما يشهد له الأحاديث التالية.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/ ٣٣٢ ح٢٣٣٠١)، قال محققوه: حسن لغيره .اهـ. أي بشواهده.

عن إسماعيل بن جعفر[١] وقال: «أو ليبعثنَّ الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير قال: حدثنا رزين بن حبيب الجهني، حدثني أبو الرقاد قال: خرجت مع مولاي فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر ولتحاضنَّ على الخير أو ليسحتنَّكم الله جميعاً بعذاب أو ليؤمرنَّ عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم[٢].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد أيضاً: حدثني يحيى بن سعيد، عن زكريا، حدثنا عامر قال: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول: وأومأ بأصبعيه إلى أذنيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرُّوا على من فوقهم فآذوهم فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً[٣]، انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم فرواه في الشركة والشهادات، والترمذي في الفتن من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش، عن عامر بن شراحيل الشعبي به[٤].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا خلف بن خليفة، عن ليث، عن علقمة بن مرثد، عن المعرور بن سويد، عن أمّ سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب من عنده» فقلت: يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون قال: «بلى». قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»[٥].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعزُّ منهم وأمنع لا يغيره إلا عمَّهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب» ورواه أبو داود، عن مسدَّد، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق به[٦].

---

(١) كذا في الأصل، وفي المسند أورده الإمام أحمد عن أبي سعيد حدثنا سليمان بن بلال . . . (المسند ٣٨/ ٣٥٢ ح٢٣٣٢٧)، وهو الصواب كما في أطراف المسند للحافظ ابن حجر ٢/ ٢٦٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٣٩٠)، وفي سنده أبو الرقاد سكت عنه ابن أبي حاتم والبخاري وقال الهيثمي: لم أعرفه (المجمع ١٠/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٢٦٩) وسنده صحيح كما يلي.

(٤) صحيح البخاري، الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه؟ (ح٢٤٩٣)، وسنن الترمذي، أبواب الفتن (ح٢١٧٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/ ٢١٦ ح٢٦٥٩٦)، وضعفه محققوه بسبب ليث بن أبي سليم، لكنه يتقوى بالشواهد وقد ذكر الهيثمي بعضها، وقال: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح (المجمع ٧/ ٢٦٨)، ولد شاهد من حديث عائشة الآتي بعد حديثين.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٣٦١)، وأخرجه أبو داود بنحوه (السنن، الملاحم، باب الأمر =

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق يحدث عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعزُّ وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه إلا عمَّهم الله بعقاب»[١]، ثم رواه أيضاً عن وكيع عن إسرائيل، وعن عبد الرزاق، عن معمر، وعن أسود، عن شريك ويونس كلُّهم عن أبي إسحاق السبيعي به وأخرجه ابن ماجه، عن علي بن محمد، عن وكيع به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا جامع بن أبي راشد، عن منذر، عن الحسن بن محمد، عن امرأته، عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقلت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله»[٣].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يُنبِّه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطّيبات واستشكرهم، فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها وقيَّض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال: كان هذا الحيُّ من العرب أذلَّ الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبيَّنه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشرَّ منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام، فمكّن به البلاد، ووسّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربّكم منعم يحب الشكر، وأهلُ الشكر في مزيد من الله[٤].

= والنهي ح٤٣٣٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٦٤٦).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣١/ ٥٥٨ ح١٩٢٣٠) وحسنه محققوه.

(٢) السنن، الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ح٤٠٠٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٠/ ١٦١ ح٢٤١٣٣)، وضعفه محققوه لإبهام المرأة التي روىٰ عنها الحسن بن محمد، وأخرجه الحاكم من طريق سفيان به وسكت عنه هو والذهبي (المستدرك ٤/ ٥٢٣) ويشهد له حديث ابن عمر أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح عنه: «إذا أراد الله تعالى بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثو على أعمالهم»، (المسند ح٤٩٨٥)، ويشهد له حديث أم سلمة المتقدم قبل حديثين.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

[قال عبد الله بن أبي قتادة][1] والزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، ثم فَطِن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخرُّ مغشيّاً عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلُّوه من السارية، فحلف لا يحلُّه منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحلُّه، فقال: يا رسول الله: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدَّق به»[2].

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا يونس بن الحارث الطائفي، حدثنا محمد بن عبيد الله بن عون الثقفي، عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ الآية[3].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف، حدثنا شبابة بن سوار، حدثنا محمد بن المحرم[4] قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمداً يريدكم فخذوا حِذركم فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ الآية[5]، هذا حديث غريب جداً، وفي سنده وسياقه نظر.

وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسولَه على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقرَّ بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه فإنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[6].

---

(١) كذا في (عم) و(مح)، وفي الأصل صحفت إلى عبد الرزاق، وعبد الله بن أبي قتادة الأنصاري تابعي ثقة.

(٢) قول عبد الله بن أبي قتادة أخرجه سعيد بن منصور (التفسير ح٩٨٧)، والطبري وابن أبي حاتم من طريق سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله مختصراً، وسنده صحيح لكنه مرسل، ومرسل الزهري أخرجه الطبري بسند فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف يونس بن الحارث (التقريب ص٦١٣).

(٤) محمد بن المحرم ترجم له البخاري وقال: منكر الحديث (التاريخ الكبير ١/ ١٤٢).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه مع الخلاف في السند، وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً، وفي سنده محمد المحرم منكر الحديث كما تقدم عن البخاري.

(٦) تقدم تخريجه في تفسير الآية (٩) من هذه السورة الكريمة.

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صحّ أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعمُّ الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ الأمانة، الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾ لا تنقصوها[(١)]. وقال في رواية: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، يقول بترك سنته وارتكاب معصيته[(٢)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في هذه الآية، أي لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السرِّ إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم[(٣)].

وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم، وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين[(٤)].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرّسول كما صنع المنافقون[(٥)].

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن] وقال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ الآية [التغابن: ١٤].

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

وفي الأثر يقول الله تعالى: يا ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فِتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء.

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كُنَّ فيه، وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبُّه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النّار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»[(٦)]، بل حبُّ رسول الله ﷺ مقدَّم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به.

(٤) أخرجه الطبري بسنده عن السدي مرسلاً.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٦) صحيح البخاري، الإيمان، باب حلاوة الإيمان (ح١٦) وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (ح٦٧).

أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين»[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد: ﴿فُرْقَانًا﴾ مخرجاً[٢]، زاد مجاهد في الدنيا والآخرة[٣]، وفي رواية عن ابن عباس: ﴿فُرْقَانًا﴾ نجاة[٤]، وفي رواية عنه نصراً.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلاً بين الحق والباطل[٥]. وهذا التفسير من ابن إسحاق أعمُّ مما تقدم وهو يستلزم ذلك كلَّه، فإنَّ من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفِّق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها سترها عن الناس وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك[٦].

وقال عطاء وابن زيد: ليحبسوك[٧].

وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق[٨]. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء.

وقال سُنيد عن حجاج، عن ابن جريج: قال عطاء: سمعت عُبيد بن عمير يقول: لما ائتمروا

---

(١) صحيح البخاري، الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ (ح١٤ ـ ١٥)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب حب رسول الله ﷺ (ح٦٩).

(٢) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عباس فأخرجه بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وأما قول مجاهد والسدي وقتادة فأخرجه الطبري بأسانيد ثابتة عنهم.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه بلفظ: «ليوثقوك». وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه بلفظ: أوثقوه وثاقاً بالوثاق، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: ليوثقوك.

(٧) قول عطاء أخرجه الطبري بسند ضعيف عن عطاء بلفظ: «يسجنوك»، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب، بلفظ: «اسجنوه».

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه. قال له عمُّه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي» قال: نِعم الربُّ ربُّك استوص به خيراً. قال: «أنا أستوصي به، بل هو يستوصي بي»[١].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني محمد بن إسماعيل المصري المعروف بالوساوسي، أخبرنا عبد المجيد بن أبي داود، عن ابن جريج، عن عطاء، عن عُبيد بن عمير، عن المطَّلب بن أبي وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربِّي». قال: نِعم الربُّ ربُّك فاستوص به خيراً. قال: «أنا أستوصي به، بل هو يستوصي بي». قال: فنزلت: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية[٢]. وذِكرُ أبي طالب في هذا غريب جداً، بل منكر، لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكَّنوا منه واجترؤوا عليه بسبب موت عمِّه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه، والدليل على صحة ما قلنا ما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: وحدثني الكلبي، عن باذان مولى أم هانئ، عن ابن عباس أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة[٣]، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم[٤] رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكنَّ أن يواثبكم في أمركم بأمره.

فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون[٥] حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير[٦] والنابغة[٧] إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف سُنيد واستغرب الحافظ ابن كثير ذكر أبي طالب.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده عبد المجيد بن أبي رواد صدوق يخطئ، لكنه توبع فأخرجه ابن أبي حاتم من طريق هشام بن يوسف عن ابن جريج، وسنده صحيح لكنه مرسل، وقد استغرب ابن كثير ذكر أبي طالب، وأجاب على ذلك الأستاذ أحمد شاكر بأن الآية مكية حسب ما رواه الطبري عن ابن جريج، ولكن الإسناد لم يصح إلى ابن جريج. قال الحافظ ابن حجر: اتفقوا على أن الأنفال مدنية، لكن قيل إن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] الآية نزلت بمكة ثم نزلت سورة الأنفال بالمدينة، وهذا غريب جداً (فتح الباري ٨/ ٦٥٧) وقال البقاعي عن سورة الأنفال: مدنية إجماعاً نزلت في بدر (مصاعد النظر ٢/ ١٤٤) وبهذا فإن قول الحافظ ابن كثير هو الراجح.

(٣) دار الندوة: هي دار قصي بن كلاب، سميت بذلك لأنهم كانوا يندون فيها أي: يجتمعون للمشاورة وهي أول دار بُنيت بمكة (معجم البلدان ٢/ ٤٢٣).

(٤) أي لا يعدوكم ويخطئكم (لسان العرب باب ع د م).

(٥) أي الموت.

(٦) زهير هو ابن أبي سُلمى ربيعة بن رباح المزني من كبار الشعراء (طبقات فحول الشعراء ص٥١).

(٧) النابغة: هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، وكان أحسن شعراء العرب ديباجة (طبقات فحول الشعراء ص٥١).

فقال: والله ما هذا لكم برأي والله ليخرجنَّه ربُّه من محبسه إلى أصحابه فليوشكنَّ أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ فانظروا في غير هذا. قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعنَّ عليه ثم ليأتينَّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: والله لأشيرنَّ عليكم برأي ما أراكم [أبصرتموه][١] بعد ما رأى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كلِّ قبيلة غلاماً شاباً وسيطا[٢] نهداً[٣]، ثم يعطى كلُّ غلام منهم سيفاً صارماً[٤]، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرَّق دمه في القبائل كلِّها، فما أظن هذا الحيَّ من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلِّها. فإنهم إذا رأوا ذلك، قبلوا العقل[٥] واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره. قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له.

فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور] فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزَّحمة للذي اجتمعوا عليه من الرأي[٦].

وعن السدي نحو هذا السياق وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ [الإسراء] وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وروي عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم[٧] وغير واحد نحو ذلك.

وقال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام، فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجَّى ببُرد له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب

---

(١) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وفي الأصل صُحفت إلى: «تضرمونه».
(٢) وسيطاً أي الشريف الحسيب (النهاية ٥/ ١٨٤).
(٣) النهد: أي القوي الضخم (النهاية ٥/ ١٣٥). (٤) أي قاطعاً.
(٥) أي الدية.
(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وفيه سندان أولهما: صحيح، والثاني ضعيف ولا يمكن تصحيحه لأن القصة ملفقة، ولكن يتقوى بالمراسيل التي تليه. وهذا الأثر ورد في سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠ ـ ٤٨١.
(٧) هذه الروايات أخرجها الطبري وابن أبي حاتم وهي تقوي بعضها بعضاً.

فجعل يذرها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١ - ٩].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: روي عن عكرمة ما يؤكد هذا[١]، وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بُنيَّة؟» قالت: يا أبتِ وما لي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بُنيّة ائتني بوضوء» فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا: ها هو ذا فطأطأوا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: «شاهت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ولا أعرف له عِلَّة[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ الآية قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبيَّ ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلَع اللهُ نبيَّه ﷺ على ذلك، فبات عليٌّ رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمرُّوا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هٰهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليال[٣].

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتىٰ خلصتك منهم[٤].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾.

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد

(١) ذكره في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠).
(٢) موارد الظمآن في زوائد صحيح ابن حبان (ح١٦٩١) والمستدرك ٣/ ١٥٧.
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ح٣٢٥١) وحسن سنده الحافظ ابن كثير وقال: وهو أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار (البداية والنهاية ٣/ ١٨١)، وحسن سنده أيضاً الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٢٣٦).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به.

تُحدَّوا غير ما مرَّة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو: النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نصّ على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج[1] وغيرهم، فإنه ـ لعنه الله ـ كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلَّم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر، فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ففعل ذلك، ولله الحمد. وكان الذي أسره المقداد بن الأسود ﷺ كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث، وكان المقداد أسر النضر، فلما أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري، فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله ﷻ ما يقول، فأمر رسول الله ﷺ بقتله، فقال المقداد: يا رسول الله أسيري فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أغن المقداد من فضلك»، فقال المقداد: هذا الذي أردت، قال: وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾[2] وكذا رواه هشيم، عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبير أنه قال: المُطعِم بن عدي[3] بدل طُعيمة، وهو غلط لأن المطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر، ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذٍ: لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألني في هؤلاء النتنى لوهبتهم له[4]، يعني الأسارى لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف.

ومعنى: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو جمع أسطورة أي: كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان] أي: لمن تاب إليه وأناب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت] ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل

---

(١) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر جعفر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وهذان مرسلان يقوي أحدهما الآخر، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف ويتقوىٰ بالمرسلين السابقين.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٣) أخرجه الطبري عن يعقوب عن هشيم به، رجاله ثقات لكنه مرسل.

(٤) أخرجه البخاري من حديث جبير بن مطعم ﷺ (الصحيح، فرض الخمس، باب ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير الخمس ح٣١٣٩).

﴿لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص] وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج] وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء] وقال هؤلاء: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادي، عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ رواه البخاري عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ، عن أبيه، عن شعبة به[١]، وأحمد هذا هو: أحمد بن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، الله أعلم.

وقال الأعمش، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ قال هو: النضر بن الحارث بن كلدة قال: فأنزل الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾ [المعارج][٢] وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي: إنه النضر بن الحارث[٣] زاد عطاء فقال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾ [ص] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج] قال عطاء: ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله ﷻ[٤].

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث، حدثنا أبو غسان، حدثنا أبو تميلة، حدثنا الحسين، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أُحد على فرس وهو يقول: اللَّهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاخسف بي وبفرسي[٥].

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة الأنفال، باب قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] (ح٤٦٤٨)، وقد ثبت أيضاً أنها نزلت في النضر بن الحارث كما سيأتي قال الحافظ ابن حجر: ولا ينافي ذلك ما في الصحيح لاحتمال أن يكونا قالاه (فتح الباري ٨/ ٣٠٩).

(٢) في سنده إبهام شيخ الأعمش، وقد صرح باسمه النسائي فأخرجه من طريق الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بدون ذكر آية الأنفال (السنن الكبرى، التفسير، باب سورة المعارج ح١١٦٢٠)، وفي سنده المنهال بن عمرو وهو صدوق ربما وهم (التقريب ص٥٤٧). ويتقوى بالآثار التالية، فسنده حسن. وأخرجه الحاكم من طريق الأعمش وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٠٢).

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه أنه قول النضر بن الحارث والطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحو قول ابن عباس، وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً، أما قول عطاء فكما يلي.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء، وطلحة بن عمرو متروك (التقريب ص٢٨٣).

(٥) في سنده إبهام ابن بريدة لأن بعض أبنائه لم يسمع من بريدة.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية، قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود، حدثنا عكرمة بن عمار، عن أبي زميل سماك الحنفي، عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك، فيقول النبي ﷺ: قد، قد، ويقولون: اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون: غفرانك غفرانك فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ الآية قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار(٢).

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثني عبد العزيز، حدثنا أبو معشر، عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا. ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللَّهم. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣) [الأنفال: ٣٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ يقول: ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: ومنهم مَن قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار يستغفرون يعني: يصلُّون. يعني بهذا أهل مكة(٤). وروي عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك(٥).

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الغفار بن داود، حدثنا النضر بن عربي قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأُمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم، قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾.

وقال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عدي حدثه هذا الحديث،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح أخرجه مسلم من طريق عكرمة به (الصحيح، الحج باب التلبية وصفتها (ح١١٨٥).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف بسبب الإرسال.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به مقطعاً.

(٥) هذه الأقوال أخرجها الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد ثابتة.

(٦) قول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن نبيط عنه. وقول أبي مالك أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

عن مجاهد، عن ابن عباس[١]. وروى ابن مردويه، عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا[٢]. وكذا روي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرى[٣].

وقال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن نمير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عبَّاد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليَّ أمانين لأُمتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»[٤]، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا ربِّ لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الربُّ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا رشدين - هو: ابن سعد -، حدثني معاوية بن سعيد التُجيبي، عمن حدثه، عن فضالة بن عبيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله ﷻ»[٦].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً، (السنن، التفسير، باب ومن سورة الأنفال ح٣٠٨٢) وسنده ضعيف لضعف إسماعيل بن إبراهيم، ويشهد له سابقه وما تقدم في صحيح مسلم.

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول أبي العلاء أخرجه الطبري من طريق عامر أبي الخطاب الثوري ويتقوى بما سبق.

(٤) تقدم تخريجه في الرواية قبل السابقة.

(٥) المسند ٢٩/٣ والمستدرك ٢٦١/٤، وسنده ضعيف لأن رواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة، ولكن يشهد له ما تقدم في صحيح مسلم من حديث ابن عباس.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٠/٦) وسنده ضعيف لضعف رشدين بن سعد، وإبهام شيخ معاوية بن سعيد، ويشهد له ما تقدم من حديث ابن عباس في صحيح مسلم وغيره.

(٧) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح].

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن ابن أبزى قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، قال: وكان أولئك البقيَّة من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين، يعني: بمكة ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾، قال: فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم[1]. وروي عن ابن عباس وأبي مالك والضحاك وغير واحد نحو هذا[2].

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فنسختها الآية التي تليها ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر[3]، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي تميلة يحيى بن واضح[4].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام[5]؟ أي: الذي بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال ابن أبزىٰ.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، وقول الضحّاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه سفيان بن وكيع، وقول أبي مالك أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وفي آخره بلفظ: «الجوع والحصر»، وفي سنده ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي ضعيف وقد توبع فأخرجه ابن أبي حاتم من طريق أحمد بن إسماعيل بن أبي ضرار عن أبي تميلة يحيىٰ بن واضح به، وسنده حسن وهذان المرسلان يقوي أحدهما الآخر.

(٤) كما في السند السابق.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف، ومعناه صحيح.

قال: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧].

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية: حدثنا سليمان بن أحمد ـ هو الطبراني ـ، حدثنا جعفر بن إلياس بن صدقة المصري، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا نوح بن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك؟ قال: «كل تقي». وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾[(١)].

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو بكر الشافعي، حدثنا إسحاق بن الحسن، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن خثيم، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا: فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال: «حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أوليائي منكم المتقون». ثم قال هذا صحيح ولم يخرجاه[(٢)].

وقال عروة والسدي ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم[(٣)].

وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا[(٤)].

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾، قال عبد الله بن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هو الصفير[(٥)]. وزاد مجاهد، وكانوا

---

(١) سنده ضعيف جداً بسبب نوح بن أبي مريم: كان يضع الحديث كما في التقريب، وفيه انقطاع بين يحيىٰ وأنس وأخرجه البيهقي من طريق أبي هرمز عن أنس ثم قال: نافع السلمي أبو هرمز بصري كذبه ابن معين (السنن الكبرى ٢/ ١٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم بسنده ومتنه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٨)، وفي سنده إسماعيل بن عبيد بن رفاعة مقبول (التقريب ص١٠٩)، وأخرجه الإمام أحمد من طريق سفيان به (المسند ٣١/ ٣٢٧ ح١٨٩٩٤).

(٣) قول عروة وابن إسحاق أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بدون ذكر: هم المجاهدون.

(٥) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عمر فأخرجه بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عمر، ويشهد له بقية الآثار فقد صح عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وذلك فيما رواه الطبري عنهم.

يدخلون أصابعهم في أفواههم[١].

وقال السدي: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له: (المكّاء) ويكون بأرض الحجاز ﴿وَتَصۡدِيَةً﴾[٢].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب - يعني ابن عبد الله الأشعري -، حدثنا جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالكعبة عراة تُصفِّر وتصفق. والمكاء: الصَّفير، وإنما شبهوا بصفير الطير ﴿وَتَصۡدِيَةً﴾ التصفيق[٣]، وهكذا روي عن علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس، وكذا روي عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمٰن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحُجرْ بن عَنبس، وابن أبزى نحو هذا[٤].

قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عامر، حدثنا قُرَّة، عن عطية، عن ابن عمر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ قال قُرَّة: وحكى لنا عطية فعل ابن عمر فصفر ابن عمر وأمال خده وصفق بيديه[٥].

وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه[٦].

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال[٧]، قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبيِّ ﷺ صلاته[٨].

وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين[٩].

وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمٰن بن زيد ﴿وَتَصۡدِيَةً﴾ قال: صدهم الناس عن سبيل الله ﷻ[١٠].

قوله: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، قال: الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي[١١]، واختاره ابن جرير ولم يحكِ غيره.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه وسنده حسن. (٤) هذه الأقوال تتمة لما سبق قبل ثلاث روايات.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده أيضاً عطية العوفي.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم وفي سنده أيضاً عطية العوفي.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أخي الزهري عن الزهري.

(١٠) قول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً من طريق طلحة بن عمرو عنه لأن طلحة متروك، وقول عبد الرحمٰن أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ بن الفرج عنه.

(١١) قول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن نبيط عنه، وقول ابن جريج وابن إسحاق أخرجه الطبري بسندين ضعيفين عنهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمٰن بن عمرو بن سعد بن معاذ قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلُّهم[٢] إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم[٣] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[٤]، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عُتيبة وقتادة والسدي وابن أبزى: أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ[٥].

وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر[٦]. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٢) أي المنهزمون.
(٣) أي أدرك فيكم مكروهاً بالقتل.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به، ولكنه مرسل وهذه المراسيل وما يتلوها من مراسيل أخرى يقوي بعضها بعضاً.
(٥) أخرجه الطبري عن مجاهد وقتادة والسدي بأسانيد ثابتة.
(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، ويشهد له ما سبق من الآثار.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر[(١)]، وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة كقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية [يونس: ٢٨]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس] ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللّام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصدِّ عن سبيل الله أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران] ونظيرتها في براءة أيضاً، فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ أي: يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ١٤٣] أي: متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ أي: عمَّا هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف أي من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»[(٢)]، وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجبُّ ما قبله والتوبة تجبُّ ما كان قبلها»[(٣)].

وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ أي: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٢) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب إثم من أشرك بالله (ح٦٩٢١) وصحيح مسلم الإيمان، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية؟ (ح١٢٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسند عن عمرو بن العاص مرفوعاً بلفظ: «إن الإسلام يجبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها»، (المسند ٢٩/ ٣٤٩ ح١٧٨١٣) قال محققوه: الشطر الأول منه حسن، وأخرج مسلم في صحيحه من حديث عمر: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله»، (الصحيح، الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله ح١٢١).

مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنّا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة.

قال مجاهد في قوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم[١].

وقال السدي ومحمد بن إسحاق: أي يوم بدر[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ قال البخاري: حدثنا الحسن بن عبد العزيز، حدثنا عبد الله بن يحيى، حدثنا حيوة بن شريح، عن بكر بن عمرو، عن بكير، عن نافع، عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمٰن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ الآية [الحجرات: ٩] فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا بن أخي أُعيَّر بهذه الآية، ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أُعيَّر بالآية التي يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] إلى آخر الآية قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثُر الإسلام فلم تكن فتنة، فلمَّا رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: أما قولي في علي وعثمان، أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عمِّ رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون[٣].

وحدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا بيان، أن ابن وبرة حدثه قال: حدثني سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر ﷺ فقال: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك[٤].

هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى وقال عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرَّم عليَّ دم أخي المسلم. قالوا: أو لم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كلُّه لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. وكذا روى حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أيوب بن عبد الله اللخمي، قال: كنت عند عبد الله بن عمر ﷺ، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول ابن إسحاق أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه، (الصحيح، تفسير سورة الأنفال، باب قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] (ح٤٦٥٠).

(٤) كسابقه (ح٤٦٥١).

تكون فتنة ويكون الدِّين لغير الله. وكذا رواه حماد بن سلمة، فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كلُّه لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدِّين لغير الله(١)، رواهما ابن مردويه.

وقال أبو عوانة، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، قال: قال ذو البطين، ـ يعني أسامة بن زيد ـ: لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً: يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدِّين كله لله(٢). رواه ابن مردويه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: لا يكون شرك(٣)، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم(٤).

وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري، عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، حتى لا يُفتن مسلم عن دينه(٥).

وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾. قال الضحاك: عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله(٦).

وقال الحسن وقتادة وابن جريج: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أن يقال: لا إله إلا الله(٧).

وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد(٨).

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، لا يكون مع دينكم كفر(٩)، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقِّها، وحسابهم على الله ﷻ»(١٠) وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل

---

(١) أصلهما في الصحيح كما في الحديثين السابقين.

(٢) سنده مرسل ولم يسم الراوي عن أبي عوانة ومن بعده، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي ظبيان حصين بن جندب، ولم يذكر: يعني أسامة بن زيد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن الضحاك به، ويتقوى بالآثار التالية.

(٤) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق به ولم يصرح ابن إسحاق باسم شيخه ولكنه يتقوى بما سبق.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن الضحاك به ويتقوى بالتالي.

(٧) قول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٨) يشهد له ما سبق.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمٰن.

(١٠) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٠.

شجاعة ويقاتل حميَّة، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله ﷻ؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﷻ»[(١)].

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفُّوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، كقوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة، لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة، فقال يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «هلا شققت عن قلبه؟» وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ[(٢)].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم، وسيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير.

وقال محمد بن جرير: حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد، حدثنا أبي، حدثنا أبان العطار، حدثنا هشام بن عروة، عن عروة، أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنَّك كتبت إلي تسألني، عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأخبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعم النبيّ ونعم السيد ونعم العشيرة، فجزاه الله خيراً، وعرفنا وجهه في الجنة، وأحيانا على ملته وأماتنا وبعثنا عليها، وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكانوا يسمعون له، حتى إذا ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطّائف من قريش لهم أموال، أنكر ذلك عليه ناس واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم، فانعطف عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن وعصم الله ما شاء منهم، فلما فعل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح، يقال له: النجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يثنى عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها رفاغاً من الرزق، وأمناً ومتجراً حسناً، فأمرهم بها النبي ﷺ،

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة، آية ١٩٢.

(٢) صحيح البخاري، الجهاد والسير، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد (ح٢٨١٠)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله (ح٩٦).

فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخافوا عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم، ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال، فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمَّن كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتنون، فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكثرون، وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا الإسلام بالمدينة، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، [تذامرت][1] على أن يفتنوهم ويشتدوا، فأخذوهم فحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد، فكانت الفتنة الآخرة، فكانت فتنتان:

فتنة: أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها.

وفتنة: لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة، ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم، على أنَّا منك وأنت مِنَّا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدَّت عليهم قريش، عند ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه، أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله ﷻ فيها: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[2]، ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عبد الرحمٰن بن أبي الزناد عن أبيه، عن عروة بن الزبير، أنه كتب إلى الوليد يعني: ابن عبد الملك بن مروان بهذا، فذكر مثله[3]، وهذا صحيح إلى عروة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم. والغنيمة: هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب.

---

(١) كذا في تفسير الطبري، وفي الأصل: توامرت.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده الأستاذ محمود شاكر ولقد أشار إلى كتاب عروة في السيرة، وعزم أن يجمعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) أخرجه الطبري عن يونس بسنده مختصراً على مطلع كتاب عروة. والسند الأول أقوى، وصححه الحافظ ابن كثير أيضاً.

والفيء: ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، وبالعكس أيضاً، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [الحشر: ٧]، قال: فنسخت آية الأنفال تلك، وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين، وخمساً منها لهؤلاء المذكورين[١]، وهذا الذي قاله بعيد، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمغازي قاطبة، أن بني النضير بعد بدر، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة، يقول: تلك نزلت في أموال الفيء، وهذه في الغنائم، ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام، يقول: لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس، إذا رآه الإمام والله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ توكيد لتخميس كلِّ قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون هٰهنا:

فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة.

قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرياحي، قال: كان رسول الله ﷺ، يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل[٢].

وقال آخرون: ذكر الله هٰهنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله عليه السلام.

قال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فأن لله خمسه، مفتاح كلام ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً[٣]. وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية، والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد، أن سهم الله ورسوله واحد[٤].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي جعفر الرازي به وسنده جيد لكنه مرسل.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الضحاك به، وتشهد له الآثار التالية.

(٤) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول عطاء فقد أخرجه بسند حسن من طريق عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء، وقول إبراهيم النخعي والحسن البصري وعطاء بن أبي رباح وقتادة أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي، بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق، عن رجل، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم»[١].

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان، عن الحسن، قال: أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه[٢].

ثم اختلف قائلو هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربع لله وللرسول ﷺ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم، عن عبد الله بن بُريدة في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه[٤].

وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، قال: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء[٥]، يعني النبي ﷺ، وهذا أعمُّ وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي، أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي ﷺ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلّى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلَّم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه، فقال: «إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلُّوا، فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، ينجي الله به من الهمِّ والغمِّ»[٦]، هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

---

(١) أخرجه البيهقي من طريق عبد الله بن شقيق به (السنن الكبرى ٦/ ٣٢٤)، وصححه سنده الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن الحسن لم يسمع من أبي بكر ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به نحوه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه أبو عبيد (الأموال ٨٣٨) وابن أبي شيبة (المصنف ١٢/ ٤٣١) بسند صحيح من طريق عبد الملك بن أبي سليمان به.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٧/ ٣٧١ ـ ٣٧٢ ح٢٢٦٩٩)، وحسنه محققوه بالشواهد، وكذا =

ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول[١]. وعن عمرو بن عنبسة، أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلّم أخذ وبرة من هذا البعير، ثم قال: «ولا يحل لي من غنائكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»[٢] رواه أبو داود والنسائي، وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نصّ عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وروى الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت صفية من الصفي[٤]، رواه أبو داود في سننه، وروى أيضاً بإسناده والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن قيس إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ[٥]. فهذه أحاديث جيدة تدلُّ على تقرير هذا وثبوته، ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يصنع به من بعده، فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، رُوي هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع.

وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين.

= حسنه الحافظ ابن كثير، وأخرجه الحاكم من طريق أبي سلام الأعرج به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٤٩، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ح٩٨٥).

(١) المسند ٢/ ١٨٤، وسنن أبي داود، الجهاد، باب فداء الأسير بالمال (ح٢٦٩٤) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٣٤٣).

(٢) سنن أبي داود، الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه (ح٢٧٥٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٣٩٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٤/ ٢٥٩ ح٢٤٤٥) وحسنه محققوه.

(٤) أخرجه أبو داود (السنن، الجهاد، باب ما جاء في سهم الصفيّ ح٢٩٩٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٥٨٧).

(٥) أخرجه أبو داود (السنن، الجهاد، باب ما جاء في سهم الصفيّ ح٢٩٩٩)، وصححه سنده الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٥٩٢).

وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير.

وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهال بن عمرو، سألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين عن الخمس، فقالا: هو لنا، فقلت لعلي: فإن الله يقول: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقالا: يتامانا ومساكيننا[(١)].

وقال سفيان الثوري وأبو نعيم وأبو أسامة، عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى، عن قول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة.

ثم اختلف الناس في هذين السهمين، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده.

وقال آخرون: لقرابة النبي ﷺ. وقال آخرون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[(٢)].

قال الأعمش: عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع[(٣)] والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان عليٌّ يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه[(٤)]. وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حميَّة للعشيرة، وأنفة وطاعة لأبي طالب عمِّ رسول الله ﷺ، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم، ولهذا يقول في أثناء قصيدته [اللامية][(٥)]:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً فإن عبد الغفار هو ابن القاسم أبو مريم الغفاري، يروي عن المنهال بن عمر (الجرح والتعديل ٦/ ٥٣) من رؤوس الشيعة رافضي يضع الحديث (ميزان الاعتدال ٢/ ٦٤٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (المصنف رقم ٩٣٨٢)، وأبو عبيد (الأموال ٣٩) وابن أبي شيبة (المصنف ١٢/ ٤٣١)، كلهم من طريق الثوري به وسنده صحيح، وأخرجه الحاكم أيضاً من طريق الثوري به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٢٨).

(٣) الكراع: بضم الكاف اسم يجمع الخيل والسلاح.

(٤) أخرجه الطبري من طريق عمر بن عبيد عن الأعمش به، وسنده مرسل.

(٥) ما بين معقوفين زيادة من (عم) و(مح).

جزى اللّه عنّا عبد شمس ونوفلا ... عقوبة شرٍّ عاجل غير آجل[١]
بميزان قسط لا يخيس شعيرة[٢] لـ ... ه شاهد من نفسه غير عائل
لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بني خلف قيضاً[٣] بنا والعياطل[٤]
ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصي في الخطوب الأوائل[٥]

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان، يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» رواه مسلم[٦]. وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»[٧]، وهذا قول جمهور العلماء، إنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روىٰ عن خصيف عن مجاهد، قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة[٨]، ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك[٩].

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل هم قريش كلُّها، حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثني عبد الله بن نافع، عن أبي معشر، عن سعيد المقبري، قال: كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن ذوي القربى، فكتب إليه ابن عباس، كنا نقول: إنَّا هم، فأبى علينا ذلك قومنا، وقالوا: قريش كلُّها ذوو قربى وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث سعيد المقبري، عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى[١٠]، فذكره إلى قوله: فأبى ذلك علينا قومنا، والزيادة من أفراد أبي معشر نجيح بن عبد الرحمٰن المدني، وفيه ضعف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا المعتمر بن

---

(١) كذا في (عم) و(حم) و(مح) والسيرة النبوية لابن هشام وفي الأصل: «عقوبة سوء من غرام مماثل».
(٢) الشعيرة: الحب المعروف. (٣) قيضاً: أي عوضاً.
(٤) العياطل: هم بنو سهم.
(٥) ورد هذا الشعر في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٧٧.
(٦) بل أخرجه البخاري (الصحيح، فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام ح٣١٤٠).
(٧) أخرجه النسائي من حديث جبير بن مطعم مرفوعاً (السنن، كتاب قسم الفيء ٧/ ١٣١).
(٨) أخرج الطبري الروايتين من طريق خُصيف عن مجاهد، وخصيف صدوق سيء الحفظ.
(٩) أخرجه الطبري من طريق الصَّبَّاح بن يحيىٰ المزني عن السدي عن أبي الديلم عن علي بن الحسين بنحوه، وسنده ضعيف جداً لأن الصباح المزني متروك شيعي (لسان الميزان ٣/ ١٦٠) وإسماعيل بن أبان والسدي كلاهما فيهما تشيع، وإسماعيل بن أبان هو الوراق الأزدي: كذاب.
(١٠) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف أبي معشر نجيح ولكنه توبع في معظمه إذ أخرجه مسلم من طريق يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس ولكن بدون قوله: قريش كلها ذوو قربىٰ (الصحيح، الجهاد، باب النساء الغازيات. . . ح١٨١٢)، وكذا أخرجه أبو داود في سننه، الإمارة، باب بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى (ح٢٩٨٢) والنسائي في سننه، كتاب قسم الفيء ٧/ ١٢٨ ـ ١٢٩.

سليمان، عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم من خُمس الخُمس ما يغنيكم أو يكفيكم»[١]، هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين: يأتي بمناكير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: أيتام المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، والمساكين: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس، أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وآمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع. آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخُمس من المغنم»[٢]، الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه، فقال: (باب أداء الخمس من الإيمان) ثم أورد حديث ابن عباس هذا[٣]، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي: في القسمة[٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه، بما فرّق به بين الحق والباطل ببدر، ويسمى الفرقان، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيَّه وحزبه.

قال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرّق الله فيه بين الحق والباطل، رواه الحاكم[٥]، وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنه يوم بدر[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن حنش وهو: الحسين بن قيس الرحبي متروك كما في التقريب وقال البخاري: لا يكتب حديثه (ينظر ميزان الاعتدال ١/٥٤٦)، وقد حسن الحافظ ابن كثير سنده ولعلهُ بالمتابعات والشواهد لأن أصله في الصحيح إذا أخرج مسلم في صحيحه عن المطلب بن ربيعة بن الحارث ﵁ أن النبي ﷺ قال: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد». (الصحيح، الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة) (ح١٠٧٢).

(٢) صحيح البخاري، الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (ح٥٣) وصحيح مسلم، الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى (ح١٧).

(٣) (ح٥٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل.

(٥) أخرجه الحاكم من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/٢٣)، وأما طريق العوفي أخرجه الطبري بسند ضعيف ويتقوى بسابقه.

(٦) ذكرهم ابن أبي حاتم جميعاً بحذف السند، وقول مجاهد ومقسم وقتادة أخرجه الطبري عنهم بأسانيد صحيحة.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يوم فرّق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك(١).

وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن ابن مسعود، قال في ليلة القدر: تحروها لإحدى عشرة يبقين، فإن في صبيحتها يوم بدر(٢)، وقال: على شرطهما، وروي مثله عن عبد الله بن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن برقان، عن رجل عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، [عن ابن عون، عن محمد بن عبد الله الثقفي](٣)، عن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان(٤). إسناد جيد قوي، ورواه ابن مردويه، عن أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن حبيب، عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير.

وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين، ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه(٥)، والله أعلم.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى [مخبراً](٦) عن يوم الفرقان ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه (المصنف رقم ٩٧٢٦) وسنده صحيح، وأخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به.

(٢) المستدرك ٣/ ٢٠.

(٣) كذا في النسخ الخطية وتفسير الطبري، ويرىٰ الأستاذ أحمد شاكر أن الصواب: عن أبي عون محمد بن عبيد الله الثقفي ثم استشهد برواية سابقه لم يذكر فيها الكنية (التفسير رقم ١٦١٣٥ و١٥٩٢٥)، وأما طبعة معالي الدكتور التركي فهي كما في ابن كثير.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده يحيىٰ بن يعقوب أبو طالب: قال البخاري: منكر الحديث (التاريخ الكبير ٨/ ٣١٢)، ووثقه أبو حاتم كما في الجرح والتعديل (٨/ ١٩٨). ولعل تقوية الحافظ ابن كثير لهذا السند لأنه روي من طرق أخرى، لأنه قال: وهو الصحيح عند أهل المغازي.

(٥) يقصد الحافظ ابن كثير بقول الجمهور أنه يوم الجمعة وهو كما قال، ولكن يزيد بن أبي حبيب لم ينفرد به بل توبع إذ أخرجه ابن سعد وابن أبي شيبة كلاهما من طريق عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عامر بن ربيعة البدري قال: كانت بدر يوم الإثنين، (الطبقات الكبرىٰ ٢/ ١٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٥٤ رقم ١٨٥٠١)، ورواية يزيد بن أبي حبيب أخرجها ابن أبي حاتم من طريق مصعب بن ثابت عن عطاء بن دينار عن يزيد بن أبي حبيب. ومصعب بن ثابت لين الحديث كما في التقريب.

(٦) كذا في «عم» و«حم» و«مح»، وسقطت من الأصل.

الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ أي: مما يلي سيف البحر، ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ﴾ أي: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾.

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، في هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه[(١)].

وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معياد[(٢)].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثني ابن علية، عن ابن عون، عن عمير بن إسحاق، قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة، ونهد[(٣)] الناس بعضهم لبعض[(٤)].

وقال محمد بن إسحاق في السيرة: ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء، بعث بسبس بن عمرو وعَدي بن أبي الزغباء الجهنيين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً، فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شن[(٥)] لهما من الماء، فسمعا جاريتين تختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها اقضيني حقي، وتقول الأخرى: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأقضيك حقك، فخلص بينهما مجدي بن عمرو، وقال: صدقت، فسمع بذلك بسبس وعدي، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه الخبر، وأقبل أبو سفيان حين ولّيا وقد حذر، فتقدم أمام عيره، وقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شن لهما ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره فانطلق بها فسَاحَل[(٦)]، حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره إلى قريش فقال: إن الله قد نجّى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدراً - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام، وننحر بها الجزر، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان[(٧)]، وتسمع بنا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به وابن إسحاق صرح بالتحديث.

(٢) أخرجه البخاري (الصحيح، المغازي، باب قصة بدر ح٣٩٥١).

(٣) أي نهضوا إلى القتال.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وهو مرسل ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٥) أي قربة ماء بالية.

(٦) أي: سار بالقافلة نحو الساحل.

(٧) أي الجواري.

العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. فقال الأخنس بن شريق: يا معشر بني زهرة، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها، ولا بنو عدي[١].

قال محمد بن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر، علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلِّي فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما[٢] قالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم، وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش» قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العقنقل، فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا: ما ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأُمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[٣].

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لما التقى الناس يوم بدر يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، وننيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا؟ فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى، فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوادونَك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر، ما معهما غيرهما[٤].

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل ـ وهو الكثيب ـ الذي جاؤوا منه إلى الوادي، فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم[٥] الغداة»[٦].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٦١٧ ـ ٦١٩.
(٢) أي: بالغوا في ضربهما.
(٣) سنده حسن لكنه مرسل، وورد في سيرة ابن هشام ١/٦١٦ ـ ٦١٧.
(٤) سنده منقطع لأن عبد الله بن أبي بكر لم يسمع من سعد بن معاذ. وذكره ابن هشام بسنده بنحوه (السيرة النبوية ١/٦٢٠ ـ ٦٢١).
(٥) أي أهلكهم.
(٦) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٢١.

وقوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك[١].

وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصيّر الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحينئذٍ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة وبصيرة والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقالت عائشة في قصة الإفك: فهلك فيّ من هلك[٢]، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم[٣]، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد[٤]، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها[٥].

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى [التستري][٦] حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال بعينك[٧]، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هٰهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه، وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي: لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: من ذلك، بأن أراكهم قليلاً ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما تكنُّه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجرُّؤهم عليهم ويطمعهم فيهم.

قال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قُلِّلوا في

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٧٢ - ٦٧٣.
(٢) ستأتي القصة بطولها في تفسير سورة النور آية ١١.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.
(٥) ذكره الطبري بصيغه: زعم بعضهم.
(٦) كذا في تفسير ابن أبي حاتم، وفي (مح): السدي وهو تصحيف.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، وقد استغربه الحافظ ابن كثير لأنه خالف التصريح بالمنام.

أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(١).

وقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الحارث، عن عكرمة ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ الآية، قال: حضَّض(٢) بعضهم على بعضهم(٣). إسناد صحيح.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته(٤)، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلَّله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيَّد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منهما حق وصدق، ولله الحمد والمِنَّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى، أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس لا تتمنَّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللَّهم مُنزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»(٥).

وقال عبد الرزاق: عن سفيان الثوري، عن عبد الرحمٰن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنَّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت»(٦).

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق أبي إسحاق السبيعي به، وسنده منقطع لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أي: حثَّ.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح كما قرر الحافظ ابن كثير.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق به.

(٥) صحيح البخاري، الجهاد، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخرَّ القتال حتىٰ تزول الشمس (ح٢٩٦٥)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب كراهية تمني لقاء العدو (ح١٧٤٢).

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه (المصنف رقم ٩٥١٨) وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زياد، والشق الأول له شاهد في الصحيحين كما تقدم في الحديث السابق.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد، عن رجل، عن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ مرفوعاً، قال: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنازة»[١].

وفي الحديث الآخر المرفوع، يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»[٢] أي: لا يشغله ذلك الحال، عن ذكري ودعائي واستعانتي.

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضِّراب بالسيوف[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، قال: وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم[٤].

وقال أيضاً: قرأ عليَّ يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن يزيد بن قوذر، عن كعب الأحبار، قال ما من شيء أحبُّ إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾؟[٥].

قال الشاعر:

ذكرتك والخطى يخطُر بيننا ... وقد نهلت فينا المثقَّفة السُّمر

وقال عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح شواجر ... فينا وبيض الهند تقطر من دمي

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفرُّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم وحدتكم، وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقد كان للصحابة ﷺ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٥/ ٢١٣) وسنده ضعيف لإبهام شيخ ثابت بن زيد.
(٢) أخرجه الترمذي من حديث عمارة بن زعكرة وقال: ليس إسناده بالقوي (السنن، الدعوات ح٣٥٨٠).
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد به.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده يزيد بن قوذر سكت عنه ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٩/ ٢٨٤).

بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى عَلت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهّاب.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، بطراً أي دفعاً للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرِد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان[١]، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً[٢]، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام، ورُموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صَغَرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شرَّ الجزاء لهم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر[٣].

وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ الآية، حسَّن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما همُّوا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: إني جار لكم، وذلك أنه تبدَّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، سيد بني مدلج كبير تلك الناحية[٤]، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء].

قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر، سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، فلما التقوا

---

(١) أي الجواري.
(٢) تقدم تخريجه من السيرة النبوية لابن هشام.
(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوىٰ بقول مجاهد وقتادة والسدي إذ أخرجه الطبري عنهم بأسانيد ثابتة.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه.

ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما اصطفَّ الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولَّوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: «إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب»، وذلك حين رأى الملائكة[٢].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم، فتشبَّث به الحارث بن هشام، فنخر في وجهه فخرَّ صعقاً فقيل له: ويلك يا سراقة على هذه الحال، تخذلنا وتبرأ منا، فقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب[٣].

وقال محمد بن عمر الواقدي: أخبرني عمر بن عقبة، عن شعبة مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: لما تواقف الناس أغمي على رسول الله ﷺ ساعة، ثم كشف عنه فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس، وإسرافيل في جند آخر ألف، وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي يدبر المشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، فتشبَّث به الحارث بن هشام، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه، فضرب في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يُرى حتى سقط في البحر ورفع [يديه][٤] وقال يا ربِّ موعدك الذي وعدتني[٥]. وفي الطبراني عن رفاعة بن رافع[٦]، قريب من هذا السياق وأبسط منه، ذكرناه في السيرة، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه،

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) سنده ضعيف بسبب الكلبي بالكذب أنه متهم.

(٤) كذا في (عم) و(مح) ومغازي الواقدي، وفي الأصل (وحم) صحفت إلى ثوبه، وكذا في الطبعات المحققة.

(٥) أخرجه الواقدي بسنده ومتنه (المغازي ١/ ٧٠)، وسنده ضعيف لضعف الواقدي ولمعظمه شواهد تقدمت في الرواية قبل السابقة.

(٦) المعجم الكبير ٥/ ٤٢ وضعفه الهيثمي لضعف أحد رجاله واسمه: عبد العزيز بن عمران (المجمع ٦/ ٨٢).

فخرجوا سراعاً[١]. قال محمد بن إسحاق: فذُكر لي أنهم كانوا يرونه في كلِّ منزل في صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذي رآه حين نكص، الحارث بن هشام أو عمير بن وهب، فقال: أين سراقة؟ أين؟ أي: سراقة. ومثل عدو الله فذهب، قال: فأوردهم ثم أسلمهم، قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله قد أيَّد الله بهم رسوله والمؤمنين، فنكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، وصدق عدو الله، وقال: إني أخاف الله والله شديد العقاب[٢].

وهكذا روي عن السدي والضحاك والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي[٣] وغيرهم رحمهم الله.

وقال قتادة: وذُكر لنا أنه رأى جبريل ﷺ تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله وكذب عدو الله. والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاع واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شرَّ مسلَّم، وتبرأ منهم عند ذلك[٤].

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه، قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بني ساعدة، قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد ما كفَّ بصره، يقول: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى[٥].

فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس، وأوحى الله إليهم أني معكم فثبِّتوا الذين آمنوا، وتثبيتهم، أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل، يعرفه فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء والله معكم فكرُّوا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضِّض أصحابه، ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللّات والعزى، لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً، وهذا من أبي جهل لعنه الله،

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده حسن لكنه مرسل.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٦١٣) ويتقوىٰ بالآثار والمراسيل التالية والسابقة.

(٣) قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول الحسن البصري أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل.

(٥) ذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٦٣٣).

كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] وكقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] وهو من باب البُهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر[١] ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر» قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل عليه السلام يَزَعُ[٢] الملائكة»[٣] وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلَّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلَّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرّ هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذُكر لنا، أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه، قال: والله لا يُعبد الله بعد اليوم قسوة وعتواً[٥].

وقال ابن جريج في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر[٦].

وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قِلَّة المسلمين، قالوا: غرّ هؤلاء دينهم[٧].

وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال: فئة من قريش، قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أُمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة، وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلمَّا رأوا قِلَّة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غرّ هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم[٨]. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء.

---

(١) أي أبعد عن الخير. (٢) أي يرتبهم ويصفّهم للحرب.
(٣) أخرجه الإمام مالك بسنده نحوه (الموطأ ١/ ٤٢٢ ح٢٤٥)، وسنده مرسل، وأخرجه الطبري من طريق الإمام مالك به.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وسنده مرسل ويتقوىٰ بما سبق.
(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف.
(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود عن عامر، وسنده مرسل ويتقوى بما سبق.
(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد، ومجاهد أرسله.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين، قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقرُّوا بالإسلام وهم بمكة، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قِلَّة المسلمين، قالوا: غرّ هؤلاء دينهم[١].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، إذ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ويقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

قال ابن جريج: عن مجاهد ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أستاههم، قال يوم بدر[٢].

قال ابن جريج: قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم[٣].

وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد، في قوله: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يوم بدر[٤].

وقال وكيع: عن سفيان الثوري، عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير، عن مجاهد[٥]، وعن شعبة، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، «يضربون وجوههم وأدبارهم» قال: وأستاههم، ولكن الله يَكْني[٦]، وكذا قال عمر مولى غفرة[٧].

وعن الحسن البصري قال: قال رجل: يا رسول الله إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك، قال: «ذاك ضرب الملائكة»[٨] رواه ابن جرير وهو مرسل، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها[٩]، وتقدم في

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكنه مرسل ويتقوى بالمراسيل الثابتة والروايات السابقة.
(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وأخرجه من طرق أقوى عن مجاهد فيه متابعة لابن جريج.
(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.
(٥) أخرجه الثوري في تفسيره به وسنده صحيح.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق شعبة عن يعلى بن مسلم به.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حرملة عن عمر مولى غفرة.
(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عباد بن راشد عن الحسن لكنه مرسل.
(٩) آية ٢٧.

سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] أي: باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتتفرق في بدنه فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود[1] من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب[2]، ولهذا أخبر تعالى: أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى، وتقدّس وتنزّه الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، عند مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من رواية أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ، إن الله تعالى يقول: «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[3]، ولهذا قال تعالى:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أي: عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] وقوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي

(١) السفود: السيخ من حديد يشوىٰ بها اللحم.
(٢) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة الأعراف آية ٤٠.
(٣) صحيح مسلم، البر، باب تحريم الظلم (ح٢٥٧٧).

أسداها إليهم، من جنّات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أخبر تعالى: أن شرَّ ما دبَّ على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلّما عاهدوا عهداً نقضوه، كلّما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام، ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكّل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة[1]، ومعناه: غلّظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك[2].

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز:

فاضرب وجوه الغدر الأعداء ... حتى يجيبوك إلى السواء[3]

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: على مهل[4]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابّة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة رضي الله عنه[5]. وهذا الحديث

---

(١) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عباس أسنده بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، ويتقوىٰ بأقوال التابعين التي تليه كما يتقوىٰ برواية الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عن السدي.

(٣) ذكره الطبري ثم بين معنىٰ السواء: العدل.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح عن علي بن سهل عن الوليد بن مسلم.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه ٤/ ١١١، وأخرجه الترمذي من طريق شعبة به وقال: حسن صحيح (السنن، السير، باب ما جاء في الغدر ح١٥٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح١٢٨٥).

رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، من طرق عن شعبة به[١]، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري عن سلمان، يعني: الفارسي رضي الله عنه، أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال: إنما كنت رجلاً منكم، فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله[٢].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾ أي: فاتونا، فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت] أي: يظنون، وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران] ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما أمكنكم ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفيّ، أخي عقبة بن عامر، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»[٣]. رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب به[٤]. ولهذا الحديث طرق أخر، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذي من حديث صالح بن كيسان، عن رجل عنه، وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا»[٥].

---

(١) سنن أبي داود، الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه (ح٢٧٥٩)، والسنن الكبرى للنسائي (ح٨٧٣٢)، ومسند الطيالسي (ح١١٥٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٩/ ١٢٩ ح٢٣٧٢٦)، وسنده ضعيف لأن أبا البختري وهو سعيد بن فيروز لم يسمع من سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٦) وسنده صحيح.

(٤) صحيح مسلم، الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه (ح١٩١٧).

(٥) المسند ٤/ ١٤٤، وسنن الترمذي، فضائل الجهاد، باب ما جاء في الرمي في سبيل الله (ح١٦٣٧)، وقال =

وقال الإمام مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وِزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مَرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج[1] أو الروضة، كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها[2]، فاستنت[3] شرفاً[4] أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرّت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء، فهي على ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال: «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة][5] رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم كلاهما من حديث مالك[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الرُّكين بن الربيع، عن القاسم بن حسان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «الخيل ثلاثة، ففرس للرحمٰن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمٰن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله ـ وذكر ما شاء الله ـ وأما فرس الشيطان، فالذي يقامر أو يراهن عليها، وأما فرس الإنسان، فالفرس يربطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي له ستر من الفقر»[7].

وقد ذهب أكثر العلماء، إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك، إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج وهاشم، قالا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماسة، أن معاوية بن خديج، مرّ على أبي ذرٍّ وهو قائم عند فرس له، فسأله ما تعاني من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر، فيقول: اللَّهم أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحبَّ إليه من أهله وماله وولده[8].

= الترمذي: حسن صحيح وسنن ابن ماجه، الجهاد، باب الرمي في سبيل الله (ح٢٨١١)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٩٥).

(١) أي الأرض الواسعة الخضراء. (٢) الطيل: الحبل الذي تربط به الخيل.

(٣) أي جرت. (٤) أي المكان العالي من الأرض.

(٥) أخرجه الإمام مالك بسنده ومتنه (الموطأ ٢/ ٤٤٤ ح٣) وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، المساقاة، باب شرب الناس وسقي الدواب (ح٢٣٧١)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ٩٨٧.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٢٩٨ ح٣٧٥٦)، وصححه محققوه بالشواهد، وفي سنده القاسم بن حسان لم يسمع ابن مسعود ﷺ، وجود سنده المنذري في الترغيب (ح١٨٧٧)، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات فإن كان القاسم سمع ابن مسعود فالحديث صحيح (مجمع الزوائد ٥/ ٢٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (ح٣٣٤٥).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ٣٤٧ ح٢١٤٤٢)، وصحح سنده محققوه.

قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن جعفر، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن سويد بن قيس، عن معاوية بن خديج، عن أبي ذرٍّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين: يقول: اللَّهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحبِّ أهله وماله إليه - أو - أحبَّ أهله وماله إليه»(١)، رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان به(٢).

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصنعاني، عن [الحسن بن أبي الحسن](٣). أنه قال لابن الحنظلية - يعني سهلاً -: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله، كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»(٤).

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة. وفي صحيح البخاري، عن عروة بن أبي الجعد البارقي، أن رسول الله ﷺ، قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم»(٥).

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي تخوفون ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد يعني: بني قريظة(٦).

وقال السدي: فارس(٧).

وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور(٨)، وقد ورد حديث بمثل ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حيوة - يعني: شريح بن يزيد المقري - حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن عريب - يعني: يزيد بن عبد الله بن عريب -، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ قال هم الجن(٩)، ورواه الطبراني عن إبراهيم بن دُحيم، عن أبيه، عن محمد بن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ٣٩٢ ح٢١٤٩٧)، وصححه محققوه موقوفاً اعتماداً على الدارقطني في العلل ٦/ ٢٦٧، وبما أن سابقه موقوف فيقوي هذا المرفوع.

(٢) سنن النسائي، الخيل، باب دعوة الخيل ٦/ ٢٢٣، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (ح٣٣٤٦).

(٣) كذا في (عم) و(حم) و(مح) والمعجم الكبير للطبراني، وفي الأصل: «الحسن بن الحسن».

(٤) المعجم الكبير ٦/ ٩٨ ح٥٦٢٣ قال الهيثمي: ورجاله ثقات (المجمع ٥/ ٢٥٩)، ويشهد له ما في الصحيح كما في الحديث التالي.

(٥) صحيح البخاري، الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (ح٢٨٥٠).

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن الثوري لم يسمع من ابن يمان، وهو حذيفة ﷺ.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف أحمد بن الفرج الحمصي كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٧/ ٣٢).

شعيب، عن [سعيد بن سنان][(١)] عن يزيد بن عبد الله بن عريب به، وزاد، قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل»[(٢)]، وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده، ولا متنه.

وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون[(٣)]، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١] وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف[(٤)]، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمٰن الدشكتي، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ فأمر بالصدقة بعدها، على كل من سألك من كل دين[(٥)]، وهذا أيضاً غريب.

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك، فقاتلهم ﴿وَإِن جَنَحُوا۟﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة والمصالحة والمهادنة، ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: فمِل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون، عام الحُديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ، تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثني فضيل بن سليمان - يعني النميري - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي

---

(١) كذا في المعجم الكبير، وفي النسخ الخطية: سنان بن سعيد بن سنان، وتقدمت ترجمته وضعفه في الرواية السابقة.

(٢) المعجم الكبير ١١٨/١٧ وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٢٦١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن جعفر وهو ابن أبي المغيرة صدوق يهم ولم يُتابع، واستغرب متنه الحافظ ابن كثير.

طالب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون اختلاف أو أمر فإن استطعت أن يكون السِّلم[١] فافعل»[٢].

وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة[٣]، وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله، وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] الآية[٤]، وفيه نظر أيضاً، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلَّت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبيُّ ﷺ يوم الحُديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقووا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك، ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران].

وفي الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حُنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمَنُّ»[٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي

---

(١) أي: المسالم.

(٢) أخرجه عبد الله في زوائد أبيه بسنده ومتنه (المسند ٢/١٠٦ ح٦٩٥)، وضعفه محققوه بسبب فضيل بن سليمان وهو: صدوق كثير الخطأ. وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٧/٢٣٤).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عباس، وقول ابن عباس وعطاء الخراساني هو قول واحد أخرجه ابن أبي حاتم وابن الجوزي (نواسخ القرآن: ١٦٧)، كلاهما بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني عن ابن عباس. وقول عكرمة والحسن البصري أخرجه ابن الجوزي بسند حسن من طريق يزيد النحوي عنهما (نواسخ القرآن: ١٦٨)، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٥) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الطائف (ح٤٣٣٠)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (ح١٠٦١).

القزويني - في منزلنا -، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسين القنديلي الاستراباذي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس، عن ابن عباس، قال: قرابة الرحم تقطع، ومنة النعمة تكفر، ولم ير مثل تقارب القلوب، يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك موجود في الشعر:

إذا بت ذو قربى إليك بزلة ... فغشك واستغنى فليس بذي رحم
ولكن ذا القربى الذي إن دعوته ... أجاب وأن يرمي العدو الذي ترمي[(١)]

قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم[(٢)] ... وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً ... وإذا المودة أقرب الأسباب

قال البيهقي: لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة[(٣)].

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، سمعه يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله.

وفي رواية نزلت في المتحابين في الله[(٤)]. رواه النسائي والحاكم في مستدركه وقال: صحيح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[(٥)]. رواه الحاكم أيضاً[(٦)].

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر[(٧)]. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني[(٨)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الخوزي، عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد، قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال: قلت لمجاهد:

---

(١) نسبهما صاحب (العقد الفريد ٢/ ٢١٤) إلى أبي تمام، ونسب ابن قتيبة البيت الثاني إلى أبي تمام (عيون الأخبار ٣/ ٩٠).

(٢) أي خبرتهم.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (رقم ٩٠٣٤)، وفي سنده محمد بن مسلم الطائفي صدوق يخطئ من حفظه (التقريب ص٥٠٦)، ويتقوى برواية عبد الرزاق.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن ابن مسعود، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (ح١١٢١٠)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٩).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرزاق به، وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩).

(٧) تحات ورق الشجر أي: تساقط من غصنه إذا ذبل.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح وسيأتي من طريق آخر صحيح.

بمصافحة يغفر لهما؟ قال مجاهد: أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني[١]، وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد[٢].

وقال ابن عون، عن عُمير بن إسحاق، قال: كنا نتحدث أن أول ما يُرفع من الناس الألفة[٣].

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التُستَري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبا عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده، تحاتت عنهما ذنوبهما، كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبدَ البحر[٤]».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يُحرِّض تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قلَّ عدد المؤمنين.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأنا سفيان، عن [شوذب][٥] عن الشعبي في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك[٦]. قال: وروي عن عطاء الخراساني وعبد الرحمٰن بن زيد مثله[٧]، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي: حثهم أو

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده إبراهيم الخوزي ضعيف ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق طلحة بن مصرف به.

(٣) أخرجه الطبري من طريق إسماعيل بن علي عن ابن عون به، وسنده صحيح إلى عُمير.

(٤) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٦/٢٥٦)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير سالم بن غيلان وهو ثقة (المجمع ٨/٣٧)، وحسن سنده المنذري في الترغيب (ح٤٠١٢).

(٥) شوذب كذا في التاريخ الكبير فقد أخرجه البخاري من طريقه به (٤/٢٦١)، وهو معروف بالرواية عن الشعبي وبرواية سفيان عنه كما في الجرح والتعديل (٤/٣٧٨)، وفي الأصل: و(عم) وتفسير ابن أبي حاتم ورد باسم: ابن شوذب والصواب ما أثبت إذ أخرجه الطبري أيضاً من طريق شوذب أبي معاذ به في ثلاث روايات متتالية.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه مع الفرق السابق في شوذب، وقد سكت عنه البخاري وابن أبي حاتم، ومعناه صحيح.

(٧) ذكرهما ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

مرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يُحرِّض على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدَهم وعُدَدِهم: «قوموا إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض» فقال عُمير بن الحمام: عرضها السّمٰوات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: بخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهنَّ من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهنَّ إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه[(١)].

وقد روي عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون[(٢)]. وفي هذا نظر، لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة، وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كل واحد بعشرة، ثم نُسخ هذا الأمر وبقيت البشارة.

قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الحريث، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين، حتى فرض الله عليهم أن لا يفرَّ واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم، وروى البخاري من حديث ابن المبارك نحوه[(٣)].

وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية: قال: كتب عليهم أن لا يفرَّ عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين.

وروى البخاري، عن علي بن عبد الله، عن سفيان به نحوه[(٤)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم يسغ لهم أن يفرُّوا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه (الصحيح، الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد ح١٩٠١).

(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١٢/ ٦٠ ح١٢٤٧٠)، والواحدي (أسباب النزول ص٢٣٤)، كلاهما من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي، حدثنا خلف بن خليفة عن الرماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وسنده ضعيف جداً لأن إسحاق بن بشر كذاب يضع الحديث (المجروحين لابن حبان ١/ ١٣٥، وتاريخ بغداد ٦/ ٣٢٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير وهو مرسل، وقول سعيد بن المسيب أخرجه أبو الشيخ كما قال السيوطي في الدر المنثور.

(٣) صحيح البخاري، تفسير سورة الأنفال، باب «الآن خفف الله عنكم...» (ح٤٦٥٣).

(٤) المصدر السابق (ح٤٦٥٢).

عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم[١].

وروى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو ذلك[٢]، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والضحاك، وغيرهم نحو ذلك[٣].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر ﷺ، في قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ[٤].

وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفاً﴾ رفع. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٥].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلاً طَيِّباً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن هاشم، عن حميد، عن أنس ﷺ، قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم». فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق ﷺ، فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمِّ، فعفا عنهم وقبلَ منهم الفِداء، قال وأنزل الله ﷻ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية[٦].

وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش: عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: «يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ٢/ ٣٣١، وسنده حسن، وأخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به.

(٢) أخرجه الطبري من الطريقين وطريق ابن أبي طلحة ثابت يقوي طريق العوفي.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم بحذف السند، وقول مجاهد وقتادة والسدي أخرجه بأسانيد ثابتة عنهم.

(٤) سنده ضعيف لأن المسيب بن شريك متروك (ميزان الاعتدال ٤/ ١١٤).

(٥) أخرجه الحاكم من طريق سلام المدايني عن أبي عمرو بن العلاء به، وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: سلام واهٍ. (المستدرك ٢/ ٢٣٩)، ولكن هذه القراءة متواترة.

(٦) تقدم تخريجه وصححته في تفسير الآية ٩ من هذه السورة الكريمة.

فاضرب أعناقهم» وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في وادٍ كثير الحطب، أضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه، قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة.

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللّبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم ﷺ، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى ﷺ، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] وإن مثلك يا عمر، كمثل موسى ﷺ، قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وإن مثلك يا عمر، كمثل نوح ﷺ، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح] أنتم عالة[١] فلا ينفكنَّ أحد منهم إلا بفداء، أو ضربة عنق» قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ إلى آخر الآية، رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي معاوية عن الأعمش به، والحاكم في مستدركه، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٢]. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ نحوه. وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري.

وروى ابن مردويه أيضاً، واللفظ له والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: لما أسر الأسارى يوم بدر، أُسر العباس فيمن أُسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمِّي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر: أفآتهم؟ فقال: «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه، فأخذه عمر فلما صار في يده، قال له: يا عباس أسلم فوالله لأن تسلم أحب إليَّ من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال: أبو بكر عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الآية[٣]، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

---

(١) أي فقراء.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي معاوية به (المسند ٦/ ١٤٠ ح٣٦٣٢)، وضعفه محققوه لأن أبا عبيدة لم يسمع من ابن مسعود، وذكروا أن لبعضه شواهد في صحيح مسلم. أي في الرواية السابقة.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٢٩)، وفي سنده إبراهيم بن مهاجر فيه مقال كما =

وقال سفيان الثوري، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي ﵁، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: خير أصحابك في الأسارى، إن شاؤوا الفداء، وإن شاؤوا القتل، على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منا. رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري به[(١)]، وهذا حديث غريب جداً.

وقال ابن عون، [عن محمد][(٢)]، عن عبيدة، عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر: «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم، واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم» قال: فكان آخر السبعين، ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة ﵁[(٣)]، ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلاً[(٤)]، فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني، حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم[(٥)]، وكذا روى ابن أبي نجيح، عن مجاهد[(٦)]، وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدراً، وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير وعطاء[(٧)].

وقال شعبة، عن أبي هاشم، عن مجاهد: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لهم بالمغفرة[(٨)]. ونحوه وعن سفيان الثوري ﵀[(٩)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[(١٠)] قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الآية. وكذا روى العوفي عن ابن عباس[(١١)]، وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء والحسن البصري،

= في التقريب، ومعظمه له شواهد سابقة ولاحقة.

(١) سنن الترمذي، السير، باب ما جاء في قتل الأسارىٰ والفداء (ح١٥٦٧)، والسنن الكبرىٰ للنسائي (ح٨٦٦٢)، ومتنه يخالف قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

(٢) الزيادة من المستدرك (٢/ ١٤٠) وهو محمد بن سيرين.

(٣) أخرجه الحاكم من طريق أزهر بن سعد السمان عن ابن عون به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٤٠).

(٤) أخرجه الطبري من طريق محمد بن سيرين عن عبيدة، وسنده صحيح لكنه مرسل ويتقوىٰ بسابقه.

(٥) سنده حسن وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، وصرح بأن عطاء هو ابن أبي رباح (سيرة ابن هشام ٢/ ٦٧٥ ـ ٦٧٦).

(٦) أخرجه الطبري بسنده صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.

(٧) قول سعد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق خيثمة عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار به، وقول الأعمش أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه قال: سبق من الله أحل لهم الغنيمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق شعبة به بسند حسن.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق قبيصة عن سفيان.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(١١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بما سبق.

وقتادة والأعمش أيضاً، أن المراد ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم[١]، وهو اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ.

ويُستشهد لهذا القول، بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبُعثت إلى الناس عامة»[٢].

وقال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»[٣] ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد روى الإمام أبو داود في سننه: حدثنا عبد الرحمٰن بن المبارك العبسي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة، عن أبي العنبس، عن أبي الشعثاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة[٤].

وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردَّهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين[٥]، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن مغفل، عن بعض أهله، عن عبد الله بن

---

(١) قول أبي هريرة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند فيه بشير بن ميمون وهو متروك متهم كما في التقريب، وأخرجه الطبري من طريق آخر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وصححه أحمد شاكر، وقول ابن مسعود أخرجه الطبري من طريق أبي وائل عنه وصححه أحمد شاكر، وقول قتادة والأعمش والحسن البصري أخرجه الطبري بأسانيد صحاح.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير آية ٤٣ من سورة النساء.

(٣) أخرجه الترمذي من طريق الأعمش به وقال: حسن صحيح (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال ح٣٠٨٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٤٦٣)، وأخرجه الإمام أحمد وصححه أحمد شاكر (المسند ح٧٤٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، الجهاد، باب فداء الأسير بالمال (ح٢٦٩١)، وصححه الألباني دون لفظ: الأربعمائة (صحيح سنن أبي داود ح٢٣٤٠).

(٥) أخرجه مسلم مطولاً عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه (الصحيح، الجهاد، باب التنفيل وفداء المسلمين بالأسارىٰ ح١٧٥٥).

عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم ـ أي من بني هاشم ـ فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً» فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس؟ والله لئن لقيته لألجمنَّه بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص ـ قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص ـ أيضرب وجه عمِّ رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت، ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه[١].

وبه عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل فقال له أصحابه: يا رسول الله ما لك لا تنام؟ وقد أسر العباس رجل من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: «سمعت أنين عمي العباس في وثاقه فأطلقوه» فسكت فنام رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً[٢].

وفي صحيح البخاري من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب: حدثنا أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لا والله لا تذرونَّ منه درهماً»[٣].

وقال يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة، عن الزهري، عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابنيِّ أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر»: قال ما ذاك عندي يا رسول الله قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأُم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقُثم» قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أُم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله ﷺ: «لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق به (دلائل النبوة ٣/ ١٤٠ ـ ١٤١)، وسنده ضعيف لإبهام شيخ العباس بن عبد الله بن مغفل.

(٢) أخرجه البيهقي، وهو تتمة لسابقه وحكمه مثله، ولبعضه شواهد سابقة ولاحقة.

(٣) أخرجه البخاري من طريق موسىٰ بن عقبة به (الصحيح، المغازي، باب ١٢ ح٤٠١٨).

قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ(١).

وقد روى ابن إسحاق أيضاً عن ابن أبي نجيح، عن عطاء، عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم(٢).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن إدريس، عن ابن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال العباس: فيّ نزلت ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجر مالي في يده(٣).

وقال ابن إسحاق أيضاً: حدثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ﵄، عن جابر بن عبد الله بن رباب قال: كان العباس بن عبد المطلب يقول في نزلت والله حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي ثم ذكر نحو الحديث كالذي قبله(٤).

وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ عباس وأصحابه: قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحنَّ لك على قومنا. فأنزل الله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ إيماناً وتصديقاً يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه.

قال: فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن ليَّ الدنيا لقد قال: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وأرجو أن يكون قد غُفر لي(٥).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية كان العباس أُسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطاني الله ﷻ خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أُسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فآتاني أربعين عبداً، وإني لأرجو المغفرة التي وعدنا الله ﷻ(٦).

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً، وقد توضأ لصلاة الظهر، فما أعطى يومئذٍ شاكياً ولا حرم سائلاً، وما صلى يومئذٍ حتى

(١) سنده مرسل ولبعضه شواهد سابقة ولاحقة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق إذ صرح بالسماع، وكذا أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١١/١٧١ ح١١٣٩٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار، ورجال الأوسط رجال الصحيح (المجمع ٧/٢٨)، وطريق الطبراني في الأوسط (٩/٤٨ ح٨١٠٣) من طريق ابن إسحاق به.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال ولكنه توبع في رواية ابن أبي حاتم والطبراني كما في الرواية السابقة فقد أخرجاه من طرق أخرى.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف ويتقوىٰ بالروايات السابقة واللاحقة.

(٥) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج به، وسنده ضعيف ويتقوى بما سبق وبرواية علي بن أبي طلحة التالية.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثي فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة[(١)].

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال قال: بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد. قال: فنثرت على حصير ونودي بالصلاة. قال: وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائماً على المال، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذٍ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضاً وجاء العباس بن عبد المطلب فحثا في خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع، قال: فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ارفع عليَّ. قال فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه، وقال له: «أعد من المال طائفة وقم بما تطيق» قال: ففعل وجعل العباس يقول: وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا، وما ندري ما يصنع الله في الأخرى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية ثم قال: هذا خير مما أخذ منا وما أدري ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلَّى[(٢)].

حديث آخر في ذلك:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيدي، حدثنا محمد بن عصام، حدثنا حفص بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: «انثروه في مسجدي» قال: وكان أكثر مال أُتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً فقال له رسول الله ﷺ: «خذ». فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مرّ بعضهم يرفعه إليَّ. قال: «لا» قال: فارفعه أنت عليّ. قال: «لا». فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمّ منها درهم[(٣)].

وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم يقول: وقال إبراهيم بن طهمان ويسوقه، وفي بعض السياقات أتمَّ من هذا[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند رجاله ثقات لكنه مرسل.

(٢) أخرجه الحاكم من طريق هاشم بن القاسم عن سليمان بن المغيرة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/٣٢٩)، وأصله في صحيح البخاري كما سيأتي بعد الرواية التالية.

(٣) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٦/٣٥٦)، وأخرجه البخاري معلقاً من طريق إبراهيم بن طهمان به كما يلي.

(٤) أخرجه البخاري تعليقاً عن إبراهيم بن طهمان به (الصحيح، الصلاة، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد ح٤٢١)، ووصله عمر بن محمد البجيري عن إبراهيم بن طهمان به (تغليق التعليق ٢/٢٢٨)، والبجيري هذا له مستخرج على صحيح البخاري، وهذه الرواية منه، وهذا المستخرج مغمور لم يذكره أحد، وقد عرفت هذا المستخرج حينما اتحفني فضيلة د. محمد بكر عابد بنسخة خطية من كتب البجيري فوجدته كله مستخرجاً على البخاري، والحمد لله.

وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: بالأسارى يوم بدر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بفعله حكيم فيه.

قال قتادة: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتدَّ ولحق بالمشركين[١].

وقال ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس: نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا: لننصحنَّ لك على قومنا[٢]. وفسرها السدي على العموم[٣]. وهو أشمل وأظهر، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم: إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس[٤]، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عنه[٥]، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد[٦].

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير - هو: ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»[٧] تفرد به أحمد.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا شيبان، حدثنا عكرمة - يعني: ابن إبراهيم الأزدي - حدثنا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة به وأطول، وهو مرسل، وسعيد بن بشير ضعيف كما في التقريب.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج به.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بمعناه.

(٤) صحيح البخاري، الفرائض، باب ذوي الأرحام (ح٦٧٤٧).

(٥) أخرجهما الطبري وطريق على يقوي طريق العوفي وكلاهما يتقوىٰ برواية البخاري السابقة.

(٦) قول مجاهد وقتادة أخرجهما الطبري بسندين صحيحين، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حبيب بن الزبير عنه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٣٦٣)، وأخرجه الطبراني من طريق عبد الرحمن بن هلال عن جرير (المعجم الكبير ح٢٤٣٨)، قال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح (المجمع ١٠/ ١٥)، وأخرجه ابن حبان من طريق عاصم به وحسنه الأرناؤوط (الإحسان ١٦/ ٢٥٠ ح٧٢٦٠)، وأخرجه الحاكم مثل الطبراني وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٨٠ - ٨١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٠٣٦).

عاصم، عن شقيق، عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهاجرون والأنصار، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»[١] هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود.

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار، في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] وقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية [الحشر] وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة، قال: خيَّرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة، ثم قال: لا نعرفه إلا من هذا الوجه[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ قرأ حمزة (ولايتهم) بالكسر، والباقون بالفتح[٣]، وهما واحد كالدلالة والدلالة ﴿مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

كما قال أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصَّة نفسه، بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكفَّ عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على

---

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ٨/٤٤٦ ح٥٠٣٣) وسنده ضعيف لضعف عكرمة بن إبراهيم، ويشهد له سابقه فيكون حسناً لغيره.

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٧١٨)، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان: ضعيف.

(٣) ولايتهم، بكسر الواو وبفتحها قراءتان متواترتان.

المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا، فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[(١)]. انفرد به مسلم، وعنده زيادات أخر[(٢)].

وقوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ الآية، يقول تعالى وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه[(٣)].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه: حدثنا محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا [أبو سعد][(٤)] يحيى بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين، عن الزهري، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة، عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً - ثم قرأ - ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(٥)].

قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»[(٦)]. وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى». وقال الترمذي: حسن صحيح[(٧)].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن الزهري، أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام، فقال: «تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٣٥٢)، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم من طريق سفيان به نحوه (الصحيح، الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ح١٧٣٠/ ٣).

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.

(٤) كذا في المستدرك وترجمته، وفي النسخ الخطية صحف إلى: «أبو سعيد».

(٥) أخرجه الحاكم بسنده ومتنه وزيادة وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٢٤٠).

(٦) الحقّ أن شطره الأول في الصحيحين أما الشطر الآخر في المسند والسنن. فالشطر الأول أخرجه الشيخان صحيح البخاري، الفرائض (ح٦٧٦٤)، وصحيح مسلم، الفرائض (ح١٦١٤).

(٧) أخرجه الترمذي من حديث جابر (السنن، الفرائض باب لا يتوارث أهل ملتين (ح٢١٠٨)، وأخرجه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب به (السنن، الفرائض، باب هل يرث المسلم الكافر ح٢٩١١)، وكذا أخرجه ابن ماجه (السنن، الفرائض باب ميراث أهل الإسلام ح٢٧٣١)، وقال الألباني حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ح٢٢٠٧).

وتصوم رمضان، وإنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب»[١] وهذا مرسل من هذا الوجه، وقد روي متصلاً من وجه آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين» ثم قال: «لا يتراءى ناراهما»[٢].

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة [بن جندب، أخبرني خبيب بن سليمان، عن أبيه سليمان بن سمرة][٣]، عن سمرة بن جندب: أما بعد قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[٤].

وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حاتم بن إسماعيل، عن عبد الله بن هرمز، عن محمد وسعيد ابني عبيد، عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلاث مرات، وأخرجه أبو داود والترمذي من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه[٥]، ثم روىٰ من حديث عبد الحميد بن سليمان: عن ابن عجلان، عن [ابن وثيمة النصري][٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[٧].

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو: التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل ويتقوىٰ بالحديث الموصول التالي:
(٢) أخرجه أبو داود من حديث جرير بن عبد الله (السنن، الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود ح٢٦٤٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٣٠٤).
(٣) ما بين بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(مح) و(حم) وسنن أبي داود.
(٤) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الجهاد، باب في الإقامة بأرض الشرك (ح٢٧٨٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٤٢٠).
(٥) سنن الترمذي، النكاح، باب ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه (ح١٠٩٧) وحسنه الألباني بشاهد قبله (صحيح سنن الترمذي (ح٨٦٦).
(٦) كذا في (عم) وسنن الترمذي، وفي الأصل: «ابن أبي وثيمة النصري».
(٧) أخرجه الترمذي من طريق عبد الحميد بن سليمان به (السنن، النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ح١٠٨٤) وكذا ابن ماجه (السنن، النكاح، باب الأكفاء ح١٩٦٧) وحسنه الألباني في (صحيح سنن ابن ماجه ح١٦٠١).

الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر]. وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»(١). وفي الحديث الآخر: «من أحب قوماً حشر معهم»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن شريك، عن عاصم، عن أبي وائل، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء لبعض، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة» قال شريك: فحدثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير، عن النبي ﷺ مثله(٣)، تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكم الله وليس المراد بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نصَّ [عليه](٤) ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون به أولاً(٥)، وعلى هذا فتشمل [ذوي](٦) الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»(٧).

قالوا: فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر سورة الأنفال، ولله الحمد والمنَّة، وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة الأعراف آية ١٨٧.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث علي ﷺ (ح٨٧٤) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن ميمون الخياط وقد وثق (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٧٩)، وأخرجه الطبراني في (المعجم الكبير ٣/ ١٩ ح٢٥١٩)، من حديث أبي قرصافه وجابر، ويشهد له الحديث السابق.

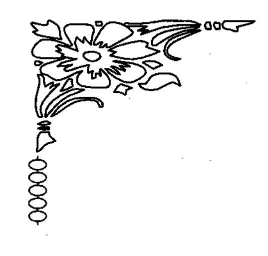
(٣) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير الآية ٧٢ من هذه السورة.

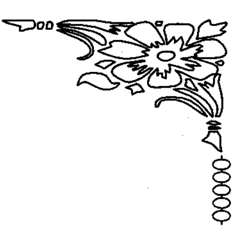
(٤) الزيادة من «مح».

(٥) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم وابن الجوزي من طريقين يقوي أحدهما الآخر (نواسخ القرآن ص٣٥٣)، وقول قتادة أخرجه الطبري والنحاس بسند صحيح من طريق معمر وسعيد بن أبي عروبة عنه (الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٩٤) وقول عكرمة أخرجه ابن الجوزي بسند حسن من طريق حبيب بن الزبير عنه (نواسخ القرآن ص٣٥٥).

(٦) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وفي الأصل: «ذكر».

(٧) أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة ﷺ (السنن، الوصايا، باب في الوصية للوارث ح٢٨٧٠)، وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن أبي داود ح٢٤٩٤). وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (السنن، الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث ح٢١٢٠).





سُورَةُ التَّوْبَةِ

وهي مدنية

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت براءة(١)، وإنما لم يُبسمل في أولها؛ لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، والاقتداء في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن جعفر وابن أبي عدي وسهيل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا»، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحسبت أنها منها، وقُبض رسول الله ﷺ ولم يبيِّن لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قَرنتُ بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمٰن الرحيم، ووضعتها في السبع الطوال(٢).

وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من طرق أخر عن عوف الأعرابي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه(٣)، وأول هذه

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ...﴾ [التوبة: ١] ح٤٦٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه بنحوه ثم قال: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة ح٣٠٨٦)، وفي متنه غرابة في قوله: وقُبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها. ولعل ذلك من صنيع يزيد الفارسي فهو يزيد بن يوسف الفارسي وهو مجهول (التقريب ص٦٠٦) فسنده ومتنه ضعيف كما يلي.

(٣) المسند ٣٩٩ وضعفه أحمد شاكر، وسنن أبي داود، الصلاة، باب الجهر بها، أي بالبسملة، (ح٧٨٦)، والسنن الكبرىٰ للنسائي ح٨٠٠٧، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (ح٤٣)، والمستدرك ٢/ ٢٢١).

السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عُراة، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة؛ ليقيم للناس مناسكهم ويُعلم المشركين أن لا يحجّوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، فلما قفل أتبعه بعليِّ بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه[١].

فقوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون هٰهنا اختلافاً كثيراً.

فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ولما سيأتي في الحديث[٢]. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد[٣].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ الآية، قال: حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاؤوا وأجّل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الأشهر الحُرم أن يضع السيف فيمن لا عهد له[٤]، وكذا رواه العوفي وقال بعد قوله: (فذلك خمسون ليلة): فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف في من لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام[٥].

وقال أبو معشر المدني: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس، يؤجِّل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلّهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم وقال: لا يحجنَّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان[٦].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ إلى أهل العهد: خزاعة ومدلج

---

(١) سيأتي بيانه في تفسير آية ٣ من هذه السورة الكريمة.

(٢) في الآية التالية.

(٣) قول الكلبي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر، وهو نجيح السندي، عنه ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بعضه بسابقه.

(٦) أخرجه الطبري من طريق أبي معشر به وسنده ضعيف ويتقوىٰ برواية ابن أبي طلحة السابقة وبالمراسيل اللاحقة.

ومن كان له عهد أو غيرهم، فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحجَّ حتى لا يكون ذلك» فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمّنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم، وآذن الناس كلَّهم بالقتال إلا أن يؤمنوا[(١)]، وهكذا روي عن السدي وقتادة[(٢)].

وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم[(٣)]. وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها؟ وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾.

يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وتقدم، وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: بريء منهم - أيضاً - ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال البخاري رحمه الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمٰن، أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النَّحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة فأذَّن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحجَّ بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان[(٤)].

ورواه البخاري أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمٰن، أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذِّن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: الأكبر؛ من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به، وهو مرسل ويتقوىٰ بالمراسيل التالية.

(٢) قول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وهذان مرسلان يقوي أحدهما الآخر.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن الزهري وهو مرسل.

(٤) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، تفسير سورة التوبة، باب ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ...﴾ [التوبة: ٣] ح٤٦٥٦).

حجَّ فيه رسول الله ﷺ مشرك، هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد[١].

وقال عبد الرزاق: عن معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ قال: لما كان النبي ﷺ زمن حُنين اعتمر من الجعرانة ثم أمّر أبا بكر على تلك الحجَّة[٢]، قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذِّن ببراءة في حجة أبي بكر، قال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً وأمره أن يؤذِّن ببراءة، وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته[٣]. وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتَّاب بن أسيد، فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن مغيرة، عن الشعبي، عن مُحرَّر بن أبي هريرة عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟. قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صَحَل[٤] صوتي[٥]. وقال الشعبي: حدثني مُحرَّر بن أبي هريرة عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ ينادي، فكان إذا صحل ناديت فقلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال بأربع، لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك[٦].

رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي، ورواه شعبة، عن مغيرة، عن الشعبي به، إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير: وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته؛ لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن سماك، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٨]. ورواه الترمذي في التفسير، عن بُندار، عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه[٩].

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، كتاب الجزية والموادعة، باب كيف يُنبذ إلى أهل العهد؟ ح٣١٧٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه دون ذكر أبي هريرة ورجاله ثقات لكنه مرسل.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه وسنده صحيح.

(٤) الصَّحَل: خشونة وغلظة في الصوت.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٣/٣٥٦ ح٧٩٧٧) وحسنه محققوه.

(٦) أخرجه الطبري من طريق قيس عن مغيرة عن الشعبي به. وقيس هذا ابن الربيع ضعيف.

(٧) أخرجه الطبري من طريق عثمان بن عمر عن شعبة به ثم ورد نقد الطبري، وأخرجه الحاكم من طريق سليمان الشيباني عن الشعبي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٣١).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٠/٤٣٤ ح١٣٢١٤)، وضعفه محققوه لنكارة متنه، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كذب (منهاج السنة ٥/٦٣).

(٩) السنن، تفسير القرآن، باب من سورة براءة (ح٣٠٩٠).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان، ـ لُوَيْن ـ حدثنا محمد بن جابر، عن سماك، عن حنش، عن علي ﷺ قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال: «أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم» فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل فيّ شيء؟ فقال: «لا ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»[١]. هذا إسناد فيه ضعف، وليس المراد أن أبا بكر ﷺ رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك، عن حنش، عن علي ﷺ، أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال: يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال: «لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال: فإن كان ولا بد فسأذهب أنا، قال: «انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك» قال: ثم وضع يده على فيه[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن [زيد بن يثيع][٣] ـ رجل من همدان ـ، سألنا علياً بأي شيء بعثت؟ يعني: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا[٤]، ورواه الترمذي عن قلابة، عن سفيان بن عيينة وقال: حسن صحيح كذا قال، ورواه شعبة عن أبي إسحاق فقال: [زيد بن أثيل][٥] وهم فيه[٦]، ورواه الثوري، عن أبي إسحاق، عن بعض أصحابه، عن علي ﷺ[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة، عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع، عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٤٢٧ ح١٢٩٧)، وضعفه محققوه لضعف جابر وحنش. وضعف سنده ومتنه الحافظ ابن كثير (البداية والنهاية ٥/ ٣٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤ ح١٢٨٧)، وسنده ضعيف، وقال محققوه: حسن لغيره، حنش، وهو ابن المعتمر الكناني، قد توبع فقد رواه بنحوه ابن حبان في صحيحه (٥٠٦٥) من طريق عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن سماك بن حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن علي .اهـ. ولكن هذه المتابعة لا تسعف لأن رواية سماك عن عكرمة فيها اضطراب.

(٣) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وترجمته، وفي الأصل: «زيد بن أبي يثيع»، وفي المسند: زيد بن أثيع، وأثيع هو نفسه يثيع.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه مع الخلاف في يثيع، (المسند ٢/ ٣٢ ح٥٩٤) وصححه محققوه.

(٥) كذا في (عم) و(حم) وسنن الترمذي، وفي الأصل صُحف إلى: «زيد بن يثيع بن أشهل».

(٦) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب من سورة براءة (ح٣٠٩٢).

(٧) سنده ضعيف لإبهام شيخ أبي إسحاق، ويتقوىٰ بسابقه.

إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة[١]، ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبد الأعلى، عن ابن ثور، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: أمرت بأربع فذكره[٢].

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن زيد بن يثيع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل علياً فأخذها، فلما رجع أبو بكر قال: نزل فيَّ شيء؟ قال: «لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي»، فانطلق إلى أهل مكة، فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته[٣].

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل: يا رسول الله لو بعثت إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا علياً فقال: «اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته».

فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج [والعرب][٤] إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذَّن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى[٥].

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حيوة بن شريح، أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي - من أهل الكوفة - يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علياً عن يوم الحج الأكبر فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج، وبعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده ابن وكيع وقد توبع في رواية الإمام أحمد.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده الحارث وهو الأعور الهمداني ضعيف وقد توبع في رواية الإمام أحمد المتقدمة.

(٣) أخرجه الطبري من طريق إسرائيل به، وفي متنه نكاره في قوله: «ولكن أُمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي».

(٤) زيادة من تفسير الطبري.

(٥) أخرجه الطبري عن ابن حميد عن سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لأنه معضل، وابن حميد هو محمد بن حميد الرازي ضعيف، وابن إسحاق عنعن ولم يصرح بالسماع. وذكره ابن هشام في السيرة ٤/ ١٩٠.

فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إليَّ فقال: قم يا علي فأدِّ رسالة رسول الله ﷺ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة، ثم صدرنا[١] فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسي، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط[٢] أقرأها عليهم، فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة[٣].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق سألت أبا جُحيفة عن يوم الحج الأكبر قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كلٌّ في ذلك[٤].

وقال عبد الرزاق ـ أيضاً ـ: عن ابن جريج عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة[٥].

وقال عمر بن الوليد الشَّنّي: حدثنا شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي، فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا: سعيد بن المسيب فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا: سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عمَّن هو أفضل مني مائة ضعف عمر أو ابن عمر، كان ينهى عن صومه ويقول: هو يوم الحج الأكبر، رواه ابن جرير وابن أبي[٦] حاتم، وهكذا روي عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاووس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر[٧].

وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج: أُخبرت عن محمد بن قيس بن مخرمة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[٨] وروي من وجه آخر عن ابن جريج، عن محمد بن قيس، عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد؛ فإن هذا يوم الحج الأكبر»[٩].

والقول الثاني: أنه يوم النحر، قال هشيم، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن علي رضي الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر[١٠].

وقال إسحاق السبيعي، عن الحارث الأعور: سألت علياً رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو

---

(١) أي رجعنا.
(٢) الفساطيط جمع فسطاط وهو مكان استراحة المسافرين.
(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصححه أحمد شاكر.
(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٦) أخرجه ابن سعد (الطبقات الكبرى ٢/ ٣٨١)، والطبري من طريق عمر بن الوليد الشني به، وكذا أخرجه ابن أبي حاتم لكنه باختصار، وسنده جيد.
(٧) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عباس، وقول ابن عباس وعكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن بخت عن عكرمة عن ابن عباس، وقول عبد الله بن الزبير أخرجه الطبري من طريق معقل بن داود عنه.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج به وليس فيه: أُخبرت، وإنما عنعن وعلى كل حال فسنده مرسل.
(٩) سنده مرسل أيضاً.
(١٠) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده صحيح.

يوم النحر[١].

وقال شعبة، عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي ﷺ أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبّانة[٢] فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يومك هذا خلِّ سبيلها[٣].

وقال عبد الرزاق، عن سفيان، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يم الحج الأكبر يوم النحر[٤].

وروى شعبة وغيره، عن عبد الملك بن عمير به نحوه[٥]. وهكذا رواه هشيم وغيره، عن الشيباني، عن عبد الله بن أبي أوفى.

وقال الأعمش، عن عبد الله بن سنان قال: خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر[٦].

وقال حماد بن سلمة، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: الحج الأكبر يوم النحر[٧]، وكذا روي عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر[٨]. واختاره ابن جرير.

وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذّنون بمنى[٩]، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر؛ كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني سهل بن محمد الحساني، حدثنا أبو جابر الحرمي، حدثنا هشام بن الغازي الجرشي، عن نافع، عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[١٠]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي جابر واسمه محمد بن عبد الملك به، ورواه ابن مردويه ـ أيضاً ـ من حديث الوليد بن مسلم

---

(١) أخرجه عبد الرزاق من طريق أبي إسحاق به، وفي سنده الحارث الأعور وقد تابعه الشعبي ويشهد له ما صح عن النبي ﷺ كما سيأتي.

(٢) الجبّانة: الصحراء، وتسمىٰ بها المقابر لأنها تكون في الصحراء (النهاية ١/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه الطبري من طريق أبي داود عن شعبة به، وفي سنده يحيىٰ الجزار كان يغلو في التشيع.

(٤) سنده صحيح. (٥) أخرجه الطبري من طريق شعبة به وسنده صحيح.

(٦) أخرجه الطبري من طرق عن الأعمش به، وفي سنده الأعمش ولم يسمع من عبد الله بن سنان وهو صحابي، بل لم يدرك أحداً من الصحابة.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق حماد بن سلمة به (المصنف ٤/ ٤٤٠) وسنده صحيح.

(٨) أخرجه الطبري عن معظمهم بأسانيد ثابتة، وكفىٰ أنه صح عن النبي ﷺ كما سيأتي.

(٩) أخرجه البخاري (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ . . .﴾ [التوبة: ٣] ح٤٦٥٥).

(١٠) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي جابر به، وأبو جابر هو محمد بن عبد الملك قال ابن أبي حاتم: ليس بالقوي (الجرح ٨/ ٥)، وقد توبع فأخرجه ابن ماجه من طريق صدقة بن خالد عن هشام به (السنن، المناسك، باب الخطبة يوم النحر ح٣٠٥٨)، وأخرجه الحاكم من طريق الوليد عن هشام به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٣١)، وأخرجه البخاري معلقاً على هشام بن الغازي به (الصحيح، الحج، باب الخطبة أيام منىٰ بعد ح١٧٤٢)، وتقدم وصله.

عن هشام بن الغازي به، ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز، عن نافع به.

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة الهمداني، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال: «أتدرون أي يوم يومكم هذا؟» قالوا: يوم النحر، قال: «صدقتم يوم الحج الأكبر»[١].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن المقدام، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا ابن عون، عن محمد بن سيرين، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «أي يوم هذا؟» قال: «فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟»»[٢]. وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح.

وقال أبو الأحوص، عن شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «أي يوم هذا؟» فقالوا: اليوم الحج الأكبر[٣].

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر. رواه ابن أبي حاتم[٤].

وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلِّها[٥]، وكذا قال أبو عبيد: قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أي: أيامه كلها[٦].

وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حجَّ فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحجَّ بالناس. رواه ابن أبي حاتم[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أُسامة، عن ابن عون، سألت محمداً ـ يعني: ابن سيرين ـ عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ حج أهل الوبر[٨][٩].

---

(١) يشهد له سابقه ولاحقه.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه البخاري من طريق محمد بن سيرين به (الصحيح، الحج، باب الخطبة أيام منىٰ ح١٧٤١).

(٣) أخرجه الترمذي عن هناد عن أبي الأحوص به ثم قال: حسن صحيح، (السنن، الفتن، باب ما جاء «دماؤكم وأموالكم عليكم حرام» ح٢١٥٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح١٧٥٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يحيىٰ بن يعلى عن سعيد بن المسيب، ويحيىٰ سكت عنه ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ١٩٦/٩)، والبخاري (التاريخ الكبير ٣١١/٨).

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري عن الحارث، وهو ابن أبي أسامة، عن أبي عبيد به، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عثمان بن عمر عن سهل السراج به.

(٨) أهل الوبر: أي أهل البوادي، وهو من وبرَ الإبل، لأن بيوتهم يتخذونها منه (النهاية ١٤٥/١).

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته[1]، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً أي: يمالئ عليهم مَن سواهم، فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هٰهنا ما هي؟

فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]. قاله أبو جعفر الباقر[2]، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[3] وإليه ذهب الضحاك[4] أيضاً وفيه نظر.

والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي[5] عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢][6] ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة [التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة][7] سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي: من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٩١].

---

(١) تقدمت في الآية السابقة.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق جعفر بن محمد عن أبيه أبي جعفر الباقر مصرحاً بأسماء الأشهر.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بالآثار التالية.
(٦) قول قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أخرجه الطبري بأسانيد ثابتة عنهم، وقول مجاهد وعمرو بن شعيب، أخرجه الطبري بسند ضعيف.
(٧) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(حم) و(مح).

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً.

وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي: الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبَّه بأعلاها على أدناها؛ فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة.

وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث[(١)].

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أُمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزكِ فلا صلاة له[(٢)].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه!

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله بن المبارك، أنبأنا حميد الطويل، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن المبارك، به[(٣)].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي، حدثنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله عنه راضٍ» قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ قال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١][(٤)] ورواه ابن مردويه.

ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أنبأنا

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنفال آية ٣٩.

(٢) سنده ضعيف لأن أبا عبيدة لم يسمع من ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه من حديث عمر بن الخطاب في تفسير سورة الأنفال آية ٣٩.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف بسبب أبي جعفر الرازي فإن يرويه هنا ليس من نسخة الربيع عن أبي العالية عن أُبيّ.

حكام بن سلمة، حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء[(١)].

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كلَّ عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكلَّ عقد وكلَّ مدة[(٢)].

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبقَ لأحد من المشركين عهد ولا ذمَّة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر[(٣)].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان بن عيينة: قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف سيف في المشركين من العرب، قال الله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[(٥)] هكذا رواه مختصراً.

وأظن أن السيف الثاني هو: قتال أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية [التوبة: ٧٣].

والرابع: قتال الباغين في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه: فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤][(٦)].

وقال قتادة، بالعكس[(٧)].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (ح١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به مختصراً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف للانقطاع الكبير بين سفيان وعلي رضي الله عنه.

(٦) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند حسن من طريق سفيان عنه.

(٧) أخرجه ابن الجوزي بسند حسن من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤] قال: نُسخ ذلك في براءة ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ...﴾ [التوبة: ٥] (نواسخ القرآن ص٤٦٧).

وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أي: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك، فتُسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاءه[(١)].

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد يتردَّدون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا ـ أيضاً ـ لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»[(٢)].

وقد قيَّض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة. وأمر به فضُربت عنقه لا رحمه الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

يبيّن تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ أي: أمان ويتركون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ يعني: يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٢) أخرجه أبو داود من حديث نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه (السنن، الجهاد، باب في الرسل ح٢٧٦١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٣٩٩).

عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم، وهم بنو بكر على خزعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم - أيضاً -، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا: الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم صفوان بن أُمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ومبيناً أنهم لا يستحقُّون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ؛ ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلاً ولا ذمَّة.

قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعوفي، عن ابن عباس: الإلّ: القرابة، والذمة: العهد[(١)]. وكذا قال الضحاك والسدي[(٢)]، كما قال تميم بن مقبل:

أفسد الناس خلوف[(٣)] خلفوا ... اقطعوا الإلَّ وأعراقَ الرحم

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وجدناهم كاذباً إلهم ... وذو الإلّ والعهد لا يكذب[(٤)]

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ [التوبة: ١٠] قال: الله[(٥)]، وفي رواية لا يرقبون الله ولا غيره[(٦)].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن سليمان، عن أبي مِجلز في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يقول: لا يرقبون الله[(٧)]، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر. وعن مجاهد - أيضاً - الإلّ: العهد[(٨)].

---

(١) أخرجه الطبري من الطريقين، وطريق ابن أبي طلحة يقوي طريق العوفي.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) خلوف: جمع خَلْف وهم: بقية السوء والأشرار تخلف من سبقها.

(٤) ذكرهما الطبري في تفسيره ونسب كل بيت إلى قائله.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وأطول، وسنده صحيح.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عيسىٰ هو ابن ميمون عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقال قتادة: الإلّ: الحلف[١].

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازي، حدثنا الربيع بن أنس؛ قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به، وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ». وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿فَإِن تَابُوا﴾ يقول: فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[٢] ثم قال البزار: آخر الحديث عندي والله أعلم فارقها وهو عنه راضٍ، وباقيه عندي من كلام الربيع بن أنس.

﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى: وإن نكث المشركون الذين عاهدتموهم على مدَّة معينة أيمانهم أي: عهودهم ومواثيقهم ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه، ومن هٰهنا أخذ قتل من سبَّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر، كأبي جهل وعتبة وشيبة وأُمية بن خلف، وعدَّد رجالاً[٣].

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مرّ سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر. فقال سعد: كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه[٤].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) سنده ضعيف لسوء حفظ أبي جعفر الرازي، وما يرويه هنا ليس من الصحيفة المشهورة عن الربيع بن أنس عن أبي العالية رفيع، عن أُبي بن كعب.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، بدون ذكر شيبة.

(٤) لم أجده مسنداً، ونسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن مردويه فقط.

وقال الأعمش، عن زيد بن وهب، عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد[١].

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مثله[٢]، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم.

وقال الوليد بن مسلم: حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً محوّقة[٣] رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحبُّ إليّ من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ رواه ابن أبي حاتم[٤].

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وهذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خلفك إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦][٥].

وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجههم، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ[٦] حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن، ثم قال: عزيمة على المؤمنين وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك

---

(١) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الأعمش به، وأخرجه البخاري من طريق إسماعيل عن زيد بن وهب عن حذيفة بمعناه (الصحيح، التفسير، باب ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ...﴾ [التوبة: ١٢] ح٤٦٥٨).

(٢) لم أجده مسنداً، ونسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن مردويه فقط، ويتقوىٰ برواية حذيفة رضي الله عنه.

(٣) محوّقة: الحوق الكنس، أراد أنهم حلقوا وسط رؤوسهم، فشبه إزالة الشعر منه بالكنس، ويجوز أن يكون من الحوق: وهو الإطار المحيط بالشيء المستدير حوله (النهاية ١/ ٤٦٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن عبد الله الإسكندراني عن الوليد بن مسلم به. وسنده حسن.

(٥) قراءة متواترة.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾: وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾: يعني: خزاعة[١]، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن مسلم بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذت بأنفها وقال: «يا عويش قولي اللّهم ربَّ النبي محمد اغفر ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلّات الفتن» ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم، عن الباغندي عن هشام بن عمار، حدثنا عبد الرحمٰن بن أبي الجون عنه[٢].

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من عباده ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً ولا يضيع مثقال ذرّة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يمّمت أرضاً ... أريد الخير أيّهما يليني

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩].

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بيّن أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا ربّ سواه، ولا رادَّ لما قدّره وأمضاه.

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري كسابقه، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أيوب السختياني عن عكرمة، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٢) في سنده هشام بن عمار الدمشقي وهو صدوق كبر فصار يتلقن (التقريب ص٥٧٣)، ومسلم بن يسار لم يسمع عائشة، ولكنهما قد توبعا إذ أخرجه ابن السني من طريق جعفر بن عون عن أبي العميس عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عائشة (عمل اليوم والليلة ح٤٥٦) إلا أن الحافظ العراقي ضعف رواية ابن السني (المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٢٦).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بُنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ (مسجد)[(١)] الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمٰن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وبقالهم.

قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ؟ لقال: صابئ، والمشرك؟ لقال: مشرك[(٢)].

﴿أُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بشركهم ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال] ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد: حدثنا [سُريج][(٣)]، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، أن درَّاجاً أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[(٤)]. ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب به[(٥)].

وقال عبد بن حميد في مسنده: حدثنا يونس بن محمّد، حدثنا صالح المري، عن ثابت البناني، عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عُمَّار المساجد هم أهل الله»[(٦)].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار: عن عبد الواحد بن غياث، عن صالح بن بشير المري، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عُمَّار المساجد هم أهل الله» ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح[(٧)].

وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار، عن أبيها، عن أخيه مالك بن دينار، عن أنس مرفوعاً: «إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم»

---

(١) وهي قراءة متواترة.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.
(٣) كذا في المسند، وفي الأصل صُحف إلى: «شُريح».
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٨/ ١٩٤ ح١١٦٥١) وضعف سنده محققوه.
(٥) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب من سورة التوبة (ح٣٠٩٣)، والمستدرك ٢/ ٣٣٢، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي ولكن حديث دراج عن أبي الهيثم ضعيف.
(٦) سنده ضعيف لضعف صالح المري (مجمع الزوائد ٢/ ٢٣).
(٧) أخرجه البزار في مسنده كما في كشف الأستار (رقم ٤٤٣) وسنده ضعيف علته كسابقه.

ثم قال: غريب[١].

وروى الحافظ البهاء في المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبي أُمية الطرسوسي، حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المري، عن ثابت، عن أنس مرفوعاً يقول الله: «وعزتي وجلالي إني لأهمُّ بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عُمَّار بيوتي وإلى المتحابين فيَّ وإليَّ» المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم[٢]. ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد، عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإيَّاكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامَّة والمسجد»[٣].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حقٌّ على الله أن يكرم من زاره فيها.

وقال المسعودي، عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية[٤]، رواه ابن مردويه. وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها.

وقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى برِّ الخلائق.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يقول: من وحَّد الله وآمن باليوم الآخر يقول: من آمن بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: الصلوات الخمس ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله.

ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة، وكل عسى في القرآن فهي واجبة[٥].

---

(١) هو غريب كما قال، وفي سنده أيضاً والد حكامة: عثمان بن دينار قال الذهبي في ترجمته: لا شيء والخبر كذب (ميزان الاعتدال رقم ٥٥٠٢).

(٢) سنده ضعيف لضعف صالح المري كما تقدم قبل روايتين، واستغربه أيضاً الحافظ ابن عساكر.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥٨/٣٦ ح٢٢٠٢٩) وفي سنده العلاء بن زياد لم يسمع من معاذ، وحسنه لغيره محققوه بالشواهد.

(٤) هذا الجزء من السند حسن، ولكن لم يتبين من الراوي عن المسعودي، وقد صرح الحافظ ابن كثير أن له شواهد.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعسى من الله حق[١].

﴿۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم، ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧﴾ [المؤمنون] يعني: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿بِهِۦ سَٰمِرٗا﴾ كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به. قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسمَّاهم الله: ظالمين بشركهم فلم تغن عنهم العمارة شيئاً[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قد نزلت في العبَّاس بن عبد المطلب حين أُسر ببدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني، قال الله ﷻ: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك[٣].

وقال الضحاك بن مزاحم: أقبل المسلمون على العبَّاس وأصحابه الذين أُسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج، فأنزل الله: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ الآية[٤].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن إسماعيل، عن الشعبي: قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلما في ذلك[٥].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول: افتخر طلحة بن شيبة[٦] من بني عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بتُّ فيه.

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وورد أيضاً في سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٢).
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به. ويتقوى بعضه بالرواية التالية من طريق ابن أبي طلحة.
(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف معضل لأن الضحاك تابع تابعي، ويتقوى بسابقه.
(٥) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق وسنده مرسل يتقوىٰ بما سبق.
(٦) ورد في حاشية الأصل: لعله عثمان بن طلحة.اهـ. والمثبت هو كما في تفسير الطبري.

وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بتُّ في المسجد، فقال علي ﷺ: ما أدري ما تقولان لقد صلَّيت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ . . .﴾ الآية كلَّها[١].

وهكذا قال السدي إلا أنه قال: افتخر علي والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عمرو، عن الحسن قال: نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبة تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا أني تارك سقايتنا، فقال رسول الله ﷺ: «أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيراً»[٣]. ورواه محمد بن ثور: عن معمر عن الحسن فذكر نحوه[٤].

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن النعمان بن بشير ﷺ أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر ﷺ وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه، فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾[٥].

(**طريق أخرى**): قال الوليد بن مسلم: حدثني معاوية بن سلَّام، عن جده أبي سلَّام الأسود، عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب ﷺ. وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ورواه مسلم في صحيحه[٦] وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه[٧].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه ولكن فيه ابن وهب قال: أُخبرت عن أبي صخر. وفي الحالتين أن السند مرسل، ويتقوىٰ بالمراسيل التالية.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه سابقه، لكنه مرسل ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، ورجاله ثقات لكنه مرسل يتقوىٰ بما سبق ولحق.

(٤) أخرجه الطبري من طريق محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور به. وسنده كسابقه في ثقاته ومقوياته.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وفي سنده يحيىٰ بن أبي كثير لم يسمع من النعمان ولكنه توبع كما سيأتي في الرواية الموصولة الصحيحة.

(٦) أخرجه مسلم من طريق معاوية بن سلاَّم به (الصحيح، الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ح١٨٧٩).

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق معاوية بن سلام به، وأخرجه الواحدي من طريق أبي داود عن أبي =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وروى الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ الآية[(١)].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ماذا يحلّ بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن زهرة بن معبد، عن جده قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»[(٢)] انفرد بإخراجه البخاري فرواه عن يحيى بن سليمان، عن ابن وهب، عن حيوة بن شريح، عن أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام، عن النبي ﷺ بهذا[(٣)]، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده

= توبة عن معاوية بن سلام به (أسباب النزول ص١٣٩) وبهذه الرواية نكون قد وقفنا على رواية أبي داود لأنها غير موجوده في سننه.

(١) أخرجه البيهقي من طريق ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شوذب به ثم قال: منقطع (السنن الكبرى ٩/٢٧)، وسبب الانقطاع أن عبد الله بن شوذب لم يدرك أحداً من الصحابة، وأخرجه الحاكم من طريق ضمرة به وسكت عنه هو والذهبي المستدرك ٣/٢٦٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/٣٣٦) وفي سنده ابن لهيعة فيه مقال وقد توبع كما سيأتي في رواية البخاري، فيكون سنده حسناً.

(٣) صحيح البخاري، الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟ (ح٦٦٣٢).

وولده والناس أجمعين»[١].

وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له من حديث أبي عبد الرحمٰن الخراساني، عن عطاء الخراساني، عن نافع، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينة[٢] وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٣].

وروى الإمام أحمد - أيضاً - عن يزيد بن هارون، عن [أبي جناب][٤]، عن شهر بن حوشب، أنه سمع [عبد الله بن عمر][٥]، عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك[٦]، وهذا شاهد للذي قبله، والله أعلم.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن جريج، عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة[٧]، يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعَددهم ولا بعُددهم، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قلّ الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قلّ الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ (صحيح البخاري، الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ح١٤٠)، وأخرجه مسلم من حديث أنس ﷺ وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (ح٤٤).

(٢) العِينة: هو أن يبيع رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمىٰ، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به.

(٣) أخرجه أبو داود من طريق أبي عبد الرحمن الخراساني به (السنن، البيوع، باب في النهي عن العِينة ح٣٤٦٢)، وقال الألباني صحيح بمجموع طرقه، صحيح الجامع (ح١٤) والسلسلة الصحيحة (ح١١) وذكر فيها ممن قوى الحديث كابن القطان وابن تيمية وابن القيم وابن كثير والشوكاني وأما الإمام أحمد فقد أخرجه من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر وصححه أحمد شاكر (المسند ح٤٨٢٥) وضعفه محققوه في طبعة الرسالة (ح٤٨٢٥) وقد أخرجه الإمام أحمد من طريق شهر بن حوشب عن ابن عمر (المسند ٩/ ٥١ ح٥٠٠٧) وضعفه أيضاً محققوه، والحق أن كل من الطريقين يقوي أحدهما الآخر.

(٤) كذا في (عم) و(حم) والمسند، وفي الأصل صحف إلى: «أبي حباب».

(٥) كذا في (مح) والمسند، وفي الأصل و(عم) و(حم) والنسخ المطبوعة صُحف إلى عبد الله بن عمرو.

(٦) أخرجه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون به (المسند ٩/ ٣٩٥ - ٣٩٦ ح٥٥٦٢ م١) وضعفه محققوه أيضاً بسبب ضعف أبي جناب وشهر بن حوشب، والحق أن كليهما توبعا في رواية أبي داود ورواية الإمام أحمد من طريق عطاء بن أبي رباح، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: وهذا شاهد للذي قبله.

(٧) ابن جريج لم يسمع من مجاهد، وقد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، لكنه مرسل.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت يونس يحدث عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلَّة»[١] وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال: هذا حديث حسن غريب جداً لا يسنده أحد غير جرير بن حازم، وإنما روي عن الزهري عن النبي ﷺ مرسلاً[٢]. وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكثم الجوني عن رسول الله ﷺ بنحوه[٣] والله أعلم.

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة.

وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف بن النضر، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع[٤] من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاؤوا بقضهم وقضيضهم[٥]، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له: حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كَمُنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولَّى المسلمون مدبرين كما قال الله ﷻ، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذٍ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو، والعباس عمُّه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير، وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول: «إليّ عباد الله إليّ أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» وثبت معه أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون. فمنهم أبو بكر وعمر ﵄ والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أُم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم ﵃، ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفرُّوا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمُرة[٦]، ويقول

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٤١٩ ح٢٦٨٢)، قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وقد اختلف في وصله وإرساله، قال أبو داود أنه مرسل. وأيده الترمذي وابن أبي حاتم فيما رواه عن أبيه أنه مرسل لا يحتمل هذا الكلام أن يكون كلام النبي ﷺ (العلل ١/ ٣٤٧).

(٢) سنن أبي داود، الجهاد، باب فيما يستحب من الجيوش (ح٢٦١١)، وسنن الترمذي، السير، باب ما جاء في السرايا (ح١٥٥٥).

(٣) سنن ابن ماجه، الجهاد، باب السرايا (ح٢٨٢٧)، والسنن الكبرى ٩/ ٢٦٣ للبيهقي إذ أخرجاه من طريق أبي سلمة العاملي عن الزهري عن أنس، قال: وضعفه البوصيري لضعف العاملي (مصباح الزجاجة ٢/ ٤١٢).

(٤) أي: الفرق من الناس. (٥) أي بأجمعهم.

(٦) السُمرة من شجر الطلح.

تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللَّهم أنجز لي ما وعدتني» ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما يشغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجدلة[١] بين يدي رسول الله ﷺ[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن يسار، عن أبي همَّام، عن أبي عبد الرحمٰن الفهري واسمه: يزيد بن أسيد ويقال: يزيد بن أنيس ويقال: كُرزُ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح؟ فقال: «أجل» فقال: «يا بلال» فثار من تحت سمرة كأنها ظلها ظل طائر فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال: «أسرج لي فرسي» فأخرج سرجاً دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال: فأسرج فركب وركبنا، فصافقناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان[٣]، فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله» ثم قال: «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال: ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفاً من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فهزمهم الله تعالى. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست الجديد[٤].

وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به[٥].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمٰن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين، فسبق رسول الله ﷺ إليه، فأعدوا وتهيئوا في مضايق الوادي وأحنائه، وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحطّ بهم الوادي في عماية الصبح[٦]، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل، فاشتدت عليهم، وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس هلمُّوا إليَّ

---

(١) أي مطروحة.

(٢) أخرج مسلم أغلب هذه القصة (الصحيح، الجهاد والسير، باب في غزوة حنين ح١٧٧٥ ـ ١٧٧٦).

(٣) أي تقاربت خيل المسلمين مع خيل العدو.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند / ١٣٤ ـ ١٣٥ ح٢٢٤٦٨)، وقال محققوه: حسن لغيره. أي بالشواهد، وأخرجه أبو داود من طريق حماد بن سلمة به (السنن، الأدب، باب الرجل ينادي الرجل... ح٢٣٣، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح٤٣٦٠).

(٥) دلائل النبوة (٥/ ١٤١)، وأخرجه الحاكم من طريق حماد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ١٣٠).

(٦) أي ظلامه قبل أن يتبين.

أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضاً، فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة» فأجابوه لبيك، لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة فاستعرض الناس، فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت الأنصار ثم جعلت آخراً بالخزرج، وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله ﷺ في ركابه فنظر إلى مجتلد القوم[1] فقال: «الآن حميَ الوطيس»[2] قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله مُلقون، فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم[3].

وفي الصحيحين من حديث شعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[4].

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفرٍّ ولا لِكرٍّ ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: طمأنينته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين معه ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: [حدثنا القاسم][5] حدثني الحسن بن عرفة قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن عوف هو: ابن أبي جميلة الأعرابي قال: سمعت عبد الرحمٰن مولى ابن برثن، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة[6]، قال: فلمَّا كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقَّانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها[7].

---

(١) أي ميدان المعركة. (٢) أي اشتعلت الحرب وقامت المعركة.

(٣) سنده حسن ويشهد له سابق ولاحقه وقد ورد نحوه في سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٤).

(٤) صحيح البخاري، الجهاد، باب من قاد دابة غيره في الحرب (ح٢٨٦٤)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب في غزوة حنين (ح١٧٧٦).

(٥) سقط من الأصل واستدرك من نسخة (مح) وتفسير الطبري.

(٦) كناية عن قلة الوقت.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه مسدد من طريق عوف به بلفظ: فقال: «شاهت الوجوه»، (المطالب =

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثني محمد بن أحمد بن بالويه، حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحارث بن حصيرة، حدثنا القاسم بن عبد الرحمٰن، عن أبيه قال: قال ابن مسعود ﷺ: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولَّى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولِّهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً، فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: «ناولني كفًّا من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولَّى المشركون أدبارهم[١]. ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان به نحوه[٢].

وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عَرِيَ[٣] ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما فقلت: اليوم أدرك ثأري منه قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت: عمه ولن يخذله قال: فجئته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت: ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن تمحشني[٤]، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقرى، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبة يا شيبة ادن مني، اللَّهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري ولهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري فقال: «يا شيبة قاتل الكفار» رواه البيهقي من حديث الوليد... فذكره[٥].

ثم روي من حديث أيوب بن جابر، عن صدقة بن سعيد، عن مصعب بن شيبة، عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكنني أبيت[٦] أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقاً فقال: «يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر» فضرب بيده على صدري ثم قال: «اللهم اهد شيبة» ثم ضربها الثانية ثم قال: «اللهم اهد شيبة» ثم ضربها الثالثة ثم قال: «اللهم اهد شيبة» قال: فوالله ما رفع يده عن

= العالية ٤/ ٤٢٤ ح٤٣١٢)، هذا هو الثابت عن النبي ﷺ كما تقدم، أما أنهم قالوا ذلك فمخالف لما في الصحيح.

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ١٤٢)، وفي سنده ضعف كما سيأتي تفصيله في رواية الإمام أحمد، ولبعضه شواهد تقدمت.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن عفان به نحوه (المسند ٧/ ٣٥٤ ح٤٣٣٦)، قال محققوه: إسناد ضعيف، عبد الرحمن والد القاسم ـ وهو ابن عبد الله بن مسعود ـ يترجح عدم سماعه هذا الخبر من أبيه.

(٣) أي أبغضّ عنه الناس.

(٤) أي تحرقني.

(٥) أخرجه البيهقي من طريق هشام بن خالد عن الوليد بن مسلم به ثم قال: قد مضىٰ له شاهد عن مغازي محمد بن إسحاق بن يسار (دلائل النبوة ٥/ ١٤٥)، وفي سنده أبو بكر الهذلي ضعيف كما في التقريب.

(٦) كذا في النسخ الخطية، وفي دلائل النبوة: أنفت، وهو أفصح.

صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إليّ منه وذكر تمام الحديث في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين[(١)].

قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن يسار عمن حدثه، عن جبير بن مطعم ﷺ قال: إنَّا لَمعَ رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد[(٢)] الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك أنها الملائكة[(٣)].

وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد، فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا[(٤)].

وقد تقدم له شاهد من حديث يزيد بن أبي أسيد، فالله أعلم.

وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همَّام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نُصرت بالرعب وأُوتيت جوامع الكلم»[(٥)]. ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردَّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونفَّل أناساً من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّصْري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كُلِّهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا احتدّى ... [ومتى][(٦)] تشأ يُخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عردّت أنيابها ... بالسَّمهري وضرب كل مهند

---

(١) أخرجه البيهقي من طريق محمد بن بكير الحضرمي عن أيوب بن جابر به (دلائل النبوة ٥/١٤٦).

(٢) البجاد أي: الكساء.

(٣) أخرجه البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق به (دلائل النبوة ٥/١٤٦) وسنده ضعيف لإبهام شيخ إسحاق بن يسار. وذكره ابن هشام في السيرة (٤/٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (التاريخ الكبير ٨/٣١٦)، والطبري كلاهما من طريق معن بن عيسىٰ عن سعيد بن السائب به، وأخرجه الطبراني من طريق سعيد بن السائب به (المعجم الكبير ٢٢/٢٣٧ ح٦٢٢) قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات (المجمع ٦/١٨٢)، وكذا أخرجه البيهقي (دلائل النبوة ٥/١٤٣ ـ ١٤٤).

(٥) صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، بدون ذكر باب (ح٥٢٣).

(٦) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وفي الأصل: «وما».

فكأنه ليث على أشباله وسط [الهباءة][١] خادر في مرصد[٢]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾.

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذٍ وأمره أن ينادي في المشركين: أن لا يحجَّ بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتمَّ الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة[٣].

وقد روي مرفوعاً من وجه آخر فقال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا شريك، عن الأشعث يعني: ابن سوار، عن الحسن، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم»[٤] تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً والموقوف أصح إسناداً.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٥].

وقال عطاء: الحرم كلُّه مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[٦].

ودلَّت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»[٧] وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحلَّ طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

---

(١) كذا في دلائل النبوة، وفي الأصل صحفت إلى: «المساة»، وفي (عم): «المياه»، وفي (حم): «المناه»، وفي (مح): «الماه».

(٢) أخرجه البيهقي من طريق محمد بن إسحاق قال: حدثنا أبو وجزة عن عثمان رضي الله عنه بنحوه وأطول (دلائل النبوة ٥/١٩٨ ـ ١٩٩)، وأورده ابن هشام في السيرة ٤/١٠٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح، وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق عبد الرزاق به.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٣/ ٣٨٧ ح١٥٢٢١)، وضعفه محققوه، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: والموقوف أصح إسناداً.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٦/٥١٢) والطبري والبيهقي (السنن الكبرى ١٠/١٠٣) من طرق يقوي بعضها بعضاً.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (المصنف رقم ٩٩٨٠)، والنحاس (الناسخ والمنسوخ ص٤٢٨)، كلاهما من طريق ابن جريج عن عطاء، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الغسل، باب عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس ح٢٨٣).

وقال أشعث عن الحسن: من صافحهم فليتوضأ[١]. رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطعنَّ عنا الأسواق ولتهلكنَّ التجارة وليذهبنَّ عنَّا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِن شَآءَ﴾ إلى [قوله][٢]: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية[٣].

وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم[٤] ﴿إِنْ شَآءَ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فيما يأمر به وينهى عنه، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى، ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمَّة.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤوا به، وإنما يتَّبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٨/ ٤٣٣) والطبري كلاهما من طريق أشعث عن الحسن. وسنده ضعيف لضعف أشعث وهو ابن سوار.

(٢) كذا في (حم) و(عم) و(مح) وفي الأصل صحفت إلى: «غيره».

(٣) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وأورده ابن هشام في السيرة ٢/ ٥٤٧، وتشهد له ما صح من الآثار التالية.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بإسنادين يقوي أحدهما الآخر، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسندين ضعيفين من طريق واقد مولىٰ زيد بن خليدة ويتقوىٰ بسابقه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة، وقول الضحاك أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى[١].

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه.

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تبدئوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»[٢]. ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمٰن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرْطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية[٣] ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خططاً للمسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مرَّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلِّم أولادنا القرآن، ولا نُظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، لا نركب السروج ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا العربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نُظهر الصليب على

---

(١) ذكر البيهقي شيئاً من قصة رجوع النبي ﷺ من تبوك بدون قتال (دلائل النبوة ٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).
(٢) صحيح مسلم، السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام (ح٢١٦٧).
(٣) أي بيت من بيوت العبادة عندهم.

كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين[١] ولا باعوثاً[٢]، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم.

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملَّتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا[٣] على أنفسنا فلا ذِمَّة لنا، وقد حلَّ لكم مِنَّا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق[٤].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير: إنه ابن الله! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل، فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مرَّ على جبانة[٥] وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه. فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت، قالت: يا عُزير فمن كان يعلِّم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي

---

(١) الشعان: المنتفش الشعر، الثائر الرأس.

(٢) الباعوث للنصارى كالاستسقاء للمسلمين (النهاية ١/ ١٣٩).

(٣) أي ألزمنا أنفسنا.

(٤) أخرجه الحافظ ابن كثير بسنده عن شيخه الحافظ المزي بسنده عن عبد الرحمن بن غُنم بطوله ونحوه (مسند الفاروق ٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩)، وفي سنده يحيىٰ بن عقبة بن أبي العيزار: وهو كذاب (ميزان الاعتدال ٤/ ٣٦٧ والمجروحين لابن حبان ٣/ ١١٧ والضعفاء الكبير للعقيلي ٤/ ٤٢١)، وذكر ابن كثير أن البيهقي أخرجه من يحيىٰ بن عقبة أيضاً، كما ذكر أن الحافظ عبد الله بن أحمد بن زبر قاضي دمشق قد رواه في جزء جمعه في الشروط العمرية من طريق يحيىٰ بن عقبة أيضاً، ثم رواه من طريق آخر عن محمد بن حمير (مسند الفارق ٢/ ٤٩٠)، ومحمد بن حمير مجهول وروىٰ خبراً منكراً (لسان الميزان ٥/ ١٥٠)، وأخرجه ابن زبر بإسناد آخر فيه إبهام بعض شيوخه، ثم أخرجه من طريق بقية بن الوليد عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، وهؤلاء ثلاثتهم فيهم مقال وقد عنعن بقية، ثم ختم الحافظ ابن كثير بقوله: فهذه طرق يشد بعضها بعضاً (المصدر السابق ٢/ ٤٩١)، وفيه نظر فإنها غير قوية، وخصوصاً أن المتن فيه تشديد في بعض بنود هذا الكتاب.

(٥) أي الصحراء التي فيها القبور.

عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به، ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصلِّ هناك ركعتين، فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله، فذهب ففعل ما أمر به، فإذا الشيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه، فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات، فرجع عُزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عُزير ما كنت كذاباً، فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عُزير، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها، فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله![1].

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذَّب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عَدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، فأُسرت أُخته وجماعة من قومه، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أُخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عَدي ما تقول؟ أيفرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرّك؟ أيفرّك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق. قال: فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون»[2] وهكذا

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وهذه الرواية من الإسرائيليات الغريبة والخزعبلات العجيبة.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق غُطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم مقتصراً على ذكر طرح الصليب وقراءة الآية. وقوله: أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطيف ليس بمعروف في الحديث (السنن، تفسير القرآن، باب من سورة التوبة ح٣٠٩٥)، وسنده ضعيف بسبب غُطيف إذ ضعفه الدارقطني والحافظ ابن حجر (ميزان الاعتدال ٢/١٠٦ والتقريب) ولم أجده في المسند وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم والطبراني (المعجم الكبير ١٧/٩٢ ح٢١٨ والبيهقي (السنن الكبرىٰ ١٠/١١٦) كلهم من طريق غُطيف به، ولآخره في ذكر اليهود والنصارىٰ شاهد تقدم في آخر سورة الفاتحة. وحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رواية الترمذي المختصرة (الإيمان ص٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٤٧١)، ولكنه لا يرقىٰ كله إلى الحسن إلا آخره بالشواهد.

قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حلَّلوا وحرَّموا(١).

وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: الذي إذا حرَّم الشيء فهو الحرام، وما حلّله فهو الحلال، وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفيء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بدّ أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافراً؛ لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع، ودين الحق هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى(٢) ليَّ الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن محمد بن أبي يعقوب، سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول: صلَّى هذا الحي من محارب الصبح، فلما صلَّوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدَّى الأمانة»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا سليم بن عامر، عن تميم الداريّ ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا

---

(١) قول حذيفة أخرجه عبد الرزاق والثوري والطبري وابن أبي حاتم كلهم من طريق أبي البختري عنه، وسنده منقطع لأن أبا البختري ـ واسمه فيروز ـ لم يسمع من حذيفة، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه.

(٢) زوىٰ أي: جمع.

(٣) أخرجه مسلم من حديث ثوبان ؓ (الصحيح، الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح٢٨٨٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/ ١٩٤ ح٢٣١٠٩)، وضعف سنده محققوه لجهالة شقيق بن حيان ومسعود بن قبيصة.

يترك الله بيت مدر ولا وبر[(١)] إلا أدخله هذا الدين يعزُّ عزيزاً ويذلُّ ذليلاً، عزّاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر» فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذلُّ والصغار والجزية[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثني ابن جابر، سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام بعزِّ عزيزٍ، وبذلِّ ذليلٍ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها»[(٣)].

وفي المسند أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن ابن سيرين، عن [ابن حذيفة][(٤)]، عن عَدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عَدي أسلم تسلم» فقلت إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم ألست من الركوسيّة[(٥)] وأنت تأكل مرباع[(٦)] قومك؟» قلت: بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرَها وقد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحنَّ كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلنَّ المال حتى لا يقبله أحد» قال عَدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكوننَّ الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها[(٧)].

وقال مسلم: حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي، حدثنا خالد بن الحارث، حدثنا

---

(١) بيت مدر أي المبني، والوبر خيم الوبر لأنها تنسج من وبر الإبل والمراد بذلك أهل البوادي والمدن والقرى (ينظر النهاية ٥/ ١٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٠٣)، وأخرجه الحاكم من طريق صفوان بن عمرو به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٤٣٠)، وكذا أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٢/ ٥٨ ح١٢٨٠)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٢٣٦ ح٢٣٨١٤) وصححه محققوه، وأخرجه الحاكم من طريق ابن جابر به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٤٣٠)، وكذا أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٢٠/ ٣٥٤ ح٦٠١)، قال الهيثمي: ورجال الطبراني رجال الصحيح (المجمع ٦/ ١٤).

(٤) كذا في (عم) و(مح) والمسند، وفي الأصل: و(حم) وفي كل الطبعات صحفت إلى أبي حذيفة.

(٥) الركوسية: هو دين بين النصارىٰ والصابئة (النهاية ٢/ ٢٥٩).

(٦) المرباع: ربع الغنيمة (النهاية ٢/ ١٨٦).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه مطولاً (المسند ٣٢/ ١١٩ - ١٢٠ ح١٩٣٧٨) وحسن سنده محققوه وأن بعضه صحيح. وهو كما قالوا فإن البخاري أخرج بعضه عن عَدي (الصحيح، المناقب، باب علامات النبوة ح٣٥٩٥)، وأخرجه الحاكم من طريق ابن سيرين عن أبي عبيدة - وهو ابن حذيفة - به نحوه وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٥١٨).

عبد الحميد بن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللّات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، أن ذلك تام[١]، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ﷻ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»[٢].

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى[٣]. وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]. والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى[٤].

وفي الحديث الصحيح: «لتركبنَّ سَنن من كان قبلكم حذو القذَّة بالقذَّة[٥]» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية: فارس والروم، قال: «فمَن الناس إلا هؤلاء؟»[٦].

والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خَرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذلَّ والصَغار وباءوا بغضب من الله تعالى.

---

(١) كذا في النسخ الخطية والنسخ المطبوعة، وفي صحيح مسلم: تاماً.

(٢) أخرجه مسلم بسنده ومتنه مع الفرق السابق (الصحيح، الفتن، باب لا تقوم الساعة حتىٰ تعبد دوس ذا الخلصة ح٢٩٠٧).

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٤) لم أجده.

(٥) القُذَة: ريش السهم واحدتها قُذَّة، ومعنىٰ حذو القذَّة بالقذَّة أي كما تقدَّر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتُقطع، يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان (النهاية ٢٨/٤).

(٦) أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري بمعناه (صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ح٣٤٥٦ وصحيح مسلم، العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ح٢٦٦٩).

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعونه إلى الخير وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال بعضهم:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز: فقال مالك عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر هو: المال الذي لا يؤدى زكاته[١]، وروى الثوري وغيره عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: ما أُدِّي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز[٢]، وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً[٣]، وقال عمر بن الخطاب نحوه: أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض[٤]. وروى البخاري من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال[٥]، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣][٦].

[وقال سعيد عن محمد بن زياد][٧]، عن أبي أُمامة أنه قال: حلية السيوف من الكنز. ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ[٨].

وقال الثوري، عن أبي حصين، عن أبي الضحى، عن جعدة بن هبيرة، عن علي رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه الإمام مالك بسنده ونحوه (الموطأ، الزكاة، باب ما جاء في الكنز ١/٢٥٦ ح٢١) وسنده صحيح وأخرجه البخاري من طريق خالد بن أسلم عن ابن عمر بمعناه (الصحيح، الزكاة، باب من أدى زكاته فليس بكنز ح١٤٠٤).

(٢) سنده صحيح ويتقوىٰ بسابقه.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه موقوفاً، وقول جابر أخرجه ابن أبي شيبة من طريق حجاج عن أبي الزبير عنه موقوفاً (المصنف ٣/ ١٥٠)، ويشهد له قول ابن عباس وابن عمر، وأخرجه الخطيب البغدادي من طريق خُصيف عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً (تاريخ بغداد ٨/ ١٢)، وسنده ضعيف بسبب خُصيف وهو صدوق سيء الحفظ.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق سعيد بن أبي سعيد عن عمر بنحوه (المصنف ٣/ ١٥٠) ويشهد له قول ابنه وابن عباس.

(٥) صحيح البخاري، الزكاة، باب من أدىٰ زكاته فليس بكنز (ح١٤٠٤).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن زياد عن راشد بن مسلم عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز، وفي سنده عبد الرحمن بن زياد ضعيف ويتقوى بسابقه.

(٧) كذا في (مح) و(عم) وفي الأصل صحفت إلى: «وقال سعيد بن محمد بن زياد».

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بقية عن محمد بن زياد عن أبي أمامة، وكذا الطبراني من طريق بقية به (المعجم الكبير ٧٥٣٨)، قال الهيثمي فيه بقية وهو ثقة لكنه مدلس ولم يصرح بالسماع (المجمع ٣/ ٦٧).

أربعة آلاف فما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز[١]. وهذا غريب. وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة. ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، أخبرني أبو حصين، عن أبي الضحى، عن جعدة بن هبيرة، عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ الآية. قال النبي: «تباً للذهب تبًّا للفضة» يقولها ثلاثاً قال: فشقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: فأي مال نتخذ؟ فقال عمر رضي الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شقَّ عليهم وقالوا: فأي المال نتخذ قال: «لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين أحدكم على دينه»[٢].

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني سالم بن عبد الله، أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل، حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال: «تباً للذهب والفضة». قال: وحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله قولك: «تباً للذهب والفضة» ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين على الآخرة»[٣].

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة، عن أبيه، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعير[٤] فأدركه وأنا في أثره فقال: يا رسول الله أي المال نتخذ؟ قال: «قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة»[٥]. ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذي حسن، وحكي عن البخاري أن سالماً لم يسمعه من ثوبان[٦] قلت: ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلاً، والله أعلم.

(حديث آخر): قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حميد بن مالك، حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي، حدثنا أبي، حدثنا غيلان بن جامع المحاربي، عن عثمان أبي اليقظان، عن جعفر بن أبي إياس، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري به، وسنده صحيح.

(٢) ذكره الزيلعي وعزاه إلى عبد الرزاق في تفسيره ثم ضعفه لما في المتن من الاضطراب (تخريج أحاديث الكشاف ٢/ ٧١).اهـ. وأظنه مكرراً وملفقاً من سند الرواية السابقة ومتن الرواية اللاحقة. بدليل أن عبد الرزاق والطبري أخرجا الروايتين السابقة واللاحقة دون الرواية الوسطى الملفقة، وكذلك حصل الاضطراب في السند فإن السند الأول لا يوجد فيه عمر بينما الرواية الملفقة المكررة دخل فيها اسم عمر من سند الرواية اللاحقة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/ ١٨٩ ح٢٣١٠١)، وقال محققوه: حسن لغيره.اهـ. وذلك بالشواهد.

(٤) أي أسرع عليه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد سنده ومتنه (المسند ٣٧/ ١١٠ ح٢٢٤٣٧)، قال محققوه: حسن لغيره.اهـ. ويتقوىٰ بسابقه.

(٦) سنن الترمذي، تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (ح٣٠٩٤)، وسنن ابن ماجه، النكاح، باب أفضل النساء (ح١٨٥٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح١٥٠٥).

﴿وَالْفِضَّةَ﴾ الآية، كَبُر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده. فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كَبُر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» قال: فكبَّر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»[(١)].

ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه[(٢)].

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلاً فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة[(٣)] نعبث بها فأنكرت عليه فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمُّها غير كلمتي هذه فلا تحفظوها عليَّ، واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان] أي: هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم، ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عُذِّب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عُذِّبوا بها كما كان أبو لهب - لعنه الله - جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن أبا اليقظان عثمان البجلي الكوفي الأعمى ضعيف اختلط وكان يدلس ويغلوا في التشيع كما في التقريب.

(٢) سنن أبي داود، الزكاة، باب في حقوق المال (ح١٦٦٤)، والمستدرك ٢/٣٣٣ وصححه الحاكم وقد استدرك الذهبي عليه بقوله: عثمان لا أعرفه والخبر عجيب.

(٣) كذا في النسخ الخطية وجامع المسانيد ٤/١٨٧ ح٥١٠٧، وفي المسند: بالسُفرة. والسفرة قال ابن الأثير: السفرة: طعام يتخذه المسافر، وأكثر ما يحمل في جلد مستدير فنقل اسم الطعام إلى الجلد وسُمي به (النهاية ٢/ ٣٧٣)، أما لفظ الشفرة فيحتمل السكين العريضة، ونقل محققو طبعة الشعب عن اللسان أن الشفرة والشفيرة التي تقنع من النكاح بأيسره. وأراه بعيداً عن مقام الصحابي، وفي كل الحالات أن هذا اللفظ لم يثبت بسند متصل صحيح كما يلي.

(٤) أخرجه الإمام بسنده ومتنه (المسند ٢٨/٣٣٨ ح١٧١١٤)، قال الحافظ ابن كثير: وعندي في سماع حسان منه نظر (جامع المسانيد ٤/١٨٧)، وقال محققو المسند حسن بطرقه، حسان بن عطية لم يدرك شداد بن أوس، وقد أخرجه الطبراني بسند متصل من طريق حسان بن عطية عن أبي عبيد الله مسلم بن مشكم عن شداد به ولكن ليس فيه قصة الشفرة أو السفرة، وأخشىٰ أن تكون مقحمة، فإن سندها منقطع لم يصح (المعجم الكبير ٧/ ٣٤٥ ح٧١٥٧).

وامرأته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي عنقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥] أي: تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه ليكون، ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعزَّ الأشياء على أربابها كانت أضرَّ الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيُحمى عليها في نار جهنم وناهيك بحرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

قال سفيان، عن الأعمش، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكنز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[(١)]، وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح رفعه والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه قال: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفرُّ منه ويقول: أنا كنزك لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه[(٢)].

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول: «من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده»[(٣)]. ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صحيح مسلم من حديث سُهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...»[(٤)] وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن حصين، عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذرٍّ بالربذة فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم[(٥)].

---

(١) أخرجه سفيان الثوري في تفسيره بسنده بنحوه، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح لكنه مرسل، ويشهد له الحديث الآتي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن خزيمة (الصحيح ح٢٢٥٥)، وابن حبان (الإحسان ح٨٠٣) كلاهما من طريق بشر به، ويشهد له الحديث المتفق عليه التالي.

(٤) صحيح البخاري، التفسير باب ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ...﴾ [التوبة: ١٢] (ح٤٦٥٩) وصحيح مسلم، الزكاة، باب أثم مانع الزكاة (ح٩٨٧).

(٥) صحيح البخاري، الباب السابق (ح٤٦٦٠).

ورواه ابن جرير من حديث [عبثر بن القاسم][١] عن حصين، عن زيد بن وهب، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه.. فذكره وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن أقبل إليه قال: فأقبلت إليه، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذٍ، فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي: تنح قريباً. قلت: والله لن أدع ما كنت أقول[٢].

(قلت): كان من مذهب أبي ذرٍّ رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية، فلم ينته فخشي أن يضرَّ الناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالرّبذة وحده وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان.

وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب، فقال: ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

وهكذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنها عامة[٣].

وقال السدي: هي في أهل القبلة[٤].

وقال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشر الكنازين برضف[٥] يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل قال: فوضع القوم رؤوسهم، فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً؛ قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية؛ فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم؛ فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً[٦].

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذرٍّ: «ما يسرني أن عندي مثل أُحد ذهباً يمر عليّ ثلاثة أيام وعندي منه شيء إلا دينار أرصده لدين»[٧]. فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي حدا بأبي ذرٍّ على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، حدثنا قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن

---

(١) كذا في (حم) و(عم) وفي الأصل غير منقوطة وفي (مح): عبيد بن القاسم، وفي الطبري الراوي عن حصين هو: «هشيم».

(٢) أخرجه الطبري من طريق هشيم عن حصين به بدون الزيادة.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٥) أي الحجارة المحماه على النار.

(٦) أخرجه مسلم من طريق أبي العلاء عن الأحنف بن قيس بنحوه (الصحيح، الزكاة، باب في الكنازين للأموال والتغليظ عليهم ح٩٩٢).

(٧) أخرجه مسلم من طريق زيد بن وهب عن أبي ذرٍّ بلفظه وأطول (الصحيح، الزكاة، باب الترغيب في الصدقة ح٣٢/ ٩٩٠).

عبد الله بن الصامت ﷺ أنه كان مع أبي ذرٍّ فخرج عطاؤه ومعه جارية، فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً قال: قلت: لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك. قال: إن خليلي عهد إليَّ أن أيما ذهب أو فضة أُوكيء[(١)] عليه، فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله ﷻ[(٢)]. ورواه عن يزيد، عن همام به وزاد: إفراغاً[(٣)].

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته: عن محمد بن مهدي، حدثنا عمر بن أبي سلمة، عن صدقة بن عبد الله، عن طلحة بن زيد، عن أبي فروة الرهاوي، عن عطاء، عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الق الله فقيراً، ولا تلقه غنياً» قال: يا رسول الله كيف لي بذلك؟ قال: «ما سئلت فلا تمنع، وما رزقت فلا تخبيء» قال: يا رسول الله كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار» إسناده ضعيف[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا [عُيَينة][(٥)]، عن بُريد بن أصرم قال: سمعت علياً ﷺ يقول: مات رجل من أهل الصُّفَّة وترك دينارين أو درهمين، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان، صلُّوا على صاحبكم»[(٦)]. وقد روي هذا من طرق أُخر.

وقال قتادة، عن شهر بن حوشب، عن أبي أُمامة صُدي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة، فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ: «كية»، ثم توفي رجل في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان»[(٧)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفراديسي، حدثنا معاوية بن يحيى الإطرابلسي، حدثني أرطاة، حدثني أبو عامر الهوزني، سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض[(٨)] إلا جعل الله بكل قيراط[(٩)] صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه»[(١٠)].

---

(١) أي ربط بالوكاء وهو الخيط الذي تُشد به الصرة لحفظ المال.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٥/ ٣٠٨ ح٢١٣٨٤) وصحح سنده محققوه.

(٣) المسند ٥/ ١٧٥ - ١٧٦، وهذه الزيادة في آخر الحديث تفيد التأكيد. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٠).

(٤) بل سنده ضعيف جداً لأن طلحة بن زيد متروك، وقال الإمام أحمد وعلي بن المديني وأبو داود: كان يضع. (التقريب ص٢٨٢).

(٥) كذا في المسند، وفي النسخ الخطية صُحف إلى: «عيينة».

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ١٧٥ ح٧٨٨)، وقال محققوه: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة عُتيبة وبُريد بن أصرم، وقد ذكر الحافظ أنه روي من طرق أُخر وذكر بعضها، ولكن هذه الطرق ضعيفة.

(٧) أخرجه الطبري من طريق معمر عن قتادة به، وصحح سنده الأستاذ أحمد شاكر، ولكن سنده فيه شهر بن حوشب وفيه مقال.

(٨) الأحمر الذهب، والأبيض الفضة.

(٩) القيراط جزء من الدينار وهو نصف عُشرِهِ في أكثر البلاد (النهاية ١/ ١٧٢).

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده معاوية بن يحيىٰ وهو صدوق له أوهام ولم يُتابع، وفيه إسحاق الفراديسي فيه مقال (ينظر ميزان الاعتدال ١/ ١٧٩).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خداش، حدثنا سيف بن محمد الثوري، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده، فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» سيف هذا: كذاب متروك[(١)].

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، أخبرنا أيوب، أخبرنا محمد بن سيرين، عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال: «أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيُسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا بلى ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيُسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيُسميه بغير اسمه قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم ـ وأحسبه قال: ـ وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعلَّ من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه»[(٢)] رواه البخاري في التفسير وغيره. ومسلم من حديث أيوب، عن محمد وهو ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه به[(٣)].

وقد قال ابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا روح، حدثنا أشعث، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات ـ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ـ ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»[(٤)] ورواه البزار عن محمد بن معمر به.

---

(١) سنده ضعيف جداً بسبب سيف المذكور.

(٢) أخرجه الأمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٤/٢٣ ـ ٢٥ ح٢٠٣٨٦)، وصححه محققوه، وهو متفق عليه وسيذكر الحافظ ابن كثير شرح الحديث بعد إيراد طرقه.

(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً. . .» (ح٤٦٦٢)، وصحيح مسلم، القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (ح١٦٧٩).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف أشعث وهو ابن سوار، ومحمد بن سيرين لم يسمع أبا هريرة، ويشهد له سابقه فمتنه متفق عليه.

ثم قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقُرَّة عن ابن سيرين، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا موسى بن عبيدة الربذي، حدثني صدقة بن يسار، عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم»(١) وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر مثله أو نحوه(٢).

وقال حماد بن سلمة: حدثني علي بن زيد، عن أبي حُرَّة الرقاشي، عن عمه وكانت له صحبة قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه، فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم»(٣).

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاية، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ قال: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة(٤).

وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله، في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض» أي: الأمر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السمٰوات والأرض.

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض» أنه اتفق أن حجَّ رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصدِّيق في سنة تسع كانت في ذي القعدة.

وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا عن النسيء وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة الربذي، ويشهد له الحديث السابق المتفق عليه.

(٢) سنده كسابقه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٤/٢٩٩ ـ ٣٠١ ح٢٠٦٩٥)، وقال محققوه: صحيح لغيره. أي: بالشواهد لأن علي بن زيد وهو ابن جدعان ضعيف.

(٤) سنده ضعيف لضعف الكلبي ويشهد له حديث أبي بكرة المتقدم تخريجه في الصحيحين.

فصل

ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه: «المشهور في أسماء الأيام والشهور» أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً قال: ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم، وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: صفر المكان إذا خلا، ويجمع على أصفار كجمل وأجمال، وشهر ربيع الأول سميّ بذلك لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة في عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء، وعلى أربعة كرغيف وأرغفة، وربيع الآخر كالأول. جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه، قال: وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلا بدّ من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر:

وليلة من جمادى ذات أندية ... لا يُبصرُ العبد في ظلمائها الطنبا
لا ينبحُ الكلب فيها غير واحدة ... حتى يلفَّ على خُرطومه الذنبا

ويجمع على جماديات كحبارى وحباريات، وقد يُذكَّر ويؤنَّث فيقال: جمادى الأولى والأول، جمادى الآخر والآخرة. رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات. شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شعابين وشعبانات. رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال: رمضت الفصال إذا عطشت، ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة. قال: وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه، قلت: قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته في أول كتاب الصيام. شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق قال: ويجمع على شواول وشواويل وشوالات. القعدة بفتح القاف، قلت: وكسرها، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة. الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة، أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين، الثلاثاء يُمد ويُذكَّر ويُؤنَّث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث، ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرابيع، والخميس يجمع على أخمسة وأخامس، ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضاً ويجمع على جمع وجماعات، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده، وكانت العرب تسمي الأيام أول ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار، قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين:

أرجى أن أعيش وإن يومي ... بأول أو بأهون أو جُبار
أو التالي دُبار فإن أفُتْهُ ... فمؤنس أو عروبةَ أو شيَار

وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم: البُسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً، وأما قوله: «ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي

بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فبيَّن ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فَحُرِّم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحُرِّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحُرِّم بعده شهراً آخر وهو المحرَّم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحُرِّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق من كتاب الله الأول.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة؛ لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تُغلَّظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قُتل في الحرم أو قتل ذا محرم.

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: في الشهور كلها[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهنَّ، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهنَّ حراماً وعظم حرماتهنَّ، وجعل الذنب فيهنَّ أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم[٢].

وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه؛ اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد. واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظِّموا ما عظَّم الله. فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل[٣].

وقال الثوري، عن قيس بن مسلم، عن الحسن، عن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهنَّ كحرمتهنَّ[٤].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً؛ ولا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق قبيصة عن الثوري به.

حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٣٧]، وهذا القول اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين:

(أحدهما): وهو الأشهر أنه منسوخ؛ لأنه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عامًّا ولو كان محرَّماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين[١] أنه خرج إلى هوازن في شوال، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلُّهم لجئوا إلى الطائف، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]، وقال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ٥٠] وتقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج والتحضيض أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذِن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٩١].

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم؛ لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم، ولنذكر الأحاديث الواردة[٢] في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة والله أعلم.

---

(١) ينظر صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الطائف (ح٤٣٢٥ وح٤٣٣١).

(٢) في (عم) بياض قدر نصف ورقة ولعلّ الحافظ ابن كثير لم يذكرها لأنه قد سردها في السيرة النبوية.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا مما ذمَّ الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرَّم الله وتحريمهم ما أحلَّ الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم، وهو عمير بن قيس المعروف بجذلِ الطعان[(١)]:

لقد علمت معدّ بأن قومي ... كرام الناس إن لهم كراما
ألسنا الناسئين على معدٍ ... شهور الحلِّ نجعلها حراما
فأيّ الناس لم ندرك بوتر ... وأيّ الناس [لم نُعلِك][(٢)] لجاما[(٣)]

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ قال: النسيء: أن جُنَادة بن عوف بن أُمية الكناني كان يوافي الموسم في كلِّ عام، وكان يُكنى أبا ثمامة فينادي ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحلُّه للناس فيحرم صفراً عاماً ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يقول: يتركون المحرَّم عاماً وعاماً يحرمونه[(٤)]، وروى العوفي عن ابن عباس نحوه[(٥)].

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول: يا أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب ولا مردَّ لما أقول، إنَّا قد حرَّمنا المحرم وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته، ويقول: إنَّا قد حرَّمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال: يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله لتأخير هذا الشهر الحرام[(٦)].

وروي عن أبي وائل والضحاك وقتادة نحو هذا[(٧)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، قال: هذا رجل من بني كنانة يقال له: (القَلَمَّس)، وكان في الجاهلية، وكانوا في الجاهلية لا يُغير بعضهم على

---

(١) هو عمير بن قيس أحد بني فراس بن ثعلبة بن مالك بن كنانة. (المصدر السابق).
(٢) كذا في (مح) والسيرة النبوية لابن هشام، وفي الأصل: «يعلل»، وفي (حم): «لم يعلك».
(٣) ذكره ابن هشام مع تقديم وتأخير بين الأبيات (السيرة النبوية ١/ ٤٥).
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٦) أخرجه الطبري بسند فيه ليث وهو ابن أبي سليم فيه مقال ولكن يشهد له ما ثبت عن ابن عباس.
(٧) قول أبي وائل أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق منصور بن المعتمر عن أبي وائل، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف ويشهد له ما سبق، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

بعض في الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال: اخرجوا بنا. قالوا له: هذا المحرم. قال: ننسئه العام هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال: لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان(١).

فهذه صفة غريبة في النسيء، وفيها نظر لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾.

وقد روي عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً فقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ الآية، قال: فرض الله ﷻ الحج في ذي الحجة، قال: وكان المشركون يُسمُّون الأشهر: ذا الحجة المحرم، وصفر، وربيع، وربيع، وجمادى، وجمادى، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوالاً، وذا القعدة، وذا الحجة يحجُّون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه، ثم يعودون فيسمون صفراً، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالاً رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة، فيحجون فيه واسمه عندهم: ذا الحجة. ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون في كل عام شهرين حتى إذا وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة، ثم حجَّ النبي ﷺ حجته التي حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض»(٢).

وهذا الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضاً وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة؟ وأنى هذا؟

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية [التوبة: ٣] وإنما نودي به في حجة أبي بكر فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين، فإن النسيء حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلُّون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفراً وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه، وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: في تحريم أربعة أشهر من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسئونه إلى صفر أي: يؤخرونه.

وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار»(٣) الحديث، أي: إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي لا كما تعتمده

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح، ولكن روايته للحديث الشريف مرسل وقد تقدم تخريج الحديث وصحته في تفسير الآية السابقة.

(٣) تقدم تخريجه وصحته في تفسير الآية السابقة.

جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: [حدثنا صالح بن بشير][(١)] بن سلمة الطبراني، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «إنما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً» فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر ويستحلون المحرم هو النسيء[(٢)].

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً مفيداً حسناً فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلَّ منها ما حرم الله وحرَّم منها ما أحلّ الله ﷻ القلمس وهو: حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أُمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أُمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاماً ويجعل مكانه صفر ويحرمه ليواطيء عدة ما حرم الله، فيحلُّ ما حرم الله يعني ويحرم ما أحلَّ الله[(٣)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارَّة القيظ[(٤)] فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضىً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؟ ثم زهَّد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغَّب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة[(٥)]. انفرد بإخراجه مسلم[(٦)].

---

(١) كذا ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٤/٣٩٦، وفي النسخ الخطية وتفسير ابن أبي حاتم باسم: صالح بن بشر، وهو تصحيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه مع الفرق السابق، وسنده ضعيف لضعف موسىٰ بن عبيدة وهو الربذي.

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/٤٤ ـ ٤٥.

(٤) أي شدة الحر (النهاية ١/٤٣٩) وفي إيراده تأكيد للجملة السابقة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/٢٢٨)، وسنده صحيح.

(٦) أخرجه مسلم من طريق يحيىٰ بن سعيد به (الصحيح، الجنة، باب فناء الدنيا ح٢٨٥٨).

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بحمص، حدثنا الربيع بن روح، حدثنا محمد بن خالد الوهبي، حدثنا زياد يعني: الجصاص، عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة» ثم تلا هذه الآية ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل(١).

[وقال الثوري، عن الأعمش في الآية ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾](٢) قال: كزاد الراكب(٣).

وقال عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة. قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّى ظهره، فبكى وهو يقول: أفٍ لَكِ من دار إن كان كثيرِكِ لقليل، وإن كان قليلكِ لقصير، وإن كنّا منكِ لفي غرور(٤).

ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم(٥). ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية وقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ [التوبة: ٤١] وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠] إنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: ١٢٢] روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم(٦)، وردّه ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف زياد، وهو ابن أبي زياد الجصاص، مجمع على ضعفه (ميزان الاعتدال ٢/ ٨٩).

(٢) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(حم) و(مح).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الثوري به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق إبراهيم بن الأشعث المعروف بلام، عن عبد العزيز بن أبي حازم به، ولام هذا روى حديثاً موضوعاً (ينظر الجرح والتعديل ٢/ ٨٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري وأبو داود (السنن، الجهاد، باب في نسخ تفسير العامة بالخاصة ح٢٥٠٦) والحاكم (المستدرك ٢/ ١١٨) كلهم من طريق نجدة بن نفيع الحنفي عن ابن عباس وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وفي سنده نجدة بن نفيع قال ابن حجر: مجهول كما في التقريب وقال الذهبي: لا يعرف، ميزان الاعتدال ٤/ ٢٤٥).

(٦) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند إلا قول ابن عباس أخرجه بسند ضعيف من طريق عطاء الخراساني، وقول عكرمة والحسن البصري أخرجه ابن الجوزي بسند حسن من طريق يزيد النحوي عنه. (نواسخ القرآن ص٣٦٤ ـ ٣٦٥).

رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه. والله ﷻ أعلم بالصواب.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي: عام الهجرة لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يطّلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[(١)]. أخرجاه في الصحيحين[(٢)]، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه أي: على الرسول ﷺ في أشهر القولين، وقيل على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالو: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة[(٣)]. وهذا لا ينافي تجدُّد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ﴾ قال ابن عباس يعني ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الشرك ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هي: لا إله إلا الله[(٤)].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[(٥)].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٤) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، المناقب، باب مناقب المهاجرين (ح٣٦٥٣) وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (ح٢٣٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٥) صحيح البخاري، الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (ح٢٨١٠)، وصحيح مسلم، الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (ح١٩٠٥).

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قال سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضحى مسلم بن صُبيح: هذه الآية ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أول ما نزل من سورة براءة[١].

وقال معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: زعم حضرمي أنه ذُكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً وكبيراً فيقول: إني لا آثم فأنزل الله: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية[٢].

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال علي بن زيد، عن أنس، عن [أبي طلحة][٣]: كهولاً وشباباً ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل[٤]. وفي رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها[٥].

وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ كهولاً وشباناً[٦]، وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد[٧].

وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين[٨]. وكذا قال أبو صالح وغيره[٩].

---

(١) أخرجه الثوري بسنده ومتنه، وسنده حسن لكنه مرسل لأن مسلم بن صبيح تابعي، وأخرجه الطبري من طريق الثوري به.

(٢) أخرجه الطبري عن ابن عبد الأعلى عن معتمر به، وسنده معضل لأن حضرمي تابع تابعي لم يلق أحداً من الصحابة.

(٣) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وفي الأصل: علي بن أبي طلحة. وهو خطأ لكثرة ورود علي بن أبي طلحة.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن عيينة عن علي بن زيد به، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد، والصحيح الرواية التالية.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد وثابت بن أسلم البناني عن أنس به، وسنده صحيح؛ لأن علي بن زيد تابعه ثابت، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ١٦/١٥٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/٣٥٣).

(٦) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وأخرجه ابن أبي شيبة بأسانيد صحيحة عن عكرمة وقتادة وأبي صالح (المصنف ٥/٣٠٦)، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق مقاتل بن حيان ومجاهد.

(٧) هؤلاء تكرر ذكرهم إلا الضحاك فقد أخرج الطبري قوله بسند ضعيف ويتقوىٰ بما سبق.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق إسماعيل عن أبي صالح.

وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل[(١)].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط[(٢)]، وكذا قال قتادة[(٣)].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة والضيعة والشغل والمتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن [يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي:][(٤)] على ما كان منهم[(٥)].

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ـ أيضاً ـ: في العسر واليسر[(٦)]. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة[(٧)]، وهذا تفصيل في المسألة. وقد روي عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله[(٨)].

وقال السدي: قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنياً وفقيراً وقوياً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذٍ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سميناً فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذٍ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتدَّ على الناس فنسخها الله فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(٩)] [التوبة: ٩١].

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا أيوب، عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدراً ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاماً واحداً. قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً[(١٠)].

وقال ابن جرير: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية، حدثنا حُريز بن عثمان، حدثني عبد الرحمن بن ميسرة، حدثني أبو راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق منصور عن الحكم بن عتيبة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) كذا في (عم) و(حم) و(مح) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صُحفت إلى: «وأبىٰ أن يعذبهم».

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق منصور بن زاذان عن الحسن.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الوليد عن أبي عمرو مختصراً.

(٨) أي عند الآية ١٢٢ من هذه السورة.

(٩) سنده ضعيف جداً لأن السدي شيعي ولم يدرك المقداد، ومثل هذا لا يقبل من شيعي، ثم إن المقداد مقدام وبطل لا يعرف الاستئذان في الميدان عرفناه من خلال مقولته المشهورة قُبيل غزوة بدر. بل ثبت عنه في تفسير هذه الآية قوله أمرنا أن ننفر على كل حال كما يلي في الروايتين التاليتين.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر بسند ثابت عن أُبي وأبي أيوب أنهما قالا: أُمرنا أن ننفر على كل حال (تاريخ دمشق ج٥/ ل٢٢٣م).

رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فَضَل عنه من عِظَمِه يريد الغزو فقلت له: قد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[١].

وقال ابن جرير: [حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية، حدثنا حريز][٢]، حدثني حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قبل الأفسوس[٣] إلى الجراجمة[٤] فرأيت شيخاً كبيراً همًّا قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله ﷻ[٥].

ثم رغَّب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفَّاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة» ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد حدثنا: محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: أجدني كارهاً قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»[٦].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة[٧]. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريباً أيضاً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ أي: المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن وبقية صرح بالسماع.
(٢) زيادة من (مح) إذ لا توجد في النسخ الأخرى.
(٣) الأفسوس: بلد بثغور طرسوس في سوريا (ينظر: معجم البلدان ١/ ٣٣٠).
(٤) الجراجمه: قوم من نبط الشام.
(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن كسابقه.
(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٩/ ١١٧ ح١٢٠٦١)، وصحح سنده محققوه.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، لأن الضحاك لم يلق ابن عباس ﵄.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[١]. وكذا قال مورق العجلي وغيره[٢].

وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الآية [النور: ٦٢][٣] وكذا روي عن عطاء الخراساني.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أُناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ أي: في إبداء الأعذار ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ يقول تعالى هلَّا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرِّين على القعود عن الغزو [وإن لم تأذن لهم فيه.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو][٥] أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود عن الغزو ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قُربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: في القعود مما لا عذر له ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي: لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: شكَّت في صحة ما جئتهم به ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي: يتحيَّرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، وليست لهم قدم ثابتة في شيء فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ أي: معك إلى الغزو ﴿لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي: لكانوا تأهبوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق موسىٰ بن سروان عن مورق.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به وأطول، ولكنه مرسل.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، لكنه مرسل.
(٥) ما بين معقوفين بياض في الأصل، واستدرك من (عم) و(حم) و(مح).

له ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ أي: أبغض أن يخرجوا معك قدراً ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ أي: أخرهم ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي: قدراً.

ثم بيّن تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: لأنهم جبناء مخذولون ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شرٍّ بين المؤمنين وفساد كبير.

وقال مجاهد[1] [وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جَريج][2]: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أُبي بن سلول، والجدُّ بن قيس وكانوا أشرافاً في قومهم فثبَّطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾[3].

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا؟ ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾﴾ والآيات [النساء] في هذا كثيرة.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى محرِّضاً لنبيه ﷺ على المنافقين: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ أي: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة؛ رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٢) في النسخ الخطية والنسخ المطبوعة: وزيد بن أسلم وابن جرير، والتصويب من تفسير الطبري إذ أخرجه بالسند المتكرر من طريق الحسين، وهو سنيد، عن حجاج عن ابن جريج وكذلك أخرجه سعيد بن منصور عن ابن جريج (السنن، التفسير ح١٢٠)، وكذلك أخرجه الطبري بالسند الصحيح المتكرر من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وليس عن زيد بن أسلم، وقد أخرجه الثعلبي أيضاً عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (الكشف والبيان ج٣/ل٨٧ب).

(٣) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٢/ ٥٤٩).

المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أُبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعزَّ الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا؛ كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجدِّ بن قيس أخي بني سلمة[1]: «هل لك يا جدّ العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتنِّي، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنَّ. فأعرضَ عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لكَ» ففي الجدِّ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ الآية[2] أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجدِّ بن قيس[3]، وقد كان الجدُّ بن قيس هذا من أشراف بني سلمة.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجدُّ بن قيس على أنا نبخله. فقال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بِشرُ بن البراء بن معرور»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

يُعلِم تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من حسنة، أي: فتح وظفر على

---

(١) هو الجد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن غنم الأنصاري، وقال ابن عبد البر: إنه تاب فحسنت توبته، ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه (الاستيعاب ١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٢) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وسنده مرسل، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٤/ ١٥٩).

(٣) قول ابن عباس لم يصرح باسم الجد بن قيس فيما أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، مختصراً.

(٤) أخرجه البخاري معلقاً (الصحيح، العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق قبل حديث رقم ٢٥٥٠) ووصله الحافظ ابن حجر بسنده الطويل من حديث كعب بن مالك، ثم صحح سنده (تغليق التعليق ٣/ ٣٤٧).

الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئته وقدره ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ شهادة أو ظفر بكم؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم(١).

﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ بسبي أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح ولا هِمَّة في العمل ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾، وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ: «أن الله لا يملّ حتى تملّوا»، «وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»(٢). فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه]. وقال: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله.

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه.

وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة[(١)]. واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ يميناً مؤكدة ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي: في نفس الأمر ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي: فهو الذي حملهم على الحلف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي: حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة[(٢)].

﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودُّوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في همٍّ وحزن وغمٍّ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سُرَّ المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿فِى﴾ قسم ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك وهم المتَّهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم.

قال ابن جريج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال: أتى النبي ﷺ بصدقة قسمها هٰهنا وهٰهنا حتى ذهبت قال: ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري عنهم كما في الأسانيد الثلاثة المتقدمة في الآية السابقة.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن جريج به، وفيه أيضاً إرسال داود بن أبي عاصم فهو تابعي، ويشهد له ما صح في قصة ذي الخويصرة كما سيأتي في الرواية بعد التالية.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذُكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديثَ عهدٍ بأعرابيّةٍ أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت. فقال نبي الله ﷺ: «ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي؟» ثم قال نبي الله: «احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم» وذُكر لنا أن نبي ﷺ كان يقول: «والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن»[(١)].

وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه: حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حُنين فقال له: اعدل فإنك لم تعدل فقال: «لقد خِبتَ وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً[(٢)]: «إنه يخرج من ضئضيء[(٣)] هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»[(٤)] وذكر بقية الحديث.

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾.

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بيَّن تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعمُ ـ وفيه ضعف ـ، عن زياد بن نُعيم، عن زياد بن الحارث الصدائي ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل، والشق الأول يشهد له ما يليه في الصحيحين.

(٢) أي مولياً قفاه. (٣) أي يخرج من نسله وعقِبه (النهاية ٣/ ٦٩).

(٤) صحيح البخاري، المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (ح٣٦١٠)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (ح١٠٦٤).

(٥) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الزكاة، باب من يعطي من الصدقة. . . ح١٦٣٠)، وسنده ضعيف، لضعف عبد الرحمن بن زياد بن أنعُم، وهو الإفريقي.

وقد اختلف العلماء في هذ الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين:

(أحدهما): أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة.

(والثاني): أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطي جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول جماعة عامة من أهل العلم.

وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف هٰهنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولوجوه الحِجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم.

وإنما قدَّم الفقراء هٰهنا على البقية؛ لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير وهو كما قال.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، أنبأنا ابن عون، عن محمد قال: قال عمر ﷺ: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب. قال ابن علية: الأخلق المحارف[١] عندنا[٢].

والجمهور على خلافه وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد[٣].

واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس.

وقال قتادة: الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم[٤].

وقال الثوري، عن منصور، عن إبراهيم هم: فقراء المهاجرين[٥]، قال سفيان الثوري: يعني ولا يعطى الأعراب منها شيئاً، وكذا روي عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمٰن بن أبزى[٦].

---

(١) المحارف الذي لا يملك مالاً ينميه.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده منقطع لابن محمد وهو ابن سيرين، وأما سنده إلىٰ ابن علية وهو إسماعيل فصحيح.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه بلفظ: «المساكين» الطوافون، والفقراء فقراء المسلمين، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «الفقراء الذين لا يسألون الناس، والمساكين: الذين يسألون»، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أشعث عنه بنحو قول مجاهد، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب بنحو سابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الثوري به.

(٦) هذا القول المنسوب إلى الثوري غريب لم أجد مفسراً نقله بهذا اللفظ سوىٰ الطبري وقد أخرجه ابن أبي حاتم وأبو عبيد (الأموال رقم ١٩٣٩)، وابن زنجويه في (الأموال رقم ٢٢٨٤) بدون ذكر قول سفيان، وأما ما نسبه الحافظ ابن كثير إلى سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن فإنهما لم يروياه بهذا اللفظ الغريب وإنما أخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير بلفظ: «يعطىٰ من =

وقال عكرمة: لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين، إنما المساكين أهل الكتاب[١].

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ»[٢] رواه أحمد وأبو داود والترمذي[٣].

ولأحمد ـ أيضاً ـ والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن عَدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة، فقلب فيهما البصر فرآهما جَلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»[٤] رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد قوي.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العبسي قال: قرأ عمر رضي الله عنه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ قال: هم أهل الكتاب[٥] روى عنه عمر بن نافع سمعت أبي يقول ذلك.

(قلت): وهذا قول غريب جداً بتقدير صحة الإسناد، فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه في حكم المجهول.

وأما (**المساكين**) فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»[٦] رواه الشيخان.

وأما (**العاملون عليها**) فهم الجُباة والسُعاة يستحقون منه قسطاً على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: «إن الصدقة لا تحلُّ لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»[٧].

وأما (**المؤلفة قلوبهم**) فأقسام: منهم من يُعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أُمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ بعد

= الزكاة من له الدار والخادم والفرس» (المصنف ٣/١٧٩) وبنحو هذا اللفظ أخرجه الطبري بسنده عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزىٰ. وليه فيه: لا يعطي الأعراب منها شيئاً.

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عمر بن نافع عن عكرمة، وعمر بن نافع هو الثقفي الكوفي ضعيف.

(٢) أي صاحب قوة صحيح الجسم.

(٣) المسند ١١/ ٨٤ (ح٦٥٣٠)، وقال محققوه: إسناده قوي. وسنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب من يعطىٰ الصدقة (ح١٦٣٤)، وسنن الترمذي، أبواب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنىٰ (ح٦٥٢) وحسنه.

(٤) المسند ٢٩/ ٤٨٦ (ح١٧٩٧٢)، وصحح سنده محققوه، وسنن أبي داود، الزكاة، باب من يعطىٰ الصدقة (ح١٦٣٣)، وسنن النسائي، الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم ٥/ ٩٩، وقوى سنده الحافظ ابن كثير.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عمر بن نافع الثقفي الكوفي عن أبي بكر العبسي به، وعمر بن نافع ضعيف، وأبو بكر العبسي ذكره ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح ٩/ ٣٤١).

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٧٧.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة (ح١٠٧٢).

أن كان أبغضَّ الناس إلي، كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي، أنبأنا ابن المبارك، عن يونس، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن صفوان بن أُمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حُنين وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ[١]. ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به[٢].

ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حُنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبَّه الله على وجهه في نار جهنَّم»[٣].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في تربتها في اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعُيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»[٤].

ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه.

ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف:

فروي عن عمر وعامر الشعبي وجماعة: أنهم لا يُعطون بعده لأن الله قد أعزَّ الإسلام وأهله ومكَّن لهم في البلاد، وأذلَّ لهم رقاب العباد[٥].

وقال آخرون: بل يُعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم[٦].

وأما (**الرقاب**) فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون[٧]، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٤٦٥)، وسنده صحيح.
(٢) صحيح مسلم، الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً... (ح٢٣١٣)، وسنن الترمذي، الزكاة، باب ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم (ح٦٦٦).
(٣) أخرجه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (الصحيح، الزكاة، باب قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] ح١٤٧٨).
(٤) صحيح البخاري، الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾ [هود: ٥٠] (ح٣٣٤٤)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (ح١٠٦٤).
(٥) قول عمر أخرجه البخاري (التاريخ الصغير ١/ ٥٦) مختصراً والطبري وابن أبي حاتم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً وقد صحح والحافظ ابن حجر سند رواية البخاري (الإصابة ١/ ٥٥ و٥٩) وقول عامر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٣/ ٢٢٣)، والطبري وابن أبي حاتم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق يونس بن عبيد بن دينار عن الحسن البصري.
(٧) قول الحسن البصري أخرجه الطبري وابن أبي شيبة (المصنف ٣/ ١٧٩)، كلاهما من طريق أشعث بن سوار، وقول مقاتل بن حيان أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة[١]، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق، أي أن الرقاب أعمُّ من أن يُعطي المكاتَب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً.

وقد ورد في ثواب الإعتاق وفكّ الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات] وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود[٢].

وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلَّني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار؟ فقال: «أعتق النسمة وفكَّ الرقبة» فقال: يا رسول الله أو ليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفكُّ الرقبة أن تعين في ثمنها»[٣].

وأما (**الغارمون**) فهم أقسام:

فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قَبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمَّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حمالة فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجا[٤] من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلَّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهنَّ من المسألة سُحت يأكلها صاحبها سحتاً» رواه مسلم[٥].

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال ﷺ: «تصدقوا عليه» فتصدَّق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم[٦].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه أبو عبيد من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس (الأموال ص٧٤٩) وصححه الحافظ ابن حجر (تغليق التعليق ٣/ ٢٤)، وقول الحسن البصري أخرجه ابن أبي شيبة والطبري بالسند المتقدم في الرواية السابقة (المصنف ٣/ ١٧٩).

(٢) المسند ١٢/ ٣٧٩ (ح٧٤١٦) وحسن سنده محققوه، وسنن الترمذي، فضائل الجهاد، باب ما جاء في المجاهد والمكاتب (ح١٦٥٥)، وحسنه، وسنن النسائي، النكاح، باب معونه الله الناكح ٦/ ٦١، وسنن ابن ماجه، العتق، باب المكاتب (ح٢٥١٨)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) المسند ٣٠/ ٦٠٠ (ح١٨٦٤٧) وصحح سنده محققوه.

(٤) أي: ذوو العقل.

(٥) صحيح مسلم، الزكاة، باب من تحل له المسألة (ح١٠٤٤).

(٦) صحيح مسلم، المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين (ح١٥٥٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، أنبأنا صدقة بن موسى، عن أبي عمران الجوني، عن قيس بن يزيد، عن قاضي المِصْرَين[١]، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين؟ وفيم ضيعت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما وضيعة. فيقول الله: صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته»[٢].

وأما (**في سبيل الله**) فمنهم الغُزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحج من سبيل الله للحديث.

وكذلك (**ابن السبيل**) وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه؛ والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: العامل عليها أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني»[٣]. وقد رواه السفيانان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلاً.

ولأبي داود، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك»[٤].

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: من قال له شيئاً صدقه فينا ومن حدثه فينا صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة[٥].

---

(١) أي قاضي البصرة والكوفة، وهو شريح بن الحارث بن قيس الكوفي النخعي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٣٤ ح١٧٠٨)، وضعف سنده محققوه لضعف صدقه وهو: ابن موسىٰ الدقيقي.

(٣) سنن أبي داود، الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني (ح١٦٣٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٤٤٠)، وأخرجه ابن ماجه في سننه، الزكاة، باب من تحلّ له الصدقة (ح١٨٤١).

(٤) السنن، الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني (ح١٦٣٧) وسنده ضعيف لضعف عطية العوفي.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه مختصراً، وقول مجاهد أخرجه =

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: وهو حجّة على الكافرين ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الآية، قال: ذُكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شرٌّ من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله ما يقول محمد لحق ولأنت أشرَّ من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللَّهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فأنزل الله الآية[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادَّ الله ﷻ أي شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حدّ، والله ورسوله في حدّ ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: مهاناً معذباً، ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: وهذا هو الذلُّ العظيم والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال مجاهد: يقولون القول بينهم ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا[(٢)].

وهذا الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال في هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبيّن له أمركم كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٣٠]، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة (الفاضحة) فاضحة المنافقين[(٣)].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قال أبو معشر المديني، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال رجل من المنافقين: ما

= الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(١) أخرجه الطبري بالسند السابق لكنه هنا هو مرسل وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللِّقاء. فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة[١] رسول الله ﷺ[٢].

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت ولكنك منافق لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الآية[٣]. وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا[٤].

وقال ابن إسحاق، وقد كان من جماعة من المنافقين منهم: وديعة بن ثابت أخو بني أُمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مخشي بن حمير[٥]، يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين فقال مخْشي بن حُمَيِّر: والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَقَبِها[٦]: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي [عفي][٧] عنه في هذه الآية مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمٰن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر[٨].

---

(١) النِسْعَة: سير مضفور يجعل زماماً للبعير، وقد تُنسج عريضة تجعل على صدر البعير.

(٢) أخرجه الطبري من طريق أبي معشر به، وسنده ضعيف أبي معشر، ويتقوىٰ بالرواية التالية والمراسيل التي تليها.

(٣) أخرجه الطبري عن يونس عن عبد الله بن وهب به، وصحح سنده الأستاذ أحمد شاكر.

(٤) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن صالح عن الليث به، ويتقوى بسابقه.

(٥) مخشي بن حِمَيِّر: ويقال له مُخشِّن، الأشجعي حليف لبني سلمة من الأنصار، كان من المنافقين ومن أصحاب مسجد الضرار، ثم تاب وحسنت توبته وطلب من النبي أن يغير اسمه: فسماه: عبد الله بن عبد الرحمن، فدعا مخشي ربه أن يقتل شهيداً حيث لا يعلم، فقتل يوم اليمامة ولم يعلم له أثر (أسد الغابة ٤/٣٣٨ والإصابة ٣/٣٧٢).

(٦) الحَقَب: حبل يُشد به الرحل إلى بطن البعير مما يلي ذيله كي لا يجتذبه التصدير (النهاية ١/٤١١).

(٧) في الإصل بياض بقدر الكلمة. واستدرك من (عم) و(حم).

(٨) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ٢/٥٢٤ ـ ٥٢٥) وآخره تقدم في ترجمة مخشي.

وقال قتادة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ قال: فبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن ـ هذا أن ـ يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عليَّ بهؤلاء النفر» فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا»، فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب[١].

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللّهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجبُّ[٢] منها القلوب، اللّهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت. قال: فأُصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره[٣].

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ﴾ أي: لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هِىَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقوله: ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ قال الحسن البصري: بدينهم[٤].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح لكنه مرسل من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٢) أي تضطرب.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح لكنه مرسل من طريق أيوب السختياني عن عكرمة، ويشهد له ما سبق من الآثار.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الحسن.

وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي: في الكذب والباطل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها؛ لأنها فاسدة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

قال ابن جريج، عن عمر بن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبَّهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جُحَر ضبٍّ[1] لدخلتموه»[2].

قال ابن جريج: وأخبرني زياد بن سعد، عن محمد بن زياد بن مهاجر، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتتبعنَّ سَنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جُحَر ضبٍّ لدخلتموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله، أهل الكتاب؟ قال: فَمَه[3]»[4]. وهكذا رواه أبو معشر، عن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: فذكره، وزاد قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم القرآن ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم؟»[5] وهذا الحديث له شاهد في الصحيح[6].

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل؟ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح ﷺ، ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً ﷺ، ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً ﷺ وعقروا الناقة، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله، ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب ﷺ وكيف

---

(١) خصص بجحر الضب لشدة ضيقه وردائته، ومع ذلك فإنهم لاقتفائهم آثارهم، واتباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضيق الرديء لتبعوهم! (ينظر فتح الباري ٤٩٨/٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق حجاج بن محمد به، وفي سنده عمر بن عطاء: ضعيف، ويشهد لآخره الحديث التالي عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) فمه: مه حرف استفهام بمعنىٰ: «من».

(٤) أخرجه البخاري من طريق أبي غسان عن زيد بن أسلم به بلفظ: «فمن» بدل «فمه» وأخرجه مسلم من طريق أبي غسان به مثل لفظ البخاري (صحيح مسلم، العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارىٰ ح٢٦٦٩).

(٥) أخرجه الطبري من طريق أبي معشر به بدون الخلاق: الدين، وهذا اللفظ أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي معشر به، وسنده ضعيف لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن السندي، ويتقوى أغلبه بما سبق.

(٦) صحيح البخاري، الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (ح٧٣١٩).

أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة؟ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم] أي: الأمة المؤتكفة وقيل: أُم قراهم، وهي سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوط عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات، ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾.

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه(١).

وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسهر»(٢).

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي: فيما أمر وترك ما عنه زجر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: سيرحم الله من اتَّصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: عز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾.

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه (صحيح البخاري، الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد ح٤٨١) وصحيح مسلم. البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ح٢٥٨٥).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ٨٤.

في جنة عدن»[١].

وبه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً في السماء! للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه في الصحيحين[٢]، وفيهما ـ أيضاً ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو حبس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[٣]. وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن معاذ بن جبل ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول. . . فذكر مثله[٤]، وللترمذي عن عبادة بن الصامت مثله[٥].

وعن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما ترون الكوكب في السماء» أخرجاه في الصحيحين[٦].

ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له: الوسيلة، لقربه من العرش وهو: مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة». قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو»[٧].

وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة: عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليَّ فإنه من صلَّى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، سورة الرحمن، باب ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن] (ح٤٨٧٨) وصحيح مسلم، الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (ح١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (المصدر السابق ح٤٨٧٩)، وأخرجه مسلم بلفظه تقريباً (الصحيح، الجنة وصفة نعيمها ح٢٨٣٨).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة مع تقديم وتأخير (الصحيح، التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» ح٧٤٢٣).

(٤) المعجم الكبير ١٥٨/٢٠، وسنن الترمذي أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة درجات الجنة (٢٥٣٠) وسنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة الجنة (ح٤٣٣١) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٣٤٩٦).

(٥) سنن الترمذي صفة الجنة، باب ما جاء في درجات الجنة (ح٢٥٣١).

(٦) صحيح البخاري، الرقاق، باب صفة الجنة والنار (ح٦٥٥٥)، وصحيح مسلم، الجنة، باب تراءي أهل الجنة أهل الغرف (ح٢٨٣٠).

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٣/ ٤٠ ح٧٥٩٨) وضعفه محققوه بسبب ما قيل في ليث وهو ابن أبي سليم.

في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون هو، فمن سأل الله ليَّ الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة يوم القيامة»[١].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»[٢].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائي، عن أبي المِدلَّه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[٣] وروي عن ابن عمر مرفوعاً نحوه.

وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام» ثم قال: حديث غريب[٤]. ورواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد وحسن، وعنده أن السائل هو: أبو مالك الأشعري[٥]، فالله أعلم.

وعن أُسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل من مشمِّر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا خطر لها، هي ـ وربِّ الكعبة ـ نور يتلألأ وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون لها، قال: «قولوا: إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله. رواه ابن ماجه[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد

---

(١) صحيح مسلم، الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن (ح٣٨٤).

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الأوسط ١/ ٣٧٠ ح٦٣٧) ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد من طريق سعد بن مجاهد به وأطول (المسند ١٣/ ٤١٠ ح٨٠٤٣)، وصحح سنده محققوه بطرقه وشواهده.

(٤) سنن الترمذي، صفة الجنة، باب ما جاء في صفة غرف الجنة (ح٢٥٢٧).

(٥) المعجم الكبير ٣/ ٣٠١ (ح٣٤٦٦) وحسن سنده الحافظ ابن كثير، وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو، ومن حديث أبي مالك الأشعري وصححهما ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٢١)، وحسنه المنذري (الترغيب ١/ ٤٢٤)، وحسنهما الألباني في صحيح الترغيب (ح٩٣٨ و٩٣٩).

(٦) سنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة الجنة (ح٤٣٣٢) وضعفه البوصيري لجهالة رجل فيه اسمه: الضحاك المعافري (مصباح الزجاجة ٣/ ٣٢٥).

الخدري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه من حديث مالك[١].

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي: حدثنا الفضل [الرخامي][٢] حدثنا الفريابي، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله ﷻ: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا ما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر»[٣]. ورواه البزار في مسنده من حديث الثوري، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه (صفة الجنة): هذا عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف[٤]: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]، وسيف للمنافقين ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وسيف للبغاة ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قال: بيده، فإن لم يستطع فليكفهر[٥] في وجهه[٦].

---

(١) صحيح البخاري، الرقاق، باب صفة الجنة والنار وصحيح مسلم، صفة الجنة، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (ح٢٨٢٩).

(٢) كذا في (عم) و(مح) و(حم) وفي الأصل صحف إلى: «الرحامي».

(٣) أخرجه الحاكم من طريق محمد بن يوسف الفريابي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٨٢)، وصححه الضياء المقدسي كما نقل الحافظ ابن كثير عنه.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير الآية رقم (٥) من هذه السورة الكريمة وتبين أنه ضعيف، وقد اقتصر هناك على ذكر السيف الأول عن علي ﷺ أما بقية السيوف الأربعة فهي تتمة من الحافظ ابن كثير كما صرح بذلك هناك إذ قال: وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب...

(٥) فليكفهر: أي فليلقه بوجه منقبض عابس، لا طلاقة فيه ولا بشر.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عمرو بن أبي جندب عن ابن مسعود.

وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف؛ والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم[١].

وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف؛ واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم[٢].

وعن مقاتل والربيع مثله[٣]، وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم[٤].

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أُبي، وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف باللهِ ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية[٥].

وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة قال: فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: حزنت على من أُصيب بالحَرة من قومي، فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله يقول: «اللّهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» وشكَّ ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار قال ابن الفضل: فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بِأُذُنِه»[٦] قال: وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب: لئن كان صادقاً فنحن شرٌّ من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق ولأنت شرٌّ من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد، يعني قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية، رواه البخاري في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله: - هذا الذي أوفى الله له بِأُذُنِه، ولعلَّ ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عقبة بإسناده، ثم قال: قال ابن شهاب... فذكر ما بعده عن موسى، عن ابن شهاب[٧].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك ويتقوى بسابقه.

(٣) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند.

(٤) قول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل ويشهد لبعضه الرواية التالية في صحيح البخاري.

(٦) صحيح البخاري، التفسير، سورة المنافقون، باب ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] (ح٤٩٠٦).

(٧) قال الحافظ ابن حجر: وهذا مرسل جيد وكأن البخاري حذفه لكونه على غير شرطه، ولا مانع من نزول الآيتين في القصتين في تصديق زيد (فتح الباري ٨/ ٦٥١).

والمشهور في هذه القصة أنه كانت في غزوة بني المصطلق، فلعل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها[(١)]، والله أعلم.

قال الأموي في مغازيه: حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا: إنك امرؤ شاعر فإن شئت أن تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلَّة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي ﷺ الجُلاس بن سويد بن الصامت[(٢)]، وكان على أم عُمير بن سعد، وكان عُمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شرٌّ من الحمير؟ فسمعها عمير بن سعد[(٣)] فقال: والله يا جُلاس إنك لأحبُّ الناس إليَّ وأحسنهم بلاء عندي وأعزَّهم عليَّ أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلتَ مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك، ولئن كتمتها لتهلكني، ولإحداهما أهون عليَّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجُلاس، فلما بلغ ذلك الجُلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عُمير بن سعد، ولقد كذب عليَّ، فأنزل الله ﷻ فيه: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ . . .﴾ إلى آخر الآية، فوقفه رسول الله ﷺ عليها فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع[(٤)].

هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به وكأنه - والله أعلم - من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك[(٥)].

وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية في الجُلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشرُّ من حمرنا هذه التي نحن عليها، فقال مصعب: أما والله يا عدو الله لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلت، فأتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل فيّ القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك، قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جُلاس أقلت الذي قاله مصعب؟» فحلف فأنزل الله ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية[(٦)].

وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجُلاس بن سويد بن الصامت، فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له: عُمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني[(٧)].

---

(١) لقد أجاب الحافظ ابن حجر عن هذا الإشكال كما في الحاشية السابقة.

(٢) وكان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك (السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥١٩).

(٣) هو عمير بن سعد الأوسي صحابي جليل (الإصابة ٣/ ٣٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن إذ صرح ابن إسحاق بالتحديث عن الزهري به.

(٥) بل هو من كلام كعب بن مالك كما في السند السابق وأخرجه بنحوه بسند حسن آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق هشام بن عروة عن أبيه لكنه مرسل وتشهد له الروايات السابقة.

(٧) تقدم تخريجه في الرواية قبل السابقة من رواية ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني أيوب بن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم ـ بعيني الشيطان ـ فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق[١]، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ الآية[٢].

وقوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ قيل: أنزلت في الجُلاس بن سويد وذلك أنه همَّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ[٣]، وقيل: في عبد الله بن أُبي، همَّ بقتل رسول الله ﷺ[٤].

وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أُبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ[٥] وقد ورد أن نفراً من المنافقين همُّوا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية. وذلك بيِّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (دلائل النبوة) من حديث محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختري، عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة، أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم، فولُّوا مدبرين. فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها» قلنا: يا رسول الله أفلا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ـ ثم قال: ـ اللّهم ارمهم بالدبيلة» قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك»[٦].

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا يزيد، أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جُميع، عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ، فأقبل عمار ﷺ يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار

---

(١) أي أزرق العيون.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده أحمد شاكر.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد لكنه مرسل.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي لكنه مرسل.

(٦) أخرجه البيهقي من طريق محمد بن سلمة عن ابن إسحاق به (دلائل النبوة ٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) وسنده ضعيف لعنعنة ابن إسحاق، وأبو البختري وهو فيروز لم يسمع من حذيفة ﷺ.

فقال: يا عمار، «هل عرفت القوم؟» قال: لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر، قال فعدَّ رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار أشهد: أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[1].

وهكذا روى ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ، فأمر حذيفة فرجع إليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم وما كانوا همُّوا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم[2]، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق، إلا أنه سمَّى جماعة منهم، فالله أعلم[3].

وكذا قد حكي في معجم الطبراني قاله البيهقي، ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة [وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟][4] قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك؟ فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم؟ وقد كان في حرَّة يمشي فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذٍ[5]، وما رواه مسلم أيضاً من حديث قتادة عن أبي نضرة، عن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط: ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة: سراج من نار تظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم»[6] ولهذا كان حذيفة يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

[وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة، ثم روي عن علي بن عبد العزيز،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٢١٠ ـ ٢١١ ح٢٣٧٩٢)، وقال محققوه: إسناده قوي على شرط مسلم، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥).

(٢) أخرجه البيهقي من طريق عمرو بن خالد عن ابن لهيعة به نحوه.

(٣) أخرجه البيهقي من طريق أحمد بن عبد الجبار عن يونس بن بكير به.

(٤) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(حم) و(مح) وصحيح مسلم.

(٥) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (الصحيح، صفات المنافقين وأحكامهم ح١١/ ٢٧٧٥).

(٦) المصدر السابق (ح١٠/ ٢٧٧٥).

عن الزبير بن بكار أنه قال: هم [معتب بن قشير][(١)]، ووديعة بن ثابت، وجد بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف، والحارث بن يزيد الطائي، وأوس بن قيظي، والحارث بن سويد، وسعد بن وراه، وقيس بن فهد، وسويد بن داعس من بني الحبلى، وقيس بن عمرو بن سهل، [وزيد بن اللصيت][(٢)]، وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهرا الإسلام][(٣)][(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته، ولو تمّت عليه السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ[(٥)]. وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج]. وقوله ﷺ: «ما ينقم ابن جميل[(٦)] إلا أن كان فقيراً فأغناه الله»[(٧)] ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي: بالقتل والهم والغم، والآخرة أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾.

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله

---

(١) كذا في (عم) وفي الأصل صُحف إلى: «معتب بن فيرو».
(٢) كذا في (عم) وفي الأصل صُحف إلى: «زيد بن الصليت».
(٣) ما بين معقوفين فيه ذكر أسماء المنافقين ورد ذكرهم في الأصل و(عم)، وفي (حم) و(مح) لم ترد هذه الأسماء.
(٤) المعجم الكبير ٣/ ١٦٥ ـ ١٦٦، وسنده معضل لإرسال الزبير بن بكار وهو من صغار اتباع التابعين.
(٥) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه (صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة الطائف ح٤٣٣٠) وصحيح مسلم، الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ح١٠٦١).
(٦) ابن جميل: قال الحافظ ابن حجر: لم أقف على اسمه في كتب الحديث، لكن وقع في تعليق القاضي الحسين المروزي الشافعي وتبعه الروياني أن اسمه عبد الله.. وقول الأكثر أنه كان أنصارياً (فتح الباري ٣/ ٣٣٣).
(٧) هذا طرف من حديث رواه أبو هريرة قال: أمر رسول الله ﷺ بالصدقة، فقيل منعَ ابن جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب فقال النبي ﷺ ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ورسوله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً قد احتبس أدراعه واعتده في سبيل الله... (صحيح البخاري، الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠] ح١٤٦٨).

وليكونن من الصالحين، فما وفَّى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ﷻ يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك.

وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري[1]. وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا، وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، عن أبي أُمامة الباهلي، عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ـ فوالذي نفسي بيده ـ لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسارت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطينَّ كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم ارزق ثعلبة مالاً» قال: فاتخذ غنماً فنَمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمّت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة».

وأنزل الله جل ثناؤه ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرا بثعلبة وبفلان ـ رجل من بني سليم ـ فخذا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليَّ فانطلقا، وسمع بهما السُّلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بهما، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي لله، فأخذاها منه ومرَّا على الناس، فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي! فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: «ويح ثعلبة» قبل أن يكلمهما ودعا للسُّلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السُّلمي، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الآية، قال: وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل

---

(١) رواية ابن عباس أخرجها الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به عن ابن عباس، ورواية الحسن البصري أخرجها الطبري بسند ضعيف بسبب ضعف شيخ الطبري ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي، وعنعنة ابن إسحاق، وإرسال الحسن.

منه صدقته، فقال: «ويحك إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو[١] على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها.

فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك؟ فقبض ولم يقبلها، فلما ولي عثمان رضي الله عنه أتاه فقال: اقبل صدقتي فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة في خلافة عثمان[٢].

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية، أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم؛ كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[٣] وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة، وكلَّ سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾.

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن أبي وائل، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ

---

(١) أي يرمي.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والطبراني (المعجم الكبير ٨/ ٢٦٠ ح٧٨٧٣) كلهم من طريق معان بن رفاعة به وسنده ضعيف جداً كذا قال الحافظ ابن حجر (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ٢/ ٢٩٢)، والعلة في سنده من جهة معان بن رفاعة: قال البخاري: منكر الحديث. وقال الدارقطني: متروك (ميزان الاعتدال ٤/ ١٣٤). وقد أفرد فضيلة د. عذاب محمود الحمش هذا الحديث برسالة مفردة فصل فيها الافتراء على هذا الصحابي الجليل بعنوان «ثعلبة بن حاطب رضي الله عنه المفترىٰ عليه».

(٣) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة (صحيح البخاري، الإيمان، باب علامة المنافق ح٣٢)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب بيان خصال المنافق (ح٥٩).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية[١]. وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه من حديث شعبة به[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا الجريري، عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة» قال: فحللت من عمامتي لوثاً أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا أدم، ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال: يا رسول الله أصدقة؟ قال: «نعم» قال: دونك هذه الناقة، قال فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال: «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثاً قالوا إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال: «فد أفلح المزهد المجهد» ثلاثاً[٣]. المزهد في العيش، المجهد في العبادة.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع[٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله هذا صاع من تمر بتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات، فسخر منه رجال وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم يبق أحد غيرك» فقال له عبد الرحمن بن عوف: فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ: أمجنون أنت؟ قال: ليس بي جنون، قال: أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربي وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت». ولمزه المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعاً، فأنزل الله ﷻ عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه تقريباً (الصحيح، الزكاة، باب «اتقوا النار ولو بشق تمرة...» ح١٤١٥).

(٢) صحيح مسلم، الزكاة، باب الحمل بأجرة يتصدق بها... (ح١٠١٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٣/ ٤٧٠ ـ ٤٧١ ح٢٠٣٦٠) وضعفه محققوه لجهالة الراوي عنه أبو السليل.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي طلحة له ويشهد له ما قبل سابقه في الصحيحين.

الآية[١]، وهكذا روي عن مجاهد وغير واحد[٢].

وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغّب في الصدقة وحضّ عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل أخو بني أنيف الأراشي حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً» قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله: عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت»، وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي، قال فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ الآية[٤]، ثم رواه عن أبي كامل، عن أبي عوانة، عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه مرسلاً، قال ولم يسنده أحد إلا طالوت.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن موسى بن عبيدة، حدثني خالد بن يسار، عن ابن أبي عقيل، عن أبيه، قال: بتُّ أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته، فقال: «انثره في الصدقة» قال: فسخر القوم، وقالوا: لقد كان الله غنياً عن صدقة هذا المسكين، فأنزل الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآيتين[٥]، وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن حباب به[٦]، وقال: اسم أبي عقيل: حباب ويقال: عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي ويشهد لبعضه ما سبق.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد مختصراً وهو مرسل وتشهد له رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري من طريق محمد بن سلمة عن ابن إسحاق وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١٩٦/٤).

(٤) مسند البزار كما في كشف الأستار (ح٢٢١٦)، وفي سنده عمر بن أبي سلمة وهو صدوق يخطئ (التقريب ص٤١٣) ولبعضه شواهد تقدمت يتقوىٰ بها.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن وكيع وهو سفيان، وضعف موسى بن عبيدة وهو الربذي.

(٦) المعجم الكبير ٤٥/٤، وسنده ضعيف كسابقه.

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعدَّ للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لما نزلت هذه الآية أسمع ربِّي قد رخَّص لي فيهم فوالله لأستغفرنَّ لهم أكثر من سبعين مرة لعلّ الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية[١] [المنافقون: ٦].

وقال الشعبي: لما ثَقُلَ عبد الله بن أُبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر فأحبُّ أن تشهده وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ: «ما اسمك؟» قال: الحباب بن عبد الله قال: «بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان»، فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلَّى عليه فقيل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ولأستغفرنَّ لهم سبعين وسبعين وسبعين»[٢]. وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير وقتادة بن دعامة رواها ابن جرير بأسانيده[٣].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى ذامًّاً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه: ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الشعبي مرسلاً، وقد أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن عمر بن الخطاب، والشعبي لم يسمع من عمر، ويتقوىٰ بالمتابعة فقد أخرجه البخاري (الصحيح، التفسير، باب ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] ح٤٦٧١) وابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه، لكن بدون ذكر السؤال عن الاسم والجواب بأن الحباب اسم شيطان، كما يشهد له ما في الصحيح فقد أخرجه البخاري من طريق نافع عن ابن عمر نحوه دون ذكر السؤال عن الاسم (الصحيح، التفسير، باب ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] ح٤٦٧٠).

(٣) قول عروة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح لكنه مرسل، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح لكنه مرسل، وكذا قول قتادة، وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً وتشهد له رواية البخاري السابقة.

لبعض ﴿لَا تَنفِرُوا فِي ٱلْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدَّة الحرِّ عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشدّ حرّاً من النار؛ كما قال الإمام مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: «فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»[(١)] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت في البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»[(٣)] وهذا أيضاً إسناده صحيح.

وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذي وابن ماجه عن عباس الدوري وعن يحيى بن أبي بكير، عن شريك، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة، حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم» ثم قال الترمذي: لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى، كذا قال[(٤)]، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن إبراهيم بن محمد، عن محمد بن الحسين بن مكرم، عن عبيد الله بن سعد، عن عمه، عن شريك وهو ابن عبد الله النخعي به[(٥)].

وروى ـ أيضاً ـ ابن مردويه، من رواية مبارك بن فضالة، عن ثابت، عن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضَّت، وألف عام حتى احمرَّت، وألف عام حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل لا يضيء لهبها[(٦)].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمَّام بن نجيح، وقد اختلف فيه، عن الحسن، عن أنس رفعه: «لو أن شرارة بالمشرق ـ أي من نار جهنم ـ لوجد حرُّها مَنْ بالمغرب»[(٧)].

وروى الحافظ أبو يعلى، عن إسحاق بن أبي إسرائيل، عن أبي عبيدة الحداد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن شبيب، عن جعفر بن أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن أبي هريرة

---

(١) أخرجه الإمام مالك بسنده ومتنه تقريباً (الموطأ، كتاب جهنم، باب ما جاء في صفة جهنم ٢/ ٩٩٤ ح١) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (ح٣٢٦٥) وصحيح مسلم، الجنة، شدة حرّ نار جهنم (ح٢٨٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٢/ ٢٨٠ ح٧٣٢٧) وصحح سنده محققوه، وصححه أيضاً الحافظ ابن كثير.

(٤) سنن الترمذي، أبواب صفة جهنم (ح٢٥٩١) وسنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة النار (ح٤٣٢٠) وفي سنده شريك بن عبد الله النخعي: صدوق يخطئ كثيراً تغير حفظه (التقريب ص٢٦٦).

(٥) سنده كسابقه.

(٦) في سنده مبارك بن فضالة صدوق يدلس ويسوي (التقريب ص٥١٩) ولم يصرح بالسماع.

(٧) سنده ضعيف لضعف تمام بن نجيح وهو الأسدي (التقريب ص١٣٠).

قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه»[١] غريب.

وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرجل، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً» أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش[٢].

وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي كثير، حدثنا زهير بن محمد، عن سهيل بن أبي صالح، عن النعمان بن أبي عياش، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن ابن عجلان، سمعت أبي، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه»[٤] وهذا إسناد جيد قوي رجاله على شرط مسلم والله أعلم، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج] وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحرِّ، ليتقوا به من حرِّ جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر[٥]:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر:

عمرك بالحمية أفنيته ... مخافة من البارد والحار
وكان أولى لك أن تتقي ... مِن المعاصي حذر النار

---

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ١٢/ ٢٢ ح٦٦٧٠)، وأخرجه أبو نعيم من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل وقال: غريب (الحلية ٤/ ٣٠٧)، وكذا استغربه الحافظ ابن كثير، وقال المنذري: في متنه نكارة (الترغيب ٤/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري من طريق إسرائيل، عن أبي إسحاق به (الصحيح، الرقاق، باب صفة الجنة والنار ح٦٥٦٢)، وأخرجه مسلم من طريق الأعمش به (الصحيح، الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً ح٣٦٤/ ٢١٣).

(٣) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (الصحيح، الإيمان، باب أهون أهل النار عذاباً ح٢١١).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٥/ ٤١٢ ح٩٦٦٠)، وقال محققوه: إسناده قوىٌ. وزاد ابن كثير: جيد قوي رجاله على شرط مسلم. وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير يزيد بن خالد بن موهب وهو ثقة (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٥).

(٥) كذا في النسخ الخطية والمطبوعة، ولعل الصواب: كما قال الشاعر أو الراجز.

ثم قال تعالى جلَّ جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ الآية، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً[١]. وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم[٢].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش، حدثنا محمد بن جبير، عن ابن المبارك، عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت»[٣] ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي به[٤].

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباس، حدثنا حماد الجزري، عن زيد بن رفيع رفعه، قال: إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً، قال: فتقول لهم الخزنة: يا معشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به؟ قال: فيرفعون أصواتهم: يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشاً، وكنا طول الموقف عطاشاً ونحن اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم، ثم يجيبهم ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فييأسون من كل خير»[٥].

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: ردَّك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذُكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً[٦] ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيراً لهم وعقوبة، ثم

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) قول أبي رزين أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/٤١٨)، وسعيد بن منصور (السنن، التفسير رقم ١٠٢٨)، والطبري وابن أبي حاتم كلهم بأسانيد صحيحة من عدة طرق عن أبي رزين، وقول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الربيع بن خيثم أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/٣٩٦)، والطبري بسند صحيح عن الأعمش عن أبي رزين عن الربيع بن خيثم، وقول عون العقيلي ذكره ابن أبي حاتم بحذف السند مع التابعين المذكورين، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وليس فيه عن زيد بن أسلم.

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ بسنده ومتنه (المسند ٧/ ١٦١ ح٤١٣٤)، وسنده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي.

(٤) سنن ابن ماجه، الزهد، باب صفة النار (ح٤٣٢٤) وسنده ضعيف كسابقه.

(٥) سنده مرسل لأن زيد بن رفيع تابعي.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وزيادة: من المنافقين، ورجاله ثقات لكنه مرسل.

علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما قال في عمرة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة[١].

وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ﴾ أي: مع النساء[٢].

قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كلِّ من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أُبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال: فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷻ آية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٣].

وكذا رواه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي أُسامة حماد بن أُسامة به[٤]، ثم رواه البخاري، عن إبراهيم بن المنذر، عن أنس بن عياض، عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به، وقال فصلى عليه وصلينا معه وأنزل الله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية[٥]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبيد الله به[٦].

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه ـ أيضاً ـ بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وردّه الطبري ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] ح٤٦٧٠).
(٤) صحيح مسلم، صفات المنافقين (ح٢٧٧٤).
(٥) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤] (ح٤٦٧٢).
(٦) المسند ٢/١٨.

عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول: لما توفي عبد الله بن أُبي [دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أُبي][1] القائل يوم كذا وكذا وكذا يعدد أيامه؟! قال: ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرتُ عليه فقال: «أخِّر عني يا عمر، إني خُيرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت» قال: ثم صلَّى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله ﷻ[2]. وهكذا رواه الترمذي في التفسير من حديث محمد بن إسحاق عن الزهري به، وقال: حسن صحيح[3].

ورواه البخاري، عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري به فذكر مثله، قال: «أخِّر عني يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيرت فاخترت ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» قال: فصلَّى عليه رسول الله ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ الآية، فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا عبد الملك، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أُبي أتى ابنه النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزل نُعيَّر بهذا، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أُدخل في حفرته فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه»؟ فأخرج من حفرته، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه[5]، ورواه النسائي، عن أبي داود الحراني، عن يعلى بن عبيد، عن عبد الملك وهو ابن أبي سليمان به[6].

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أُبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه[7]. والله أعلم.

وقد رواه أيضاً في غير موضع مع مسلم والنسائي من غير وجه، عن سفيان بن عيينة[8] به.

---

(١) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(حم) ومسند أحمد.
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٥٤ ح٩٥)، وحسن سنده محققوه.
(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة التوبة (ح٣٠٩٧).
(٤) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] ح٤٦٧١).
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند / ٢٣٧ ح١٤٩٨٦) وصحح سنده محققوه.
(٦) السنن الكبرى، التفسير (ح٩٦٦٥).
(٧) صحيح البخاري، اللباس، باب لبس القميص (ح٥٧٩٥).
(٨) صحيح البخاري، الجنائز، باب الكفن في القميص (ح١٢٧٠)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين (ح٢٧٧٣)، وسنن النسائي، الجنائز، باب القميص في الكفن ٤/ ٣٧.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى، حدثنا مجالد، حدثنا عامر، حدثنا جابر «ح» وحدثنا يوسف بن موسى، حدثنا عبد الرحمٰن بن مغراء الدوسي، حدثنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر قال: لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة: فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: «إن أبي أوصى أن يكفن بقميصك ـ وهذا الكلام في حديث عبد الرحمٰن بن مغراء ـ قال يحيى في حديثه: فصلَّى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ وزاد عبد الرحمٰن: وخلع النبي ﷺ قميصه، فأعطاه إياه ومشى، فصلي عليه وقام على قبره، فأتاه جبريل عليه السلام لما ولَّى قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[(١)] وإسناده لا بأس به وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أحمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس، أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أُبي، فأخذ جبريل بثوبه وقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[(٢)]. ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف[(٣)].

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أُبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حبُّ يهود» قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنِّبني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلَّى عليه وقام على قبره، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ الآية[(٤)].

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه، لأن عبد الله بن أُبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبي لأنه كان ضخماً طويلاً، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له، فالله أعلم. ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن أبيه، حدثني عبد الله بن أبي قتادة، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دُعي إلى جنازة سأل عنها، فإن أثني عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن كان غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها» ولم يصلِّ عليها[(٥)].

وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة.

وقال أبو عبيد في كتاب «الغريب» في حديث عمر: إنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه

---

(١) في سنده مجالد، وهو ابن سعيد، ليس بالقوي كما في التقريب وله شاهد سابق، ولهذا قال ابن كثير: إسناده لا بأس به.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي.

(٣) مسند أبي يعلى ٧/ ١٤٥ (ح٤١٢٢) وسنده كسابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل، ولشقه الأخير شواهد صحيحة تقدمت.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٧/ ٢٤٩ ح٢٢٥٥٥)، وصحح سنده محققوه. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣/ ٣).

حذيفة كأنه أراد أن يصدَّه عن الصلاة عليها. ثم حكى عن بعضهم: أن المرز ـ بلغة أهل اليمامة ـ هو القرص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله ﷻ عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»[1].

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فروى أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام، عن عبد الله بن بحير، عن هانئ، وهو أبو سعيد البربري مولى عثمان بن عفان، عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»[2] انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله تعالى.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قد تم تفسير نظير هذه الآية الكريمة[3]، ولله الحمد.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

يقول تعالى منكراً وذامّاً للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول[4]، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهنَّ الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] أي: علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر:

أفي السلم أعيار[5] أجفاء وغلظة ... وفي الحرب أشباه النساء العوارك[6]؟[7]

---

(١) صحيح البخاري، الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن (ح١٣٢٥)، وصحيح مسلم، الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها (ح٩٤٥).
(٢) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت ح٣٢٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٧٥٨).
(٣) في تفسير الآية رقم (٥٥) من هذه السورة الكريمة.
(٤) أي الغنىٰ.
(٥) أعيار: جمع عَير، وهو الحمار.
(٦) العوارك: أي الحوائض. قال السهيلي: عركت المرأة وطمثت إذا حاضت (الروض الأنف ٢/ ٨٣).
(٧) ذكره ابن هشام ونسبه إلى هند بنت عتبة (السيرة ١/ ٦٥٦).

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ الآية [محمد].

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟...﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أي: في الدار الآخرة في جنات الفردوس، والدرجات العلى.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة.

قال الضحاك، عن ابن عباس، إنه كان يقرأ: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعْذِرُونَ﴾ بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر[(١)]. وكذا روى ابن عيينة، عن حميد، عن مجاهد سواء[(٢)].

قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار خفاف بن إيماء بن رحضة[(٣)]، وهذا: القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا.

وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار جاؤوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله[(٤)]، وكذا قال الحسن وقتادة[(٥)] ومحمد بن إسحاق والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: وقعد آخرون من

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق الضحاك به، لأن الضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما، والقراءة بالتخفيف متواترة، والمعنىٰ صحيح.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (السنن، التفسير رقم ١٠٣٠)، والطبري كلاهما من طريق سفيان بن عيينة به وسنده حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٥٥٢).

(٤) أخرجه الطبري من طريق يحيىٰ بن زكريا عن ابن جريج به، وسنده ضعيف لأن ابن جريج لم يسمع من مجاهد ويشهد له ما يلي.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن لكنه مرسل من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بأنها نزلت في عائذ بن عمرو وهو من قبيلة مُزينة وليس من بني غفار.

الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجِلاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنه ما هو عارض بسبب مرض عنّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولا يثبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال سفيان الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة ﷺ قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حقَّ الله على حقِّ الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا[(١)].

وقال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللَّهم نعم، فقال: اللَّهم إنَّا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اللَّهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه، ورفعوا أيديهم فسُقوا[(٢)].

وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، حدثنا ابن جابر، عن ابن فروة، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أُذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الآية[(٤)].

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الثوري به، وأبو ثمامة تابعي روىٰ عن الحسين بن علي بن أبي طالب (الجرح والتعديل ٩/ ٣٥١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الوليد بن مسلم عن الأوزاعي، وسنده حسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح (لكنه مرسل) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.

غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم: عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا. فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم يبكون وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة أو محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾: نزلت في بني مقرن من مزينة[(٢)].

وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر: من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير، ومن بني واقف: حرمي بن عمرو، ومن بني مازن بن النجار: عبد الرحمٰن بن كعب ويكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني سلمة: عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزني[(٣)].

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير، وعلية بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمٰن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبد الله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وحرمي بن عبد الله أخو بني واقف، وعياض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع، عن الربيع، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً ولا نلتم من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم في الأجر» ثم قرأ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية[(٥)]، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث [أنس][(٦)] أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر»[(٧)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، وله شواهد يتقوىٰ بها كما سيأتي ومنها ما أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد عن أبي العالية نحوه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد لكنه مرسل.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر وهو نجيح عن محمد بن كعب.

(٤) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق مقطعاً ومختصراً وذكره ابن هشام في السيرة (٢/ ٥١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده مرسل، ولشطره الأول شاهد في الصحيحين كما يلي.

(٦) في الأصل بياض واستدرك من (عم) و(حم) و(مح) والصحيحين.

(٧) صحيح البخاري، الجهاد، باب من حبسه العذر عن الغزو (ح٢٨٣٩)، وأخرجه مسلم من حديث جابر كما سيأتي في الرواية التالية.

رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض»(١). ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش به(٢).

ثم ردَّ تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ (٩٦)﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها.

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم، فلا تؤنِّبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي: خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في آخرتهم جهنم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها).

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾.

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشدُّ وأجدر، أي أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أُصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجني، وإن يدك لتريبُني. فقال زيد: ما يُريبك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٣٠٠) وسنده صحيح.

(٢) صحيح مسلم، الجهاد، باب ثواب من حبسه العذر عن الجهاد (ح١٩١١)، وسنن ابن ماجه، الجهاد باب ثواب من حبسه العذر عن الجهاد (ح٢٧٦٥).

﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ﴾[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبي موسى، عن وهب بن منبه، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «من سكن البادية جفا[٢] ومن اتبع الصيد غفل[٣]، ومن أتى السلطان افتتن»[٤]، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري[٥].

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قُرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي»[٦]، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء.

(حديث [الأعرابي في تقبيل الولد): قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبو أُسامة وابن نمير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنا والله ما نقبّل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة»][٧][٨].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسارة ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ﴾ أي: هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

---

(١) أخرجه ابن سعد (الطبقات الكبرى ٦/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم كلاهما بسند صحيح من طريق يعلى بن عبيد عن الأعمش به.

(٢) قال السندي: أي غَلُظ طبعه لقلة مخالطة العلماء.

(٣) قال السندي: أي يستولي عليه حبّه حتىٰ يصير غافلاً عن غيره.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٣٦١ ح٣٣٦٢)، وقال محققوه: حسن لغيره. أي بالشواهد. وصححه غيرهم كما يلي.

(٥) سنن أبي داود، الصيد، باب في اتباع الصيد (ح٢٨٥٩)، وسنن النسائي، الصيد والذبائح، باب اتباع الصيد ٧/ ١٩٥، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٤٨٦).

(٦) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة (السنن، المناقب، باب في ثقيف وبني حنيفة ح٣٩٤٥) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٣٠٩١).

(٧) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (عم) و(حم) و(مح).

(٨) أخرجه مسلم بسنده ومتنه (الصحيح، الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ح٢٣١٧).

وقولـه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم.

قال الشعبي: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية[1].

وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ[2].

وقال محمد بن كعب القرظي: مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أُبي بن كعب، فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنَّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أُبي: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الجمعة] وفي سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية [الحشر: ١٠]، وفي الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ورواه ابن جرير[3]، قال: وذُكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع (الأنصارُ)[4] عطفاً على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني: الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبثر عن مطرف عن عامر الشعبي، وذكره السيوطي بنحوه ونسبه إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم، وذكره ابن أبي حاتم بحذف السند بلفظ: «إنهم الذين صلوا إلى القبلتين».

(٢) قول أبي موسىٰ الأشعري أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق مولىٰ لأبي موسى عن أبي موسى، ومولى أبي موسى لم أجد له ترجمة، وله شواهد عن التابعين فقد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن سعيد بن المسيب، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن عون عن ابن سيرين.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب به، وأبو معشر هو نجيح السندي، وهو ضعيف.

(٤) ذكره الطبري بدون سند، وهي قراءة متواترة.

بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبُّونهم. عياذاً بالله من ذلك.

وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السُّنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ويسبُّون من سبَّه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله وهم متَّبِعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب من حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة ـ أيضاً ـ منافقون ﴿مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي: مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد، ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي عتا وتجبَّر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠] لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساء، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن النعمان بن سالم، عن رجل، عن جُبير بن مُطعم رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال: «لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب» وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال: «إن في أصحابي منافقين»[(١)].

ومعناه: أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم، وتقدم في تفسير قوله: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ﴾ [التوبة: ٧٤] أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلِّهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ ببيروت يكنى أبا عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له: حرملة أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حُبِّي وحُبَّ من يحبني، وصيِّر أمره إلى خير» فقال: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلا آتيك بهم؟ قال: «من أتانا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٧/٣٢٧ ـ ٣٢٨ ح١٦٧٦٤) وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن جُبير بن مُطعم رضي الله عنه.

استغفرنا له، ومن أصرَّ فالله أولى به، ولا تخرقنَّ على أحد ستراً». قال: وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار به[١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢] وقال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود] وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٢].

وقال السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان إنك منافق» فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم، قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر[٣]، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا[٤].

وقال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: يعني: القتل والسبي[٥]، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر[٦]، ثم يردون إلى عذاب عظيم.

وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار[٧].

وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر[٨].

وقال عبد الرحمٰن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار[٩].

---

(١) في سنديهما إبهام شيخ ابن جابر، وابن جابر، وسنده ضعيف ومتنه فيه غرابة.
(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح إلى قتادة.
(٣) أخرجه الطبري عن الحسين بن عمرو العنقزي عن أبيه عن أسباط عن السدي به، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في المعجم الأوسط وضعفه بسبب ضعف الحسين بن عمرو العنقزي (مجمع الزوائد ٧/ ٣٣)، وفي متنه غرابة ومنها أن عمر أختبأ منهم حياء لأنه لم يشهد الجمعة، فمثل هذا لا يقبل من رجل متشيع كالسدي.
(٤) لم يذكر فيه الصحابي ابن عباس رضي الله عنه.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق حجاج عن ابن جريج ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه.
(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن معمر عن الحسن.
(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه[١].

وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: عذاب الدنيا وعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وذُكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، فقال: «ستة منهم تكفيهم الدبيلة: سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً»، وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه، وذُكر لنا أن عمر قال لحذيفة: أنشدك الله أمنهم أنا؟ قال: لا [ولا أومِن][٢] منها أحداً بعدك[٣].

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾.

لما بيّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكّاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أي: أقرُّوا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أُخر صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس مُعيَّنين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطّائين المخلطين المتلوثين.

وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه[٤].

وقال ابن عباس: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم[٥].

وقال البخاري: حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق بلاغاً وسنده ضعيف ويشهد له ما سبق.

(٢) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل: «آمن».

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح في الشطر الأول، أما الشطر الثاني من قوله: وذُكر لنا... فإنه مرسل.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد لكنه مرسل ويتقوى بما يلي.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، ويشهد له ما أخرجه ابن منده بسند قوي عن جابر بأن الآية نزلت في أبي لبابة وخمسة معه وقد سمّاهم (ينظر: الإصابة ١/ ٩٥).

رجاء، حدثنا سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم»[(١)]، هكذا رواه البخاري مختصراً في تفسير هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون[(٢)]، وإنما كان هذا خاصاً برسول الله ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وقد ردَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد، أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عِقالاً[(٣)] - وفي رواية: عَناقاً -[(٤)] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه[(٥)].

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهم صلِّ على آل أبي أوفى»[(٦)].

وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله صلِّ عليَّ وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»[(٧)].

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ قرأ بعضهم ﴿صَلَاتَكَ﴾ على الجمع، وآخرون قرأوا ﴿إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ . . .﴾ [التوبة: ١٠٢] ح٤٦٧٤).
(٢) هنا ورد بياض بقدر كلمة.
(٣) العِقال: ما يشد به ظلف البعير بذراعه حال بروكه.
(٤) العَناق: الأنثىٰ من ولد المعز.
(٥) أخرجه الشيخان (صحيح البخاري، الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ح٧٢٨٤، ٧٢٨٥، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله ح٢٠).
(٦) أخرجه الشيخان (صحيح البخاري، الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (ح١٤٩٧)، وصحيح مسلم، الزكاة، باب الدعاء لمن أتىٰ بصدقة ح١٠٧٨).
(٧) أخرجه الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله (المسند ٣/ ٣٠٣)، وأبو داود (السنن، الصلاة، باب الصلاة على غير النبي ﷺ ح١٥٣٣) وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/ ٣٩٨)، وأخرجه إسماعيل القاضي وصححه الألباني «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (ح٧٧).

صَلَوٰتَكَ﴾ على الإفراد[١] ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم[٢]. وقال قتادة: وقار[٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العميس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن حذيفة، عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده[٤]، ثم رواه عن أبي نعيم، عن مسعر، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن لحذيفة، قال مسعر: وقد ذكره مرةً عن حذيفة: إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده[٥].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللَّتين كل منهما يحطُّ الذنوب ويمحصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كلَّ من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أُحد[٦]، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثوري ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور، عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتكون مثل أُحد» وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٧].

وقال الثوري والأعمش كلاهما، عن عبد الله بن السائب، عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إن الصدقة تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[٨].

وقد روى ابن عساكر في تاريخه في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكي الدمشقي وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكي الحمصي قال: غزا الناس في زمان معاوية ﷺ وعليهم عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، فغلَّ[٩] رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه.

---

(١) وكلتا القراءتين متواترتان.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه ٣٨/ ٣١١ (ح٢٣٢٧٧) وضعفه محققوه لجهالة أبي بكر بن عمرو بن عُتبة. وفيه علة أخرى أن ابن حذيفة لم يذكر اسمه (وينظر: مجمع الزوائد ٨/٢٦٨).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/٤٠٣ ح٢٣٣٩٤) وسنده كسابقه.

(٦) أي جبل أُحد المشهور.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، في سورة التوبة وفي سورة البقرة آية ٢٧٦، وصححه أحمد شاكر هناك (التفسير ٦/١٦ ـ ٢٠ ح٦٢٥٣ و٦٢٥٧)، إلا أن قوله: وتصديق ذلك... إلخ، إدراج وليس من حديث رسول الله ﷺ. وأصله في الصحيحين بدون هذا الإدراج.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن الثوري به، وسنده حسن.

(٩) أي سرق من الغنائم.

وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة، فجعل الرجل يستقري الصحابة فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمرَّ بعبد الله بن الشاعر السكسكي فقال له: ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أو مطيعي أنت؟ فقال: نعم، فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: اقبل مني خمسك. فادفع إليه عشرين ديناراً، وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم، ففعل الرجل، فقال معاوية رضي الله عنه: لأن أكون أفتيته بها أحبّ إلي من كل شيء أملكه؛ أحسن الرجل.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

قال مجاهد: هذا وعيد[(١)]. يعني: من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق] وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات] وقد يُظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»[(٢)].

وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الصلت بن دينار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللّهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: أنبأنا عبد الرزاق، عن سفيان، عمَّن سمع أنساً يقول: قال النبي ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللّهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[(٤)].

وقال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل: ﴿ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(٥)]. وقد ورد في الحديث شبيه بهذا، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد،

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن رجل مبهم عن مجاهد.
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٨) وسنده ضعيف لضعف رواية دراج عن أبي الهيثم.
(٣) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ص٢٤٨ ح١٧٩٤)، وسنده ضعيف لأن الصلت بن دينار متروك، والحسن لم يسمع من جابر، وقد روي بسند ضعيف عن أنس وعن أبي أيوب الأنصاري، أما حديث أنس فسيأتي في الذي يليه، وأما حديث أبي أيوب أخرجه الطبراني (المعجم الأوسط ١/ ١٣٠ ح١٤٨)، وفي سنده مسلمة بن علي: وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢/ ٣٢٧).
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٠/ ١١٤ ح١٢٦٨٣) وسنده ضعيف لإبهام شيخ سفيان.
(٥) أخرجه البخاري معلقاً (الصحيح، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ...﴾ =

حدثنا حميد، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو بُرهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البُرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح يقبضه عليه»[1]. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خُلِّفوا أي عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية[2]، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجي هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] الآية، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِق اللّعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب

= [المائدة: ٦٧] قبل حديث رقم ٧٥٣٠)، ووصله ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عروة عن عائشة. وذكره الحافظ ابن حجر في (تغليق التعليق ٥/ ٣٦٦).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٩/ ٢٤٦ ح١٢٢١٤) وصحح سنده محققوه. وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٢١١).

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه شيخ الطبري وهو سفيان بن وكيع وهو ضعيف، ويتقوى بما سبق، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر، ويتقوى بما سبق.

رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أُحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله ﷻ، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهنَّ رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم، فجُرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرَّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هِرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومنَّاه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عمَّا هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلَّة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه؛ فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضِّرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أُسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ الآية، هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ . . . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير[2] وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ ـ يعني من تبوك ـ حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضِّرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) من هنا يبدأ سقط من الأصل إلى آخر آية رقم ٨٢ من سورة يونس، واستكمل من (حم) و(مح).

الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل» ـ أو كما قال رسول الله ﷺ: «ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه» ـ فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم. فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا. . .﴾ إلى آخر القصة.

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد: من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب: من بني عبيد وموالي بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير: من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزعر: من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف: أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر وابناه: مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل الحارث وهم من بني ضبيعة، وبخرج وهو من بني ضبيعة، وبجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وهو إلى بني أُمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر[1].

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: الذين بنوه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه، ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو: أبو عامر الفاسق الذي يقال له: (الراهب) لعنه الله، وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه، أي يصلي فيه أبداً. ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى: وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»[2].

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً[3].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عيَّن له جهة القبلة، فالله أعلم.

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ٤/ ١٧٣ ـ ١٧٤، وأخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق، وابن إسحاق لم يصرح بالسماع ولعل هذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً.

(٢) أخرجه الترمذي، السنن، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء (ح٣٢٤) من حديث أسيد بن ظهير وقال: حسن غريب، وفي تحفة الأشراف (١/ ٢٧٥): حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه (السنن، الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء ح١٤١١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح١١٥٩).

(٣) صحيح مسلم، الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه (ح١٣٩٩).

إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية»[١]. ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه[٢].

وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن علي المعمري، حدثنا محمد بن حميد الرازي، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عُوَيم بن ساعدة فقال: «ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟» فقال: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا وغسل فرجه، أو قال: مقعدته، فقال النبي ﷺ: «هو هذا»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا أبو أويس، حدثنا شرحبيل، عن عويم بن ساعدة الأنصاري: أنه حدثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا[٤].

ورواه ابن خزيمة في صحيحه[٥].

وقال هشيم، عن عبد الحميد المدني، عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري: إن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة: «ما هذا الذي أثنى الله عليكم ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ؟﴾» الآية، قالوا: يا رسول الله إنا نغسل الأدبار بالماء[٦].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا محمد بن سعد عن إبراهيم بن محمد، عن شرحبيل بن سعد قال: سمعت خزيمة بن ثابت يقول: نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال: كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط[٧].

(حديث آخر): قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك ـ يعني: ابن مغول ـ، سمعت سياراً أبا الحكم، عن شهر بن حوشب، عن محمد بن عبد الله بن سلام قال:

---

(١) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء ٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٤).

(٢) سنن الترمذي، تفسير سورة التوبة (ح٣١٠٠)، وسنن ابن ماجه، الطهارة، باب الاستنجاء بالماء (ح٣٥٧).

(٣) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١١/ ٦٧ ح١٠٦٥) وسنده ضعيف لضعف محمد بن حميد الرازي، وعنعنة ابن إسحاق وقد توبع الرازي فقد أخرجه الحاكم من طريق أحمد بن خالد الوهبي عن ابن إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٨٧) وله شواهد تقويه كما يلي.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٤/ ٢٣٥ ح١٥٤٨٥)، وقال محققوه: حسن لغيره. أي: بالشواهد.

(٥) صحيح ابن خزيمة (ح٨٣).

(٦) أخرجه الطبري من طريق هشيم به نحوه.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه. وفي سنده شرحبيل بن سعد وهو صدوق اختلط كما في التقريب، ويشهد له ما سبق.

لما قدم رسول الله ﷺ - يعني: قباء -، فقال: «إن الله ﷻ قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبروني؟» يعني قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ فقالوا: يا رسول الله إنا نجده مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء[١].

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق عن معمر الزهري عن عروة بن الزبير، وقال عطية العوفي وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري[٢]، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة.

وقد ورد الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أُسس على التقوى[٣]، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد، عن أُبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أُسس على التقوى مسجدي هذا»[٤]. تفرد به أحمد.

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان بن التيمي، عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أُسس على التقوى فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا النبي ﷺ فسألاه، فقال: «هو مسجدي هذا»[٥]. تفرد به أحمد أيضاً.

(**حديث آخر**): قال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث، عن عمران بن أبي أنس، عن سعيد بن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»[٦]. تفرد به أحمد.

(**طريق أخرى**): قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث، حدثني عمران بن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٢٥٤ ح٢٣٨٣٣)، وضعفه محققوه لضعف شهر بن حوشب. ولكن الشق الأول له شواهد تقدمت.

(٢) أغلب هذه الآثار أخرجها الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٣) أخرج مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «مسجدكم هذا». (الصحيح، الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة ح١٣٩٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ٣٣ ح٢١١٠٧) قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف فيه عبد الله بن عامر الأسلمي متفق على ضعفه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٧/ ٤٦٤ ح٢٢٨٠٥) قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد جيد. بل هو حسن على الأقل.
وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٣٤).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٨/ ٣٥٨ ح١١٨٤٦) وصححه محققوه.

أبي أنس، عن ابن أبي سعيد، عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي»[١]. وكذا رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذي[٢]، ورواه مسلم كما سيأتي[٣].

(طريق أخرى): قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف، في المسجد الذي أُسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك خير كثير، يعني: مسجد قباء[٤].

(طريق أخرى): قال أبو جعفر بن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حميد الخراط المدني، سألت أبا سلمة بن عبد الرحمٰن بن أبي سعيد فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أُسس على التقوى؟ فقال: إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيت لبعض نسائه فقلت: يا رسول الله أين المسجد الذي أُسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا» ثم قال: سمعت أباك يذكره[٥]، رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به[٦]، وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب[٧]، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيباً أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ الروم فيها، فأوهم فلما انصرف قال: «إنه يَلبِسُ علينا القرآن أنَّ أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء»[٨]. ثم رواه من طريقين آخرين عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٧/ ٩٩ ح١١٠٤٦) وصححه محققوه.
(٢) سنن الترمذي، التفسير، سورة التوبة (ح٣٠٩٩)، والسنن الكبرى للنسائي، التفسير، باب ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٨]... (ح١١٢٢٨).
(٣) تقدم تخريجه قبل خمس حواشي.
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٧/ ٢٧٢ ح١١١٧٨) وصحح سنده محققوه.
(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح. (٦) تقدم تخريجه قبل ثمان حواشي.
(٧) أخرجه الطبري عنهم كلهم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/ ٢٠٩ ح١٥٨٧٣) وحسن سنده محققوه.

عبد الملك بن عمير، عن شبيب أبي روح من ذي الكَلاع، أنه صلى مع النبي ﷺ. . . فذكره[١]، فدلّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب[٢].

وقال الأعمش: التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك[٣].

وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء[٤].

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الله بن شبيب، حدثنا أحمد بن عبد العزيز قال: وجدته في كتاب أبي، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا نتبع الحجارة بالماء. رواه البزار، ثم قال: تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهري ولم يرو عنه سوى ابنه[٥]. قلت: وإنما ذكرته بهذا اللفظ؛ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم، والله أعلم.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أي طرف حفيرة منثالة ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين.

قال جابر بن عبد الله: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ[٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/ ٢١٠ ـ ٢١١ ح١٥٨٧٤) وقال محققوه: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لإرساله.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي المنهال، وهو سيار بن سلامة، عن أبي العالية.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي يحيى التيمي عن الأعمش، وأبو يحيى هو: إسماعيل بن إبراهيم الأحول وهو ضعيف كما في التقريب.

(٤) تقدم تخريجه قبل صفحتين.

(٥) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٤٧). قال الهيثمي: فيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري ضعفه البخاري والنسائي (مجمع الزوائد ١/ ٢١٢).

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والحاكم (المستدرك ٤/ ٥٩٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه محمود شاكر في تعليقه على تفسير الطبري.

وقال ابن جريج: ذُكر لنا أن رجالاً حفروا فوجدوا الدخان يخرج منه[١]، وكذا قال قتادة[٢].

وقال خلف بن ياسين الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة، رواه ابن جرير رحمه الله[٣].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه، وقوله: ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم[٤] وغير واحد من علماء السلف، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بأعمال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر[٥].

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾.

يخبر تعالى أنه عاوض عباد المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم ـ والله ـ فأغلى ثمنهم[٦].

وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وفّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال من حمل في سبيل الله بايع الله أي قبل هذا العقد ووفى به.

وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ـ يعني ليلة العقبة ـ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) أخرجه الطبري وسنده مرسل. وفي سنده الحسين وهو سُنيد بن داود: وهو ضعيف، ويشهد له سابقه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل ويتقوى برواية جابر.

(٣) أخرجه الطبري من طريق خلف بن ياسين عن أبيه وكلاهما مقدوح فيه، فخلف متهم بالوضع وأبوه متروك (لسان الميزان ٢/ ٤٠٥، ٦/ ٢٣٨).

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي وهب عنه.

(٥) قول الحسن البصري أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سُهيل، وهو ابن أبي حزم، عن كثير، وهو ابن زياد، عن الحسن، وسهيل ضعيف كما في التقريب ولكنه توبع فقد أخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق الفزاري عن أبي رجاء عن الحسن، وقول قتادة أخرجه الطبري بنحوه بسند حسن من طريق محمد بن يسار عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق حفص بن حميد عن شمر، وفي سنده ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، ومعناه صحيح.

﴿أَنفُسَهُمْ﴾ الآية(١).

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ أي: سواء قَتَلوا أو قُتِلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة.

ولهذا جاء في الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»(٢).

وقوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد. هذا كقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢] ولهذا قال: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفَّى بهذا العهد بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخصِّ الأقوال الحمد، فلهذا قال: ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ [التحريم: ٥] أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

---

(١) أخرجه الطبري من طريق عبد العزيز عن أبي معشر عن محمد بن كعب، وسنده ضعيف لأن عبد العزيز وهو ابن أبان متروك كما في التقريب، وأبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن السندي وهو ضعيف كما في التقريب، ومحمد بن كعب أرسله. وهذا القول قيل: عندما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً (ينظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٦٣).

(٢) صحيح البخاري، فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «أُحلت لكم الغنائم» (ح٣١٢٣)، وصحيح مسلم، الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (ح١٨٧٦).

بيان أن المراد بالسياحة الصيام

قال سفيان الثوري، عن عاصم، عن زِرّ عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون[١]. وكذا روي عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون[٣]، وكذا قال الضحاك رَحِمَهُ اللهُ[٤].

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد، عن الوليد بن عبد الله، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سياحة هذه الأمة الصيام[٥]، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأبو عبد الرحمٰن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم، أن المراد بالسائحين الصائمون[٦].

وقال الحسن البصري: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون شهر رمضان[٧].

وقال أبو عمرو العبدي: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين[٨].

وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا، وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السائحون هم الصائمون»[٩]، ثم رواه عن بُندار، عن ابن مهدي، عن إسرائيل، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون[١٠]. وهذا الموقوف أصح.

وقال أيضاً: حدثني يونس، عن ابن وهب، عن عمر بن الحارث، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال: «هم الصائمون»[١١]. وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن الثوري به.

(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، ورواية العوفي أخرجها الطبري والسند ضعيف ويتقوىٰ بسابقيه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك ويتقوى بما سبق.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً لأن إبراهيم بن يزيد وهو الجوزي متروك.

(٦) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير تقدم، وقول عطاء أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول أبي عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي إسحاق عنه، وقول الضحاك تقدم.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي الهذيل عن أبي عمرو العبدي.

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده حكيم بن حزام: متروك (لسان الميزان ٢/٣٤٢)، والصحيح وقفه على أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(١١) أخرجه الطبري سنده ومتنه، وسنده مرسل لأن عبيد بن عمير تابعي، ويشهد له سابقة.

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود في سننه من حديث أبي أُمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»(١).

وقال ابن المبارك، عن ابن لهيعة: أخبرني عمارة بن غزية؛ أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله والتكبير على كل شرف»(٢).

وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم(٣).

وقال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون(٤)، رواهما ابن أبي حاتم.

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهة الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن»(٥).

وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله(٦)، وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ قال: لفرائض الله(٧)، وفي رواية: القائمون على أمر الله(٨).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن ابن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية، فقال: «أي عمِّ، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله ﷻ»، فقال أبو جهل وعبد الله بن

---

(١) أخرجه أبو داود (السنن، الجهاد، باب النهي عن السياحة ح٢٤٨٦)، وحسنه الألباني (في صحيح سنن أبي داود ح٢١٧٢)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٧٣)، وصححه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي (تفسير القرطبي ٨/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك بسنده ومتنه (الجهاد ص٣٦)، وسنده حسن لكنه معضل ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسندضعيف من طريق الوليد بن بكير عن عمر بن نافع عن عكرمة. والوليد وعمر كلاهما ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن.

(٥) صحيح البخاري، الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن (ح١٩).

(٦) طريق ابن أبي طلحة أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت، وطريق العوفي أخرجه الطبري، وسنده ضعيف ويتقوى بطريق ابن أبي طلحة.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي ضعيف، ويشهد له سابقه.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه إبهام الراوي عن الحسن البصري، ويشهد له ما تقدم عن ابن عباس.

أبي أُمية: يا أبا طالب أترغب عن مِلَّة عبد المطلب؟ فقال: أنا على مِلَّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾، قال: ونزلت فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1] [القصص: ٥٦]. أخرجاه[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الخليل، عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فنزلت ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، قال: لما مات. فلا أدري، قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو في الحديث: لما مات[3].

(قلت): هذا ثابت عن مجاهد أنه قال: لما مات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زبيد بن الحارث اليامي، عن مُحارب بن دِثار، عن ابن بُريدة، عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلَّى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله ما لكَ؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأُمي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً؛ ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ما شئتم؛ ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية، فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً»[4].

وروى ابن جرير من حديث علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة، أتى رسمَ قبرٍ، فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً، فقلنا: يا رسول الله إنَّا رأينا ما صنعت. قال: «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رؤي باكياً أكثر من يومئذٍ[5].

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خداش، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن جريج، عن أيوب بن هانيء، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً ثم بكى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٥٣٣) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] (ح٤٦٧٥)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت... (ح٢٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ١٦٢ ح٧٧١) وحسن سنده محققوه.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/ ١١١ ح٢٣٠٠٣) وصحح سنده محققوه.

(٥) أخرجه الطبري من طريق علقمة به، وفي طبعة الأستاذ أحمد شاكر لم يذكر شيخ الطبري وفي طبعة معالي د. عبد الله التركي صرح باسمه أحمد وعلى كل حال يشهد له ما سبق، كما يشهد له ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: استأذنت ربي لأُمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي (الصحيح، الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة أمه ح٩٧٦).

فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟»، فقلنا: بكينا لبكائك، قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي» ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل عليَّ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر الآخرة»[1].

(**حديث آخر**): في معناه، قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المروزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أُمه فناجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه وبكى هؤلاء لبكائه، وقالوا: ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تطيقه، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله بكينا لبكائك، فقلنا: لعله أحدث في أمتك شيء لا تطيقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلتُ على قبر أُمي، فسألت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي فرحمتها وهي أمي فبكيت، ثم جاءني جبريل فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فتبرأ أنت من أُمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهي أمي ودعوت ربي أن يرفع عن أُمتي أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، ودعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج»[2].

وإنما عدل إلى قبر أُمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم، وهذا حديث غريب وسياق عجيب، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة في حديث فيه قصة، أن الله أحيا أُمه فآمنت ثم عادت[3]، وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون: إن الله أحيا له أباه وأُمه فآمنا[4] به. وقد قال الحافظ ابن دحية: هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقال أبو عبد الله القرطبي: إن مقتضى هذا الحديث.. وردَّ على ابن دحية في هذا الاستدلال، بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها، فصلى علي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه تقريباً، وفي سنده أيوب بن هانئ صدوق فيه لين كما في التقريب، وله شواهد تقدمت.

(٢) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١١/٣١٤ ح١٢٠٤٩)، قال الهيثمي: من عدا عكرمة لم أعرفهم (مجمع الزوائد ٧/٤٥٩)، وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً.

(٣) سنده ضعيف لجهالة الراوي عن عائشة، ومتنه فيه نكارة، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١/٢٨٣ وضعفه السيوطي (اللآلي المصنوعة ١/٢٦٦) مخالفة لرواية الصحيح من حديث أبي هريرة المتقدم قبل صفحتين.

(٤) (الروض الأنف ١/١١٣)، وسنده ضعيف أيضاً وحكمه كسابقه سنداً ومتناً.

العصر، قال الطحاوي: وهو حديث ثابت يعني: حديث الشمس، قال القرطبي: فليس إحياؤهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال: وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فآمن به[١].

(قلت): وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صحَّ فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله ﷻ عن ذلك، فقال: «إن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه» فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ الآية[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية[٣].

وقال قتادة، في الآية: ذُكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ: قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفكُّ العاني، ويوفِّي بالذمم أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ حتى بلغ قوله: ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾. ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، قال: وذُكر لنا أن نبي ﷺ قال: «قد أوحى الله إليَّ كلمات فدخلنَّ في أذني ووقرنَّ في قلبي: أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كَفاف[٤]»[٥].

وقال الثوري، عن الشيباني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: مات رجل يهودي وله ابنٌ مسلمٌ فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكَّله إلى شأنه، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لم يدع[٦].

ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه، لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهب فواره ولا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتيني...» فذكر تمام الحديث[٧].

---

(١) ذكره في التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ص١٧، وما ذكره يخالف ما صح من حديث أبي هريرة المتقدم قبل صفحتين.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به، ويتقوىٰ بما يلي.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٤) الكَفاف: هو من الرزق على قدر حاجة المرء، لا يفضل منه شيء.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل.

(٦) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن المبارك عن الثوري به، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه أبو داود (السنن، الجنائز، باب الرجل يموت له قرابة مشرك ح٣٢١٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٧٥٣).

وروي أنه ﷺ لم مرت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وصلتك رحمة يا عمِّ»[(١)].

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية[(٢)].

وروى ابن جرير، عن ابن وكيع، عن أبيه، عن عصمة بن زامل، عن أبيه، قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه، قلت: ولأبيه؟ قال: لا. قال: إن أبي مات مشركاً[(٣)]. وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه، وفي رواية: لما مات تبيَّن له أنه عدو لله[(٤)]. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله[(٥)].

وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير: إنه يتبرأ منه يوم القيامة حتى يلقى أباه، وعلى وجه أبيه القَتَرة والغَبرة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك، فيقول: أي ربِّ ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقال: انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطخ، أي قد مسخ ضَبعاً، ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار[(٦)].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ قال سفيان الثوري وغير واحد: عن عاصم بن بهدلة، عن زرِّ بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: الأواه: الدعَّاء[(٧)]، وكذا روي من غير وجه عن ابن مسعود.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثني عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: بينما النبي ﷺ جالس قال: رجل يا رسول الله ما الأوَّاه؟ قال: «المتضرع» قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[(٨)]. ورواه ابن أبي حاتم: من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به، ولفظه قال: الأوَّاه: المتضرع الدعَّاء[(٩)].

---

(١) أخرجه ابن عدي بسند ضعيف فيه إبراهيم بن عبد الرحمن وهو ضعيف (الكامل في الضعفاء ١/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حبيب بن أبي مرزق عن عطاء.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن وكيع وهو سفيان.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٥) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف لم يصرح باسم شيخ الطبري، ويتقوىٰ بما سبق.

(٦) قول عُبيد بن عمير أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق الأعمش عن مجاهد عن عُبيد نحوه. لكنه مرسل، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند مرسل عند سعيد بن جبير بنحوه.

(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن الثوري به.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق شهر به، وفي سنده شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن المبارك به وحكمه كسابقه، وهو سند واحد.

وقال الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي الغدير، أنه سأل ابن مسعود عن الأوَّاه فقال: هو الرحيم[١]، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شرحبيل والحسن البصري وقتادة وغيرهما: أي الرحيم، أي بعباد الله[٢].

وقال ابن المبارك، عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: الأوَّاه: الموقن بلسان الحبشة[٣]، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه الموقن[٤]، وكذا قال مجاهد والضحاك[٥].

وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد، عن ابن عباس: الأواه: المؤمن، زاد علي بن أبي طلحة عنه: هو المؤمن التواب[٦].

وقال العوفي، عنه: هو المؤمن بلسان الحبشة[٧]. وكذا قال ابن جريج: هو المؤمن بلسان الحبشة[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له: ذو البجادين: «إنه أوَّاه»، وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء[٩]، ورواه ابن جرير[١٠].

وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأوَّاه: المسبح[١١].

وقال ابن وهب، عن معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن جُبير بن نفير، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأوَّاه[١٢].

وقال شفي بن مانع، عن أبي أيوب: الأوَّاه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها[١٣].

وعن مجاهد: الأواه: الحفيظ الوجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وسنده حسن.
(٢) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وأخرج أقوالهم عبد الرزاق والطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٣) أخرجه الطبري عن ابن وكيع عن يحيى بن آدم عن ابن المبارك به، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان، وقد توبع في رواية ابن أبي حاتم فقد أخرجه من طرق أخر.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوى به بما سبق وبرواية الطبري بسند حسن من طريق قابوس عن أبيه عن ابن عباس.
(٥) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.
(٦) أخرجهما الطبري من الطريقين باللفظين، وسند أحدهما يقوي الآخر.
(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويشهد له سابقه لكن بدون بلسان الحبشة.
(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف وحكمه كسابقه.
(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٩) وسنده ضعيف بسبب ابن لهيعة ومتنه يخالف ما في الصحيح: «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً».
(١٠) أخرجه الطبري من طريق ابن لهيعة به موقوفاً.
(١١) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن، وقول الشعبي أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب به، وسنده حسن.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه ابن لهيعة وأبو صالح كاتب الليث وكلاهما فيهما مقال.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي، عن حجاج، عن الحكم، عن الحسن بن مسلم بن يناق، أن رجلاً كان يُكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أوّاه»[(١)].

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن هانئ، حدثنا المنهال بن خليفة، عن حجاج بن أرطأة، عن عطاء، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ دفن ميتاً فقال: «رحمك الله إن كنت لأوّاهاً» يعني: تلّاء للقرآن[(٢)].

وقال شعبة، عن أبي يونس الباهلي، قال: سمعت رجلاً بمكة، وكان أصله رومياً، وكان قاصّاً يحدث عن أبي ذرٍّ، قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: أوه أوه، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أوّاه» قال: فخرجت ذات ليلة، فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح[(٣)]، هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: سمعت ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قال: كان إذا ذكر النار قال: أوه من النار[(٤)].

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ قال: فقيه[(٥)].

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم] فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[(٦)].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يُضلُّ قوماً بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية [فصلت: ١٧].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ الآية، قال:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال الحسن بن مسلم بن يناق فإنه من صغار التابعين، وفيه ضعف ابن وكيع وهو سفيان.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الترمذي من طريق يحيى بن يمان به وحسنه (السنن، الجنائز، باب ما جاء في الدفن بالليل ح١٠٥٧)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ح١٧٨).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضها لكنها كلها مرسلة.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد وليس عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس ولا من مجاهد.

(٦) ذكره الطبري بنحوه.

بيان الله ﷻ للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم من معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذَروا[١].

وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه فلم تضيعوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السمٰوات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا وليّ لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحرز، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء[٤] وما تلام أن تئط، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»[٥].

وقال كعبُ الأحبار: ما من موضع خرم إبرة من الأرض إلا وملك مُوَكّل بها يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام[٦].

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾.

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) ذكره الطبري بلفظه تقريباً. (٣) ذكره الطبري بمعناه.

(٤) الأطيط: هو صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتىٰ أطت، وهذا مثل وأيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثمّ أطيط، وإنما هو كلام تقريب، أُريد به تقرير عظمة الله تعالى. (النهاية ١/ ٥٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفي سنده عبد الوهاب بن عطاء الخفاف وهو صدوق ربما أخطأ ويتقوىٰ بالشواهد فيكون حسناً، إذ يشهد له ما رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر ﵁ (المسند ٥/ ١٧٣)، وابن ماجه (السنن، الزهد، باب الحزن والبكاء ح٤١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣٧٨).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن كعب، وسنده ضعيف لضعف يزيد، وكعب الأحبار مشهور برواية الإسرائيلي من الأخبار.

الأمر في سنة مُجدبة وحر شديد وعُسر من الزاد والماء[١]، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحرِّ على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جَهد شديد حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصُّها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم[٢].

وقال ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عتبة بن أبي عتبة، عن نافع بن جبير بن مُطعم، عن عبد الله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله ﷻ قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٣].

وقال ابن جرير: في قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: من النفقة والطهر والزاد والماء ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمِّه محمد بن مسلم الزهري، أخبرني عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد لكنه مرسل، ويتقوىٰ بالمرسل التالي.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وهو مرسل أيضاً، وهذا المرسل مع المرسل السابق يقوي أحدهما الآخر.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وعزاه الهيثمي إلى البزار والطبراني في المعجم الأوسط وقال: ورجال البزار ثقات (مجمع الزوائد ٦/ ١٩٤) وكذلك قال الأستاذ محمود شاكر؛ رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم من طريق ابن وهب به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٥٩).

(٤) ذكره الطبري بنحوه.

في غزوة غزاها قط إلا في غزاة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذكر في الناس منها وأَشهر، وكان من خبري حين تخلَّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى[١] بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز[٢]، واستقبل عدواً كثيراً فَجَلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ: يريد الديوان.

قال كعب: فَقَلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله ﷻ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر[٣]، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط[٤] الغزو فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً[٥] عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله ﷻ ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»، فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله ﷺ برداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بثي[٦] وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل[٧] قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا

---

(١) أي سترها وكنىٰ عنها، وأوهم أنه يريد غيرها.
(٢) جمع مفازة: وهي البرية القفر (الصحاح ٣/ ٨٩٠).
(٣) أي: أميل. (٤) أي: فات.
(٥) أي: المعيب المشار إليه بالعيب (جامع الأصول ٢/ ١٨٧).
(٦) أي: شدة حزني.
(٧) الأظلال: الدنوّ، وأظلك فلان: أي دنا منك (المصدر السابق).

بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويَكِل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلَّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟» فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً[١]، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك بصدق تجد[٢] عليَّ فيه، إني لأرجو عقبى ذلك من الله ﷻ، واللهِ ما كان لي عذر، واللهِ ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت، وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال: فوالله ما زالوا يؤنِّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا: مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أُمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيَّروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: أحرك شفتيه بردِّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، فإذا التفتُ نحوه أعرض عنّي، حتّى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتّى تسوَّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلَّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم.

قال: ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسوَّرت[٣] الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط[٤] الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال: فطفق الناس يشيرون له إليَّ حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فإذا فيه:

أما بعد؛ فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك.

---

(١) أي: فصاحة وقوة حجة. (٢) أي: تغضب.

(٣) أي: علوت الجدار.

(٤) النبط والأنباط: فلاحو العجم (شرح مسلم للنووي ١٧/ ٩٣).

قال: فقلت: حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرته[1] به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، قال: فقلت: لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أُمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه، قال: «لا ولكن لا يقربنّك» قالت: وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحُبت، سمعت صارخاً أوفى[2] على جبل سَلْع[3] يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبيّ مبشرون، وركض إليَّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذٍ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ، وتلقَّاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بتوبة الله، يقولون: ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله[4] يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله إنما نجّاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه[5] الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت

---

(١) أي: أوقدته بالصحيفة المرسلة. (٢) أوفىٰ على الشيء: أي شرف.

(٣) جبل مشهور من جبال المدينة النبوية المنورة يقع في شمالها.

(٤) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو أحد العشرة المبشرة بالجنة (الإصابة ٢/ ٢٢٩).

(٥) أي: أنعم عليه.

ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي.

(قال): وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ...﴾ إلى آخر الآيات.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذٍ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة] قال: وكنا خُلِّفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمَّن حلف له واعتذر إليه فقَبل منه[(١)].

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم، من حديث الزهري بنحوه[(٢)].

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أُمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار[(٣)]، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال: مرارة بن ربيعة[(٤)]، وكذا في مسلم: ابن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها: مرارة بن الربيع، وفي رواية عن الضحاك: مرارة بن الربيع، كما وقع في الصحيحين وهو الصواب، وقوله: فسموا رجلين شهدا بدراً، قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده وبنحو متنه (المسند ٣/٤٥٦ ـ ٤٥٩) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة تبوك (ح٤٤١٨)، وصحيح مسلم، التوبة، باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه ﷺ (ح٢٧٦٩).

(٣) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، ويشهد له ما سبق.

(٤) أخرجه الطبري عنهم بأسانيد ثابتة إلا قول الضحاك فأخرجه بسند ضعيف من طريق جويبر عنه ويتقوى، بشواهده السابقة.

من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، أي مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرَّج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله هو: ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّاباً»(١) أخرجاه في الصحيحين(٢).

وقال شعبة، عن عمرو بن مرة: سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: الكذب لا يصلح منه جدٌّ ولا هزل، اقرأوا إن شئتم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مِنَ(٣) الصَّادِقِينَ﴾ هكذا قرأها، ثم قال: فهل تجدون لأحد فيه رخصة [في الكذب](٤)(٥).

وعن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال: مع محمد ﷺ وأصحابه(٦).

وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما(٧).

وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكفِّ عن أهل المِلَّة(٨).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٣٨٤) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة] (ح٦٠٩٤)، وصحيح مسلم، البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (ح٢٦٠٧).

(٣) كذا في الأصول وتفسير ابن أبي حاتم، وهو قراءة شاذة تفسيرية لبيان معنىٰ المعية هنا.

(٤) الزيادة من تفسير ابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي داود عن شعبة به، ورجاله ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من ابن مسعود ﷺ.

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق زيد بن أسلم عن نافع عن ابن عمر.

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق خليد بن دعلج عن الحسن وخليد ضعيف كما في التقريب.

من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا به، لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا أبو موسى الغنزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سليمان بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هشام، عن فرقد أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خباب السلمي، قال: خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حثَّ، فقال عثمان: عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حثَّ، فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها، وأخرج عبد الصمد: يده كالمتعجب «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»[(١)].

وقال عبد الله أيضاً: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة، عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبَّها في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يردِّدها مراراً[(٢)].

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ الآية: ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا ازدادوا من الله ﷻ قرباً[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده بسنده ومتنه (المسند ٢٧/٢٤٧ ح١٦٦٩٦) وضعفه محققوه لجهالة فرقد أبي طلحة.

(٢) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده بسنده ومتنه (المسند ٣٤/٢٣٢ ح٢٠٦٣٠)، وحسّن سنده محققوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١] وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال: فنسخ ذلك بهذه الآية.

وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفير المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني: عصبة، يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ يقول: ليتعلّموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلّموا السرايا إذا رجعت إليهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ، خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا؟ فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يبغون الخير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2].

وقال قتادة في الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن لا يُعَرُّوا نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم[3].

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار، وكان إذا قام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً فيقرئونهم ويفقهونهم في

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، لكنه مرسل ويتقوىٰ بسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ يقول: إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس[(١)].

وقال علي بن أبي طلحة أيضاً، عن ابن عباس في الآية، قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾: إنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مُضر بالسنين، أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها، حتى يحلُّوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون، فضيَّقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردَّهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذَّر قومهم أن يفعلوا فعلهم، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[(٢)].

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم، ويقولون للنبي ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم، قال: فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله ورسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا: إن من أسلم فهو منا وينذرونهم، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأُمه، وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة[(٣)].

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] و﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآية، ونزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾ [الشورى][(٤)].

وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم[(٥)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٢٣﴾.

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، ويشهد له ما تقدم.
(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويشهد له سابقه.
(٤) أخرجه الطبري من طريق سليمان الأحول عن عكرمة وسنده مرسل.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن الحسن.

عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته ﷺ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنيَّة صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل، فثبَّته الله تعالى به، فوطَّد القواعد وثبَّت الدعائم، وردَّ شارد الدين وهو راغم، وردَّ أهل الردَّة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغاة، وبيَّن الحق لمن جهله، وأدَّى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأوّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار.

فكسى الإسلام رياسته حلَّة سابغة، وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها. وكلما علوا أُمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفُجّار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضَّحوك القتَّال»[1]، يعني: أنه ضحوك في وجه وليه، قتَّال لهامة عدوه.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم. ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل

---

(١) فيه نكارة لأن المعروف من فعله ﷺ كان كثير التبسم، لا كثير الضحك.

الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فكلَّما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكِّن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعليَّ كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي: يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك. وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

يقول تعالى: أوَ لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يختبرون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع[١].

وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين[٢].

وقال شريك، عن جابر: هو الجعفي، عن أبي الضحى عن حذيفة في قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير[(١)].

وفي الحديث عن أنس: لا يزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شُحًّا، وما من عام إلا والذي بعده شرٌّ منه، سمعته من نبيكم ﷺ[(٢)].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تلفتوا ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر] وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المعارج] أي ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يميناً وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] أي لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ـ أي: من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته... وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عيينة، عن جعفر بن محمد، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق شريك به، وسنده ضعيف لضعف جابر وهو الجعفي.

(٢) هذا الحديث ذو شقين: الأول أخرجه ابن ماجه (السنن، الفتن، باب شدة الزمان ح٤٠٣٩)، وقال الألباني: ضعيف جداً (صحيح سنن ابن ماجه ح٣٢٦٤)، وأخرجه الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي بأن يحيى بن السكن ضعفه صالح جزرة (المستدرك ٤/٤٤١). وأما الشق الثاني أخرجه البخاري من حديث أنس مرفوعاً (الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه ح٧٠٦٨).

(٣) سنده ضعيف لأن محمد بن جعفر بن محمد بن علي الهاشمي، قال الحافظ ابن حجر: «تُكلم فيه» (لسان الميزان ٥/١٠٣).

وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»[(١)]: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني، عن أبيه، عن جده، عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأُمي لم يمسني من سفاح الجاهلية شيء»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعزُّ عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بُعثت بالحنيفية السمحة»[(٣)]، وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر»[(٤)] وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسّرها الله تعالى عليه» ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، حدثنا سفيان بن عيينة، عن فِطْر، عن أبي الطفيل، عن أبي ذرٍّ قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيِّن لكم»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو قَطن، حدثنا المسعودي، عن الحسن بن سعد، عن عبدة الهذلي، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرِّم حرمة ألا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإني آخذ بحُجزِكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أُمته فقال: إن مثله ومثل أُمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى. فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق والله لنتبعه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه[(٧)].

---

(١) كذا في الأصل: ولعله أورده مختصراً: واسمه المحدث الفاصل...

(٢) أخرجه الرامهرمزي بسنده ومتنه (المحدث الفاصل ص١٣٦) وسنده ضعيف أيضاً كسابقه.

(٣) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة البقرة آية ١٨٥.

(٤) تقدم تخريجه وصحته كسابقه.

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٢/ ١٥٥ ح١٦٤٧)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقري، وهو ثقة (مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٥).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٢٣٧ ح٣٧٠٥) وحسّن سنده محققوه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢٦٧) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا: حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان، حدثنا أبي، عن عكرمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة: أراه قال: في دم، فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال: «أحسنت إليك» قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين وهمُّوا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفُّوا، فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال: «إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال: «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بي يدي حتى يذهب عن صدورهم» فقال: نعم. فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان جاء فسألنا فأعطيناه فزعم أنه قد رضي، كذلك يا أعرابي؟» فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها، فتوجه إليها وأخذ لها من قتام الأرض[١] ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها، وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار»[٢]، رواه البزار ثم قال: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه.

(قلت): وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان، والله أعلم.

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تولوا عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل].

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه ربُّ العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السمٰوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

قال [عبد الله بن][٣] الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعبة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن أُبي بن كعب

---

(١) أي: غبار الأرض.

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٢٤٧٦) وسنده ضعيف لضعف إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو العدني كما في التقريب (ص٦٩)، وكذا ضعفه الحافظ ابن كثير.

(٣) الزيادة من المسند.

قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ...﴾ إلى آخر السورة[١].

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا روح بن عبد المؤمن، حدثنا عمر بن شقيق، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فكان رجال يكتبون ويُملي عليهم أُبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ الآية [التوبة: ١٢٧] فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن، فقال لهم أُبي بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ...﴾ إلى آخر السورة، قال: هذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بـ: الله الذي لا له إلا هو، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[٢] [الأنبياء]. وهذا غريب أيضاً.

وقال أحمد: حدثنا علي بن بحر، حدثنا علي بن محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: أتى الحارث بن خِزمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال: من معك على هذا؟ قال: لا أدري والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقال عمر: وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ، ثم قال: «لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها، فوضعوها في آخر براءة»[٣].

وقد تقدم الكلام أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه، وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك، وفي الصحيح أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة[٤]، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد، عن عبد الرزاق بن عمر ـ وقال: كان من ثقات المسلمين من المتعبدين ـ عن مدرك بن سعد قال: يزيد شيخ ثقة، عن يونس بن ميسرة، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إلا إله هو عليه توكلت، وهو ربُّ

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ٤٢ ح٢١١٣) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان. وحسّنه محققوه بالمتابعات والشواهد.

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ١٤٩ ـ ١٥٠ ح٢١٢٢٧) وضعف سنده محققوه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٢٤٠ ح١٧١٥) وضعفه محققوه لتدليس محمد بن إسحاق وانقطاعه، وقال الأستاذ أحمد شاكر في تعليقه على المسند: عباد بن عبد الله بن الزبير ثقة، ولكنه لم يدرك قصة جمع القرآن بل ما أظنه أدرك الحارث بن خزمة، ولئن أدركه لما كان ذلك مصححاً للحديث، إذا لم يروه عنه، بل أرسل القصة إرسالاً... وقال أيضاً: منكر شاذ مخالف (المسند ٣/ ١٦٤)، وسبقهم ابن الأثير بقوله: وهذا عندي فيه نظر (أسد الغابة ١/ ٣٩٠).

(٤) في صحيح البخاري: «حتىٰ وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري»، وذكر القصة (الصحيح، فضائل القرآن، باب جمع القرآن ح٤٩٨٦).

العرش العظيم. سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمَّه [صادقاً كان بها أو كاذباً][(١)][(٢)].

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عبد الرزاق، عن عمر، هذا من رواية أبي زرعة الدمشقي عنه، عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري، عن يونس بن ميسرة بن حَلبس، عن أُم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول: ما من عبد يقول: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو ربُّ العرش العظيم ـ سبع مرات ـ صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمَّه. وهذه زيادة غريبة، ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد، عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق، عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده، فرفعه فذكر مثله بالزيادة. وهذا منكر، والله أعلم][(٣)][(٤)].

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده.

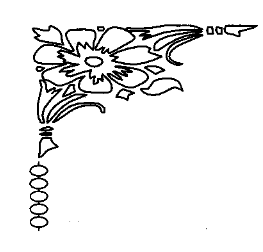
---

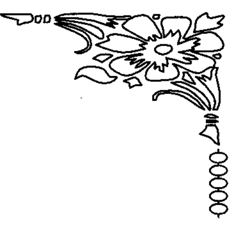
(١) ما بين معقوفين زيادة من سنن أبي داود.

(٢) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه ونقده (السنن، الأدب، باب ما يقول إذا أصبح ح٥٠٨١)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

(٣) ما بين معقوفين زيادة من (مح).

(٤) وحكمه كسابقه.





سورة يونس

سورة يونس مكية وآياتها تسع ومئة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾.

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة، وقال أبو الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الر﴾ أي: أنا الله أرى[١]. وكذلك قال الضحاك وغيره[٢]. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين.

وقال مجاهد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)﴾ قال: التوراة والإنجيل[٣].

وقال الحسن: التوراة والزبور[٤].

وقال قتادة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن[٥]. وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية، يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾ [صٓ].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق شريك عن أبي الضحى به، وشريك هو ابن عبد الله النخعي وهو صدوق يخطئ كثيراً.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي روق، وهو عطية بن الحارث الهمداني، عن الضحاك.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سفيان عن مجاهد، وسفيان لم يسمع من مجاهد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أبي بكر عن الحسن، وأبو بكر هو سلمى بن عبد الله الهذلي: وهو متروك، وقول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وهذا القول يدخل ضمن قول قتادة وقد أنكره الحافظ ابن كثير، وله الحق في ذلك فإن المراد بآيات الكتاب الحكيم هي آيات القرآن الحكيم وهذا الذي رجحه الطبري، والحافظ ابن كثير وصدره الأقوال المرجوحة.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد هذا ضعيف.

من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية[١].

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه:

فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول[٢].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجراً حسناً بما قدموا[٣]. وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم[٤]. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة؛ صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم[٥].

وقال فضيل بن عمرو بن الجون، عن قتادة أو الحسن: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: محمد: ﷺ «يشفع لهم»[٦]. وكذا قال زيد بن أسلم[٧] ومقاتل بن حيان.

وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم[٨]. واختار ابن جرير قول مجاهد: إنها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال: له قدم في الإسلام؛ كقول حسان ﷺ:

لنا القدمُ العليا إليك وخلفُنا ... لأوّلنا في طاعة اللّه تابع[٩]

وقول ذي الرمة:

لكم قدم لا ينكر الناس أنها ... مع الحسب العادي طمَّت على البحر[١٠]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر وهم الكاذبون في ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن الضحاك به، وهو لم يلق ابن عباس ﷺ.
(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٤) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول الربيع بن أنس أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.
(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يحيى بن آدم عن فضيل به.
(٧) أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم، وسنده ضعيف لأن ابن عيينة أخرجه في تفسيره قال: أُخبرت عن زيد بن أسلم، فهو منقطع (ينظر: تغليق التعليق ٤/ ٢٢٢).
(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٩) ديوان حسان ص٢٤١.
(١٠) ديوان ذي الرمة ص٢٧٢، وذكره الطبري.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾.

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام قيل: كهذه الأيام. وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون؛ كما سيأتي بيانه ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أُسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء(١).

وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره(٢). وهذا غريب.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يدبر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية [هود: ٦]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدراوردي، عن سعد بن إسحاق بن كعب أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية: لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم: من أنتم، قالوا: من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم(٣).

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ㉖﴾ [النجم] وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ㉖ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ㉗﴾ [المؤمنون]، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ④﴾.

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه ثم ذكر

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وقال الذهبي: هذا ثابت عن هذا التابعي الإمام (العلو ص٥٨). لكنه مرسل ولعله يتقوىٰ بما رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بنحوه وسنده صحيح، وعزاه ابن حجر إلى عبد الرزاق (الفتح ١٣/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن عن وهب به. واستغربه الحافظ ووهب معروف برواية الإسرائيليات.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الدراوردي به وسنده مرسل، لأن سعد بن إسحاق من صغار التابعين.

تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة]، ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص]، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمٰن].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما؛ لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ الآية [الأنعام: ٩٦]. قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ الآية [يس: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ الآية [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥] الآية، وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩] وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران] أي: العقول، وقال هٰهنا: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه شيئاً ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم.

قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها[١].

وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها فإن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم.

يحتمل أن تكون الباء هٰهنا سببية، فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به[٢].

وقال ابن جريج في الآية: يمثّل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره كل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ﴾، والكافر يمثّل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلزم صاحبه ويلازُّه حتى يقذفه في النار[٣]. وروي نحوه عن قتادة مرسلاً[٤] فالله أعلم.

وقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أُخبرت بأن قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قال: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللّهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردُّون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حوشب، وهو ابن مسلم الثقفي، عن الحسن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف، فيه الحسين وهو ابن داود ضعيف، وكذلك هو معضل، لأن مثل هذا لا يؤخذ من تابع تابعي، ويتقوىٰ بما يلي.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف كسابقه عن ابن جريج.

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهم كلهن[(١)].

وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [فيأتيهم ما دعوا به][(٢)(٣)].

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس]، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ الآية [الرعد].

وقوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وإنه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النفس»[(٤)]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في الشر في حال ضجرهم وغضبهم وإنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾ الآية، أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حزرة، عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق بكير بن معروف عن مقاتل لكنه معضل، لأن مثل هذا الأثر لا يؤخذ من تابع تابعي.

(٢) ما بين معقوفين زيادة من تفسير الطبري.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبيد الله الأشجعي عن الثوري وحكمه كسابقه.

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﵄ (الصحيح، الجنة وصفة نعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها ح٢٨٣٥).

ولا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»[١]. ورواه أبو داود من حديث حاتم بن إسماعيل به[٢]. وقال البزار: وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري لم يشاركه أحد فيه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ الآية [الإسراء: ١١].

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللَّهم لا تبارك فيه والعنه. فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم[٣].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرَّج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، ثم ذمَّ تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»[٤].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء»[٥].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة بهذا، أنبأنا حماد، عن ثابت

---

(١) أخرجه مسلم من طريق حاتم بن إسماعيل به (الصحيح، الزهد، باب حديث جابر ح٣٠٠٦).
(٢) سنن أبي داود، الصلاة، باب النهي أن يدعو الإنسان على أهله وماله (ح١٥٣٢)، وسنده صحيح.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) أخرجه مسلم من حديث صهيب الرومي ﷺ (الصحيح، الزهد، باب المؤمن أمره كله خير ح٢٩٩٩).
(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ١٦٥.

البناني، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، أن عوف بن مالك قال لأبي بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سبباً دُلِّي من السماء، فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد، فانتشط أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر.

فقال عمر: دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها، فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤياك، قال: وهل لك في رؤياي من حاجة أَوَ لم تنتهرني؟ قال: ويحك! إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه، فقصَّ عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال: أما إحداهن فإنه كان خليفة، وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ فقد استخلفت يا بن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء الله، وأما قوله: (شهيد) فأنى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به[1].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه إنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: ائت بقرآن غير هذا، أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ أي: ليس هذا إلي إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على إني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي، وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ لا تنتقدون علي شيئاً تغمصوني به ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟ ولهذا لما سأل هِرَقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا[2]. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق والفضل ما شهدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أعرف إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وأطول، وسنده ضعيف جداً لأن زيد بن عوف: متروك (لسان الميزان ٢/ ٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري مطولاً، الصحيح، بدء الوحي، باب ٧ (ح٦).

وأمانته[١]. وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة[٢]. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثاً وأربعين سنة[٣]، والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقوّل على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي.

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل[٤] الناس فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب. قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[٥].

ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذي رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللّهم نعم». ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص[٦]. فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه. وقال حسان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست

---

(١) أخرجه الإمام أحمد مطولاً (المسند ٣/ ٢٦٣ ـ ٢٧٦ ح١٧٤٠) وحسّنه محققوه.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (الصحيح، المناقب، باب صفة النبي ﷺ ح٣٥٤٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٨/٤٣٧)، وذكر الحافظ ابن حجر أنه قول شاذ (فتح الباري ٦/ ٥٧٠).

(٤) أي ذهبوا مسرعين نحوه ﷺ (النهاية ١/ ٢٧٩).

(٥) أخرجه الترمذي وصححه (السنن، صفة القيامة باب أفشوا السلام وأطعموا الطعام... ح٢٤٨٧)، وابن ماجه (السنن، إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام الليل ح١٣٣٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح١٠٩٧)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ١٣).

(٦) أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك ولم يسم ضمام بن ثعلبة، وإنما قال: رجل من البادية (الصحيح، الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام ح١٢).

بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة]، وبين عُلاك[(١)] مسيلمة ـ قبّحه الله ولعنه ـ: يا ضفدع بنت ضفدعين نقي كما تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين!

وقوله ـ قبّحه الله ـ: لقد أنعم الله على الحبلى إذ أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحَشى[(٢)]!

وقوله خلده الله في نار جهنم ـ وقد فعل ـ: الفيل وما أدراك ما الفيل، له خرطوم طويل!

وقوله ـ أبعده الله عن رحمته ـ: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً إهالة وسمناً إن قريشاً قوم يعتدون..! إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء. ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم حديقة الموت[(٣)] حتفه، ومزق شمله، ولعنه صحبه وأهله، وقدموا على الصدّيق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه: ويحكم أين كان يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إل[(٤)][(٥)].

وذكروا أن عمرو بن العاص وفَدَ على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو! ماذا أنزل على صاحبكم؟ يعني: رسول الله ﷺ في هذه المدة فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ...﴾ [العصر] إلى آخر السورة. ففكر مسيلمة ساعة ثم قال: وأنا قد أُنزل عليَّ مثله فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حفر نقر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب[(٦)].

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه.

---

(١) العُلاك: ما يُعلك ويُمضغ.

(٢) الصفاق: الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر، والحَشىٰ: ما دون الحجاب مما في البطن كله، من الكبد والطحال والكرش.

(٣) الحديقة: اسم لبستان كان بأرض اليمامة، فيها قتل مسيلمة الكذاب، وأصحابه يسمونها حديقة الموت (مراصد الإطلاع ١/ ٣٨٧).

(٤) أي من ربوبية، أو عهد (ينظر: النهاية ١/ ٦١).

(٥) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٥٩).

(٦) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٣٥٩).

فكيف بأولي البصائر والنهى وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى؟ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما في الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبي»[١].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانِّين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟[٢]، ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلَّهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل[٣] بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجَّل الخلق إلى أجل معدود لقُضي بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهراً أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (المسند ٦/ ٤١٢ ح٣٨٦٨)، وحسن سنده محققوه. وجوده الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٨١.

(٢) ذكره الطبري بلفظه.

(٣) تقدم تخريجه وثبوته عن ابن عباس في تفسير سورة البقرة آية ٢١٣.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان] وكقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عالجتهم بالعقوبة، ولهذا لما خيَّر رسول الله ﷺ بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عوجلوا، وبين أن يتركهم وينظرهم اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق[1] باثنتين: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية [الأنعام: ١١١] ولما فيهم من المكابرة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الحجر: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ الآية [الطور: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام] فمثل هؤلاء أقل من أن يُجابوا إلى ما سألوا لأنه لا فائدة في جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب[2]. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢].

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل، أي مطر، ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ (الصحيح، المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية ح٣٦٣٦).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء[(١)] كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[(٢)].

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مُهلة ثم يؤخذ على غَرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير النقير والقمطير.

ثم أخبر تعالى أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك إذ ﴿جَآءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغتلم[(٣)] البحر عليهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً بل يفردونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء] وقال هٰهنا: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هٰهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ﴾ أي: كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخّر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[(٤)].

وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر: قال ابن قتيبة في «كتاب الأنواء»: ومعنىٰ النوء: سقوط نجم في المغرب من النجوم الثمانية والعشرين التي هي منازل القمر. قال: وهو مأخوذ من ناء إذا سقط. وقال آخرون: بل النوء طلوع نجم منها، وهو مأخوذ من ناء إذا نهض، ولا تخالف بين القولين في الوقت لأن كل نجم منها إذا طلع من المشرق وقع حال طلوعه آخر في المغرب لا يزال ذلك مستمراً إلى أن تنتهي الثمانية والعشرون بانتهاء السنة، فإن لكل واحد منها ثلاثة عشر يوماً تقريباً. قال: وكانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء، إما بصنعهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً (فتح الباري ٢/ ٥٢٣، ٥٢٤).

(٢) أخرجه البخاري من حديث زيد بن خالد الجهني (الصحيح، الاستسقاء باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة]، ح١٠٣٨).

(٣) أي: اشتد وهاج.

(٤) أخرجه أبو داود من حديث أبي بكرة ﷺ (السنن، الأدب، باب في النهي عن البغي ح٤٩٠٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٠٩٨)، وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (السنن، صفة القيامة، باب انظروا إلى من هو أسفل منكم ح٢٥١٣)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٦).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضب وغير ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها الفانية ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: حسُنت بما خرج في رُباها من زهور نَضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.

وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم تنعم[1]، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، ولهذا جاء في الحديث: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة، فيقال له: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا، فيغمس في النعيم غمسة ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا»[2].

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود] ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتفلُّتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال في سورة الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف]، وكذا في سورة الزمر[3] والحديد[4] يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان - يعني: ابن الحكم - يقرأ على المنبر: (وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكهم إلا

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.
(٢) أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك ﷺ (السنن، الزهد، باب صفة النار ح٤٣٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٤٨٨)، وأخرجه مسلم بنحوه (الصحيح، صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا ح٢٨٠٧).
(٣) آية ٢١. (٤) آية ٢٠.

بذنوب أهلها). قال: قد قرأتها وليست في المصحف، فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابن عباس، فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني أُبي بن كعب[١].

وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الآية، لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قال أيوب، عن أبي قلابة، عن النبي ﷺ قال: «قيل لي: لتنم عينك وليعقل قلبك ولتسمع أذنك، فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني، ثم قيل لي: مثلي ومثل ما جئت كمثل سيد بنى داراً ثم صنع مأدبة وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد، والله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعي محمد ﷺ»[٢].

وهذا حديث مرسل وقد جاء متصلاً من حديث الليث عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو، الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه، فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير[٣].

وقال قتادة: حدثني خليد العصري، عن أبي الدرداء مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبيتها[٤] ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم، إن ما قلَّ وكفى خير مما كثُر وألهى»، قال: وأنزل في قوله: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير[٥].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وقال محمود شاكر: إسناده هالك. وبيّن موضع الخلل بسبب كذب عبد العزيز وهو ابن أبان الأموي. (ينظر: ميزان الاعتدال ٢/ ٦٢٢).

(٢) أخرجه الطبري من طريق معمر عن أيوب به، وسند مرسل، ويتقوىٰ بما يليه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق حجاج عن الليث به، وفي سنده انقطاع لأن سعيد بن أبي هلال لم يسمع من جابر، وأخرجه الحاكم موصولاً من طريق سعيد بن أبي هلال عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عن جابر، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٣٨)، وأخرجه الدارمي من طريق أبي قلابة عن عطية أنه سمع ربيعة الجرشي. . . فذكره (السنن ح١١)، وجوّد سنده الحافظ ابن حجر (الفتح ١٣/ ٢٥٦)، وأخرجه البخاري من طريق سعيد بن مينا عن جابر بنحوه (الصحيح، الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ح٧٢٨١).

(٤) الجنبة: أي الناحية.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق قتادة به وصححه محمود شاكر. وأخرجه ابن حبان (الإحسان ح٦٨٦)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٤٤، ٤٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٤٤٣).

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته.

وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى وعبد الرحمٰن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق[(١)] وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النار نادى منادٍ: يا أهلَ الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرّ لأعينهم»[(٢)]. وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرني شبيب، عن أبان، عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة ـ بصوت يسمع أولهم وآخرهم ـ إن الله وعدكم الحسنى وزيادة فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمٰن ﷻ»[(٤)]. ورواه أيضاً ابن أبي حاتم من حديث

---

(١) ذكرهم ابن أبي حاتم بحذف السند، وأخرج عبد الرزاق والطبري بعض أقوالهم بأسانيد ثابتة وضعيفة، فقول أبي بكر الصديق أخرجه الطبري وهناد (الزهد ١/ ١٣١ ح١٧٠)، وابن خزيمة (التوحيد ص١٢٠)، والدارقطني (الرؤية ح١٩٣)، كلهم من طريق عامر بن سعد عن أبي بكر، وسنده ضعيف للانقطاع لأن عامر بن سعد لم يسمع من أبي بكر (تهذيب الكمال ١٤/ ٢٣، وتهذيب التهذيب ٥/ ٥٧)، قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: هذا حديث ليس له أصل، منكر (الجرح ٦/ ١٣٧)، وقول حذيفة أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/ ٣٨١)، والآجري (الشريعة ح٥٩١)، كلهم بسند حسن من طريق أبي إسحاق السبيعي عن مسلم بن نذير عنه. وهذا القول له شاهد صحيح مرفوع كما يليه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٣٣٣) وسنده صحيح.

(٣) صحيح مسلم، الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين الآخرة ربهم سبحانه (ح١٨١).

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، ورواه من طريقين آخرين. وضعفه مع الطريقين الأستاذ محمود شاكر. ويشهد له ما سبق في الصحيح.

أبي بكر الهُذلي، عن أبي تميمة الهجيمي به[١].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «النظر إلى وجه الرحمٰن ﷻ»[٢].

وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة: سمعت زهيراً عمن سمع أبا العالية، حدثنا أُبي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله ﷻ»[٣]. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث زهير به[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: قتام[٥] وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان] أي: نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ...﴾ الآيات [إبراهيم]، وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة] وقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران]، وكما قال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي بكر الهذلي به، وأبو بكر هذا متروك وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وضعفه محمود شاكر لضعف إبراهيم بن المختار، ويشهد له ما سبق في صحيح مسلم.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي العالية، ويشهد له ما سبق في صحيح مسلم.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق زهير به، وسنده ضعيف كسابقه.

(٥) أي: غبار.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية، أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس] وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم]، وفي الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل ذلك يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا.

وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كوم(١) فوق الناس»(٢).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم] وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦] وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ الآية [الأحقاف].

وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنّا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمراً بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) الكوم: الموضع المشرف العالي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، مطولاً (المسند ٢٣/ ٦٣ ح١٧٢١)، وقال محققوه: حديث صحيح، هذا إسناد ضعيف من أجل ابن لهيعة، لكن تابعه ابن جريج فيما سيأتي برقم (١٥١١٥).

[الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه وبيّن أحوالهم وأقوالهم، وردّ عليهم فيما هم فيه أتمّ ردٍّ.

وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق] وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] وقد قرأ بعضهم: ﴿هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت﴾[1]، وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى: تتبع ما قدمت من خير وشر.

وفسرها بعضهم بحديث: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت...» الحديث[2].

وقوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته فيخرج منها حباً؟ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس]، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤] ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]، وقوله: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٢٦].

وقوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنّته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك وأن الآية عامة لذلك كله.

(١) والشاهد فيها قراءة: (تتلو) وهي قراءة متواترة.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، الأذان، باب فضل السجود ح٨٠٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (ح١٨٢).

وقوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون؟ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن] فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية، أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهاكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي: فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء؟

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقَّت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار كقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ثم ينشيء ما فيهما من الخلائق ويفرق أجرام السماوات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو.

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: فما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلَّا أفردتم الربَّ جلَّ جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟.

ثم بيّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم، أي توهم وتخيل وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيزة والغريزة النافعة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليه ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين كما تقدم في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب: «فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم»[1]. أي خبر عما سلف وعما سيأتي وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله وقلتم كذباً وميناً: إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بما شاؤوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء] ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]، ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ الآية [البقرة: ٢٤].

---

(١) تقدم في مقدمة التفسير، وسنده ضعيف لضعف الحارث الأعور.

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَل لأحد به ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله، وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»[1].

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السالفة ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً؟ فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية، أي: ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الضلالة، فيضله وهو العادل الذي لا يجور بل يعطي كلاً ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة ولكن ليس ذلك

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي... ح٤٩٨١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ (ح١٥٢).

إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان]. ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، وأضلّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وفي الحديث عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا» إلى أن قال في آخره: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه». رواه مسلم بطوله(١).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

يقول تعالى مذكّراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة، كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الروم].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدارة الآخرة كما قال: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [المؤمنون: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا﴾ [المعارج].

---

(١) صحيح مسلم، البر والصلة، باب تحريم الظلم (ح٢٥٧٧).

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المرسلات] لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا داود بن الجارود، عن أبي السليل، عن حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ قال: عُرضت عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها، فقال رجل: يا رسول الله عُرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق؟ فقال: صوروا لي في الطين حتى أني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه[(١)]. ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بكير، عن زياد بن المنذر، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد به نحوه[(٢)].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة[(٣)] ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر]، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً أمة بعد أمة وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق»[(٤)]. فأُمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل

---

(١) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ٣/ ١٨١ ح٣٠٥٥)، وسنده ضعيف جداً، لأن زياد بن المنذر كذاب (مجمع الزوائد ١٠/ ٦٩).

(٢) أخرجه الطبري بسنده نحوه (المصدر السابق ح٣٠٥٤)، وسنده كسابقه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الجمعة، باب هداية هذه الأُمة ليوم الجمعة ح٨٥٦).

التعيين مما لا فائدة لهم فيه كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] أي: كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الآية، أي: لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة، وأنها كائنة ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ الآية [المنافقون: ١١] ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتةً فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلاً أو نهاراً ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتا وتقريعاً كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

يقول تعالى ويستخبرونك: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [٣]، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار، [سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجلّ ثناؤه][1].

---

(١) زيادة من (حم).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: من الشبه والشكوك، وهو: إزالة ما فيها من رجس ودنس.

﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ الآية [فصلت: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية وذكر بسنده عن بَقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو: سمعت أيفع بن عبد الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له، فجعل عمر يعدُّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى. ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ الآية، وهذا مما يجمعون[1]. وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني فرواه عن أبي زرعة الدمشقي، عن حيوة بن شريح، عن بَقية. . . فذكره[2].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٍ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل[3]، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا. . .﴾ الآيات [الأنعام: ١٣٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سمعت أبا الأحوص ـ وهو: عوف بن مالك بن نضلة ـ يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وفيه بقية لم يصرح بالسماع، وكذلك رواه ابن أبي حاتم معلقاً، وفيه أيفع: وهو ضعيف (التقريب ص١١٧)، فسنده ضعيف.

(٢) في سنده أيضاً أيفع، فسنده ضعيف.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام اسم شيخ الطبري، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

رثٌّ[1] الهيئة فقال: «هل لك مال؟» قلت: نعم. قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك». قال: «هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها، فتعمدَ إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بُحُر[2]، وتشق جلودها وتقول: هذه صُرُم[3]، وتحرمها عليك وعلى أهلك؟ قال: نعم. قال: فإن ما آتاك الله لك حل ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحدُّ من موساك...» وذكر تمام الحديث[4]. ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص[5]، وعن بهز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبي الأحوص به[6]. وهذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحلَّ الله أو أحلَّ ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: ما ظنهم إن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا[7].

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضارٌّ لهم في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله ﷻ، فيقومون بين يدي الله ﷻ ثلاثة أصناف، فيؤتى برجل من الصنف الأول، فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول: يا ربِّ خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدي إنما عملت للجنة هذه الجنة فادخلها، ومن فضلي عليك قد أعتقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي، فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول: يا ربِّ خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها،

---

(١) كذا في الأصول، وفي المسند: قشف، ومعناهما واحد.

(٢) بُحُر: جمع بحيرة، وتقدم تعريفها في سورة المائدة.

(٣) صُرُم: صريمة، وهي التي صُرمت آذانها.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/ ٢٢٢ ـ ٤٢٤)، وصحح سنده محققوه.

(٥) المسند ٤/ ١٣٧.

(٦) المسند ٣/ ٤٧٣، وقال الحافظ ابن كثير: جيد قوي الإسناد.

(٧) ذكره الطبري مطولاً.

فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري خوفاً منها. فيقول: عبدي إنما عملت ذلك خوفاً من ناري، فإني قد أعتقتك من النار، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي، فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول: ربِّ حباً لك وشوقاً إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليك وحُبًّا لك. فيقول تبارك وتعالى: عبدي إنما عملت حُبًّا لي وشوقاً إليَّ، فيتجلى له الربُّ جلَّ جلاله ويقول: ها أنا ذا فانظر إليَّ ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقك من النار وأبيحك جنتي وأزيرك ملائكتي وأسلم عليك بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة[١].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام] فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ الآية [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم به، فكل من كان تقياً كان لله ولياً أنه ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده معضل لأن موسى بن الصباح تابع تابعي، ومثل هذه الرواية لا تؤخذ إلا من أقوال الصحابة وأحاديث النبي ﷺ.

(٢) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة الأعراف آية ١٨٧.

وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله: الذين إذا رُؤوا ذُكر الله[١].

وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار: حدثنا علي بن حرب الرازي، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري ـ وهو: القمي ـ، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله مَن أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكر الله»[٢]. ثم قال البزار: وقد روي عن سعيد مرسلاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرفاعي، حدثنا أبو فضيل، حدثنا أبي، عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن عمرو بن جرير البجلي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[٣].

ثم رواه أيضاً أبو داود من حديث جرير عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب ﷺ، عن النبي ﷺ بمثله[٤]. وهذا أيضاً إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

وفي حديث الإمام أحمد عن أبي النضر، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون...»[٥]، والحديث مطول.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذكوان بن أبي

---

(١) قول ابن مسعود أخرجه ابن أبي الدنيا (الأولياء ص٦٢)، والطبري، والطبراني (المعجم الكبير ١٠ ح١٠٤٧٦)، كلهم من طريق زيد بن الحُباب عن سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي وائل عنه، وزيد بن الحُباب صدوق يخطئ في حديث الثوري (التقريب ص٢٢٢)، ولكن له شواهد فسنده حسن، إذ أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني (المعجم الكبير ١٢/ ١٣ ح١٢٣٢٥) بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) ذكره الهيثمي وعزاه إلى البزار والطبراني وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠/ ٨١) وفي سنده يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو صدوق يهم كما في التقريب، ولعله هو الذي رفعه فإن الوقف أصح.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصححه محمود شاكر، وأخرجه ابن حبان من طريق عمارة بن القعقاع به (الإحسان ٢/ ٣٣٢)، وصحح سنده محققه، وكذا أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ١٧٠)، ونسبه العراقي إلى النسائي في الكبرىٰ ثم صححه (إتحاف السادة ٦/ ١٧٤) وهو في السنن الكبرىٰ، كتاب التفسير (ح١١٢٣٦)، وقد روي من طرق أخرى كما يلي.

(٤) السنن، البيوع، باب في الرهن (ح٣٥٢٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٠١٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده نحوه (المسند ٣٧/ ٥٤٠، ٥٤١ ح٢٢٩٠٦)، وضعفه محققوه لضعف شهر بن حوشب.

صالح، عن رجل، عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»(١).

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبي الدرداء في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ قال: سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة»(٢).

ثم رواه ابن جرير عن سفيان، عن ابن المنكدر، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية... فذكر نحو ما تقدم(٣).

ثم قال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء سئل عن هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾... فذكر نحوه سواء(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾؟ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي - أو قال: أحد قبلك -، تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له»(٥). وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن عمران القطان، عن يحيى بن أبي كثير به. ورواه الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير... فذكره. ورواه علي بن المبارك عن يحيى، عن أبي سلمة قال: نُبئنا عن عبادة بن الصامت سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية... فذكره(٦).

وقال ابن جرير: حدثني أبو حميد الحمصي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموسي، عن حميد بن عبد الله المزني قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. فقال عبادة: ما سألني عنها أحد قبلك، سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك: «ما سألني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٤٤٥)، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وله شواهد تقوية تأتي في الروايات التالية.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده كسابقه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وسنده كسابقه.

(٤) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وأخرجه الترمذي من طريق حماد بن زيد به (السنن، التفسير، سورة يونس ح٣١٠٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٤٨٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٧/ ٣٦٣ ح٢٢٦٨٨)، وقال محققوه: صحيح لغيره. أي بالشواهد لأن أبا سلمة لم يسمع من عُبادة رضي الله عنه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٧٨٦).

(٦) أخرجه الطيالسي من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: نبئت أن عبادة بن الصامت... (المسند ص٧٩ ح٥٨٣)، وأخرجه الحاكم من طريق يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبادة وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٤٠).

العبد المؤمن في المنام أو تُرى له»[١].

ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صفوان، عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له وهي جزء من أربعة وأربعين جزءاً أو سبعين جزءاً من النبوة»[٢].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا بهز، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذرٍّ أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به. فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[٣] رواه مسلم[٤].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا حسن ـ يعني: الأشيب ـ، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا درَّاج، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة، فمن رأى ذلك فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه، فلينفث عن يساره ثلاثاً وليكبر ولا يخبر بها أحداً»[٥] لم يخرجوه.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، حدثني عمرو بن الحارث، أن درَّاجاً أبا السمح حدثه، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة، يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٦].

وقال ـ أيضاً ـ: حدثني محمد بن أبي حاتم المؤدب، حدثنا عمار بن محمد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ قال: «في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي في الآخرة الجنة».

ثم رواه عن أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله، وهي من المبشرات[٧]. هكذا رواه من هذه الطريق موقوفاً.

وقال ـ أيضاً ـ: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة هي البشرى يراها المسلم أو تُرى له»[٨].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصحح سنده الأستاذ محمود شاكر.
(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف موسىٰ بن عبيدة وهو الربذي.
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/١٥٦) وسنده صحيح.
(٤) الصحيح، البر والصلة، باب إذا أثنىٰ على الصالح فهي بشرى (ح٢٦٤٢).
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١١/ ٦٢١ ح٧٠٤٤)، قال محققوه: صحيح لغيره، ابن لهيعة، وإن كان في حفظه شيء متابع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح غير درَّاج، وهو ابن سمعان أبو السمح، وهو صدوق.
(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٧) أخرجه الطبري بسنديه ومتنيه، ويشهد لهما ما سبق.
(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه ويشهد له ما سبق، وأخرجه مسلم من طريق أيوب السختياني عن محمد بن سيرين به (الصحيح، كتاب الرؤيا ح٢٢٦٣).

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن حماد الدولابي، حدثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبي يزيد، عن أبيه، عن سباع بن ثابت، عن أم كريز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»[١].

وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح[٢] وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة[٣]. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

وفي حديث البراء رضي الله عنه: أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء[٤]، وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد] وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فـ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم.

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وصححه محمود شاكر، وأخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة بنحوه (الصحيح، التعبير، باب المبشرات ح٦٩٩٠).

(٢) قول ابن مسعود أخرجه الطبري من طريق إبراهيم التيمي عنه وصححه محمود شاكر، وقول أبي هريرة تقدم قبل الرواية السابقة في صحيح مسلم، وقول ابن عباس أخرجه ابن أبي شيبة بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عنه(المصنف ٧/ ٢٣٢) والطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول عروة أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق عبدة عنه (المصنف ١١/ ٥٤)، وقول يحيىٰ بن أبي كثير أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر بن راشد عنه، وقول إبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح أخرجه الطبري بأسانيد ضعيفة ويشهد لها ما سبق.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق معمر عن الزهري وقتادة.

(٤) أخرجه الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مطولاً (المسند ٤/ ٢٨٧)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (ح١٦٧٢).

ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه من نصبهم وكلامهم وحركاتهم ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدّرها ومسيّرها.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

يقول تعالى منكراً على من ادَّعى أن له ولداً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ أي: تقدّس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له؟ ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

ثم توعّد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [لقمان: ٢٤] كما قال تعالى هٰهنا: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: مدة قريبة ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أي: الموجع المؤلم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ أي: عَظُم عليكم ﴿مَّقَامِي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: فإني لا

أبالي ولا أكفّ عنكم سواء عظم عليكم أولاً ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً بل أفصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فـ﴿اقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، أي: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم، ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء كما قال هود لقومه: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ الآية [هود].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم نصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله ﷻ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] قال ابن عباس: سبيلاً وسنة[1].

فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١] وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة] وقال يوسف: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف] وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقالت السحرة: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام] أي: من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات وديننا واحد»[2]. أي: وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: أولاد علّات، وهم: الإخوة من أمهات شتّى والأب واحد. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: على دينه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والأدلة

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس ما في سورة المائدة آية ٤٨.

(٢) تقدم تخريجه في سورة المائدة آية ٤٨.

والبراهين على صدق ما جاءوهم به ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض(١).

وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء]، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: قومه ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: حججنا وبراهيننا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ كأنهم ـ قبحهم الله ـ أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤] ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ منكراً عليهم ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: الدين الذي كانوا عليه ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذَّر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن ربى هذا الذي يحذر منه

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، التفسير سورة الإسراء) باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] (ح٤٧١٢)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (ح١٩٤).

(٢) تقدم تخريجه وصححه في تفسير سورة البقرة آية ٢١٣.

على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده، ويرجع إليه هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر، وأخذته الحمية والنفس الخبيثة الأبية وقوى رأسه وتولى بركنه، وادَّعى ما ليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى حفيظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام.

ولم تزل المحاجَّة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء ومرة بعد مرة[1]، مما يبهر العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] وصمم فرعون وملؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يتهرَّج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٣٠﴾[2] قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الشعراء] فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه] فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ﴿أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه] فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن - يعني: الدشتكي -،

---

(١) في (حم): «كرة بعد كرة».

(٢) من هنا يُستأنف الأصل.

أخبرنا أبو جعفر الرازي، عن ليث ـ [وهو: بن أبي سليم][(١)] ـ قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ والآية الأخرى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف] إلى آخر أربع آيات وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩][(٢)].

📖 ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى ﷺ مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم: الشباب على وجلٍ وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون ـ لعنه الله ـ كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً.

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه[(٣)].

وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يقول: بني إسرائيل[(٤)].

وعن ابن عباس والضحاك وقتادة الذرية: القليل[(٥)].

وقال مجاهد في قوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم[(٦)]. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين.

وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ﷺ واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذَّر كل الحذر، فلم يجد عنه شيئاً ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشدَّ الأذى و﴿قَالُوٓا۟

---

(١) كذا في النسخ الخطية، ولم يذكر في تفسير ابن أبي حاتم، والزيادة موضحة وصحيحة.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف منقطع لأن ليث بن أبي سليم رواه بلاغاً، وهو من أتباع التابعين.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.
(٥) قول ابن عباس وقتادة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق قتادة عن ابن عباس، وقتادة لم يسمع من ابن عباس، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف لم يصرح باسم شيخه.
(٦) أخرجه الطبري بعدة أسانيد عن مجاهد يقوي بعضها بعضاً.

أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف].

وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً بحباله.

ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه، فقد أبعد وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة، ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ من توكل عليه ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل] وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لا تظفرهم بنا وتسلّطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا رُوي عن أبي مجلز وأبي الضحى[1].

وقال ابن أبي نجيح وغيره، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم، فيُفتنوا بنا[2].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا[3].

وقوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلّصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

---

(١) قول أبي مجلز أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عمران بن حدير عنه، وقول أبي الضحىٰ أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سفيان الثوري عن أبيه عنه.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح به.

(٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده صحيح.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا، أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

فقال الثوري وغيره: عن خُصيف، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أُمروا أن يتخذوها مساجد[(١)].

وقال الثوري ـ أيضاً ـ، عن ابن منصور، عن إبراهيم ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: كانوا خائفين فأُمروا أن يصلوا في بيوتهم[(٢)]. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم[(٣)].

وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتَّد بهم البلاء من قِبل فرعون وقومه، وضيَّقوا عليهم أُمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أبو داود[(٤)].

ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب والنصر القريب.

وقال العوفي، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية، قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأُمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة[(٥)].

وقال مجاهد: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة، أُمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً[(٦)]. وكذا قال قتادة والضحاك[(٧)].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وفي سنده خُصيف وهو ابن عبد الرحمن الجزري وهو صدوق سيء الحفظ كما في التقريب، وقد توبع بواسطة حميد الطويل في رواية أخرى أخرجها الطبري، فسنده حسن.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الثوي وفي سنده ابن وكيع شيخ الطبري، ولكنه توبع فالإسناد حسن.

(٣) قول مجاهد أخرجه سعيد بن منصور (التفسير ح١٠٧٢)، وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول أبي مالك أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عنه، وقول الربيع بن أنس أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عنه، وقول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي سنان، وهو سعيد بن سنان عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن به ويتقوىٰ بما سبق.

(٤) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة البقرة آية ١٥٣.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٦) أخرجه الطبري بأسانيد عن مجاهد يقوي بعضها بعضاً.

(٧) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر بن راشد عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند =

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: يقابل بعضها بعضاً(١).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلوا وتكبراً وعتواً قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء، أي أعطيتهم ذلك، وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] وقرأ آخرون ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء(٢)، أي: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها؛ وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة.

وقال محمد بن كعب القرظي: جعل سكّرهم حجارة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا يحيى بن أبي بكير، عن أبي معشر، حدثني محمد بن قيس، أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الآية، فقال عمر: يا أبا حمزة أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: ائتني بكيس. فجاءه بكيس، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة(٣).

وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها(٤). ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح] ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

= ضعيف، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان، فيه مقال.

(١) أخرجه الطبري كسابقه ويتقوى بما يليه إذ أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعن ابن عباس.

(٢) القراءتان بالفتح والضم متواترتان.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف أبي معشر وهو نجيح السندي.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس.

قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّن هارون[١]. أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمَّن وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ الآية، أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري.

قال ابن جريج، عن ابن عباس: فاستقيما فامضيا لأمري وهي الاستقامة[٢]. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة[٣].

وقال محمد بن علي بن الحسن: أربعين يوماً[٤].

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل: ست مئة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القِبط حُليًّا كثيراً، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أُبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان.

وألحّ أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال: كيف المَخلَص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك هٰهنا ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، أي: كالجبل العظيم، وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى وهو في مئة ألف أدهم[٥] سوى بقية الألوان، فلما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بحذف السند إلا أثر أبي العالية والربيع فقد أخرجه بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، والبقية أخرج آثارهم الطبري بأسانيد ضعيفة عنهم.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه انقطاع بين ابن جريج وابن عباس، وفيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري بالإسناد المتقدم دون ذكر ابن عباس، وفيه أيضاً الحسين، ورواية ابن جريج من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً من طريق سعد بن طريف وهو متروك ـ واتهم بالوضع كما في التقريب ـ عن محمد بن علي بن الحسين.

(٥) أدهم: أي فرس.

رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهمَّ بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص نفذ القدر واستجيبت الدعوة وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق[١] حائل[٢] فمرَّ إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلُّهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا[٣] فيه وتكاملوا وهمَّ أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم، فلم ينجُ منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال - وهو كذلك -: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

وهكذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا الوقت تقول وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص].

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. قال: قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة»[٤].

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به، وقال الترمذي: حديث حسن[٥].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت، وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة»[٦].

وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضاً وابن جرير أيضاً من غير وجه عن شعبة به، فذكر مثله،

---

(١) هي الفرس التي تشتهي الفحل (ينظر: النهاية ٥/ ١٩٨).

(٢) حائل: غير حامل. (٣) أي اجتمعوا.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٣٠ ح٢٨٢٠)، وضعفه محققوه لضعف علي بن زيد... وقالوا: والأصح وقفه. وله شواهد تقويه كما يليه، وإذا صح موقوفاً فإن له حكم الرفع، لأنه من الغيبيات التي أخبر عنها جبريل عليه السلام.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والترمذي كلهم من طريق حماد بن سلمة به (سنن الترمذي، تفسير سورة يونس ح٣١٠٦)، وحسنه الترمذي، ومن الطريق نفسه أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥٧)، وصححه الحافظ ابن حجر (الكاف الشاف ٢/ ٣٦٨).

(٦) أخرجه الطيالسي بسنده ومتنه (المسند ح٢٦١٨) وسنده صحيح.

وقال الترمذي: حسن غريب صحيح[(١)]، ووقع في رواية عند ابن جرير عن محمد بن المثنى، عن غندر، عن شعبة، عن عطاء وعدي، عن سعيد، عن ابن عباس رفعه أحدهما فكأن الآخر لم يرفع، فالله أعلم[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه.

وكذا رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبي خالد به موقوفاً[(٣)].

وقد رُوي من حديث أبي هريرة أيضاً فقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، عن عنبسة ـ هو ابن أبي سعيد ـ عن كثير بن زاذان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريل: يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدسُّ من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له، يعني: فرعون[(٤)].

كثير بن زاذان هذا قال ابن معين: لا أعرفه. وقال أبو زرعة وأبو حاتم: مجهول. وباقي رجاله ثقات، وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف قتادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل عن الضحاك بن قيس أنه خطب بهذا للناس[(٥)]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة[(٦)] على نجوة من الأرض ـ وهو المكان المرتفع ـ ليتحققوا موته وهلاكه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك[(٧)].

وقال الحسن: بجسم لا روح فيه[(٨)].

وقال عبد الله بن شداد: سوياً صحيحاً[(٩)]. أي: لم يتمزق ليحققوه ويعرفوه.

---

(١) السنن، تفسير سورة يونس (ح٣١٠٧)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ح٦٢١٥).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسواء رُفع أم أُقف فإن له حكم الرفع كما تقدم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه وكذا الطبري، وفي سنديهما عمر بن عبد الله الثقفي: وهو ضعيف، كما في التقريب، ويتقوىٰ بما سبق.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف فيه كثير بن زاذان كما نقل الحافظ ابن كثير، ولكن يشهد له ما سبق.

(٥) هذه المراسيل أخرجها الطبري بأسانيد ضعاف، تتقوىٰ بما سبق.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بنحوه من غير ذكر الدرع، أما ذكر الدرع فسيأتي بعد ثلاث روايات.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أبي بكر الهذلي عن الحسن، وأبو بكر الهذلي هو سلمى بن عبد الله: وهو متروك، كما في التقريب.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً.

وقال أبو صخر: بدرعك[1]. وكل هذه الأقوال لا منافاة بينهما كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابَّة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ولهذا قرأ بعضهم ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْقَكَ[2] آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها.

وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُندر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموه»[3].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية الدنيوية، وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف] وقال في الآية الأخرى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء] ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة فنكَل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان، فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة، فاستعانت اليهود - قبحهم الله - على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق مفضل بن فضالة بن عبيد عن أبي صخر، وأبو صخر هو: حميد بن زياد بن أبي المخارق.

(٢) (خلقك) بالقاف، وهي قراءة شاذة.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [يونس: ٩٠] ح٤٦٨٠).

ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاث مئة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفاً قبل ذلك، فدخل في دين النصارى. قيل: تقية. وقيل: حيلة. ليفسده فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبِيَع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات[1]، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم.

وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبُصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذٍ وصلوا إلى الشرق وصوَّروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول، والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً.

وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بيَّن الله لهم، وأزال عنهم اللبس وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[2]. رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»[3]. وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري[4]. وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ

---

(١) القلايات جمع قلية: وهي الصومعة الصغيرة.

(٢) أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ١٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (ح٥١٩٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وسنده ضعيف بسبب إرسال قتادة.

(٤) قول ابن عباس وسعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن أبي =

موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفس إيمانها، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام] ثم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

يقول تعالى: فهلّا كانت قرية آمنت بكمالها من الأُمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس]، ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

وفي الحديث الصحيح[1]: «عُرض عليّ الأنبياء، فجعل النبيّ يمرُّ ومعه الفئام من الناس، والنبيّ يمرُّ معه الرجل، والنبيّ معه الرجلان، والنبيّ ليس معه أحد»، ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام.

ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى[2]، وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأُخروا كما قال تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

= وحشية، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤] قال: لم يشك رسول الله ولم يسأل، وقول الحسن البصري أخرجه سعيد بن منصور (التفسير ح١٠٧٧)، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير ومنصور عنه.

(١) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه (صحيح البخاري، الطب، باب من لم يرق ح٥٧٥٢)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (ح٢٢٠).

(٢) أي أهل الموصل، وهي ثاني مدينة في العراق تقع شمال بغداد، أسأل الله تعالى أن يفك أسر العراق من المحتلّين.

واختلف المفسرون: هل كَشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط على قولين:

أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية.

والثاني: فيهما لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله أربعين ليلةً، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم. قال قتادة: وذُكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل[1]. وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف[2].

وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت)[3].

وقال أبو عمران، عن أبي الجلد قال: لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعوا به لعل الله أن يكشف عنا العذاب. فقال: فقالوا: يا حي حين لا حي، يا حي محيي الموتى [ويا حي][4] لا إله إلا أنت. قال: فكشف عنهم العذاب[5]. وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات - إن شاء الله -.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذِن لأهل الأرض كلِّهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلُّهم. ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طرق صحيحة لكنه مرسل.

(٢) أخرجه الطبري عن ابن مسعود وسعيد بن جبير بأسانيد ضعيفة، وأخرجه بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وهذه الروايات مع ما سبق يقوي بعضها بعضاً.

(٣) قراءة (فهلا): قراءة شاذة تفسيرية، وقد رواها عبد الرزاق عن معمر قال: بلغني في حرف ابن مسعود... فذكرها. ومعمر لم يسمع من ابن مسعود ﷺ.

(٤) زياد من (حم) وتفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم، وسقط من الأصل ومن النسخ المطبوعة المعتمدة على النسخة الأزهرية كطبعة الشعب، وسلامة، ومكتبة أولاد الشيخ.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (الزهد ص٣٤)، والطبري وابن أبي حاتم كلهم من طريق صالح المري عن أبي عمران الجوني به، وصالح المري، هو ابن بشير: وهو ضعيف، كما في التقريب.

مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعّال لما يريد، الهادي من يشاء، المُضلّ لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾.

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السماوات من كواكب نيرات ثوابت وسيارات والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر](١) مذلل للسالكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسل ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أي أنه قال: «إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي»(٢).

---

(١) زيادة من (حم) و(مح) لا توجد في الأصل.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: =

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل: يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليَّ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الآية، أي: أخلص العبادة لله وحده حنيفاً، أي منحرفاً عن الشرك ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ...﴾ الآية. فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب، أخبرني يحيى بن أيوب، عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»(١).

ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله سواء(٢).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

يقول تعالى آمر لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا

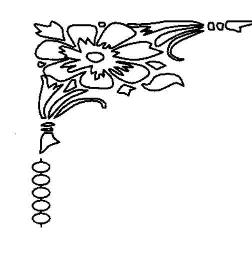
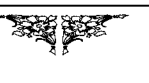
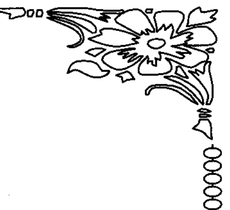
= ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧] ح٣١٩٤)، وصحيح مسلم، التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى... (ح٢٧٥١).

(١) سنده ضعيف لضعف عيسىٰ بن موسىٰ (الجرح والتعديل ٦/ ٢٨٥) وفيه أيضاً صفوان بن سليم لم يسمع من أنس ﷺ ولم تصح روايته عن أنس كما قال أبو حاتم (ينظر: تهذيب التهذيب ٤/ ٤٢٦).

(٢) سنده ضعيف أيضاً لإبهام الراوي عن أبي هريرة ﷺ.

مرية فيه ولا شك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضلَّ عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ﴾ أي: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: خير الفاتحين بعدله وحكمته.

سُورَةُ هُودٍ

وهي مكية

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا أبو الأحوص، عن أبي إسحاق، عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ: ما شيَّبك؟ قال: «شيبتني هود، والواقعة، و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝﴾ [النبأ]، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾»[١] [التكوير].

وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبتَ! قال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾ وفي رواية: «هود وأخواتها»[٢].

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا حماد بن الحسن، حدثنا سعيد بن سلام، حدثنا عمر بن محمد، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝﴾ وفي رواية: «هود وأخواتها»[٣].

وقد روي من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أحمد بن طارق الرائشي، حدثنا عمرو بن ثابت، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن أبا بكر قال: يا رسول الله ما شيبك؟ قال: «هود والواقعة»[٤]. عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود. والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ١/١٠٢ ح١٠٧) وسنده ضعيف لأن عكرمة لم يسمع من أبي بكر رضي الله عنه (مجمع الزوائد ٧/٣٧، ١١٨).

(٢) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه، ثم ذكره مرسلاً (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة الواقعة ح٣٢٩٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٣٥٢٨)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٤٧٦) ولكن أعله أبو حاتم حينما سئل عن هذا الإسناد فقال: هذا خطأ ليس فيه ابن عباس (العلل لابن أبي حاتم ٢/١١٠).

(٣) المعجم الكبير ٦/١٨٣ (٥٨٠٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه سعيد بن سلام العطار وهو كذاب (مجمع الزوائد ٧/ ٤٠).

(٤) المعجم الكبير ١٠/١٢٥ (ح١٠٠٩٢) وسنده ضعيف جداً لأن عمرو بن ثابت متروك كما قال الحافظ ابن كثير، وذكر أيضاً الانقطاع بين أبي إسحاق وابن مسعود.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة[1] واختاره ابن جرير.

ومعنى قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه خبير بعواقب الأمور ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[2].

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ أي: وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله ﷻ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ أي: في الدنيا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ أي: في الدار الآخرة. قاله قتادة[3] كقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل].

وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك»[4].

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «فُسِّرت»، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عنه بلفظ: «أحكمها الله من الباطل، ثم فصلها: بيَّنها»، وكذا أخرجه الطبري من الطريق نفسه.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء] ح٤٧٧٠)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب في قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾ (ح٢٠٨).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الشيخان (صحيح البخاري، الدعوات، باب الدعاء برفع الوباء والوجع ح٦٣٧٣، وصحيح مسلم، الوصية، باب الوصية بالثلث ح١٦٢٨).

وقال ابن جرير: [حُدثت][١] عن المسيب بن شريك، عن أبي بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن مسعود ﷺ في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده على أعشاره[٢].

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معادكم يوم القيامة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، رواه البخاري من طريق ابن جريج، عن محمد بن عباد بن جعفر، أن ابن عباس قرأ: «ألا إنهم تثنوني صدورهم» فقلت: يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى، فيستحي فنزلت: (ألا إنهم تثنوني صدورهم)[٣].

وفي لفظ آخر له قال ابن عباس: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم[٤].

ثم قال: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، قال قرأ ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾[٥].

قال البخاري: وقال غيره عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم[٦].

وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به: الشك في الله وعمل السيئات[٧]. وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم؛ أي: أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون

---

(١) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وسقطت من الأصل.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً، لأن المسيب بن شريك متروك (الجرح والتعديل ٨/ ٢٩٤)، وفيه أيضاً إبهام شيخ الطبري.

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه بالقراءة الشاذة التفسيرية (صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ...﴾ [هود: ٥] ح٤٦٨١) قال الحافظ ابن حجر: عن قراءة «تثنوني» على وزن تفعوعل (الفتح ٨/ ٣٥٠).

(٤) المصدر السابق (ح٤٦٨٢). (٥) المصدر السابق (ح٤٦٨٣).

(٦) المصدر السابق.

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق معمر قال: أُخبرت عن عكرمة عن ابن عباس، ورجاله ثقات لكن سنده منقطع بين معمر وعكرمة، ويشهد له ما أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل[١].

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: يعلم ما تكنّ صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتمن اللّه ما في نفوسكم ليخفى فمهما يكتم اللّه يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم[٢]

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة.

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مرَّ برسول الله ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك[٣].

وعود الضمير إلى (الله) أولى لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقرأ [ابن عباس][٤]: ألا إنهم تثنوني صدورُهم[٥]، برفع[٦] الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها ومستودها، أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض؟ وأين تأوي إليه من وكرِها؟ وهو: مستودعها.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: حيث تأوي ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث تموت[٧].

وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الصلب كالتي في الأنعام[٨]، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك[٩] وجماعة.

---

(١) قول مجاهد تقدم في سابقه بنحو قول ابن عباس، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عنه.
(٢) ديوان زهير بن أبي سلمىٰ ص١٨.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق حصين بن عبد الرحمن السلمي عن عبد الله بن شدأ، لكنه مرسل لم يرو من طريق آخر.
(٤) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل: «ابن مسعود».
(٥) قراءة: (تثنوني صدوُرهم). شاذة تفسيرية.
(٦) أخرجه البخاري كما تقدم تخريجه من بداية تفسير الآية، ولكن يبقىٰ حكم القراءة شاذة تفسيرية لا يُقرأ بها.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه.
(٨) أي في سورة الأنعام آية ٩٨ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . . .﴾ [الأنعام: ٩٨] وهذا الأثر أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٩) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف لم يصرح باسم شيخ الطبري.

وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا[(١)] كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم. وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن مُحرز، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشرتنا، فأعطنا، قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن» قالوا: قد قبلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء» قال: فأتاني آتٍ فقال: يا عمران انحلّت ناقتك من عقالها، قال: فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدي[(٢)]. وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة، فمنها قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله[(٣)] - وفي رواية: «غيره»[(٤)]، وفي رواية: معه[(٥)] - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السمٰوات والأرض».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عمن تقدم ذكرهم وعن ابن مسعود وقيس بن أبي حازم وأبي عبد الرحمن السلمي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة والسدي وعطاء الخراساني بنحو ما تقدم وبحذف السند. ومعظم هذه الآثار أخرجها عبد الرزاق والطبري في تفسيريهما مسندة وبعضها أخرجها الطبراني في المعجم الكبير (٩٠١٧)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٣/ ١٠٨ ح١٩٨٧٦) وصحح سنده محققوه.

(٣) أخرجه البخاري من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه (الصحيح، التوحيد، باب ﴿عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وهو رب العرش العظيم ح٧٤١٨).

(٤) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ...﴾ [الروم: ٢٧] (ح٣١٩١).

(٥) هذه الرواية مقحمة غير صحيحة نبه عليها الحافظ ابن حجر فقال: وقع في بعض الكتب في هذا الحديث: «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن ما عليه كان» وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث، نبه على ذلك العلامة تقي الدين بن تيمية (فتح الباري ٦/ ٢٨٩).

(٦) صحيح مسلم، القدر، باب حِجاج آدم وموسى عليهما السلام (ح٢٦٥٣).

وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، أخبرنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله ﷻ: أنفق أُنفق عليك» وقال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار» وقال: «أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عُدُس، عن عمه أبي رزين واسمه: لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك»(٢). وقد رواه الترمذي في التفسير وابن ماجه في السنن من حديث يزيد بن هارون به وقال: الترمذي: هذا حديث حسن(٣).

وقال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل أن يخلق شيئاً(٤)، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة [وابن جريج](٥) وغير واحد(٦).

وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السمٰوات والأرض؟(٧).

وقال الربيع بن أنس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فلما خلق السمٰوات والأرض قسم ذلك الماء قسمين: فجعل نصفاً تحت العرش وهو: البحر المسجور(٨).

وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه(٩).

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء(١٠).

وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة الفعال لما يريده(١١).

---

(١) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (ح٤٦٨٤).
(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٦/١٠٨ ح١٦١٨٨) وضعفه محققوه لجهالة وكيع بن عُدُس.
(٣) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة هود (ح٣١٠٨)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (ح١٨٢) وحكمه كسابقه.
(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٥) كذا في تفسير الطبر وفي الأصل: «ابن جرير».
(٦) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع به وسنده مرسل، لأن مثل هذا لا يؤخذ إلا من الوحي.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسماعيل به، وسنده مرسل لأن مثل هذا من الأمور الغيبية التي لا تؤخذ إلا من الوحي.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده حسن عن ابن إسحاق.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولم يخلق ذلك عبثاً كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الآية [الذاريات].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملاً، بل أحسن عملاً، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت] وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يقولون كفراً وعناداً: ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ الآية. يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ما يحبسه، أي يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد، والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾.

وقوله في يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥]، وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل]، وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل في الجماعة كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق الأعمش به.

والمراد من الأُمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأُمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[١].

وأما أُمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي الصحيح «فأقول: أُمتي أُمتي»[٢].

وتستعمل الأُمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف] وكقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضي الحال، كأنَّه لم يرَ خيراً ولم يرجُ بعد ذلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ أي يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: فرح بما في يده بطر فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّرَ الله عنه بها من خطاياه»[٣]. وفي الصحيحين: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن»[٤]، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر] وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ الْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

---

(١) صحيح مسلم، الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ (ح١٥٣).
(٢) صحيح البخاري، التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (ح٧٥١٠).
(٣) صحيح البخاري، المرضىٰ، باب ما جاء في كفارة المرضى (ح٥٦٤١)، وصحيح مسلم، البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من المرض (ح٢٥٧٣).
(٤) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة يونس آية ١٢.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عمَّا كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان] فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنينه عن دعائهم إلى الله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر] وقال هٰهنا: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟﴾ أي: لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذبوا وأُوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ، ثم بيّن تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله لأن كلام الربِّ تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه، ثم قال تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، ﴿وَحَبِطَ﴾ عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين[(١)]. وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد[(٢)].

وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت في اليهود والنصارى[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بنحوه، وليس فيه: إن أهل الرياء، وهذه الزيادة أخرجها الطبري بسند ضعيف من طريق وهيب أنه بلغه عن مجاهد.. فذكره، ويشهد لرواية العوفي ما يلي:

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عبيد بن سليمان عنه.

(٣) قول أنس بن مالك أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق قتادة عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري =

وقال مجاهد وغيره: نزلت في أهل الرياء[١].

وقال قتادة: من كانت الدنيا همه [وسدمه][٢][٣] وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطىَ بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة[٤].

وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا[٥].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» الحديث[٦].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأَمَرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[٧].

وفي المسند والسنن: «كل مولود يولد على هذه الملَّة حتى يعرب عنه لسانه...» الحديث[٨]، فالمؤمن باقٍ على هذه الفطرة.

= بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عنه.

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف كما تقدم قبل تعليقين.

(٢) كذا في تفسير الطبري وابن أبي حاتم، وفي الأصل: «سدته»، وفي (حم): «شدته».

(٣) السدم: هو الولوع بالشي.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) أخرج ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «من كانت الدنيا همَّه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له...» (السنن، الزهد، باب اللهم بالدنيا ح٤١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣١٣).

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩. (٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنعام آية ٧٩.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٢٤/٣٥٧ ح١٥٥٨٩)، وأخرجه ابن حبان (الإحسان ح١٣٢)، =

قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهد من الله وهو: ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنه جبريل عليه السلام[١].

وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو: محمد ﷺ[٢]. وكلاهما قريب في المعنى، لأن كلاً من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، وقيل: هو عليّ[٣]، وهو ضعيف لا يثبت له قائل. والأول والثاني هو الحق، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهو القرآن بلَّغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلَّغه النبي محمد ﷺ إلى أُمته، ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزله الله تعالى إلى تلك الأُمة إماماً لهم وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأُمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[٤].

وقال أيوب السختياني، عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه ـ أو قال: تصديقه ـ في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي

= والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/١٢٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٤٠٢).

(١) قول ابن عباس وعكرمة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عكرمة عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الثوري بسند صحيح من طريق منصور عن مجاهد، وقول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه، وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول الضحاك والسدي أخرجه الطبري بأسانيد ضعيفة تتقوىٰ بما سبق.

(٢) قول علي رضي الله عنه أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابنه محمد عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق جابر عن عبد الله بن نجي عن علي، وفي سنده جابر وهو الجعفي وهو ضعيف شيعي، وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ح١٥٣)، ومن طريق شعبة به أخرجه الإمام أحمد (المسند ٤/٣٩٦).

أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار» فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ قال: من الملل كلِّها[1].

وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٩ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ۝٢٠ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾.

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان، أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إن الله ﷻ يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم» ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]. أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به[3].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يردُّون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ [ويجنبونهم][4] الجنة ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويريدون أن يكون طريقهم

---

(١) أخرجه الحاكم موصولاً من طريق أبي عمرو البصري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٤٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣١٨ ح٥٤٣٦) وصحح سنده محققوه.

(٣) صحيح البخاري، المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] (ح٢٤٤١)، وصحيح مسلم، التوبة، باب قبول توبة القاتل... (ح٢٧٦٨).

(٤) في الأصل غير منقوطة، وفي (حم): «بحجة».

عوجاً غير معتدلة ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[(١)]، ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية، أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صُمًّا عن سماع الحق عُمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل]، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبوه، ولهذا كان أصح الأقوال: أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية فهم معذبون فيها لا يُفتّر عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئاً بل ضرتهم كل الضرر، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم] وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم، ولهذا قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فآمنت

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية ١٢٦.

قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسمٰوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون، ولا يهرمون ولا يمرضون ولا ينامون، ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال].

وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يُميِّز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن نوح ﷺ وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍ منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: في أول بادئ الرأي ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها، هذا اعتراض

الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل[1].

وقولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لا بدّ من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء بل لا يفكر ويُروي ههنا إلا غبي أو عيي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جليٍّ واضح.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم»[2]. أي ما تردد ولا تروّى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفّاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح ما ردّ على قومه في ذلك: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على يقين وأمر جليّ ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً، أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر

---

(١) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة الأنعام آية ٥٤.

(٢) أخرجه البيهقي من طريق محمد بن إسحاق قال: «حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي...» مرسلاً (دلائل النبوة ٢/ ١٦٤)، وذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ٢٦٧)، ولبعضه شاهد أخرجه البخاري من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله...» (الصحيح، فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً...» ح٣٦٦١).

من الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ...﴾ الآيات [الأنعام: ٥٢]، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملَك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقرونهم وتزدرونهم: إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى، ولو قطعَ لهم أحدٌ بشرٍ بعد ما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق. ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ أي: أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ أي: إغواؤكم ودماركم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجوز، له الخلق وله الأمر، وهو المبديء المعيد مالك الدنيا والآخرة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها، ومقرر لشأنها يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون، افترى هذا وافتعله من عنده ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: فإثم ذلك عليّ ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر] فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ يعني السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي: تعليمنا لك ما تصنعه ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فقال لبعض السلف: أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسه، فكان ذلك في مائة سنة، ونجرها في مائة سنة أخرى[١].

وقيل: في أربعين سنة[٢]. والله أعلم.

وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً، وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً أزوراً[٣] يشق الماء[٤].

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين[٥].

وعن الحسن: طولها ستمائة ذارع وعرضها ثلثمائة[٦].

وعنه مع ابن عباس: طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة[٧].

وقيل: طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع[٨]، فالله أعلم.

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً من حديث علي بن زيد بن جدعان، عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق مالك عن زيد بن أسلم، والرواية من أخبار أهل الكتاب.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار، وهو معروف برواية الإسرائيليات.

(٣) أي عظام الصدر المقوسة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن إسحاق عن رجل مجهول.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه قال: ذُكر لنا.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق جرير بن حازم عن الحسن.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق نوح بن قيس عن محمد بن سيف عن الحسن البصري.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عوف الأعرابي عن الحسن، وكل هذه الروايات هي من أخبار أهل الكتاب كما صرح الحافظ ابن كثير عن ابن إسحاق أنها من التوراة.

يوسف بن مهران، عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه فقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: فضرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله. فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب.

قال له عيسى ﷺ: أهكذا هلكت؟ قال: لا، ولكني متُّ وأنا شاب، ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال؟ حدثنا عن سفينة نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاثة طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير، فلما كثر روث الدواب أوحى الله ﷻ إلى نوح ﷺ أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب، فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر.

فقال له عيسى ﷺ: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة، فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت قال: فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت قال: فقلنا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال فقال له: عُد بإذن الله فعاد تراباً[(١)].

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ أي: يهزءون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ الآية، وعيد شديد وتهديد أكيد ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يهينه في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه موعدة من الله تعالى لنوح ﷺ إذا جاء أمر الله من الأمطار المتابعة والهتّان[(٢)] الذي لا يُقلع ولا يفتر، بل هو كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر].

وأما قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس التنور: وجه الأرض[(٣)]. أي: صارت الأرض عيوناً

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد بن جدعان به، وعلي بن زيد ضعيف، فالرواية سندها ضعيف وهي من الغرائب والعجائب التي يستغنىٰ عنها في التفسير.

(٢) أي الأمطار التي تنصب صبًّا.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (السنن، التفسير ح١٠٨٧)، والطبري وابن أبي حاتم كلهم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس.

تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء. وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ: التنور: فلق الصبح وتنوير الفجر[١]، وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر.

وقال مجاهد والشعبي: كان هذا التنور بالكوفة[٢].

وعن ابن عباس: عين بالهند[٣].

وعن قتادة: عين بالجزيرة يقال لها: عين الوردة[٤]. وهذه أقوال غريبة.

فحينئذٍ أمر الله نوحاً ﷺ أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى.

فقيل: كان أول من أدخل من الطيور الدرة، وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار، فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه، فجعل يقول له نوح ﷺ: ما لك ويحك ادخل. فينهض ولا يقدر فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحُمَّى[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه: وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد؟ فسلط الله عليه الحُمَّى، فكانت أول حُمَّى نزلت في الأرض، ثم شَكَوا الفأر فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها»[٦].

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم: أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه: (يام) الذي انعزل وحده وامرأة نوح، وكانت كافرة بالله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: من قومك ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن زياد مولىٰ أبي جُحيفة عن أبي جُحيفة عن علي ﷺ، وعبد الرحمن بن إسحاق: وهو ضعيف كما في التقريب، وزياد: مجهول (ميزان الاعتدال ٢/ ٨٩).

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ليث بن أبي سليم عنه، وقول الشعبي أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً من طريق السري بن إسماعيل عن الشعبي، والسري هذا متروك (التقريب ص٢٣٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً من طريق النضر أبي عمر، وهو الحراز، عن عكرمة عن ابن عباس، والنضر: متروك (ميزان الاعتدال ٤/ ٢٦٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد ضعيف كما في التقريب.

(٥) هذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرساله، وهو من الإسرائيليات أيضاً.

منهم نساؤهم[١].

وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً[٢]. وقيل: كانوا عشرة[٣]، وقيل: إنما كان نوح وبنوه الثلاثة: (سام وحام ويافث) وكنائنه الأربع[٤] نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة (يام)، وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوّها، وقرأ أبو رجاء العطاردي (بسم الله مُجريها ومُرسيها)[٥].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون] ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابّة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف]، وجاءت السُّنة بالحث على ذلك والندب إليه، كما سيأتي في سورة الزخرف ـ إن شاء الله وبه الثقة.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا محمد بن موسى الحرشي قالا: حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك» ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر] ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار، وهو معروف برواية الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري بسنده عن ابن إسحاق، وهو كسابقه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن عن الحكم، وهو ابن عتيبة.

(٥) قراءة: «ومُرسيها»، شاذة.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٢٤ (ح١٢٦٦١) وسنده ضعيف جداً قال الهيثمي: فيه نهشل بن سعيد وهو متروك (مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٢). وفيه أيضاً الضحاك لم يلق ابن عباس.

غفور رحيم كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦] إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين رحمته وانتقامه.

وقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً وقيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة] وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر].

وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه: (يام) وكان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وقيل: إنه اتخذ له مركباً من زجاج، وهذا من الإسرائيليات والله أعلم بصحته، والذي نصَّ عليه القرآن أنه قال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، وقيل: إن عاصماً بمعنى معصوم كما يقال: طاعم وكاسٍ، بمعنى: مطعوم ومكسو ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي: شرع في النقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذٍ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق وأرسَت عليه سفينة نوح عليه السلام[1].

وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً[2].

وقال الضحاك: الجودي: جبل بالموصل[3]. وقال بعضهم: هو الطور.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق علي بن الحكم عن الضحاك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا محمد بن عبيد، عن توبة بن سالم قال: رأيت زر بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك، فسألته إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة! قال: بلغني أن سفينة نوح أرست من ههنا[١].

وقال علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وإنهم كانوا فيها مائة وخمسين يوماً، وإن الله وجّه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه، فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض، فذهب فوقع على الجيف، فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون فلطخت رجليها بالطين، فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية، وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربي، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم[٢].

وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والغرب قبل أن تستقر على الجودي[٣].

وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم. وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير وأنهم صاموا يومهم ذلك[٤]. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي، عن أبيه حبيب بن عبد الله، عن شبل، عن أبي هريرة قال: مرّ النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال: «ما هذا الصوم؟ قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله به موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل» فقال النبي ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم» فصام وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه»[٥]. وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، عن قائد مولى عبيد الله بن أبي رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده توبة بن سالم ترجم له ابن أبي حاتم وسكت عنه (الجرح والتعديل ١/ ٤٤٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علباء به، وسنده حسن، ولكن فيه غرائب.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق تبيع عن كعب الأحبار.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح عن قتادة لكنه مرسل.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٤/ ٣٣٥ ح٨٧١٧) وضعف سنده محققوه لضعف عبد الصمد، وجهالة: شبل.

أبي ربيعة أخبره، أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أُم الصبي» قال رسول الله ﷺ: «كان نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يعني وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون. فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أُم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أُم الصبي»[1]. وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد بن جبير قصة هذا الصبي وأُمه بنحو من هذا[2].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذي وعدت إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠] فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، وقد نصَّ غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج[3]، واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وبقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فممن قاله الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين.

وبعضهم يقول: ابن امرأته. وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط[4]، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق موسى بن يعقوب به. وأخرجه الحاكم من طريق موسىٰ بن يعقوب به وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: إسناده مظلم وموسىٰ بن يعقوب ليس بذاك (المستدرك ٢/٣٤٢).

(٢) قول كعب وهو معروف بالإسرائيليات مما يؤكدان الرواية السابقة من الإسرائيليات، وقول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الأعمش عن مجاهد. وهو مرسل، ومثل هذا الخبر لا يؤخذ إلا من الوحي.

(٣) لم أجده سوىٰ عن الحسن البصري أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عوف الأعرابي عنه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق والطبري كلاهما بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس.

﴿أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكّن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة وغيره، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية(١).

قال عكرمة: في بعض الحروف: (إنه عملَ عملاً غيرَ صالح)، والخيانة تكون على غير باب(٢)، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك فقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: (إنه عملَ غيرَ صالحٍ) وسمعته يقول: (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم)(٣).

وقال أحمد أيضاً(٤): حدثنا وكيع، حدثنا هارون النحوي، عن ثابت البناني، عن شهر بن حوشب، عن أُم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأها: (إنه عملَ غيرَ صالحٍ) أعاده أحمد أيضاً في مسنده. أُم سلمة هي أُم المؤمنين، والظاهر - والله أعلم - أنها أسماء بنت يزيد فإنها تكنى بذلك أيضاً.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أنبأنا الثوري، عن ابن عيينة، عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قتة قال: سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم ١٠] قال: أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾(٥).

قال ابن عيينة: وأخبرني عمار الدُهني أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح إن الله لا يكذب(٦). قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ قال: وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط(٧). وكذا روي عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه(٨).

---

(١) سنده صحيح، وأخرجه سعيد بن منصور من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس. وسنده صحيح.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن عكرمة. وقراءة: (عملَ غيرَ صالح). قراءة متواترة.
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٥/٥٤٩ ح٢٧٥٦٩) وسنده ضعيف، ويشهد للقراءة الأولى القراءة المتواترة.
(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤٤/١٣٦ ح٢٦٥١٨) وقال محققوه: حديث محتمل للتحسين بشاهده.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٦) قوله: إن الله لا يكذب. سبحانه وتعالى لعله ردٌّ على من قال: إنه ابن زنية.
(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن عيينة به.
(٨) أخرجه الطبري عن الضحاك ومجاهد وعكرمة بأسانيد يقوي بعضها بعضاً. وهو ما جزم به الحافظ ابن كثير.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن ذريته إلى يوم القيامة، كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة(١).

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب [السماء](٢)، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآية [هود: ٤٤] فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه في أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجليها موضعاً فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتون، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع، فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة، ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوع غطاء الفلك، وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ الآية(٣).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: هذه القصة وأشباهها ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ يعني: من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ أي: نعلمك بها وحياً منا إليك ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك أنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب، وموسىٰ ضعيف.

(٢) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وسقط من الأصل.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن إسحاق في تفسير سورة هود آية ٤٤، وهو من الإسرائيليات كما صرح بقوله: «فيما يزعم أهل التوراة».

مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَ﴾ ولقد أرسلنا إلى ﴿عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يَسَّر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وفي الحديث: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[1].

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بمجرد قولك: اتركوهم، نتركهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أي: أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: طرفة عين.

وقوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ أي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم. قال الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو، عن أيفع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: فيأخذ بنواصي عباده فيلقِّن المؤمن حتى يكون له

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٠٤ ح٢٢٣٤)، وضعفه محققوه، وكذا ضعفه الذهبي في تلخيصه للمستدرك ٤/ ٢٦٢) بسبب جهالة الحكم بن مصعب.

أشفق من الوالد لولده ويقول: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦][(١)].

وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول لهم رسولهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالي بكم، فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبيٍّ كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد؟ واتبعوا أمر كلِّ جبَّار عنيد، فلهذا أُتبعوا في الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾ الآية.

قال السدي: ما بُعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه[(٢)].

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم الذي كانوا يسكنون مدائن الحجر[(٣)] بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له الخالق الرازق ولهذا قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمَّاراً تعمرونها وتستغلونها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ﴾ فيما تستقبلونه ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق صفوان بن صالح المؤذن عن الوليد به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.
(٣) تبعد عن المدينة المنورة ٤٥٠ كيلاً شمالاً.

﴿قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه، وما كان من الجهل والعناد في قولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: شك كثير.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: خسارة.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقد تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود].

﴿قَالُوا سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيَّوه به، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة، وهو عجل فتى البقر، حنيذ: مشوي على الرضف وهي: الحجارة المحماة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة وغير واحد[1]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «نضيج»، وأخرجه =

وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ تنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شُبَّان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ [الذاريات] فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به فقعد معهم وقامت (سارة) تخدمهم، فذلك حين يقول: (وامرأته قائمة وهو جالس)[١] في قراءة ابن مسعود فقربه إليهم قال: ألا تأكلون؟ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت (سارة) أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا[٢]!

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا نصر بن علي، حدثنا نوح بن قيس، عن عثمان بن محصن في ضيف إبراهيم قال: كانوا أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل [ورفائيل][٣]. قال نوح بن قيس: فزعم [عون بن أبي شداد][٤] أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرَّب إليهم العجل مسحه جبريل بجناحه فقام، يدرج حتى لحق بأُمه وأُم العجل في الدار[٥].

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ أي: قالوا: لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

وقال قتادة: ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة[٦].

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: فضحكت، أي: حاضت[٧].

= الطبري بهذا اللفظ بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «المشوي النضيج»، وكذا أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(١) هذه قراءة شاذة تفسيرية.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي، وروايته عن ابن مسعود منقطعة لأن السدي لم يلق ابن مسعود ﷺ، والرواية من الإسرائيليات، والسدي معروف برواية الإسرائيليات.

(٣) كذا في (مح) و(حم) وفي الأصل: «وروايل».

(٤) كذا في تفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصول: «نوح بن أبي شداد» وقد ترجم ابن أبي حاتم لعون بن أبي شداد (الجرح والتعديل ٣/ ٣٨٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه مع الخلاف السابق، وسنده حسن إلى عون.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة بنحوه.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده، =

وقول محمد بن قيس: إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط[١].

وقول الكلبي: إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم[٢]، ضعيفان جداً، وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما فلا يلتفت إلى ذلك، والله أعلم.

وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق[٣].

وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير؟ ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ وفي الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجيب ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد في صفاته وذاته.

ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٤].

= وعبد الصمد ضعيف (لسان الميزان ٤/ ٢١).

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر، وهو نجيح السندي عن محمد بن قيس. وقد ضعف الرواية الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح عن الكلبي، وقد ضعف متنه الحافظ ابن كثير.

(٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الصمد عن وهب، وردّه الحافظ ابن كثير.

(٤) أخرجه الشيخان من حديث كعب بن عجرة ﷺ (صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ح٤٧٩٧)، وصحيح مسلم، الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ (ح٤٠٦).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول، كما قال سعيد بن جبير في الآية قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الآية [العنكبوت: ٣٢]. فسكت عنهم واطمأنت نفسه[١].

وقال قتادة وغيره قريباً من هذا[٢].

زاد ابن إسحاق: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا، قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها في سورة براءة آية ١١٤[٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام - وهو على ما قيل: في أرض له، وقيل: في منزله - ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شُبَّان حِسان الوجوه ابتلاء من الله، وله الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشي إن لم

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، والرواية من الإسرائيليات.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وفيه: حتىٰ صار ذلك إلى عشرة. وليس فيه خمسة. والرواية أيضاً من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن إسحاق مثل الرواية قبل السابقة، وصرح ابن إسحاق أن الخبر من التوراة!.

يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: شديد بلاؤه(١).

وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك.

وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات(٢).

قال قتادة: وقد كانوا أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك(٣).

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: الكبرى رثيا، والصغرى زغرتا فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم. وفرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أدرك فتياناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك.

وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا: خلِّ عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه(٤).

وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك روي هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة وشمر بن عطية وسفيان بن عيينة(٥).

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبي للأُمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء] وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الحجر] أي: ألم ننهك عن ضيافة الرجال؟ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٢) أخرجه الطبري بسند عن قتادة عن حذيفة، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع من حذيفة.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد هذا ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٥) قول ابن عباس ومجاهد وقتادة أخرجه الطبري عنهم بأسانيد ثابتة تقدم ذكرها قبل ثلاث روايات، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه جويبر، ويتقوىٰ بما سبق، وقول شمر بن عطية أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حفص بن حميد عن شمر.

قال مجاهد: لم يكنّ بناته ولكن كنّ من أُمته وكل نبي أبو أُمته، وكذا روي عن قتادة وغير واحد[١].

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء[٢]. ولم يعرض عليهم سفاحاً.

وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم هن بناته وهو أب لهم، ويقال في بعض القراءات: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أُمهاتهم وهو أب لهم) [الأحزاب: ٦][٣].

وكذا روي عن الربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم[٤].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟

قال السدي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الرجال[٥].

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة[٦] من قومه»[٧].

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري من طريق ليث، وهو ابن أبي سليم، عن مجاهد، وليث فيه مقال ولكن تابعه ابن أبي نجيح في رواية آدم بن أبي إياس فقد أخرجه من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه في تفسير سورة الأحزاب آية ٦ (التفسير المنسوب إلى مجاهد)، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج عن مجاهد، ويشهد له سابقه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير.

(٤) قول الربيع بن أنس أخرجه الطبري بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول محمد بن إسحاق أخرجه الطبري بسند ضعيف ويتقوى بما سبق.

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٦) أي الكثرة والمنعة.

(٧) أخرجه الإمام أحمد من طريق محمد بن عمرو به (المسند ١٤/ ١٢٢ ح٨٣٩٢)، وحسّن سنده محققوه، وكذا أخرجه الترمذي وحسنه (السنن، التفسير، ومن سورة يوسف ح٣١١٥)، وحسّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٤٩١)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٦١) وصححه أحمد =

فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسول الله إليهم وأنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقة لأهله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قال الأكثرون: هو استثناء من المثبت وهو قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء ﴿ٱمْرَأَتَكَ﴾ لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، وقال آخرون من القراء والنحاة: هو استثناء من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فجوزوا الرفع والنصب.

وذكر هؤلاء وغيرهم من الإسرائيليات أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة(١) التفتت وقالت: واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له، لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة فقالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب عكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ الآية [القمر].

وقال معمر، عن قتادة، عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول: أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك الليلة. وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات، فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر، فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شراً منهم أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله.

فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها هذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم إن قومي أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إن قومي أشر خلق الله؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شراً منهم.

فقال جبريل للملائكة: احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهبت عجوزُه عجوزُ السوء فصعدت فلوَّحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعاً قالوا: ما عندك؟ قالت: ضيف لوط قوماً ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحاً منهم، فهرعوا يسارعون إلى الباب، فعالجهم لوط على الباب فدافعوه طويلاً وهو داخل وهم خارج يناشدهم الله ويقول: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] فقام الملَك فلزَّ بالباب ـ يقول: فسَده ـ واستأذن جبريل في عقوبتهم

= شاكر في تعليقه على تفسير الطبري إذ أخرجه الطبري من الطريق نفسه.

(١) أي الصوت المزلزل من ضربة الملك الذي جاء بالعذاب إلى قوم لوط.

فأذن الله له، فقام في الصورة التي يكون في السماء، فنشر جناحه ـ ولجبريل جناحان ـ وعليه وشاح من درٍّ منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حُبُك حُبُك[١] مثل المرجان، وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه إلى الخضرة فقال: يا لوط ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم، فتنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم شدخ أعينهم[٢]، فصاروا عمياً لا يعرفون الطريق، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليلته قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[٣].

وروي عن محمد بن كعب وقتادة والسدي نحو هذا[٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾ كقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] أي: أمطرنا عليها حجارة من سجيل، وهي بالفارسية: حجارة من طين. قاله ابن عباس وغيره[٥]. وقال بعضهم: أي من سنك: وهو الحجر وكل؛ وهو: الطين. وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] أي: مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية.

وقال البخاري: سجيل: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون أختان، وقال تميم بن مقبل:

ورجلة يضربون البيض[٦] ضاحيةً ضرباً تواصت به الأبطال سجيناً[٧]

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ قال بعضهم: في السماء، أي معدة لذلك وقال آخرون: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة[٨] مختومة[٩] عليها أسماء

---

(١) أي جعد متكسر الشعر.

(٢) يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

(٣) أخرجه الطبري من طريق قتادة عن حذيفة، وسنده ضعيف لأن قتادة لم يسمع حذيفة.

(٤) قول محمد بن كعب أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن إسحاق عن محمد بن كعب معنعناً وباختصار، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عنه بنحوه وسعيد ضعيف، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه بنحوه. وكل هذه الروايات من الإسرائيليات ولبعضها شاهد من القرآن كما تقدم.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق السدي عن ابن عباس، والسدي لم يسمع من ابن عباس ويتقوى برواية الطبري إذ أخرجه من طريق السدي عن عكرمة عن ابن عباس.

(٦) البيض جمع بيضة وهي الخوذة وعنىٰ بها الرأس.

(٧) ذكره البخاري في صحيحه (التفسير، سورة هود، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] بعد حديث رقم ٤٦٨٤).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

أصحابها؛ كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، وقال قتادة وعكرمة: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مطوقة بها نَضْحٌ من حمرة[١].

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم، وكان حملهم على حوافي جناحه الأيمن، قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها[٢].

وقال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمر بعضهم على بعض ثم أتبع شذاذ القوم صخراً، قال: وذُكر لنا أنهم كانوا أربع قرى في كل قرية مائة ألف. وفي رواية: ثلاث قرى الكبرى منها سدوم، قال: وبلغنا أن إبراهيم ﷺ كان يشرف على سدوم ويقول: سدوم يوم هالك[٣].

وفي رواية عن قتادة وغيره قال: وبلغنا أن جبريل ﷺ لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل[٤].

وقال محمد بن كعب القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات، سدوم وهي العظمى، وصعبة، وصعود، وغمة، ودوما، احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات[٥].

وقال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل، فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم] ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر، فيقتله فذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ [الأعراف: ٨٤] أي: في القرى حجارة من سجيل، هكذا قال السدي[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، والرواية من الإسرائيليات.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة، ورواه بلاغاً من الإسرائيليات.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود وهو ضعيف.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف قال محمد بن كعب: حُدثت أن نبي الله ﷺ... فذكره بنحوه، وهو مرسل.
(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه، وقد ورد في الحديث المروي في السنن من حديث [عمرو بن أبي عمرو][١] عن ابن عباس مرفوعاً: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٢].

وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث.

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يلقى من شاهق، ويُتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط[٣]، والله سبحانه وتعالى أعلم [بالصواب][٤].

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾.

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان[٥]. بلاداً تعرف بهم يُقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [أي][٦] في الدار الآخرة.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العبث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم[٧].

وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس[٨].

وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم[٩].

---

(١) كذا في (حم) و(مح) والتخريج، وفي الأصل: «عمرو بن عمر» وهو تصحيف.
(٢) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة الأعراف آية ٨٤.
(٣) ذكره الحافظ ابن كثير أوسع من هذه الأقوال في تفسير سورة الأعراف آية ٨٤.
(٤) زيادة من (حم) و(مح).
(٥) معان تقع في جنوب عمان في الأردن.
(٦) زيادة من (حم) و(مح).
(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سفيان عمن ذكره عن ابن عباس، وفيه إبهام شيخ سفيان وشيخ شيخه.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق حُميد الطويل عن الحسن.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع.

وقال مجاهد: طاعة الله[١].

وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب والبقية في الرحمة[٣].

وقال أبو جعفر بن جرير: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس قال: وقد روي هذا عن ابن عباس[٤].

قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ الآية [المائدة: ١٠٠] وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: برقيب ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله ﷻ لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله ﷻ.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

يقولون له على سبيل التهكم - قبحهم الله -: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ قال الأعمش: أي قراءتك[٥]. ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أي: الأوثان والأصنام ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ فنترك التطفيف على قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد.

قال الحسن في قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾: أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم[٦].

وقال الثوري في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾: يعنون الزكاة[٧].

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته، وقد فعل.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول لهم: هل رأيتم يا قوم إن كنت ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: أراد النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين[٨]. ﴿وَمَآ

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن زيد.

(٤) ذكره الطبري بنحوه وقال: وهذا قول روي عن ابن عباس غير مرتضىً عند أهل النقل. اهـ. ولم يذكر السند.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن سفيان الثوري عن الأعمش.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن الحسن، وهو البصري.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عيسىٰ بن جعفر عن سفيان الثوري.

(٨) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس: يقولون: إنك لست =

أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ أي: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم[١]. كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾: يقول: لم أكن أنهاكم عن أمر وأركَبه[٢].

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ أي: فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ أي: في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع. قاله مجاهد وغيره[٣].

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا أبو قَزَعةَ سويد بن حُجَير الباهلي، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه أن أخاه مالكاً: قال: يا معاوية إن محمداً أخذ جيراني فانطلق إليه، فإنه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه، فقال: دع لي جيراني فقد كانوا أسلموا، فأعرض عنه فقام مغضباً فقال: أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره، وجعلت أجره وهو يتكلم فقال رسول الله ﷺ: «ما تقول؟» فقال: إنك والله لئن فعلتَ ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره. قال: فقال: «أو قد قالوها؟ ـ أي قائلهم ـ ولئن فعلت ما ذاك إلا عليَّ وما عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه»[٤].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تهمة، فحبسهم فجاء رجل مِن قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال: يا محمد علامَ تحبس جيراني؟ فصمتَ رسول الله ﷺ فقال: إن ناساً ليقولون: إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به، فقال النبي ﷺ: «ما تقول؟» قال: فجعلت أعرض بينهما كلاماً مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال: «قد قالوها؟ ـ أو قائلها منهم ـ واللهِ لو فعلتُ لكانَ عليَّ وما كان عليهم خلُّوا عن جيرانه»[٥].

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا سليمان بن بلال، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أُسيد يقولون عنه ﷺ: إنه قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أن منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره

= بحليم ولا برشيد، وقول ميمون بن مهران أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي المليح، وهو الرقي، عنه بلفظ «هزواً»، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود وهو ضعيف، بلفظ: «يستهزئون»، وقول ابن أسلم، وهو عبد الرحمن، أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله وهب عن عبد الرحمن.

(١) بعد هذا النص ورد في النسخة الأزهرية حسب طبعة الشعب: وقال الثوري: ولم أجده في الأصول التي اعتمدت عليها، بل لم أجد من أخرجه وأراه مقحماً فلم اذكره.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٣/ ٢١٨ ح٢٠٠١٤) وحسّن سنده محققوه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٣/ ٢٢٣ ح٢٠٠١٩) وحسّن سنده محققوه.

قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه»[١] إسناده صحيح.

وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»[٢].

ومعناه ـ والله أعلم ـ مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به. ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه[٣].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ وقال قتادة عن عزرة، عن الحسن العرني، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: تنهى عن الواصلة[٤]؟ قال: نعم، قالت: فعله بعض نسائك، فقال: ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[٥].

وقال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا جرير، عن أبي سليمان العتبي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٦].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

يقول لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب.

وقال قتادة: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ يقول: لا يحملنكم فراقي[٧].

وقال السدي: عداوتي، على أن تتمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم[٨].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي، حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، حدثنا ابن أبي غنية، حدثني عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي ليلى الكندي قال: كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٥/٤٥٦ ح١٦٠٥٨) وصحح سنده محققوه، وكذلك الحافظ ابن كثير.
(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يقول إذا دخل المسجد (ح٧١٣).
(٣) هذا شرح للحديث قبل السابق.
(٤) الواصله: هي المرأة التي تصل شعرها بشعر آخر، تريد طول الشعر، وتوهم أن ذلك من أصل شعرها.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن. وأخرجه الإمام أحمد مطولاً وصححه الأستاذ أحمد شاكر (المسند ح٣٩٤٥).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً عن عثمان بن أبي شيبة به.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ يا قوم لا تقتلوني إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا وشبك بين أصابعه[١].

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ قيل: المراد في الزمان.

قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس[٢]، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمران ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ من سالف الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

يقولون: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كَثِيرًا﴾ من قولك ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: وكان ضرير البصر[٣].

وقال الثوري: كان يقال له: خطيب الأنبياء[٤].

[قال السدي: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قال: أنت واحد[٥].

وقال أبو روق: يعنون ذليلاً لأن عشيرتك ليسوا على دينك][٦][٧] ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي: قومك لولا معزتهم علينا لرجمناك قيل: بالحجارة وقيل: لسببناك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس عندنا لك معزة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الربِّ تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم كتاب الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال: يا قوم ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: طريقتكم وهذا تهديد شديد ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على طريقتي ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق سعيد بن بشير عن قتادة، وسعيد هذا ضعيف.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق شريك عن سالم بن عجلان الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وأخرجه الحاكم من طريق شريك به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٥٦٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم والطبري من طريق شريك به إلى سعيد بن جبير ويتقوى بسابقه.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الفضل بن دُكين عن الثوري.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن السدي.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق بشر بن عمارة عن أبي روق، وبشر بن عمارة ضعيف.
(٧) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (حم) و(مح).

كَذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ أي: انتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ وقوله: ﴿دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي هامدين لا حراك بهم.

وذكر ههنا أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة وفي الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن يذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء] قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا من الأسرار الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عرباً شبههم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون وهو مالك ديار مصر على أمة القبط وملئه ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: ليس فيه رشد ولا هدى. وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل] وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات].

وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفورين في العذاب يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، حدثنا أبو الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٢/ ٢٧ ح٧١٢٧) قال محققوه: إسناده ضعيف جداً.اهـ. وذلك لضعف أبي الجهم.

وقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية، أي: أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان[١].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة[٢] وكذا قال الضحاك وقتادة[٣]، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص] وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾.

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم من أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أخبارهم ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ أي: عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي: هالك ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي: إذ أهلكناهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي غير تخسير[٤].

وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها، فبهذا أصابهم ما أصابهم، خسروا بهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٥].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وجويبر هو ابن سعيد الأزدي متروك، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٥) تقدم تخريجه في سورة هود آية رقم ٢٠.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين ونصرة الانبياء وإنجائنا المؤمنين ﴿لَآيَةً﴾ أي: عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ أي: أولهم وآخرهم كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي: لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: يوم يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة لا يتكلم أحد يومئذٍ إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ] وقال: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وفي الصحيحين من حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ: اللهم سلّم سلّم»[(١)].

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيّان، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا سليمان بن سفيان، حدثنا عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، عن عمر قال: لما نزلت ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، علامَ نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له»[(٢)].

ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

---

(١) صحيح البخاري، الأذان، باب فضل السجود (ح٨٠٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (ح١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي من طريق سليمان بن سفيان به وحسنه (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة هود ح٣١١١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٤٨٦) وفي سنده سليمان بن سفيان ضعيف كما في التقريب ولكنه روي من طرق أخرى ذكرها الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (ح١٦١ ـ ١٦٥)، ولهذا صححه وأخرجه الإمام أحمد من طريق عاصم بن عبيد الله عن سالم عن ابن عمر عن عمر بنحوه (المسند ١/٣٢٦ ح١٩٦)، قال محققوه: حسن لغيره.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾.

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر[١]. أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذاً بالله من ذلك.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السمٰوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقٍ ما اختلف الليل والنهار، «وما سمر أبناء سَمير»[٢]، «وما لألأت العُفرُ بأذنابها»[٣] يعنون بذلك كلمة «أبداً» فخاطبهم جلَّ ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٤].

(قلت): ويحتمل أن المراد بما دامت السمٰوات والأرض الجنس، لأنه لا بدّ في عالم الآخرة من سمٰوات وأرض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال: يقول: سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض[٥].

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض[٦].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرضُ أرضاً والسماءُ سماءً[٧].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير[٨]، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان[٩].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس، ويشهد له ما رواه الطبري بسند جيد عن أبي العالية بلفظه.

(٢) هذا مثل من أمثال العرب المشهورة، ومعناه: هم الناس يسحرون طوال الليل (ينظر: المستقصىٰ في أمثال العرب ٢/ ٢٤٩).

(٣) هذا أيضاً مثل من الأمثال المشهورة، ومعناه: استمرار تحريك الظباء أذنابها (ينظر: مجمع الأمثال للميداني ٣/ ١٧٤).

(٤) ذكره الطبري بلفظه وزيادة: والمعنىٰ في ذلك: خالدين فيها أبداً.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً عن مبارك بن فضالة عن الحسن.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً عن سفيان بن حسين به.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

(٨) زاد المسير ٤/ ١٦٠.

(٩) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق معاوية بن صالح، عن عامر بن جشيب عن خالد بن معدان، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول أبي سنان أخرجه الطبري بسند فيه ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، ضعيف، ويشهد له ما سبق.

ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس(١)، وجابر(٢)، وأبي سعيد(٣)، وأبي هريرة(٤)، وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير عن أبي أُمامة صدي بن عجلان الباهلي(٥)، ولكن سنده ضعيف، والله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بثنياه(٦).

وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ٥٧](٧).

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين مقيمين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس.

وقال الضحاك والحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه رجال مسكوت عنهم، ويشهد لهما ما تقدم في روايات الطبري.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] (ح٤٤٧٦).
(٣) تقدم قبل صفحتين وهو في الصحيحين.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، الفضائل، باب تفضيل نبينا محمد ﷺ (ح٢٢٧٨).
(٥) المعجم الكبير (ح٧٩٦٩)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح٦٠٦).
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة، ومعناه: الله أعلم بمن يستثنىٰ من العذاب المخلد.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق أسباط عن السدي.
(٨) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه بنحوه، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق سفيان بن الحسين عن الحسن البصري بنحوه.

وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: غير مقطوع، قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد[(١)]. لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] كما قال: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

وهنا طيّب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾.

وقد جاء في الصحيحين: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»[(٢)].

وفي الصحيح أيضاً: «فيقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»[(٣)].

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتمّ الجزاء، فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً وإن كان لهم حسنات، فقد وفّاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة.

قال سفيان الثوري، عن جابر الجعفي، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر[(٤)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص[(٥)].

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنّك تكذيبهم لك ولا يهمنّك ذلك.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ...﴾ [مريم: ٣٩] (ح٤٧٣٠)، وصحيح مسلم، الجنة، باب النار يدخلها الجبارون... (ح٢٨٤٩).

(٣) أخرجه مسلم، الصحيح، الجنة، باب في دوام نعيم أهل الجنة (ح٢٨٣٧).

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق الثوري به، وسنده ضعيف لضعف جابر الجعفي، ومعناه صحيح.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن.

أجل معلوم لقضى الله بينهم(١).

ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه] ثم أخبر أن الكافرين في شك مما جاءهم به الرسول قوي فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم، ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فقال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ أي: عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها.

وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناه إلى هذا الذي ذكرناه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس].

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، واعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: لا تداهنوا(٢).

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك(٣).

وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم(٤).

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا(٥).

وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ولا ناصر يخلّصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ﴾ قال: يعني الصبح

(١) ذكره الطبري بنحوه. (٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن جريج به، وابن جريج لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما، ومعناه صحيح واستحسنه الحافظ ابن كثير.

والمغرب[١]. وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٢].

وقال الحسن - في رواية - وقتادة والضحاك وغيرهم: هي الصبح والعصر[٣].

وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، والظهر والعصر من آخره. وكذا قال محمد بن كعب القرظي والضحاك في رواية عنه[٤] ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: يعني صلاة العشاء[٥].

قال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني المغرب والعشاء [قال رسول الله ﷺ: «هما زلفتا الليل المغرب والعشاء»][٦][٧]. وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء[٨].

وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفّر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدّقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غُفر له»[٩].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

(٢) قول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عوف الأعرابي عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله وهب عنه.

(٣) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٤) لم أجده بهذا اللفظ عن مجاهد، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق أفلح بن سعيد عن محمد بن كعب القرظي بلفظ: «فطرفا النهار، الفجر والظهر والعصر»، وأخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن نجيح عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عوف الأعرابي عنه.

(٦) ما بين معقوفين سقط من الأصل، واستدرك من (حم) و(مح).

(٧) أخرجه الطبري من طريق ابن المبارك به، وسنده ضعيف لأنه مرسل.

(٨) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أفلح بن سعيد عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، ويتقوىٰ بما سبق.

(٩) أخرجه الإمام أحمد من طريق أسماء بن الحكم الفزاري عن علي رضي الله عنه (المسند ٢/١ ح١٧٩)، وصحح مسنده محققوه وكذا أحمد شاكر، وجود إسناده الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمة أسماء بن الحكم، وأخرجه أبو داود في سننه، الصلاة، باب في الاستغفار (ح١٥٢١)، والترمذي وحسنه في السنن، الصلاة باب ما جاء في الصلاة عند التوبة (ح٤٠٦) وابن ماجه، السنن، إقامة الصلاة، باب ما جاء في أن الصلاة كفارة (ح١٣٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٤.

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: «من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

وروى الإمام أحمد وأبو جعفر ابن جرير من حديث أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مُد فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن الحسنات يُذهبن السيئات»(٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا»(٣).

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، أن أبا رُهم السمعي كان يحدث، أن أبا أيوب الأنصاري حدثه، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحطُّ ما بين يديها مِن خطيئة»(٥).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبي، عن ضَمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن» فإن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٦).

---

(١) صحيح البخاري، الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً (ح١٥٩)، وصحيح مسلم، الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله (ح٢٢٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/٥٣٧ ح٥١٣) وحسن سنده محققوه، وصححه أحمد شاكر، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير الحارث وهو ثقة (مجمع الزوائد ١/٢٩٧).

(٣) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة (ح ٥٢٨)، وصحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحىٰ به الخطايا (ح٦٦٧).

(٤) صحيح مسلم، الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن... (ح٢٢٣).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٨/٤٨٩ - ٤٩٠ ح٢٣٥٠٣)، وحسّن سنده محققوه، وحسّنه الهيثمي (مجمع الزوائد ١/٢٩٨).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وضعفه محمود شاكر والهيثمي بسبب الانقطاع بين محمد بن إسماعيل وأبيه =

وقال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زريع، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم» هكذا رواه في كتاب الصلاة[1]، وأخرجه في التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه[2]، ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أبا داود من طرق عن أبي عثمان النهدي، واسمه عبد الرحمن بن مل به[3].

ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه من طرق عن سماك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت. فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل. فقال عمر: لقد ستر الله عليه، لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: «ردّوه علي»، فردّوه عليه فقرأ عليه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ فقال معاذ، وفي رواية عمر: يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة؟ قال: «بل للناس كافة»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مُرّة الهمداني، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[5].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم قال: كان فلان ابن معتب رجلاً من الأنصار فقال: يا رسول الله دخلت عليَّ امرأة، فنلتُ منها ما ينال الرجل من أهله إلا أني لم أواقعها. فلم يدرِ رسول الله ﷺ ما يجيبه حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾، فدعاه

= فإنه لم يسمع شيئاً من أبيه (مجمع الزوائد ١/ ٢٩٩)، ويشهد لشطره الأول ما تقدم.

(١) صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة (ح٥٢٦).

(٢) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ...﴾ [هود: ١١٤] (ح٤٦٨٧).

(٣) صحيح مسلم، التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤] (ح٢٧٦٣/ ٣٩).

(٤) أخرجه مسلم من طريق سماك به بلفظ: «وأني أصبت منها ما دون أن أمسها...» (المصدر السابق ٢٧٦٣/ ٤٢) وكذا لفظ الطبري، أما اللفظ المذكور فهو رواية الإمام أحمد من طريق سماك به (المسند ح٤٢٥٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ١٨٩ ح٣٦٧٢)، وضعفه محققوه لضعف الصباح بن محمد، وكذا الأستاذ أحمد شاكر.

رسول الله، فقرأها عليه[١].

وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزية الأنصاري التمار[٢].

وقال مقاتل: هو [أبو نفيل عامر][٣] بن قيس الأنصاري[٤].

وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر كعب بن عمرو[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد ـ يعني: ابن سلمة ـ، عن علي بن زيد، قال عفان: أنبأنا علي بن يزيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال: إن امرأة جاءت تبايعه فأدخلتها الدولج[٦] فأصبت منها ما دون الجماع، فقال ويحك لعلها مغيبة[٧] في سبيل الله؟ قال: أجل؛ قال: فأتِ أبا بكر فسله. قال: فآتاه فسأله فقال: لعلها مغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك قال: «فلعلها مغيبة في سبيل الله» ونزل القرآن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ . . .﴾ إلى آخر الآية، فقال: يا رسول الله لي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب ـ يعني: عمر ـ صدره بيده وقال: لا ولا نعمة عين بل للناس عامة، فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر»[٨].

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع، عن عثمان بن موهب، عن موسى بن طلحة، عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري[٩] قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمراً. فقلت: إن في البيت تمراً أجود من هذا، فدخلت فأهويت إليها، فقبلتها فأتيت عمر فسألته فقال: اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحداً. فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته فقال: اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحداً. قال: فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أخلفت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا» حتى ظننت أني من أهل النار حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذٍ، فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل فقال أبو اليسر: فجئت فقرأ عليَّ رسول الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ فقال إنسان: يا رسول الله له خاصة أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامة»[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأنه مرسل.

(٢) أخرجه الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ابن عباس (ينظر الإصابة ٣/ ١٠)، وسنده ضعيف جداً لأن الكلبي صرح أن كل ما سمعه عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب (كما في ترجمته في تهذيب التهذيب)، وقال الحافظ ابن حجر انفرد الكلبي بتسميته غزية بن عمر (الإصابة ٣/ ١٠).

(٣) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحفت إلى: «ابن نفيل».

(٤) سنده معضل لأن الراوي مقاتل وهو إما ابن سليمان أو ابن حيان وكلاهما تابع تابعي وكلاهما توفي سنة ١٥٠هـ. وقد تبين أنه مقاتل بن سليمان أخرجه في تفسيره كما صرح الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/ ٣٥٧).

(٥) هذا الذي رجحه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/ ٣٥٧)، وأرىٰ أن الصفح عن ذكر الصحابي أستر وأحسن وخصوصاً أن الرواية بالتصريح لم تثبت كما سيأتي بعد الحديث التالي.

(٦) الدولج: الغرفة الصغيرة داخل البيت الكبير.

(٧) أي التي غاب عنها زوجها غازياً في سبيل الله تعالى.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٨٤ ح٢٢٠٦)، وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان، ولين يوسف بن مهران، وضعفه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٤٣).

(٩) هو صحابي جليل بدري مات بالمدينة سنة خمس وخمسين (أسد الغابة ٤/ ٢٥٤).

(١٠) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده قيس بن الربيع وهو الأسدي وهو صدوق تغير لما كبر، وأدخل عليه ابنه =

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا جرير، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً الرجل يصيبه من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «توضأ وضوءاً حسناً ثم قم فصلّ» فأنزل الله ﷻ هذه الآية، يعني قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ فقال معاذ: أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة»[(١)]. ورواه ابن جرير من طرق عن عبد الملك بن عمير به[(٢)].

وقال عبد الرزاق: حدثنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن يحيى بن جعدة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ، فاستأذنه لحاجة فأذن له فذهب يطلبها فلم يجدها، فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر، فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجليها، فصار ذكره مثل الهدبة، فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع فقال له: «استغفر ربك وصلِّ أربع ركعات» قال: وتلا عليه ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الآية[(٣)].

وقال ابن جرير: حدثني عبد الله بن أحمد بن سيبويه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثني عمرو بن الحارث، حدثني عبد الله بن سالم، عن [الزبيدي، عن سليم][(٤)] بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم فيَّ حدَّ الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أقيمت الصلاة، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل: أقم فيَّ حدَّ الله؟» قال: أنا ذا. قال: أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟ قال: نعم. قال: «فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد» وأنزل الله على رسول الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علي بن زيد، عن أبي عثمان

= ما ليس من حديثه فحدث به (التقريب ص٤٥٧) وقد تابعه شريك، وهو ابن عبد الله النخعي القاضي، وهو يخطئ أيضاً وأخشىٰ ذكر أبي اليسر من أخطائه، فقد أخرجه النسائي من طريق شريك عن عثمان بن موهب به (السنن الكبرىٰ، التفسير ح١١٢٨٦).

وأخرجه الترمذي من طريق قيس بن الربيع به وقال: وهذا حديث حسن صحيح. وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره. (السنن، التفسير، باب ومن سورة هود ٣١١٥)، وحسنه الألباني (في صحيح سنن الترمذي ح٢٤٨٩).

(١) أخرجه الدارقطني (السنن، الطهارة، باب صفة ما ينقض الوضوء ١/ ١٣٤)، وسنده ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

(٢) أخرجه الطبري من عدة طرق وكلها فيها العلة السابقة بالانقطاع.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده مرسل، ومحمد بن مسلم هو الطائفي وهو صدوق يخطئ من حفظه (التقريب ص٥٠٦)، وقوله: فصار ذكره مثل الهدبة، مخالف للروايات السابقة ومعرفة ذلك فيها غرابة.

(٤) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل صحفت إلى: «الترمذي عن سليمان».

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وحسنه الأستاذ محمود شاكر، وأخرجه مسلم من طريق شداد بن عبد الله عن أبي أمامة ﵁ بنحوه (الصحيح، التوبة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] ح٢٧٦٥).

قال كنت: مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحات ورقه، ثم قال: أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟ قال: هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال: «إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق». وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ، أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن حبيب، عن ميمون بن أبي شبيب، عن أبي ذرٍّ أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»[(٣)]. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شمر بن عطية، عن أشياخه، عن أبي ذرٍّ قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحها» قال: قلت: يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: «هي أفضل الحسنات»[(٤)].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا هذيل بن إبراهيم الجماني، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري من ولد سعد بن أبي وقاص، عن الزهري، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد: لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات»[(٥)].

عثمان بن عبد الرحمن يقال له: الوقاصي، فيه ضعف.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا مستور بن عباد، عن ثابت، عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجَّة[(٦)]. فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلى. قال: «فإن هذا يأتي على ذلك»[(٧)] تفرد به من هذا الوجه مستور.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ١١١ ح٢٣٧٠٧) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان، وقد حسنه لغيره محققوه بالشواهد، وكذا حسنه الألباني في صحيح الترغيب (ح٣٥٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٦/ ٣١٣ ح٢١٩٨٨) وحسنه محققوه بالمتابعات والشواهد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ٢٨٤ ح٢١٣٥٤)، وقال محققوه: حسن لغيره.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/ ٣٨٦ ح٢١٤٨٧) وقال محققوه: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهاله أشياخ شمر بن عطية. وحسنه الألباني فقال: وهذا إسناد حسن رجاله ثقات غير أشياخ شمر فلم يُسموا لكنهم جمع ينجبر الضعف بعددهم (السلسلة الصحيحة ح١٣٧٣).

(٥) أخرجه أبو يعلى في (المسند ٦/ ٢٠٤ ح٣٦١١) وسنده ضعيف جداً قال الهيثمي فيه: عثمان بن عبد الرحمن الزهري: وهو متروك (مجمع الزوائد ١٠/ ٨٢)، وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى ضعفه.

(٦) الداجَّة: الحاجة الكبيرة (النهاية ٢/ ١٠١).

(٧) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٣٠٦٧)، قال الهيثمي: ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ١٠/ ٨٣) ولكن في متنه غرابة وتفرد مستور.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأُمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»[(١)]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

وقال عكرمة: مختلفين في الهدى[(٢)].

وقال الحسن البصري: مختلفين في الرزق يسخر[(٣)] بعضهم بعضاً[(٤)]. والمشهور الصحيح الأول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي الأُمي وخاتم الرسل

---

(١) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة المائدة آية ١٠٥.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه حفص بن عمر العدني.
(٣) في الأصل بدون نقط وبدون حرف السين، والمثبت من (حم) و(مح) وتفسير الطبري.
(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق معتمر، وهو ابن سليمان، عن أبيه عن الحسن.

والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً: «إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة(١).

وقال عطاء: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني: اليهود والنصارى والمجوس ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني الحنيفية(٢).

وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم(٣).

وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه: وللاختلاف خلقهم(٤).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾(٥) [هود: ١٠٥].

وقيل: للرحمة خلقهم(٦). قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن خالد، عن ابن أبي نجيح، عن طاوس: أن رجلين اختصما إليه فأكثرا، فقال طاوس: اختلفتما وأكثرتما. فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاوس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. قال: لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة(٧) والرحمة. كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب(٨)، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة(٩)، ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وقيل: بل المراد وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف فقيل له: لذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء

---

(١) تقدم تخريجه وصحته في تفسير سورة يونس آية ٩٣.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء الخراساني، وطلحة متروك كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن عمرو بن عبيد عن الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند حسن من طريق مبارك عن الحسن.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب به، وسنده حسن.

(٨) أخرجه الطبري من طريق حفص بن عمر العدني عن الحكم به، وسنده ضعيف لضعف حفص.

(٩) قول مجاهد أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند فيه رجل مبهم، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه(١). وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش(٢).

وقال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير(٣).

وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيدة والفراء.

وعن مالك فيما روينا عنه من التفسير ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: للرحمة، وقال قوم: للاختلاف(٤).

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بدّ أن يملأ جهنم من هذين الثَّقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم(٥)؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله ﷻ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قط قط وعزتك»(٦).

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٠﴾.

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين.

كل هذا مما ﴿نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق منصور عبد الرحمن عن الحسن مقطعاً.
(٢) قول عطاء بن أبي رباح أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق طلحة بن عمرو عنه، وطلحة متروك كما في التقريب، وقول الأعمش أخرجه الطبري من طريق سفيان عنه.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أشهب عن مالك.
(٤) تقدم تخريج هذين القولين عن بعض التابعين في الروايات السابقة.
(٥) جمع ساقط وهو نازل المكانة الذي لا يؤبه به.
(٦) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] (ح٤٨٤٩)، وصحيح مسلم، صفة الجنة، باب «النار يدخلها الجبارون...» (ح٢٨٤٦).

وقوله: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف[١].

وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا[٢].

والصحيح: في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين؛ جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: على طريقتكم ومنهجكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه عالم غيب السمٰوات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب، سيوفِّي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه. فإنه كافٍ من توكل عليه وأناب إليه.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن رباح، عن كعب قال: خاتمة التوراة خاتمة هود[٣].

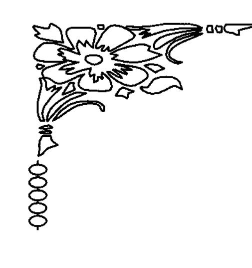
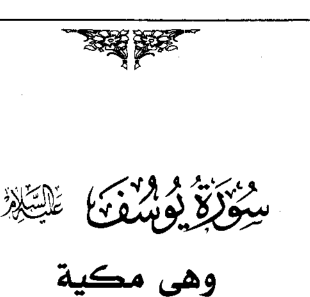
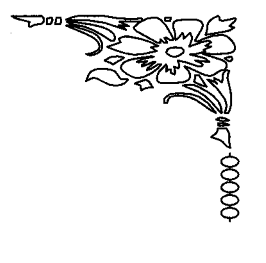
آخر تفسير سورة هود عليه السلام، ولله الحمد.

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٢) قول الحسن أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق قتادة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق قتادة عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده ابن وكيع وهو: سفيان فيه مقال، وقد توبع إذ أخرجه ابن الضريس من طريق مسلم بن إبراهيم عن همام عن أبي عمران به (السنن، فضائل القرآن، باب فضائل الأنعام والسور ح٣٤٠٢).

سُورَةُ يُوسُفَ عليه السلام

وهي مكية

روىٰ الثعلبي وغيره من طريق سلام بن سلم، ويقال: سليم المدائني ـ وهو متروك ـ عن هارون بن كثير ـ وقد نص على جهالته أبو حاتم ـ عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي أُمامة، عن أُبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا أرقَّاكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ما ملكت يمينه، هوَّن الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلماً»(١)، وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية، وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير به(٢)، ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضري، عن علي بن زيد بن جدعان، وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زر بن حبيش، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ. . . فذكر نحوه(٣)، وهو منكر من سائر طرقه.

وروى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس(٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين؛ أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله

---

(١) أخرجه الثعلبي من طريق سلام بن سلم به (الكشف والبيان) وسنده ضعيف جداً لأن سلام بن سلم متروك، وهارون مجهول، كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير، وضعف سنده بالكلية.

(٢) وسنده ضعيف لجهالة هارون.

(٣) وسنده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، وضعفه الحافظ ابن كثير من سائر طرقه.

(٤) أخرجه البيهقي من طريق الكلبي به مطولاً (دلائل النبوة ٦/٦٧٦) وسنده ضعيف جداً لأن الكلبي صرح بأن كل ما رواه عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب ،كما في ترجمته في تهذيب التهذيب.

في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه، ولهذا قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا حكّام الرازي، عن أيوب، عن عمرو هو ابن قيس الملائي، عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله ﷺ لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلاً[(١)].

وقال أيضاً: حدثنا محمد بن سعيد العطار، حدثنا عمرو بن محمد، أنبأنا خالد الصفار، عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن. قال: فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثم تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ...﴾ الآية [الزمر: ٢٣] وذكر الحديث، ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن راهويه عن عمرو بن محمد القرشي المنقري به[(٢)].

وروى ابن جرير بسنده عن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: ملَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملَّة فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] ثم ملوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث، ودون القرآن يعنون القصص، فأنزل الله ﷻ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية، فأرادوا الحديث، فدلَّهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلَّهم على أحسن القصص[(٣)].

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد: حدثنا سُريج بن النعمان، أنبأنا هُشيم، أنبأنا مجالد، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ. قال: فغضب، وقال: «أمتهوّكون[(٤)] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري بطريقيه وكلاهما ضعيف، فالأول فيه أيوب وهو ابن سيار الزهري وهو ضعيف (لسان الميزان ١/ ٤٨٢)، والطريق الثاني ضعيف لأنه مرسل، وكلا الطريقين لهما شاهد كما يلي.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وكذا ابن أبي حاتم سنداً ومتناً مختصراً، وأخرجه إسحاق بن راهويه عن عمرو بن محمد به، وحسنه الحافظ ابن حجر (إتحاف الخيرة ١/ ٢٣٨ ح١٦٢)، وأخرجه الحاكم من طريق إسحاق بن راهويه به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٤٥)، ومن الطريق نفسه أخرجه الضياء المقدسي (المختارة ٣/ ٢٦٥ ح١٠٦٩) وحسنه محققه.

(٣) أخرجه الطبري عن ابن وكيع عن أبيه عن المسعودي به، وسنده ضعيف لضعف ابن وكيع وهو سفيان، ولأن عون أرسله، وعون هو ابن عبد الله بن عتبة، ويشهد لبعضه سابقه.

(٤) التهوك: الوقوع في الأمر من غير روية.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٢٣/ ٣٤٩ ح١٥١٥٦)، وضعف سنده محققوه لضعف مجالد وهو =

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسري عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين»[(١)].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مسعر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عرفطة قال: كنت جالساً عند عمر إذ أتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس[(٢)]، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بقناة[(٣)] معه، قال: فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس فجلس، فقرأ عليه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال؟[(٤)] قال: مرني بأمرك أتبعه، قال: انطلق فامحه بالحميم[(٥)] والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تُقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنّك عقوبة، ثم قال له: اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما هذا في يدك يا عمر؟» قال: قلت: يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرّت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم الله ﷺ؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوّكوا ولا يغرنكم المتهوكون» قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً، ثم نزل رسول الله ﷺ[(٦)]. وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً من حديث

= ابن سعيد، ونقل الحافظ ابن حجر عن البخاري أنه لم يصح (الإصابة ٤/ ٣٠).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ولفظه (المسند ٣٠/ ٢٨٠ ح١٨٣٣٥)، وضعف سنده محققوه لضعف جابر وهو ابن يزيد الجعفي.

(٢) السوس: بلدة من كور الأهواز (معجم ما استعجم ٢/ ٧٦٧).

(٣) القناة: العصا المستوية (لسان العرب ١٥/ ٢٠٣).

(٤) دانيال قيل: هو أحد أنبياء بني إسرائيل ممن وقع في أسر بختنصر فأتىٰ به مدينة بابل، في العراق، ثم توفي ودفن في مدينة السوس (ينظر: فتوح البلدان ص٥٣٣، وتاريخ الطبري ٣/ ١٨٧، والفتاوى ١٥/ ١٥٤).

(٥) أي: الماء الحار (لسان العرب ١٢/ ١٥٣).

(٦) قال الهيثمي: رواه أبو يعلىٰ، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعفه أحمد وجماعة (مجمع الزوائد ١/ ١٨٢).

عبد الرحمن بن إسحاق به[(١)]، وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبة الواسطي، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه.

قلت: وقد روي له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن الحارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر، أن جبير بن نفير حدثهم أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر ﵁، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتتبا من اليهود ملء صفنة[(٢)] فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين يقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة، وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدما عليه قالا: إنا بأرض أهل الكتاب، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلودنا، أفنأخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكما كتبتما منه شيئاً؟ فقالا: لا، قال سأحدثكما: انطلقت في حياة النبي ﷺ حتى أتيت خيبر، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبني، فقلت: هل أنت مكتبي مما تقول؟ قال: نعم فأتيت بأديم، فأخذ يُملي عليَّ حتى كتبت في الأكرع[(٣)]، فلما رجعت قلت: يا نبي الله.. وأخبرته. قال: «ائتني به» فانطلقت أرغب عن الشيء رجاء أن أكون جئت رسول الله ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس اقرأ علي» فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ، فإذا هو يتلون، فتحيّرت من الفرق[(٤)]، فما استطعت أن أجيز منه حرفاً، فلما رأى الذي بي رفعه ثم جعل يتبعه رسماً رسماً فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء فإنهم قد هوكوا وتهوكوا» حتى محا آخره حرفاً حرفاً. قال عمر ﵁: فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالاً لهذه الأُمة، قالا: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً، فخرجا بصُفنيهما[(٥)]، فحفرا لها، فلم يألوا أن يعمقا ودفناها، فكان آخر العهد منها[(٦)].

وهكذا روى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت الأنصاري عن عمر بن الخطاب بنحوه[(٧)]، وروى أبو داود في المراسيل من حديث أبي قلابة عن عمر نحوه[(٨)]، والله أعلم.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ۝٤﴾.

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه هو

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق به.

(٢) الصفنة: الوعاء.

(٣) الأكرع: جمع كُراع، وهو عظم الساق العاري اللحم.

(٤) الفرق: أي الخوف.

(٥) أي: وعاءهما الذي يحمل فيه الكتاب.

(٦) أخرجه أبو نعيم من طريق إسحاق بن إبراهيم به (الحلية ٥/ ١٣٥) وسنده ضعيف لأن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء: صدوق يهم كثيراً، وأطلق محمد بن عوف أنه يكذب (التقريب ص٩٩).

(٧) سبق تخريجه وتضعيفه قبل روايتين.

(٨) أخرجه أبو داود من طريق أيوب السختياني عن أبي قلابة به (المراسيل ح٤٥٥) وسنده ضعيف للانقطاع بين أبي قلابة وعمر ﵁.

يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[(١)]. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه عن عبد الله بن محمد، عن عبد الصمد به[(٢)].

وقال البخاري أيضاً: حدثنا محمد، أنبأنا عبدة، عن عبيد الله، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا». ثم قال: تابعه أبو أُسامة عن عبيد الله[(٣)].

وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي[(٤)].

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أُمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[(٥)].

وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة[(٦)]، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني علي بن سعيد الكندي، حدثنا الحكم بن ظهير، عن السدي، عن عبد الرحمن بن سابط، [عن جابر][(٧)] قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال له: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء. ونزل عليه جبريل ﷺ فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/٩٦) وسنده صحيح.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة يوسف باب ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ ...﴾ [يوسف: ٦] (ح٤٦٨٨).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه وتعليقه (المصدر السابق، باب ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾ [يوسف] ح٤٦٨٩).

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والحاكم بسند حسن من طريق سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/٣٩٦).

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري معلقاً، ومعناه قوى، ويتقوى بالآثار التالية؛ فقول الضحاك أخرجه الطبري بسند لم يصرح باسم شيخه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند صحيح عن معمر عن قتادة، وقول الثوري أخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن بشار عن أبي أحمد، وهو الزبيري عن الثوري، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٦) سيأتي تخريج هذه الأقوال في تفسير الآية (١٠٠) من هذه السورة الكريمة.

(٧) زيادة من (حم) و(مح) وتفسير الطبري وابن أبي حاتم، وسقط من الأصل.

أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال: «جريان، والطارق، والذيّال، وذو الكنّفات، وقابس، ووثّاب، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والضّروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور»[١]. فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤها.

ورواه البيهقي في الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما، وابن أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد، ـ قال: ـ والشمس أبوه والقمر أمّه»[٢]. تفرّد به الحكم بن ظهير الفزاري وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط وهو صاحب حديث حسن يوسف.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب ﷺ أن يحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره»[٣].

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة، القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت»[٤]، ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً لأن الحكم بن ظهير: متروك متهم بالوضع (التقريب ١/ ١٩١، والمجروحين ١/ ٢٥١) وفي سنده أيضاً عبد الرحمن بن سابط لم يسمع من جابر كما قرر الإمام يحيىٰ بن معين، ذكره ابن أبي حاتم (المراسيل ص١٢٨)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٤٥، وأخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٣٩٦) ولكن يبقىٰ الانقطاع بين عبد الرحمن بن سابط وجابر.

(٢) دلائل النبوة ٦/ ٢٧٧ ونسبه الهيثمي إلى البزار (مجمع الزوائد ٧/ ٣٩) ونسبه الحافظ ابن حجر إلى أبي يعلى في مسنده (المطالب العالية ٣/ ٣٤٤)، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كلهم من طريق الحكم بن ظهير به.

(٣) أخرجه الإمام مسلم بنحوه من حديث أبي قتادة مرفوعاً (الصحيح، كتاب الرؤيا ح٢٢٦١/ ٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي رزين العقيلي بنحوه (المسند ٢٦/ ١١٦ ح١٦١٩٧) وقال محققوه: حسن لغيره، وكذا أخرجه أبو داود (السنن، الأدب، باب ما جاء في الرؤيا ح٥٠٢٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤١٩٨)، وكذا أخرجه الترمذي (السنن، الرؤيا، باب ما جاء في تعبير الرؤيا ح٢٢٧٩)، وابن ماجه (السنن، تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت ح٣٩١٤).

«استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود»[(١)].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا[(٢)].

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الخليل ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح[(٣)] ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، [كما قال في الآية الأخرى][(٤)].

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾.

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون: بنيامين، وكان شقيقه لأمه ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ٢٠/ ١٨٣)، وابن حبان (المجروحين ١/ ٣٢٢)، وأبو نعيم (الحلية ٦/ ٩٦)، من حديث معاذ، وفي سنده سعيد بن سلام متهم بالوضع، قال ابن أبي حاتم عن أبيه: حديث منكر، لا يعرف له أصل، وآفته سعيد بن سلام العطار فهو كذاب (العلل ٢/ ٢٥٨ ح٢٢٥٨)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٦٥.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) لأن الراجح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام. (٤) الزيادة من (حم) و(مح).

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم، ليخلوا لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل[١].

وقال السدي: الذي قال ذلك: يهوذا[٢].

وقال مجاهد: هو: شمعون[٣].

﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بدّ من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله.

قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس[٤]. ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على ما تقولون.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع[٥] الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه[٦].

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)﴾.

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا﴾ أي: ابعثه معنا ﴿غداً نرتع ونلعب﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[٧].

---

(١) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول ابن إسحاق أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد، وأخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف أيضاً من طريق رجل مبهم عن مجاهد.

(٤) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة.

(٥) الضرع: الضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

(٧) القراءتان متواترتان.

قال ابن عباس: يسعى وينشط[(١)]، وكذا قال قتادة [والضحاك][(٢)] والسدي[(٣)] وغيرهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: يشق علي مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن [يعقوب][(٤)] عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبّله ودعا له.

وذكر [السدي و][(٥)]غيره: أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها: الراغوفة، فقام فوقها[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس، ويتقوىٰ بالآثار اللاحقة.

(٢) سقط في الأصل، واستدرك من (حم) و(مح).

(٣) قول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق معمر عنه بلفظ: «يسعىٰ ويلهو»، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، بلفظ: «يتلهىٰ ويلعب»، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، بنحوه.

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «يوسف». (٥) الزيادة من (حم) و(مح).

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين ضعيفين بنحوه، والخبر من أخبار أهل الكتاب.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال مجاهد وقتادة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإيحاء الله إليه[١].

وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عبادة الأسدي، عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصواع فوضعه على يده، ثم نقره فطنَّ، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام[٢] أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له: يوسف، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب، قال: ثم نقره فطنَّ، قال: فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب، قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٣].

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامى، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة[٤] فيما ذكره

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.
(٢) الجام: هو الإناء من فضة.
(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده صدقة بن عبادة الأسدي وأبوه سكتا عنهما البخاري (التاريخ الكبير ٤/ ٢٩٧)، وابن أبي حاتم (الجرح ٤/ ٤٣٣)، وقال الأستاذ محمود شاكر: الخبر عندي غير مستقيم.
(٤) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكراً كان أو أنثى.

مجاهد والسدي وغير واحد[١]، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

وقال الثوري، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص[٢]، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد[٣].

وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه[٤].

وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبان بن أبي جبلة، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فقال: «صبر لا شكوى فيه»[٥]، وهذا مرسل.

وقال عبد الرزاق: قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكّي نفسك[٦].

وذكر البخاري ههنا حديث عائشة في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٧].

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام. فيما قاله أبو بكر بن عياش.

وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وسنده حسن.

(٣) قول الشعبي أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سماك، وهو ابن حرب، عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق هشيم به، وسنده ضعيف لإرسال حبان بن أبي جبلة، فهو تابعي كما في التقريب.

(٦) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري به، وسنده صحيح.

(٧) أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها (الصحيح، تفسير سورة يوسف، باب ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ...﴾ [يوسف: ١٨] ح٤٦٩٠).

وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلّوه فيها، تشبث يوسف ﷺ فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يَا بُشْراي هذَا غُلَامٌ﴾[١]. وقرأ بعض القراء ﴿يَـٰبُشْرَىٰ﴾.

فزعم السدي أنه اسم رجل، ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه معلماً له أنه أصاب غلاماً[٢]، وهذا القول من السدي غريب لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم.

وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه وحذف ياء الإضافة، وهو يريدها كما تقول العرب: يا نفس اصبري ويا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذٍ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى يا بشراي، والله أعلم[٣].

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير[٤]، هذا قول، وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿يَـٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ يباع فباعه إخوته[٥].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قاله مجاهد وعكرمة[٦]. والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣] أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة

---

(١) «يا بشراي»: قراءة متواترة.
(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٣) ذكره الطبري بنحوه.
(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول السدي أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جابر، وهو الجعفي: ضعيف، عن عكرمة، ومعناه صحيح، ونسبه السيوطي إلى الطبري عن مجاهد.

يوسف[١].

وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة[٢]. [والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة][٣]، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله: ﴿بَخْسٍ﴾ الحرام[٤].

وقيل: الظلم[٥]، هذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد لأنه نبي ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن، فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما، أي إنهم إخوته وقد باعوه، ومع هذا بأنقص الأثمان، ولهذا قال: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، فعن ابن مسعود ﷺ: باعوه بعشرين درهماً[٦]، وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي[٧]، وزاد: اقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً[٨].

وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً[٩].

وقال الضحاك في قوله: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله ﷻ[١٠].

وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبق[١١]، حتى وقفوه بمصر فقال: من يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً[١٢].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٣) سقط في الأصل، واستدرك من (حم) و(مح).

(٤) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً عن الضحاك.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٧٢).

(٧) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عنه، وقول نوف البكالي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي إسحاق، وهو السبيعي، عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول عطية العوفي أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٩) قول ابن إسحاق وعكرمة أخرجهما الطبري بسندين ضعيفين عنهما.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك.

(١١) لا يأبق: أي لا يهرب.

(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير.

قال العوفي، عن ابن عباس: وكان اسمه قطفير(١).

وقال محمد بن إسحاق: اسمه أطفير بن روحيب وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذٍ الريان بن الوليد رجل من العماليق، قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل، وقال غيره: اسمها زليخا.

وقال محمد بن إسحاق ـ أيضاً ـ، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك بن دعر بن [بويب](٢) بن عنقا بن مديان بن إبراهيم(٣)، فالله أعلم.

وقال أبو إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما(٤).

يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا(٥).

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه.

قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: أي فعال لما يشاء(٦).

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٢) كذا في (حم) و(مح) وفي رواية الطبري، وفي الأصل: «فريب».

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف جداً لأن محمد بن السائب وهو الكلبي صرح بأن كل ما رواه عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب كما في ترجمته في تهذيب التهذيب.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم والحاكم من طريق أبي عبيدة به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٩٠) وفيه أبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود لكن قد توبع فأخرجه الطبراني من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود (المعجم الكبير ٩/ ١٨٥ ح٨٨٢٩).

(٥) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه رجل مبهم عن سعيد بن جبير بلفظ: «فعَّال».

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ أي: استكمل عقله وتم خلقه ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني: النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى.

وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة[١].

وعن ابن عباس: بضع وثلاثون[٢].

وقال الضحاك: عشرون[٣]. وقال الحسن: أربعون سنة[٤].

وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة[٥]. وقال السدي: ثلاثون سنة[٦]. وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة[٧] سنة. وقال الإمام مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي: الأشد الحلم[٨]، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، [فراودته عن نفسه][٩]، أي: حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلّقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي: إن بعلك ربي أحسن مثواي، أي منزلي، وأحسن إليَّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم[١٠].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق مجاهد عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه سُنيد، ويتقوى بما سبق.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن عباس فيه إبهام شيخ الطبري.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن الضحاك فيه إبهام شيخ الطبري.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق منصور بن زاذان عن الحسن.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه حفص بن عمر العدني، وهو ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير.

(٨) قول الإمام مالك أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه، وقول ربيعة أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عمرو بن الحارث عنه، وقول زيد بن أسلم أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عبد الرحمن بن زيد عنه، وقول الشعبي أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق مجالد عنه.

(٩) أثبت من (حم) و(مح) وسقط من الأصل.

(١٠) قول السدي أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسندين يقوى أحدهما الآخر بنحوه، وقول محمد بن إسحاق =

وقد اختلف القراء في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء[١]، وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها[٢].

وقال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، تقول: هلم لك[٣]، وكذا قال زر بن حُبيش وعكرمة والحسن وقتادة[٤].

قال عمرو بن عبيد، عن الحسن: وهي كلمة بالسريانية، أي عليك[٥].

وقال السدي: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أي: هلم لك، وهي بالقبطية[٦].

وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها[٧].

وقال البخاري: وقال عكرمة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، أي هلم لك بالحورانية. وهكذا ذكره معلقاً[٨].

وقد أسنده الإمام جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن سهل الواسطي، حدثنا قُرَّة بن عيسى، حدثنا النضر بن عربي الجزري، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قال: هلم لك، قال: هي بالحورانية[٩].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكي هذه القراءة، يعني ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال.

وقال أبو عبيدة: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها[١٠]، واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين [أذى][١١] العراق إذا أتينا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا[١٢]

يقول: فتعال واقترب، وقرأ ذلك آخرون ﴿هِئْتُ لك﴾[١٣] بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، من قول القائل: هئت بالأمر أهيء هئة، وممن روى عنه هذه القراءة: ابن

= أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عنه بنحوه.

(١) وهي قراءة سبعية متواترة.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٣) أخرجه الطبري من الطريقين، وطريق ابن أبي طلحة يقوي طريق العوفي.

(٤) قول زرّ بن حبيش أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عاصم بن بهدلة عنه، وقول الحسن وقتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة عنه.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عمرو بن عبيد به.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه البخاري معلقاً (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا ...﴾ [يوسف: ٢٣]) ووصله عبد بن حميد عن جعفر بن عون عن النضر بن عربي عن عكرمة (تغليق التعليق ٤/ ٢٢٩).

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وقرة بن عيسىٰ لم أقف على ترجمة له.

(١٠) مجاز القرآن ١/ ٣٠٥، ونقله الطبري.

(١١) كذا في الأصل و(حم)، وفي (مح) وتفسير الطبري ومجاز القرآن بلفظ: «أخا».

(١٢) ذكره الطبري وأبو عبيدة معمر بن المثنىٰ (مجاز القرآن ١/ ٣٠٥).

(١٣) وهي قراءة متواترة.

عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة[١]، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك.

قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة[٢].

وقرأ عبد الله بن إسحاق: (هَيتِ) - بفتح الهاء وكسر التاء[٣] - وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة (هَيتُ) - بفتح الهاء وضم التاء[٤] -، وأنشد قول الشاعر[٥]:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما ... قال داعٍ من العشيرة هَيتُ

قال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: قال ابن مسعود وقد سمع القراء: سمعتهم متقاربين، فاقرءوا كما علمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، وإنما هو كقول أحدكم: هلُمَّ وتعال. ثم قرأ عبد الله: (هيت لك)، فقال: يا أبا عبد الرحمن إن ناساً يقرءونها (هيت). قال عبد الله: أن أقرأها كما علمت أحب إليّ[٦].

وقال ابن جرير: حدثني ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن منصور، عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فقال له مسروق: إن ناساً يقرءونها: (هيتُ لك)، فقال: دعوني فإني أقرأ كما أُقرئت، أحب إليّ[٧].

وقال أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن شقيق، عن ابن مسعود، قال: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ بنصب الهاء والتاء، ولا نهمز[٨].

وقال آخرون: (هِيتُ لك) بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء[٩].

قال أبو عبيد معمر بن المثنى: هيت لا تثنى، ولا تجمع، ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: (هيت) لك، وهيت لكم، وهيت لكما، وهيت لكنَّ، وهيت لهنَّ[١٠].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

اختلف أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن

---

(١) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عنه، وقول أبي عبد الرحمن السلمي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عاصم عنه، وقول أبي وائل أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عاصم عنه، وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه.

(٢) ذكره الطبري بلفظه.

(٣) وهي قراءة شاذة.

(٤) وهي قراءة متواترة.

(٥) الشاعر: هو طرفة بن العبد، والبيت في ديوانه ص١٤٥، واستشهد به الطبري.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح وأخرجه البخاري من طريق شعبة عن الأعمش به مختصراً (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ...﴾ [يوسف: ٢٣] ح٤٦٩٢).

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده ابن وكيع، وهو سفيان فيه مقال وقد توبع في الرواية السابقة، وكلا الروايتين متواترتان.

(٨) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وسنده صحيح، وقراءة الهمز أيضاً متواترة.

(٩) وهي قراءة شاذة.

(١٠) مجاز القرآن ١/ ٣٠٥.

جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره[(١)]، والله أعلم.

وقيل: المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق[(٢)]، ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة ﷺ. قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين[(٣)]، وله ألفاظ كثيرة هذا منها.

وقيل: همَّ بضربها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي فلم يهم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاه ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب ﷺ عاضاً على أصبعه [يعظه][(٤)(٥)].

وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف[(٦)].

وقال العوفي، عن ابن عباس: رأى خيال الملك، يعني: سيده[(٧)]، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب[(٨)].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي. قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء][(٩)]، وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب.

---

(١) لم يصرح الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى بما رواه ابن جرير على الرغم من صحة الأسانيد، وهذا هو الذي يليق بمقام نبي الله: يوسف ﷺ، لأن ما ورد كله من الإسرائيليات، وقد بيَّن ذلك الحافظ ابن كثير في كتابه القيم «قصص الأنبياء» بأن أكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقىٰ من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا، والذي يجب أن يعتقد: أن الله عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة، وحماه عنها وصانه منها (٢٠٨/١)، وقد سبقه شيخ الإسلام ابن تيمية فذكر نحوه (مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٢٩٧/١٠).

(٢) ذكره البغوي في معالم التنزيل.

(٣) صحيح البخاري، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] (ح٧٥٠١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنةَ كتبت... (ح٢٠٥).

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «يعظمه».

(٥) أخرجه بنحوه الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وأخرجه بنحوه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبسند صحيح من عدة طرق عن الحسن البصري، وبسند صحيح من طريق معمر عن قتادة ومن عدة طرق يقوي بعضها بعضاً عن سعيد بن جبير.

(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من عدة طرق يقوي بعضها بعضاً عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٨) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه أيضاً من طريق أبي معشر المدني وأبي صخر، وهو حميد بن زياد، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً.

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر، قال: سمعت القرظي يقول: في البرهان الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾ الآية [الانفطار]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢][١].

وقال الأوزاعي: رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك[٢].

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله ما زجره عما كان همَّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك[٣]. فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٥ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ۝٢٩﴾.

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب: يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه [من ورائه][٤] فقدّته قداً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في أثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي: فاحشة ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾ أي: يحبس، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً. فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و﴿قَالَ﴾ باراً صادقاً ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدَّت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي: في قولها أنه راودها عن نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره، فقدّت قميصه فيصح ما قالت ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٢٧﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدَّت قميصه من ورائه.

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن وهب به، وسنده حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق عمر بن عبد الواحد عن الأوزاعي.

(٣) ذكره الطبري بنحوه.

(٤) سقط في الأصل، واستدرك من (حم) و(مح).

وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف:

فقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: ذو لحية[١].

وقال الثوري، عن جابر، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: كان من خاصة الملك[٢]، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي[٣] ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً.

وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها[٤].

وقال ابن عباس: كان من خاصة الملك[٥].

وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد[٦].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ قال: كان صبياً في المهد[٧]، وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً في الدار[٨]، واختاره ابن جرير.

وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد هو ابن سلمة، أخبرني عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف[٩]، ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٢) أخرجه الثوري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف جابر وهو ابن يزيد الجعفي.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور بن المعتمر وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عمران بن جدير عنه، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق يونس بن عبيد عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أسباط عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق محمد بن أبان عن زيد بن أسلم، ومحمد بن أبان هو ابن صالح القرشي ضعيف (ميزان الاعتدال ٣/ ٤٥٣).

(٥) تقدم تخريجه وضعفه قبل روايتين.

(٦) تقدم تخريجه في أول القصة.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس، وضعفه الحافظ ابن حجر بسبب أبي سعد البقال: وهو سعيد بن المرزبان وهو ضعيف مدلس، كما في التقريب.

(٨) قول أبو هريرة أخرجه الطبري بسند ضعيف جداً بنحوه من طريق أبي بكر الهذلي عن شهر بن حوشب عنه، وأبو بكر متروك كما في التقريب، وأخرجه الحاكم من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٩٥)، ولكن تعقبهما الألباني بأن لفظه باطل (السلسلة الضعيفة ح٨٨٠). وقول هلال بن يساف أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال. وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي حصين عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الحاكم من طريق عفان به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٩٦)، والراجح وقفه كما في الرواية التالية.

عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»(١).

وقال ليث بن أبي سُليم، عن مجاهد: كان من أمر الله تعالى، ولم يكن إنسياً(٢).

وهذا قول غريب.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اضرب عن هذا صفحاً؛ أي: فلا تذكره لأحد.

﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه فقال لها: استغفري لذنبك، أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز، شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء، يُنكرنَ على امرأة العزيز وهو: الوزير ويعبنَ ذلك عليها ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه.

قال الضحاك، عن ابن عباس: الشغف: الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب(٣).

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ قال بعضهم: بقولهن.

وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق حماد به مطولاً وحسن سنده محققوه (المسند ٥/ ٣٠، ٣١ ح٢٨٢١)، وصححه السيوطي في الدر المنثور، وقال أحمد شاكر: إسناده لا بأس به. وذلك في تعليقه على المسند.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والطبري من طريق حفص بن غياث عن ليث به، وهذا لفظ الطبري، ولفظ ابن أبي حاتم: ليس بأنس ولا جان وهو خلق من خلق الله. وقد استغربه الحافظ ابن كثير، وهو كما قال، لأن الآية فيها ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥].

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن الضحاك به، وهو لم يلق ابن عباس.

رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المُعَد[١] فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهنَّ في احتيالهنَّ على رؤيته ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فَلَمَّا﴾ خرج و﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي أعظمنه، أي أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حززن أيديهن بها، قاله غير واحد.

وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها[٢]، فالله أعلم.

وقد ذُكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلنَّ وطابت أنفسهنَّ، ثم وضعت بين أيديهنَّ أترجاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكنَّ في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهنَّ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولنَّ.

فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتنَّ هذا، فكيف أُلام أنا؟

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأيناً[٣]، لأنهنَّ لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة، قال: «فإذا هو قد أعطي شطر الحسن»[٤].

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطي يوسف وأُمه شطر الحسن»[٥].

وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أُعطي يوسف وأُمه ثلث الحسن[٦].

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة بلفظ: «مجلساً»، وقول الحسن أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، بلفظ: طعاماً، وبلفظه أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، وبلفظه أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وسنده صحيح، وأخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، وسنده صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف جداً من طريق يحيىٰ بن العلاء عن زيد بن أسلم بنحوه وطوله، ويحيىٰ بن العلاء هو البجلي متروك، رمي بالوضع (ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٧، والتقريب ٢/ ٣٥٥).

(٤) سيأتي تخريجه في بداية تفسير سورة الإسراء، وهو حديث صحيح متفق عليه.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٤/ ٣٩٦ كتاب الفضائل)، والطبري كلاهما من طريق حماد بن سلمة به، ومتنه يخالف ما في الصحيح كما سبق.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ٤/ ٣٩٦)، والطبري كلاهما من طريق وكيع عن الثوري به، وسنده صحيح، وهو يخالف ما في الصحيح كما سبق.

وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: كان وجه يوسف مثل البرق[١]، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به.

ورواه الحسن البصري مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطي يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطي الناس الثلثين»، أو قال: «أُعطي يوسف وأُمه الثلثين والناس الثلث»[٢].

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد، عن ربيعة الجرشي قال: قسم الحسن نصفين فأعطي يوسف وأُمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق[٣].

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه، فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾.

قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله[٤] ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وقرأ بعضهم (ما هذا بشري)[٥]. أي: بمشترى. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول: هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله، ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع.

قال بعضهم: لما رأينَ جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهنَّ وكيدهنَّ، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: من الفاحشة ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الآية، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق أشعث بن سوار عن أبي إسحاق به، وأشعث ضعيف كما في التقريب.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، وقال الألباني: منكر باطل بهذا اللفظ (السلسلة الصحيحة ح١٤٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي نعيم، وهو الفضل بن دكين، عن سفيان به.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٥) وهي قراءة شاذة تفسيرية.

(٦) صحيح البخاري، الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (ح٦٦٠)، وصحيح مسلم، الزكاة، =

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه.

وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها[(١)].

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه[(٢)].

قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذي على الشراب نبو والآخر مجلث[(٣)].

قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه[(٤)].

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه. ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حباً شديداً وقالا له: والله لقد أحببناك حباً زائداً. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحبتني عمتي فدخل عليّ الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك[(٥)]، ثم إنهما رأيا مناماً فرأى الساقي أنه يعصر خمراً، يعني: عنباً، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: (إني أراني أعصر عنباً)[(٦)].

ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود أنه قرأها: (أعصر عنباً)[(٧)].

وقال الضحاك في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾: يعني: عنباً، قال: وأهل عُمان يسمون

= باب فضل إخفاء الصدقة (ح١٠٣١).

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين من طريق أسباط عن السدي، ويقوي أحدهما الآخر.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في كتابه «المبتدأ» (ينظر: فتح الباري ١٢/ ٣٨١).

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أسباط عن السدي بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق قال: فحدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد، بنحوه.

(٦) ثبت ذلك عنه كما يلي، وهي قراءة شاذة تفسيرية.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، وحسنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١٢/ ٣٨٢).

العنب خمراً[١].

وقال عكرمة: قال له: إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب، فنبتت فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمراً، وقال الآخر، وهو الخباز: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ الآية، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم، عن عبد الله بن مسعود قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كان تحالماً ليجربا [علمه][٢][٣].

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾.

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في المنام من حلم فإنه عارف بتفسيره يخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾.

ومجاهد: يقول: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ [في نومكما][٤] ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾[٥]، وكذا قال السدي[٦].

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد بن يزيد شيخ له، [ثنا رشدين][٧] الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدري لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف[٨] وهو كذلك، لأني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلواً أو مراً اعتاف عند ذلك. ثم قال ابن عباس: إنما عُلِّم فعلِم[٩]. وهذا أثر غريب، ثم قال[١٠]: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده صحيح من طريق علي بن الحكم عن الضحاك.
(٢) كذا في الأصل وفي تفسير الطبري والدر المنثور، ونسبه إلى ابن أبي شيبة والطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وورد في (مح) و(حم) وبقية الطبعات من تفسير ابن كثير بلفظ: «عليه» والصواب ما أثبت من المصدر الأصيل.
(٣) أخرجه الطبري بروايتين من الطريقين، وسنده ضعيف لأن إبراهيم لم يسمع من ابن مسعود.
(٤) سقط في الأصل واستدرك من (حم) و(مح) وتفسير ابن أبي حاتم.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٦) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين من طريق أسباط عن السدي، وأحدهما يقوي الآخر.
(٧) كذا في (مح)، وصحف في (حم) إلى «رشيد»، وسقط من الأصل، وقد أُثبت في تفسير ابن أبي حاتم.
(٨) يعتاف: أي أنه كان صادق الحدس والظن (ينظر: النهاية ٣/ ٣٣٠).
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف رشدين كما في التقريب واستغربه الحافظ ابن كثير.
(١٠) القائل هو يوسف.

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أوحاه إلينا وأمرنا به. ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج، عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: والله فمن شاء لاعنته عند الحجر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى، يعني إخباراً عن يوسف: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1].

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم إنّ يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي: الذي ذلّ كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بيّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

وقد قال ابن جرير: إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما، فأحبَّ أن يشغلهما بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها، فعاودوه فأعاد عليهم الموعظة[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده حسن، وأخرجه سعيد بن منصور من طريق هشيم عن حجاج به (السنن ١/٦٤).

(٢) ذكره الطبري بنحوه (التفسير ١٦/١٠٢).

وفي هذا الذي قاله نظر، لأنه قد وعدهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

يقول لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه؛ وهو واقع لا محالة، لأن «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت»[(١)].

وقال الثوري، عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم عن، عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾. ورواه محمد بن فضيل عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود به[(٢)]، وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم[(٣)]، وحاصله أن من تحلّم بباطل، وفسره فإنه يلزم بتأويله، والله تعالى أعلم.

وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت»[(١)]. وفي مسند أبي يعلى من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس مرفوعاً: «الرؤيا لأول عابر»[(٤)].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ولما ظن يوسف ﷺ نجاة أحدهما وهو الساقي، قال له يوسف خفية عن الآخر، والله أعلم - لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فنسي ذلك الموصَى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ

---

(١) تقدم تخريجه في الآية (٥) من هذه السورة الكريمة.

(٢) أخرجه الطبري بالسندين، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن فضيل به وسنده صحيح، وأخرجه الحاكم من طريق الثوري عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود وصححه (المستدرك ٢/٣٤٦).

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) أخرجه أبو يعلىٰ من طريق يزيد الرقاشي به وأطول (المسند ٧/١٥٨ ح٤١٣١) وضعفه محققه، وأخرجه ابن ماجه من طريق الرقاشي أيضاً، وضعفه البوصيري لضعف يزيد الرقاشي (مصباح الزجاجة ٣/٢١٦) وضعفه أيضاً الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١٢/٤٣٢).

رَبِّهِۦ﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد(١).

ويقال: إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم(٢).

وأسند ابن جرير ههنا حديثاً فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد، عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً، قال: قال النبي ﷺ: «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال، ما لبث في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله»(٣)، وهذا الحديث ضعيف جداً، لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً. وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما(٤)، وهذه المرسلات ههنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما البضع، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع(٥).

وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً، وعذب بختنصر سبعاً(٦).

وقال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال: ثنتا عشرة سنة(٧). وقال الضحاك: أربع عشرة سنة(٨).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن،

---

(١) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند فيه عنعنة ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقول ابن إسحاق سنده حسن عند ابن أبي حاتم.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف كما فصّل الحافظ ابن كثير.

(٤) قول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق يونس عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه وكلاهما مرسل وقد ردهما الحافظ ابن كثير.

(٥) قول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق منصور، وهو ابن المعتمر عنه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق عن عمران أبي الهذيل الصنعاني عن وهب بنحوه، ووهب بن منبه مشهور برواية الإسرائيليات.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يلق ابن عباس.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق محمد بن عمر عن الضحاك.

معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة[١] وكبراء دولته وأمراءه، فقصَّ عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أُمة، أي مدة، وقرأ بعضهم (بعد أُمه)[٢]، أي بعد نسيان[٣]، فقال لهم؛ أي: للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: بتأويل هذا المنام، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاءه، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فاخزنوه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس؛ أي: يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون[٤].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه،

---

(١) الحزاة: جمع حاز، وهو الذي يحزر الأشياء ويقدرها بظنه.
(٢) وهي قراءة شاذة قرأ بها عكرمة كما يلي.
(٣) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً، عن عكرمة.
(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق علي به.

فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه، فقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحيحين من حديث الزهري عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية، ويرحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»[(١)].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا، لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر»[(٢)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، [عن عكرمة][(٣)] قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»[(٤)]، هذا حديث مرسل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ يعني يوم الضيافة، ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول: الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٦، وصحيح البخاري، تفسير سورة يوسف، باب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ...﴾ [٥٠] (ح٤٦٩٤)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (ح٢٣٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسّن سنده محققوه (المسند ١٤/٢٢٨ ح٨٥٥٤).

(٣) سقط في الأصل، واستدرك من (حم) و(مح) وتفسير عبد الرزاق.

(٤) أخرجه عبد الرزاق والطبري بسنده ومتنه، وسنده مرسل.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأن ﴿ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره[١]، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]، فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ﴾. وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه[٣]. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[٤]، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي[٥]، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزاهة عرضه مما نسب إليه، قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أي: أجعله من [خاصتي][٦] وأهل مشورتي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي: خاطبه الملك، وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال، قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه.

وقال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم بسني الجدب. رواه ابن أبي حاتم[٧].

---

(١) النكت والعيون ٢/٢٧٨.

(٢) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٢٩٨.

(٣) سيأتي ذكرها في الروايات التالية، وهي من الإسرائيليات.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده سماك وهو ابن حرب وروايته عن عكرمة فيها اضطراب، وإذا صحت فإنها من الإسرائيليات.

(٥) لم أجده عن مجاهد، وقد أخرجه الطبري بأسانيد صحاح عن سعيد بن جبير بنحوه، وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي سنان عن ابن أبي الهذيل، وأخرجه الطبري بأسانيد صحيحة عن الحسن وقتادة بنحوه، وقول عكرمة تقدم عن ابن عباس.

(٦) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «أخصاي».

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق إبراهيم بن مختار، عن شيبة بن نعامة.

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء[(١)].

وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار[(٢)]، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله ﷻ السلامة والنصر والتأييد، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالىٰ لنبيه يوسف ﷺ في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان: ﷺ ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص] والغرض أن يوسف ﷺ ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف ﷺ. قاله مجاهد.

وقال محمد بن إسحاق، لما قال يوسف للملك: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] قال الملك: قد فعلت، فولّاه فيما ذكروا عمل اطفير، وعزل اطفير عما كان عليه، يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال: فذكر لي ـ والله أعلم ـ أن اطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة اطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق لا تلمني، فإن كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عذراء، فأصابها، فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف، وولد لأفرائيم نون والد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب ﷺ[(٣)].

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته[(٤)].

---

(١) قول السدي أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريقين عن أسباط عن السدي، وأحدهما يقوي الآخر، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٢) ذكره الطبري بلفظه مطولاً.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق مقطعاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند جيد من طريق قادم الديلمي العابد عن الفضيل، والخبر من الإسرائيليات.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾.

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السبع سنين الجدب، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده[1]، وحينئذٍ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غَلّاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا آكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفا الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتاع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعدما تملّك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم وردَّ عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، وهم له منكرون، أي لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة[2]، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؟ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ الآية؛ أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ

(١) أخرجه الطبري بسندين ضعيفين عن السدي وعن ابن إسحاق بنحوه.

(٢) أي لجلب الطعام.

﴿عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۝٦١﴾ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه[1].

وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أي: غلمانه ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ أي: التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها.

قيل: خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها.

وقيل: تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٦٤﴾.

يقول الله تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين لا نكتل، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون، قرأ بعضهم بالياء، أي (يكتل) هو، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف] ولهذا قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ وقرأ بعضهم ﴿حفظاً﴾[2] ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦﴾.

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: ماذا نريد ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، [كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا رُدَّت إلينا][3] وقد أوفى لنا الكيل[4]، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا،

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بنحوه من طريقين عن أسباط عن السدي، وهذا من الطريقان يقوي أحدهما الآخر.

(٢) وهاتان قراءتان متواترتان.

(٣) الزيادة من (حم) و(مح) وتفسير الطبري.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير.

وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً[١]، كذا قال ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه؛ أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم، فقال: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم[٢].

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد إنه: خشي عليهم العين[٣]، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه.

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب[٤].

وقوله: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه[٥].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق بنحوه.

(٣) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بما يليه، وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي معشر عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وذلك في تفسير الآية التالية رقم (٦٨)، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف فيه يحيىٰ بن عبد الحميد الحماني: وهو متهم بسرقة الحديث.

(٥) قول قتادة أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الثوري =

وقال ابن جرير: لذو علم لتعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس؛ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرّماً معظماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب ـ قاله ابن زيد ـ كان يشرب فيه[٢]، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد[٣].

وقال شعبة، عن أبي بشر، وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: صواع الملك، قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك[٤]، وكان للعباس مثله في الجاهلية[٥]، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى منادٍ بينهم ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة[٦]، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة[٧].

= أخرجه ابن أبي حاتم والطبري بسند صحيح من طريق سفيان بن عيينة عن سعيد بن أبي عروبة كسابقه، ولم يذكر الثوري، ولا يضر فكلاهما ثقة.

(١) ذكره الطبري بلفظه.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، وهو عبد الله، عن ابن زيد، وهو عبد الرحمن.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوي بما يليه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه شيخ الطبري مبهم، وقول عبد الرحمن بن زيد تقدم في الحاشية السابقة.

(٤) المكوك: اسم للمكيال، يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد (النهاية ٤/ ٣٥٠).

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم من طريق شعبة به وصحح سنده الحافظ ابن حجر (تغليق التعليق ٤/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٦) الجعالة: هي التزام عوض معلوم على عمل معين بقطع النظر عن فاعله، وقد استدل الفقهاء بهذه الآية ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢] في مشروعية الجعالة (ينظر: الفقه الميسر ص٢٦٣).

(٧) الكفالة: هي التزام إحضار من عليه حق مالي لربه، إلى مجلس الحكم، وقد استدل الفقهاء بالآية السابقة على مشروعيتها (المصدر السابق ص٢٣٤).

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: السارق إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: أي شيء تكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم ﷺ، أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف ﷺ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتشها قبله تورية، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر. قاله الضحاك وغيره، وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله ﷻ[(١)]، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثوري، عن عبد الأعلى الثعلبي، عن سعيد بن جبير، قال: كما عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت: الله العليم فوق كل عالم[(٢)]، وكذا روى سماك عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم[(٣)]، وهكذا قال عكرمة[(٤)].

وقال قتادة: وفوق كل ذي علم عليم، حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ، وتعلمت العلماء، وإليه يعود، وفي قراءة عبد الله: (وفوق كل عالم عليم)[(٥)].

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ

---

(١) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً. (٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسرائيل عن سماك به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق خالد الحذاء عن عكرمة.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، لكن قتادة لم يسمع من ابن مسعود، فيكون الأثر ثابتاً عن قتادة سوى القراءة، وهي شاذة تفسيرية.

﴿مِن قَبْلُۚ﴾ يتنصّلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام.

قال سعيد بن جبير [و][١] قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره[٢].

وقال محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة[٣] إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته، وكان لها به وَلَه، فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام، فأتاها فقال: يا أخية سلمي إليّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: فوالله ما أنا بتاركته، ثم قالت: فدعه عندي أياماً أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، أو كما قالت، فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست، ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي لسلم، أصنع فيه ما شئت، فأتاه يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾[٤].

وقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر[٥]:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يُجزي سنمّار[٦]

وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها.

قال العوفي، عن ابن عباس ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ قال: أسر في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[٧].

---

(١) كذا في (حم) و(مح) والتخريج وفي الأصل: «عن».
(٢) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند فيه الفيض بن الفضل سكت عنه البخاري (التاريخ الكبير ٤/ ١٤٠)، وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٦/ ٨٨)، وضعفه البسوي وقال: لا يفرح بحديثه (المعرفة والتاريخ ٣/ ٥٨)، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه.
(٣) المِنطقة: كل ما يشد به الوسط كالنطاق.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق به، وسنده حسن.
(٥) هو سليط بن سعد كما في حاشية خزانة الأدب ٢/ ٤٩٥.
(٦) هذا البيت ذكره ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك برقم ١٥٣، والشاهد فيه أنه قد اتصل بالفاعل المتقدم ضمير يعود إلى المفعول المتأخر للضرورة الشعرية، والأصل أن يقال: جزىٰ أبا الغيلان بنوه...
(٧) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق العوفي به.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

لما تعيَّن أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترقّقون له ويعطفونه عليهم فـ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أي: كما قلتم واعترفتم ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ أي: إن أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم بردِّه إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنَّه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتنصلوا إليه ويبرؤا مما وقع بقولهم وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

قال قتادة وعكرمة: ما نعلم أن ابنك سرق[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه يسرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق[2]؟ ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر. قاله قتادة[3]، وقيل غيرها[4]، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

---

(١) قول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول عكرمة أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق يزيد النحوي عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق الفرج بن أصبغ عن عبد الرحمن بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرج ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد أنها حمير.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[١]، وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، سحب حكم الأول عليه، وصحَّ قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثم ترجَّى من الله أن يردَّ عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره، ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي: أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين.

قال عبد الرزاق[٢]: أنبأنا الثوري، عن سفيان العصفري، عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٣]، أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره[٤].

وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كميد حزين[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، أن النبي ﷺ قال: «إن داود عليه السلام قال: يا ربِّ إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب، فاجعلني لهم رابعاً، فأوحى الله تعالى إليه: أن يا داود إن إبراهيم ألقي في النار بسببي فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببي فصبر، وتلك بلية لم تنلك، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر، وتلك بلية لم تنلك»[٦]. وهذا منكر وفيه نكارة، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح، ولكن علي بن زيد بن جدعان له، مناكير وغرائب كثيرة، والله أعلم، وأقرب ما في هذا أن الأحنف بن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما، والله أعلم، فإن الإسرائيليين ينقلون أن يعقوب

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق وكيع عن الثوري به.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق وكيع عن الثوري به.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وضعفه ابن كثير سنداً ومتناً.

كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في ردِّ ابنه، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء، فإبراهيم ابتلي بالنار، وإسحاق بالذبح، ويعقوب بفراق يوسف... في حديث طويل لا يصح، والله أعلم.

فعند ذلك رقَّ له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: ضعيف القوة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ أي همّي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير.

وعن ابن عباس: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق[١]، وأن الله لا بدّ أن يظهرها، وقال العوفي عنه في الآية: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك [بن أبي غنية][٣]، عن حفص بن عمر بن أبي الزبير، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبي عليه السلام أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك، وقوس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فقال جبريل عليه السلام: الله أعلم بما تشكو»[٤]. وهذا حديث غريب فيه نكارة.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس.

(٢) هو الأثر السابق بلفظه.

(٣) كذا في (حم) و(مح) وتفسير ابن أبي حاتم، وفي الأصل صحفت إلى: «ابن أبي عنبة».

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وضعفه الحافظ ابن كثير، وأخرجه الحاكم من طريق يحيىٰ بن عبد الملك بن أبي غنية به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٤٨، ٣٤٩)، ولكن الغرابة في آخره ترجح نقد الحافظ ابن كثير.

الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد[١].

وقال ابن عباس: الرديء لا ينفق مثل خلق الغِرارة والحبل والشيء[٢].

وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان[٣]، وكذا قال قتادة والسدي[٤].

وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفسول[٥].

وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء[٦].

وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق[٧].

وقال أبو صالح: جاءوا بحب البطم الأخضر والصنوبر[٨]، وأصل الإخاء: الإزجاء لضعف الشيء، كما قال حاتم الطائي:

لبيك على مِلحان ضيفٌ مُدَفَّعٌ   وأرملة تزجي مع الليل أرملا[٩]

وقال أعشى بني ثعلبة:

الواهب المائة الهِجان[١٠] وعبدها   عوذاً تزجي خلفها أطفالها[١١]

وقوله إخباراً عنهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوقر ركابنا وتصدّق علينا[١٢].

وقال ابن جريج: وتصدّق علينا برد أخينا إلينا[١٣].

وقال سعيد بن جبير والسدي: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ يقولون: تصدّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتجوز فيها[١٤].

وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال، ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾؟ رواه ابن جرير عن الحارث،

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عنه.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول السدي أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أسباط عنه، وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق أبي حصين، وهو عثمان بن عاصم، عن سعيد بن جبير، والدراهم الفسول: المزيفة لا قيمة لها.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق مروان بن عمرو عن أبي صالح.

(٧) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن الضحاك.

(٨) تقدم قبل الرواية السابقة.

(٩) ديوان حاتم الطائي ص٢٨٢، واستشهد به الطبري.

(١٠) الهجان من الأبل: البيض الكرام.

(١١) ديوان أعشىٰ بني ثعلبة ص٢٩.

(١٢) هي قراءة شاذة تفسيرية.

(١٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود، وهو ضعيف.

(١٤) قول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم بنحوه بسند ضعيف، فيه أبو بكر الهذلي وهو متروك، وقول السدي أخرجه ابن أبي حاتم معلقاً والطبري بنحوه بسند ضعيف فيه سفيان بن وكيع.

عن القاسم عنه[١]. وقال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية، عن عثمان بن الأسود، سمعت مجاهداً وسئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدّق عليَّ؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب[٢].

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يوسف ﷺ، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩﴾ يعني: كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]، والظاهر - والله أعلم - أن يوسف ﷺ إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر، فرج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح] فعند ذلك قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ وقرأ أُبي بن كعب (إنك لأنت يوسف)[٣]، وقرأ ابن محيصن (أنت يوسف)[٣]، والقراءة المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾.

وقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضاً، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ يقول: أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف لإبهام شيخ سفيان بن عيينة.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه سعيد بن منصور بسند حسن من طريق عثمان به (السنن، التفسير رقم ١١٤٣).

(٣) وهي قراءة شاذة.

قال السدي: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم[١].

وقال ابن إسحاق والثوري: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم[٢]، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: بجميع بني يعقوب، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند والكبر.

قال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل، قال: سمعت ابن عباس يقول: ولما فصلت العير، قال: لما خرجت العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام[٣]، وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به[٤]. وقال الحسن وابن جريج: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة[٥].

وقوله: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تسفهون[٦].

وقال مجاهد ـ أيضاً ـ والحسن: تهرمون[٧].

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم[٨].

وقال قتادة: أي من حبِّ يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق أسباط عن السدي.

(٢) قول ابن إسحاق أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق سلمة بن الفضل عنه بلفظه، وقول الثوري أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عمر العدني عنه بلفظ: «لا تعيير عليكم اليوم».

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه الطبري من طريق الثوري عن أبي سنان، وسنده صحيح.

(٥) قول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عنه مقتصراً على الشق الأول، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق حجاج عنه بلفظ: «وكان قد فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة».

(٦) قول ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق خصيف عنه، وقول عطاء أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الملك بن أبي سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ[١]، وكذا قال السدي وغيره[٢].

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

قال ابن عباس والضحاك: ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾ البريد[٣]. وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب[٤]، قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب[٥]. فأراد أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه.

قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر[٦].

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس: سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: [كان عمٌّ][٧] يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي. قال: فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب أخّر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾[٨].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق أسباط عن السدي.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول السدي أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر.

(٥) تخريجه كسابقه.

(٦) قول ابن مسعود أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، وهو ضعيف كما في التقريب، وقول إبراهيم وعمرو أخرجه الطبري بسند فيه سفيان وكيع وفيه مقال، وقول ابن جريج أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود وهو ضعيف.

(٧) في النسخ الخطية: «كان عمر ﷺ». والمثبت هو الصواب كما في طبعات تفسير الطبري والمعجم الكبير وتفسير ابن أبي حاتم، وسعيد بن منصور، ووقع هذا الخطأ في طبعات تفسير ابن كثير إلا طبعة مصطفى السيد محمد ومحمد السيد، رشاد ومن معهم فقد ذكروه على الصواب دون تعليق وتوضيح واكتفوا وضع العبارة بين معقوفين.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه. وسنده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق كما تقدم في الأثر السابق، وأخرجه سعيد بن منصور (السنن التفسير ح١١٤٤)، والطبراني (في المعجم الكبير ٩/١٠٨ ح٨٥٤٨)، وتفسير ابن أبي حاتم كلهم من طريق عبد الرحمن بن إسحاق به.

وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة، كما قال ابن جرير أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أنبأنا ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه[١]. وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين ديار مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه، وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش، وردَّ ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[٢].

وفي هذا نظر أيضاً، لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ وفي الحديث: «من آوى محدثاً»[٣]، وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر - إن شاء الله - آمنين؛ أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف» ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك،

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وهو حديث موضوع فقد أخرجه الترمذي (السنن، الدعوات، باب في دعاء الحفظ ح٣٥٧٠)، والحاكم (المستدرك ٣١٦/١، ٣١٧) كلاهما من طريق سليمان بن عبد الرحمن مطولاً وقال الترمذي: حسن غريب. وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بقوله: هذا حديث منكر شاذ، أخاف أن يكون موضوعاً، وقد حيّرني والله جودة سنده ١٠هـ. وقد جزم أنه موضوع في سير أعلام النبلاء ٢١٨/٩ فقال: هذا عندي موضوع والسلام.

(٢) ذكره الطبري بنحوه وقول السدي أخرجه معلقاً.

(٣) أخرجه مسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه (الصحيح، الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ح١٩٧٨).

فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه ﷺ[١].

وقوله: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته[٢]، وكانت أُمه قد ماتت قديماً[٣].

وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأُمه يعيشان[٤]، قال ابن جرير: ولم يقم دليل على موت أُمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير[٥]، أي أجلسهما معه على سريره، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون. وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: التي كان قصها على أبيه من قبل، ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ الآية [يوسف: ٤]، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إل شريعة عيسى ﷺ، فحُرِّم هذا في هذه الملَّة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب ﷻ، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»[٦].

وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»[٧].

والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً، فعندها قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أي: صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ أي: البادية.

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود (صحيح البخاري، التفسير، سورة الروم ح٤٧٧٤، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب الدخان ح٢٧٩٨).

(٢) قول السدي أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق أسباط عن السدي.

(٣) قول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عمرو بن أبي سلمة عنه.

(٤) أخرجه الطبري عن ابن إسحاق بلفظ: «أباه وأُمَّه».

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، ويتقوى بقول مجاهد إذ أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٦) أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفي (السنن، النكاح، باب حق الزوج على المرأة ح١٨٥٣) وقال الألباني: حسن صحيح (صحيح سنن ابن ماجه ح١٥٠٣).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم بسند مرسل من طريق شهر بن حوشب عن سلمان (التفسير، سورة الفرقان آية ٥٨).

قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية[١]، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام، قال: وبعض يقول: كانوا بالأولاج[٢] من ناحية شعب أسفل من حسمى[٣]، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي: إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده.

قال أبو عثمان النهدي، عن سليمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة[٤].

قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير[٥].

وقال أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[٦].

وقال هشيم، عن يونس، عن الحسن: ثلاث وثمانون سنة[٧]، وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، فمات وله عشرون ومائة سنة[٨].

وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة[٩].

وقال محمد بن إسحاق: ذكر ـ والله أعلم ـ أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه[١٠].

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، قال: دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً[١١]. وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون بين رجل وامرأة[١٢]، فالله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين، وهو ابن داود، وهو ضعيف.

(٢) الأولاج: قال ابن إسحاق في غزوة زيد بن حارثة: جُذام بنواحي حِسمي (معجم البلدان ١/ ٢٨٢) وحسمي كما يلي.

(٣) حِسمي: وهو أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان، وأهل تبوك يرون جبل حسمي في غربيّهم (معجم البلدان ٢/ ٢٥٨).

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق أبي عثمان النهدي به.

(٥) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً من طريق أبي سنان عن عبد الله بن شداد.

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح، وعبد الوهاب الثقفي هو ابن عبد المجيد، وهشام هو ابن حسان الأزدي، ولا يضر ما قيل من أن روايته عن الحسن فيها مقال، لأنه كان يرسل عن الحسن (التقريب ص٥٧٢) لأنه قد توبع بواسطة مبارك بن فضالة كما سيأتي في الرواية التالية.

(٧) أخرجه الطبري من طريق هشيم، وهو ابن بشير به، ويونس هو ابن عبيد، وسنده جيد.

(٨) أخرجه الطبري من طريق مبارك به.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن ابن إسحاق قال: ذكر لي. . . فذكره.

(١١) أخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق السبيعي به، وسنده ضعيف، لأن أبا عبيدة لم يسمع من ابن مسعود.

(١٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً: صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف[(١)].

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه ﷻ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك[(٢)]، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف ﵇، قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللَّهم في الرفيق الأعلى، اللَّهم في الرفيق الأعلى، اللَّهم في الرفيق الأعلى»[(٣)]، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم [أحينا][(٤)] مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما جمع الله شمله وأقرّ عينه، وهو يومئذٍ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله.

وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف ﵇، وكذا ذكر [ابن جريج][(٥)] والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك[(٦)]، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: ٢٨] ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا.

قال الإمام أحمد بن حنبل ﵀: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به فإن كان ولا بدّ متمنياً الموت، فليقل: اللَّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة

---

(١) أخرجه الطبري من طريق موسىٰ بن عبيدة به بنحوه، وسنده ضعيف لضعف موسىٰ بن عبيدة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك، بلفظ: على طاعتك، وأخرجه الطبري من الطريق السابق ولكن فيه إبهام شيخ الطبري بلفظ: توفني على طاعتك واغفر لي إذا توفيتني.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (ح٤٤٣٧)، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة ﵂ (ح٢٤٤٤).

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحفت إلى: «أمتنا».

(٥) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحفت إلى: «ابن جرير».

(٦) قول ابن جريج أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود وهو ضعيف، وقول السدي عن ابن عباس أخرجه الطبري من طريق أسباط عن السدي به، والسدي لم يسمع من ابن عباس.

خيراً لي»(١) [ورواه البخاري ومسلم في الصحيحين، وعندهما: «لا يتمنَّين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب، ولكن ليقل: اللَّهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»](٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معان بن رفاعة، حدثني علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أُمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، وقال: يا ليتني مت، فقال النبي ﷺ: «يا سعد أعندي تتمنى الموت؟» فردَّد ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «يا سعد إن كنت خلقت للجنة، فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس، وهو: سليم بن جبير، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمره، وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً»(٤) تفرد به أحمد.

وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، وإما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣] لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج، وقد حملت ووضعت، وقد قالوا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله، فكان آية عظيمة، ومعجزة باهرة - صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء الذي فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»(٥).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة، أنبأنا عبد العزيز بن محمد، عن عمرو، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد مرفوعاً، أن النبي ﷺ قال: «اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت، والموت خير للمؤمن من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب»(٦). فعند

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ١٠١) وسنده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم كلاهما من طريق إسماعيل بن إبراهيم به، (صحيح البخاري، الدعوات، باب الدعاء بالموت والحياة ح٦٣٥١، وصحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب كراهية تمني الموت... ح٢٦٨٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٦/ ٦٢٧ ح٢٢٢٩٣)، وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً، وقال الهيثمي: وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣٥٠) وفي سنده ابن لهيعة وقد توبع إذ أخرجه مسلم من طريق معمر عن همام عن أبي هريرة بنحوه (صحيح مسلم، الذكر والدعاء، باب كراهية تمني الموت لضر نزل به ح٢٦٨٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث معاذ ﷺ المسند (٥/ ٣٤٣)، وسنن الترمذي، التفسير، سورة ص (ح٣٢٣٥) وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٥٨٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: إسناده جيد (المسند ٣٩/ ٣٦ ح٢٣٦٢٥).

حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب ﷺ في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهم خذني إليك، فقد سئمتهم وسئموني[١].

وقال البخاري ﷺ: لما وقعت له تلك المحن وجرى له مع أمير خراسان ما جرى، قال: اللهم توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر ـ أي في زمان الدجال ـ فيقول: يا ليتني مكانك»[٢] لما يرى من الفتن. والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بَني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم أبوهم، فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

(ذكر من قال ذلك):

حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج، عن صالح المري، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله بعينيه خلا ولده نجياً، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم؟ وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى. قال: فيغرُّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ، فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جانب أبيه قاعد، قالوا: يا أبانا إنا أتيناك لأمر لم نأتك لأمر مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه، والأنبياء ﷺ أرحم البرية، فقال: ما لكم يا بَنيَّ؟ قالوا: ألست قد عملت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى، قالوا: أولستما قد غفرتما لنا؟ قالا: بلى. قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنا شيئاً، إن كان الله لم يعف عنا. قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عنَّا، قرت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرة عين في الدنيا لنا أبداً. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، قال: فدعا وأمَّن يوسف، فلم يجب فيهم عشرين سنة.

قال صالح المري: يخيفهم، قال: حتى إذا كان على رأس العشرين نزل جبريل ﷺ، على يعقوب ﷺ، فقال: أن الله تعالى قد بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة[٣].

هذا الأثر موقوف عن أنس. ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً.

وذكر السدي أن يعقوب ﷺ لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما ﷺ[٤].

---

(١) نسبة القول إلى علي بن أبي طالب ﷺ فيه نظر، فإن صبر علي ﷺ فوق ذلك.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ (صحيح البخاري، الفتن، باب لا تقوم الساعة حتىٰ يُغبط أهل القبور ح٧١١٥، وصحيح مسلم، الفتن، باب لا تقوم الساعة حتىٰ يمر الرجل بقبر الرجل)، الحديث الأول ص٢٢٣١، وذكرت رقم الصحيفة لأن رقم الحديث فيه خطأ.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وضعفه الحافظ ابن كثير لضعف الرقاشي والمري.

(٤) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بنحوه بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق أسباط عن السدي.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ لما قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك، كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص]، إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص] يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر؛ أي: من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به[1].

---

(١) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسندين يقوى أحدهما الآخر عن ابن عباس.

وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[١].

وهكذا في الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك[٢]. وفي صحيح مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد» أي: حسب حسب، لا تزيدوا على هذا[٣]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله: أي: الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»[٤].

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك[٥]. يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء] وثمّ شِرك آخر خفي لا يُشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن [عاصم الأحول، عن عزرة][٦] قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً[٧] فقطعه - أو انتزعه - ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[٨].

وفي الحديث «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر[٩].

وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره: عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»[١٠].

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري وآدم بن أبي إياس - وهو التفسير المنسوب إلى مجاهد - بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول عطاء، وهو ابن أبي رباح، أخرجه سعيد بن منصور (السنن، التفسير ح١١٤٦)، والطبري كلاهما بسند حسن من طريق هشيم عن عبد الملك بن أبي سليمان عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٢) لم أجده في صحيح البخاري ولكنه في صحيح مسلم كما يليه.

(٣) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس ﷺ (الصحيح، الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها ح١١٨٥/ ٢٢).

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة البقرة آية (٢٢).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن من طريق شعيب بن عبد الله أبي شعبة صاحب الطيالسة عن الحسن.

(٦) كذا في تفسير ابن أبي حاتم، وفي النسخ الخطية والمطبوعة عاصم بن أبي النجود عن عروة، وما أثبت هو الصواب لأن عزرة، وهو ابن عبد الرحمن الكوفي، يروي عنه عاصم الأحول وليس عاصم بن أبي النجود (ينظر: تهذيب التهذيب ٧/ ١٩٣، وكذا تهذيب الكمال، ترجمة عزرة).

(٧) السير: ما قطع من الجلد طولاً، وجمعه: أسيار وسيور (لسان العرب ٤/ ٣٩٠).

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن محمد عن حماد بن سلمة به. وسنده صحيح.

(٩) سنن الترمذي، النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (ح١٥٣٥)، وسنن أبي داود، الأيمان، باب في كراهية الحلف بالآباء (ح٣٢٥١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٧٨٧).

(١٠) المسند ١/ ٣٨١، وسنن أبي داود، الطب، باب في تعليق التمائم (ح٣٨٨٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٢٨٨).

وفي لفظ لهما: «[الطيرة شرك][١] وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[٢]، ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن يحيى الجزار، عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقي لي فيه، فأخذه فقطعه ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم[٣] والتولة[٤] شرك» قالت: قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت، فقال: إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «أذهب الباس، ربّ الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً»[٥].

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد: عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلت على عبد الله بن عُكيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلقت شيئاً، فقال: أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكِّل إليه»[٦]؟، ورواه النسائي عن أبي هريرة[٧].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علق تميمة فقد أشرك»[٨]، وفي رواية: «من تعلق تميمة فلا أتمَّ الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»[٩].

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم[١٠].

---

(١) زيادة من (حم) و(مح).

(٢) المسند ١/ ٣٨٩، وسنن أبي دود، الطب، باب في الطيرة (ح٣٩١٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٣٠٩).

(٣) التمائم: جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين فأبطلها الإسلام (النهاية ١/ ١٩٧).

(٤) التولة: ما يُحبِّب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره (النهاية ١/ ٢٠٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ١١٠ ح٣٦١٥)، قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢١٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ح٣٣١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: حسن لغيره (المسند ٣١/ ٧٧ ح١٨٧٨١).

(٧) السنن، تحريم الدم، باب الحكم في السحرة ٧/ ١١٢.

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٦)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢١٩)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٥/ ١٠٦)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ح٤٩٢).

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٥٤)، قال المنذري: سنده جيد (الترغيب والترهيب ٤/ ٣٠٦)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢١٦)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٥/ ١٠٦).

(١٠) أخرجه الإمام مسلم من طريق روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن به (الصحيح، الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله ح٢٩٨٥).

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد[(١)].

وقال أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد - يعني ابن الهادي -، عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟»[(٢)]. وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد به[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، أنبأنا ابن لهيعة، أنبأنا ابن هبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من ردته الطِّيَرة[(٤)] عن حاجته فقد أشرك» قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي، عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون. قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللَّهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»[(٦)].

وقد روي من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق، كما رواه الحافظ أبو يعلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد من طريق زياد بن ميناء عن أبي سعد بن أبي فضالة به (المسند ٢٥/ ١٦١ ح١٥٨٣٨) وحسّن سنده محققوه، وأخرجه ابن ماجه من طريق زياد به (السنن، الزهد، باب الرياء والسمعة ح٤٢٠٣)، وحسّنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٣٨٨)، وقال علي بن المديني: سنده صالح (ينظر: الإصابة ٤/ ٨٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٣٩ ح٢٣٦٣٠)، وحسنه محققوه، وقال المنذري: إسناده جيد (الترغيب والترهيب ١/ ٦٨) وكذا الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٩٥١).

(٣) أخرجه البغوي من طريق إسماعيل بن جعفر به (شرح السنة ١٤/ ٣٣٣).

(٤) الطِّيَرة: هو التشاؤم بالشيء.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١١/ ٦٢٣ ح٧٠٤٥)، وحسَّن سنده محققوه، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٠٦٥)، وهذا التحسين والتصحيح لأنه روي عن عبد الله بن وهب عن ابن لهيعة فقد أخرجه ابن السني من هذا الطريق (عمل اليوم والليلة ص٢٩٣).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٣٢/ ٣٨٣، ٣٨٤ ح١٩٦٠٦)، وضعفه محققوه لجهاله أبي علي الكاهلي.

الموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن معقل بن يسار، قال: شهدت النبي ﷺ أو قال: حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل» ثم قال: «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل: اللَّهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك مما لا أعلم»[1].

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي، عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا»[2]، قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[3].

قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا، يقال له: أبو النضر، متروك الحديث[4]، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء، سمعت عمرو بن عاصم، سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله، علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي، قال: «قل: اللهم فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه»[5].

وزاد الإمام أحمد في رواية له: من حديث ليث بن أبي سُليم، [عن مجاهد][6]، عن أبي بكر الصديق، قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول... فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره: «وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم»[7].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن

---

(١) أخرجه أبو يعلى من طرق عن عبد العزيز بن مسلم به (المسند ١/ ٦٢ ح٦١) وضعفه محققه، وفيه أبو محمد مجهول.

(٢) الصفا: أي الحجر الأملس.

(٣) أخرجه أبو نعيم (الحلية ٧/ ١١٢)، وابن حبان (المجروحين ٣/ ١٣٠)، كلاهما من طريق شيبان به، وقال أبو نعيم: تفرد به عن الثوري: يحيىٰ بن كثير، وسنده ضعيف جداً، لأن يحيىٰ بن كثير: متروك، كما قال الدارقطني (العلل ١/ ١٩٣).

(٤) العلل ١/ ١٩٣.

(٥) المسند ١/ ٩ وسنن أبي داود، الأدب، باب ما يقول إذ أصبح (ح٥٠٦٧)، وسنن الترمذي، التفسير (ح٣٣٩٢)، والسنن الكبرى للنسائي (ح٧٦٩١)، وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٥١٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٤٢٣٥).

(٦) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وسقط في الأصل.

(٧) المسند (ح٨١)، وسنده ضعيف، لأن مجاهداً لم يسمع من أبي بكر، وليث فيه مقال.

يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل]. وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين: الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي.

وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع.

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأُم موسى ومريم بنت عمران أُم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧] وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران]، وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنَّ نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدّيقة بنص القرآن.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ الآية؛ أي: ليسوا

من أهل السماء كما قلتم[(١)]، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ الآية [الفرقان: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [الأحقاف: ٩].

وقوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

وقال قتادة في قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود[(٢)(٣)].

وفي الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممت أن لا أتَّهِب[(٤)] هبة إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسي»[(٥)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش: هو ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[(٦)].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة للرسل، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ][(٧)] فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي: وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك به، وسنده ضعيف لضعف بشر، ولأن الضحاك لم يلق ابن عباس، وقواه الحافظ ابن كثير بالآية التي تليه.

(٢) أهل العمود: أي أهل الخيام الذين لا قرار لهم.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) لا أتَّهِب: أي أن لا أقبل الهبة إلا من هؤلاء.

(٥) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن عباس بنحوه بدون ذكر أو دوسي، وصحح سنده محققوه (المسند ٤/ ٤٢٤ ح٢٦٨٧)، وأخرجه أبو داود بنحوه وذكر: أو دوسياً، (السنن، الإجازة، باب في قبول الهدايا ح٣٥٣٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٠٢١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده بنحوه (المسند ٩/ ٦٤ ح٥٠٢٢)، وصحح سنده محققوه، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ح٣٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٣٠٠) وفي السلسلة الصحيحة (ح٩٣٩)، وحسّنه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ١٠/ ٥١٢).

(٧) ما بين معقوفين سقط في الأصل، واستدرك من (حم) و(مح).

النجاة في الدار الآخرة أيضاً وهي خير لهم من الدنيا بكثير، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر] وأضاف الدار إلى الآخرة، فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما يقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس. وقال الشاعر:

أتـمـدحُ فـقـعـسـاً وتـذم عـبـسـاً ... ألا لله أمَّـك مـن هـجـيـن[١]
ولـو أقـوت[٢] عـلـيـك ديـار ... عبس عرفت الذل عرفان اليقين[٣]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾

يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي قوله: ﴿كُذِبُوا۟﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد ﴿قد كُذِّبوا﴾[٤]، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها.

قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كذِّبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاء نصر الله عند ذلك، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعبة، عن الزهري قال: أخبرنا عروة فقلت لها: لعلها قد كذبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله[٥]. انتهى ما ذكره.

وقال ابن جريج: أخبرني ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها (وظنوا أنهم قد كذَبوا) خفيفة. قال عبد الله - هو ابن أبي مليكة -: ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، ثم تلا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن جريج: وقال لي ابن أبي مليكة، وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم

---

(١) الهجين: ولد العربي لغير العربية. (٢) أقوت الدار: أقفرت وخلت من سكانها.
(٣) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/٥٦ والطبري.
(٤) والقراءة الأخرى بالتخفيف: (كُذِبوا)، وكلتاهما متواترتان.
(٥) أخرجه البخاري بسنديه ومتنيه (الصحيح، التفسير سورة يوسف، باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠] ح٤٦٩٥ و٤٦٩٦).

من المؤمنين قد كذبوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة، كانت عائشة تقرؤها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مُثقلة[١]، من التكذيب.

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظي يقول هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ فقال القاسم: أخبره عني أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ تقول: كذبهم أتباعهم[٢]. إسناد صحيح أيضاً.

والقراءة الثانية بالتخفيف[٣]، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم. وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثوري عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله أنه قرأ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تَكَره[٤]، وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما، مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس، فروى الأعمش عن مسلم، عن ابن عباس في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾[٥]، وكذا روي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله[٦].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عارم أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا شعيب، حدثنا إبراهيم [ابن أبي حُرّة][٧] الجزري قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير فقال له: يا أبا عبد الله كيف هذا الحرف، فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾؟ قال: نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلكأ، ولو [رحلت][٨] إلى اليمن في هذه كان قليلاً.

ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال: فرَّج الله عنك كما فرجت عني[٩]، وهكذا روي من

---

(١) أخرجه البخاري من طريق هشام عن ابن جريج به بنحوه (الصحيح، تفسير سورة البقرة، باب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ...﴾ [البقرة: ٢١٤] ح٤٥٢٤ و٤٥٢٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وصحح سنده الحافظ ابن كثير.

(٣) تقدم أنها متواترة.

(٤) أخرجه الثوري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.

(٥) أخرجه الطبري من طريق أبي معاوية عن الأعمش به، وسنده صحيح ومسلم هو ابن صُبيح.

(٦) هؤلاء الرواة الخمسة كلهم رووه عن ابن عباس، وقد أخرج الطبري رواياتهم كلهم، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً.

(٧) كذا في تفسير الطبري، وفي النسخ الخطية: (ابن أبي حمزة)، والصواب هو المثبت (ينظر: الجرح والتعديل ١/ ٩٦، ولسان الميزان ١/ ٤٦).

(٨) كذا في (حم) و(مح) وتفسير الطبري وفي الأصل: «دخلت».

(٩) أخرجه الطبري بسنديه ومتنيه، وهذان الطريقان يقوي أحدهما الآخر.

غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك[١]، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى إن مجاهداً قرأها ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا۟﴾ بفتح الذال. رواه ابن جرير[٢] إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم؛ أي: وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر.

وأما ابن مسعود، فقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضيل، عن [جحش][٣] بن زياد الضبي، عن تميم بن حَذْلم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذِبوا بالتخفيف[٤] ـ فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجه المشهور عن الجمهور وزيَّف القول الآخر بالكلية، ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

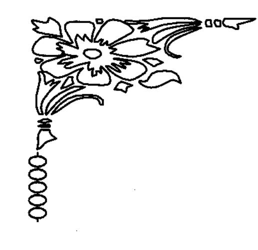
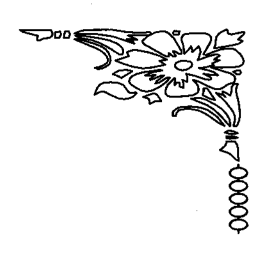
يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهي العقول، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله؛ أي: يكذب ويختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الربِّ تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودّة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

آخر تفسير سورة يوسف ﷺ، ولله الحمد والمنة وبه المستعان، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي المعلى العطارى سعيد بن جبير.
(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) كذا في تفسير الطبري، وصحف في الأصل و(حم) إلى: «محسن».
(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف.

سورة الرعد

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن.

وقيل: التوراة والإنجيل، قاله مجاهد وقتادة[(١)]، وفيه نظر بل هو بعيد، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي: يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم[(٢)]

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾.

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السمٰوات بغير عمدٍ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا تدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت،

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سفيان عن مجاهد بلفظه، وسفيان لم يسمع من مجاهد، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة بلفظ: «الكتب التي كانت قبل القرآن».

(٢) ذكره الفراء في معاني القرآن والطبري في تفسيره.

وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق].

وفي الحديث: «ما السمٰوات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة»[(١)]. وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله ﷻ»[(٢)]، وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء[(٣)].

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا تُرى[(٤)].

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة[(٥)]، يعني: بلا عمد، وكذا روي عن قتادة[(٦)]، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفي ذلك؛ أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة، وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره، وكفر قلبه كما ورد في الحديث[(٧)]، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله ورضي عنه:

وأنت الذي من فضل مَنٍّ ورحمة ... بعثتَ إلى موسى رسولاً مناديا

فقلت له: فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذي كان طاغياً

وقولا له: هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى استقلت[(٨)] كما هيا؟

وقولا له: أأنت رفعت[(٩)] هذه ... بلا عمد أو فوق ذلك بانيا؟

وقولا له: هل أنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنك الليل هاديا؟

وقولا له: من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا؟][(١٠)]

وقولا له: من يُنبت الحب في الثرى ... فيصبح منه العشب يهتز رابيا

ويخرج منه حبه في رؤوسه؟ ... ففي ذاك آيات لمن كان واعياً[(١١)]

---

(١)(٢) تقدم تخريجهما في سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٣) مثل هذا لا يؤخذ إلا عن النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حماد بن سلمة عن إياس بن معاوية.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) أخرجه ابن عبد البر بسند ضعيف جداً، من طريق أبي بكر الهذلي عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أُمية بن أبي الصلت: آمن شعره وكفر قلبه؟ قال: «هو حق فما أنكرتم من ذلك..» (التمهيد ٤/٧) وفيه أبو بكر الهذلي: متروك، كما في التقريب.

(٨) كذا في النسخ الخطية، وفي سيرة ابن هشام: «اطمأنت».

(٩) كذا في (حم) و(مح) والسيرة، وفي الأصل: «سويت». (١٠) زيادة من (حم) و(مح) والسيرة.

(١١) هذه الأبيات ذكرها ابن هشام وذكر غيرها معها (سيرة ابن هشام ١/٢٢٨).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف[1]، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً. وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس]، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] مع أنه صرح بذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧] أي: من كل شكل صنفان ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضاً، مع أنه هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة

(١) في الآية رقم (٥٤).

حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿أَعْنَبٍ﴾، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة[١].

وقوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عمُّ الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عمَّ الرجل صنو أبيه»[٢].

وقال سفيان الثوري وشعبة، عن أبي إسحاق، عن البراء رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات[٣]. وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد[٤].

وقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال: «الدقل، والفارسي، والحلو، والحامض»، رواه الترمذي وقال: حسن غريب[٥].

أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عفص، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) القراءة بالرفع والجر قراءتان متواترتان.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها ح٩٨٣).

(٣) أخرجه الطبري وسعيد بن منصور (السنن، التفسير ح١١٥٣) من طريق الثوري به، وسنده صحيح.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول ابن مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سلمة بن نبيط عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٥) أخرجه الترمذي من طريق سيف بن محمد الثوري عن الأعمش به (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة الرعد ح٣١١٨)، وسنده ضعيف جداً لأن سيف بن محمد الثوري كذبوه، كما في التقريب ص٢٦٢، ومدار الحديث متوقف عليه.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله ـ سبحانه ـ ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكوّنها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف] ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: يسحبون بها في النار ﴿وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص] أي: عقابنا وحسابنا، كما قال مخبراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...﴾ ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وعنادهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا

﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر] إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كل أحد»[١].

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزيادي: أنه رأى رب العزة في النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفيك أني أنزلت عليك في سورة الرعد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾. قال: ثم انتبهت[٢].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء][٣]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي لكل قوم داع[٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس في الآية: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم[٥]. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد[٦].

وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي[٧]، كقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد[٨]. وقال أبو صالح ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال سعيد بن المسيب، وضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

(٢) في سنده نكارة، فإن الله تعالى لا يُرىٰ في الدنيا لا في المنام ولا في اليقظة. وأما في الآخرة فنعم بدليل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة].

(٣) سيأتي عند هذه الآية رواية تعنت المشركين.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوى بالآثار اللاحقة.

(٦) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند حسن من طريق قيس، وهو ابن سعد المكي، عن مجاهد، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري من طرق يقوي بعضها بعضاً عن عطاء بن السائب عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه شيخ الطبري مبهم.

(٧) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن مجاهد.

(٨) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح عن طريق معمر عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب.

أي: قائد[١].

وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل[٢].

وعن عكرمة وأبي الضحى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالا: هو محمد ﷺ[٣].

وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم بياع الهرويّ، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﵄، قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: وضع رسول الله ﷺ يديه على صدره وقاله: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأومأ بيده إلى منكب علي[٤]، فقال: «أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي»[٥]، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدي، عن عبد خير، عن علي ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: الهادي رجل من بني هاشم[٦].

قال الجنيد: هو علي بن أبي طالب ﵁.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس في إحدى الروايات وعن أبي جعفر محمد بن علي نحو ذلك[٧].

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ﴾ [الزمر: ٦] أي:

---

(١) قول أبي صالح أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه، وقول يحيىٰ بن رافع أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند حسن من طريق إسماعيل بن أبي خالد عنه.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية.

(٣) قول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق السدي عنه، وقول أبي الضحىٰ - وهو مسلم بن صبيح - أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عكرمة عن أبي الضحى.

(٤) أي ابن أبي طالب الخليفة الراشد ﵁.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً، فإن الحسن بن الحسين الأنصاري من رؤساء الشيعة، كذا قال الحافظ ابن حجر، وذكر هذه الرواية ثم قال: ومعاذ نكرة فلعل الآفة منه (لسان الميزان ٢/ ١٩٩)، وضعفه الحافظ ابن كثير أيضاً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن السدي فيه تشيع.

(٧) قول الجنيد لم يُسند لأحد، وقول ابن عباس وأبي جعفر ذكرهما ابن أبي حاتم تعليقاً.

خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد...»(١).

وفي الحديث الآخر: «فيقول الملك: أي رب أذكر أم أنثى؟ أي: رب أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك»(٢).

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ يعني: السقط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقصُ، فذلك الغيضُ والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى(٤).

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها(٥).

وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي(٦).

وقال ابن جريج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل(٧).

وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد

---

(١) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (ح٣٢٠٨) وصحيح مسلم، القدر، باب كيفية خلق الآدمي (ح٢٦٤٣).

(٢) صحيح مسلم، القدر، باب كيفية خلق الآدمي (ح٢٦٤٥).

(٣) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، سورة الرعد، باب ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨] ح٤٦٩٧).

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٥) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً عن الضحاك.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٧) أخرجه الطبري من طريق داود بن عبد الرحمن عن ابن جريج به، وفي سنده جميلة بنت سعد ذكرها ابن أبي حاتم وسكت عنها (الجرح والتعديل ٩/٤٠٧)، ولهذا قال ابن حزم: مجهولة (المحلى ١٠/٣١٦).

على تسعة أشهر[١]. وبه قال عطية العوفي والحسن البصري وقتادة والضحاك[٢].

وقال مجاهد أيضاً: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة، زاد على التسعة مثل أيام الحيض[٣]. وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد[٤]. وقال مجاهد أيضاً: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [إهراقه الدم][٥] حتى يخس الولد[٦]، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة، تم الولد وعظم. وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أُمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض، استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه، فإذا قطعت سرته، حوّل الله رزقه إلى ثديي أُمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أنىٰ لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك، غذاك وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت، قلت: هو الموت أو القتل أنىٰ لي بالرزق، ثم قرأ مكحول ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً[٧]. وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب...»[٨] الحديث بتمامه.

وقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي: على كل شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر عن مجاهد.
(٢) قول العوفي تقدم في بداية تفسير الآية، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح عن طريق أبي بشر عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بإسناد صحيح من طريق ابن المبارك عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول الضحاك تقدم.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق خصيف عن مجاهد.
(٤) قول عكرمة أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.
(٥) كذا في تفسير الطبري في رواية مجاهد، وفي الأصل: «إراقة المرأة».
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) أخرجه الطبري بنحوه بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٨) أخرجه الشيخان من حديث أُسامة بن زيد رضي الله عنه (صحيح البخاري، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] ح٧٣٧٧)، وصحيح مسلم، الجنائز، باب البكاء على الميت (ح٩٢٣).

يسمعه لا يخفى عليه شيء، كقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

قالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة][1].

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس].

وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة أملاك بالليل، بدلاً حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[2].

وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم»[3].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: والمعقبات من الله هي الملائكة[4].

---

(١) سيأتي تخريجه في مطلع سورة المجادلة.

(٢) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر ح٥٥٥) وصحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر (ح٦٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي من طريق ليث بن أبي سليم عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه (السنن، الأدب، باب ما جاء في الاستتار عند الجماع ح٢٨٠١)، وأخرجه البيهقي وضعفه (شعب الإيمان ح٧٧٣٩)، وقال البغوي: ويروي عن ابن عمر بإسناد غريب. ثم ساق الحديث (شرح السنة ٩/ ٢٥)، وسنده ضعيف لما قيل في ليث بن أبي سليم، لأنه صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك، كما في التقريب.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به بنحوه.

وقال عكرمة، عن ابن عباس ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلو عنه(١).

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده، إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه(٢).

وقال الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس(٣).

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني: ولي [السلطان](٤) يكون عليه الحرس(٥).

وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء المواكب بين يديه ومن خلفه(٦).

وقال الضحاك(٧) في الآية: هو السلطان المحروس من أمر الله، وهم أهل الشرك، والظاهر - والله أعلم - أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديثاً غريباً جداً، فقال: حدثني المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري، حدثنا علي بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوي قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمير على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشراً، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أكتبها؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات، فإذا قال ثلاثاً، قال: اكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا، يقول الله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ. وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في

---

(١) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر من طريق عكرمة به.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ليث، وهو ابن أبي سُليم، عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق يحيى بن يمان عن الثوري به وصححه الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٨/ ٣٧٢).

(٤) كذا في (مح) وتفسير الطبري طبعة معالي الدكتور عبد الله التركي والطبعة القديمة، وفي الأصل و(حم): بلفظ: «الشيطان» وهو تصحيف وقد وقع هذا التصحيف في جميع الطبعات المحققة من تفسير ابن كثير سوى طبعة الحلبي التي اعتمدت نسخة دار الكتب المصرية. ومما يؤكد أنه تصحيف الروايات التالية عن عكرمة والضحاك وعكرمة وتوضيح الحافظ ابن كثير لهذه الرواية.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بما يلي.

(٦) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر عن عكرمة.

(٧) أخرجه الطبري بسند فيه شيخ الطبري لم يصرح باسمه.

فيك، وملكان على عينيك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل»[١].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير»[٢]، انفرد بإخراجه مسلم[٣].

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله. رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس[٤]، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم[٥].

وقال قتادة: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: وفي بعض القراءات (يحفظونه بأمر الله)[٦].

وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن لآدم كل سهلٍ وحزنٍ، لرأى كل شيء من ذلك شياطين، لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذاً لتُخُطِّفتم[٧].

وقال أبو أُمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له[٨].

وقال أبو مِجلزَ: جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال: احترس: فإن ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جُنَّة حصينة[٩].

وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رقىً نسترقي بها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وسنده ضعيف لأن كنانة العدوي لم يسمع من عثمان رضي الله عنه، وضعفه الحافظ ابن كثير.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وصححه محققوه (المسند ٦/ ٣١٩ ح٣٧٧٩).

(٣) صحيح مسلم، صفات المنافقين، باب تحريش الشيطان... (ح٢٨١٤).

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٥) قول مجاهد أخرجه الطبري بإسنادين يقوي أحدهما الآخر، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي: ضعيف تقدم، ويتقوىٰ بما سبق، وكذلك قول إبراهيم النخعي كسابقه.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، والقراءة شاذة تفسيرية ذكرها ابن جني ونسبها إلى بعض السلف الصالح (المحتسب ١/ ٣٥٥).

(٧) أخرجه الطبري من طريق يزيد بن شريح عن كعب بلفظه، ويزيد بن شريح: مقبول (التقريب ص٦٠٢).

(٨) أخرجه الطبري من طريق أبي غالب عن أبي أُمامة بلفظه، وفي رواية أبي غالب عن أبي أُمامة مقال تقدم ذكره.

(٩) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عُمارة بن أبي حفصة عن أبي مجلز.

(١٠) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي خزامة رضي الله عنه وضعف سنده محققوه (المسند ٢٤/ ٢١٩ ح١٥٤٧٣)، وأخرجه الترمذي من طريق الزهري عن ابن أبي خزامة عن أبي خزامة ثم قال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث الزهري (السنن، الطب، باب ما جاء في الرقي والأدوية ح٢٠٦٥)، وذكره الألباني في ضعيف سنن =

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن [أشعث][١] عن جهم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢].

وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه صفة العرش: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليماني الأنصاري، عن عمير بن عبد الملك قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال: كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه ﷻ قال: «قال الرب: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي»[٣]، وهذا غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق الماء[٤].

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله[٥].

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: السحاب الثقال الذي فيه الماء[٦].

= الترمذي، وأخرجه الحاكم من حديث حكيم بن حزام بنحوه وسكت عنه هو والذهبي (المستدرك ٤/ ٤٠٢) وفي سنده صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف (التقريب ص٢٠٧).

(١) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحف إلى: «أشعب».

(٢) سنده مرسل لأن إبراهيم هو النخعي من التابعين، والخبر من أهل الكتاب.

(٣) أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة بسنده ومتنه (صفة العرش ح١٩) وسنده ضعيف لجهالة الهيثم بن الأشعث السلمي (لسان الميزان ٦/ ٢٠٣)، وضعفه الحافظ ابن كثير من جهة المتن.

(٤) أخرجه الطبري من طريق موسىٰ بن سالم أبي جهضم عن ابن عباس، قال الأستاذ محمود شاكر: موسىٰ بن سالم أبو جهضم ثقة، روايته عن ابن عباس مرسلة. اهـ. وللمزيد حول سؤالات ابن عباس لأبي الجلد ينظر: (استدراكات على تاريخ التراث ٢/ ٣٤ ـ ٣٧) بقلمي.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرني أبي، قال: كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمرَّ شيخ من بني غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا ابن أخي، وسع فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ، فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك»(١).

والمراد - والله أعلم - أن نطقها الرعد وضحكها البرق(٢).

وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً، ولا آنس منه منطقاً، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازي، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق ملك له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مصع بذنبه فذاك البرق(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثنا أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك»(٥)، ورواه الترمذي والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر ولم يسم به(٦).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة. . . رفع الحديث، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده»(٧).

وروي عن علي ﷺ أنه كان إذا سمع صوت الرعد يقول: سبحان من سبَّحَت له. وكذا روي عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد، أنهم كانوا يقولون ذلك(٨).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٩/ ٩١ ح٢٣٦٨٦) وصحح سنده محققوه.

(٢) وكذا قال الرامهرمزي في «الأمثال» (ح١٢٤).

(٣) موسىٰ بن عبيدة، وهو الربذي ضعيف كما في التقريب، وأخرجه العقيلي من حديث أبي هريرة وفي سنده أُمية بن سعيد الأموي، وهو مجهول كما قال العقيلي (الضعفاء الكبير ١/ ٣٥).

(٤) فيه غرابة ومثل هذا لا يؤخذ إلا عن الوحي وسنده ضعيف، لإرسال محمد بن مسلم، وهو لم يدرك أحداً من الصحابة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٠/ ٤٧، ٤٨ ح٥٧٦٣) وضعف سنده محققوه لضعف حجاج بن أرطأة وجهالة حال أبي مطر.

(٦) سنن الترمذي، الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد (ح٣٤٥٠)، والأدب المفرد (ح٧٢٢) والسنن الكبرىٰ، عمل اليوم والليلة (ح١٠٧٦٤) والمستدرك (٤/ ٢٦٨).

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام شيخ والد إسرائيل.

(٨) قول علي ﷺ أخرجه الطبري بسند فيه مسعدة بن اليسع الباهلي وهو منكر الحديث (الجرح والتعديل =

وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة[١].

وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض. رواه مالك في موطئه، والبخاري في كتاب الأدب[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صدقة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن [سُمير][٣] بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم ﷻ: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد»[٤].

وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً»[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق تلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان»[٦].

وقد روي في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق، حدثنا علي بن أبي سارة الشيباني، حدثنا ثابت، عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «اذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله، وما الله، أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا،

= ٨/ ٣٧٠)، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند فيه الحكم بن أبان، وهو صدوق له أوهام كما في التقريب ص١٧٤، وقول طاوس والأسود أخرجهما الطبري وهي مراسيل لا يعتمد عليها.

(١) أخرجه الطبري وابن أبي شيبة (المصنف ١٠/ ٢١٥) وهو مرسل أيضاً.

(٢) أخرجه الإمام مالك (الموطأ، الكلام، باب القول إذا سمعت الرعد ح٢٦)، والبخاري (الأدب المفرد ح٧٢٤) كلاهما من طريق عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ح٥٥٦).

(٣) كذا في (حم) والمسند، وفي الأصل صُحِّف إلى: «معمر».

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٤/ ٣٢٧ ح٨٧٠٨) وضعف سنده محققوه لضعف صدقة من موسىٰ.

(٥) أخرجه الطبراني بسنده ومتنه (المعجم الكبير ١١/ ١٦٤ ح١١٣٧١)، وضعفه الهيثمي لضعف يحيىٰ بن كثير (مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٩).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١٨/ ١٦٣ ح١١٦٢٠) وصحح سنده محققوه، وأخرجه الحاكم من طرق محمد بن مصعب به وصححه ووافقه الذهبي مع خلاف بسيط (المستدرك ٤/ ٤٤٤)

فقال لي: «ارجع إليه الثانية» فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال: «ارجع إليه فادعه» فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله ﷻ سحابة حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[١]، ورواه ابن جرير من حديث علي بن أبي سارة به[٢].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدة بن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غزوان، عن ثابت، عن أنس... فذكر نحوه، وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجوني، عن عبد الرحمن بن صحار العبدي أنه بلغه أن النبي ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال: أرأيتم ربكم أذهب هو؟ أم فضة هو؟ أم لؤلؤ هو؟ قال: فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت، فأرسل عليه صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية[٣].

وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من نحاس هو، أم من لؤلؤ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[٤].

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الآية[٥].

وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل [وأربد][٦] بن ربيعة، لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل ـ لعنه الله ـ: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة» يعني الأنصار، ثم إنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما عامر بن الطفيل، فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية، حتى ماتا لعنهما الله،

---

(١) أخرجه أبو يعلى بسنده بنحوه وضعفه محققه لضعف علي بن أبي سارة (المسند ٦/ ٨٩ ح٣٣٤٢)، ولكن ابن أبي سارة تابعه ديلم بن غزون، وهو صدوق. كما في التقريب إذ أخرجه أبو يعلى (المسند ٦/ ٨٧ ـ ٨٨ ح٣٣٤١) من طريق ديلم عن ثابت به، وأخرجه ابن أبي عاصم من طريق ديلم به، وصححه الألباني (السنة ١/ ٣٠٤ ح٦٩٢) فيكون الإسناد حسناً لغيره.

(٢) أخرجه الطبري من طريق علي بن أبي سارة به بنحوه.

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٣/ ٥٤ ح٢٢٢١) وسنده حسن.

(٤) أخرجه الطبري من طريق أبي بكر بن عياش به، وهو مرسل ويتقوىٰ بسابقه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكنه مرسل ويتقوىٰ بما سبق.

(٦) كذا في (حم) و(مح) والتخريج، وفي الأصل صحف إلى: «زايد»، وأربد بن ربيعة هو أخو لبيد الشاعر لأمه (جمهرة أنساب العرب ٢/ ٢٨٥).

وأنزل الله في مثل ذلك ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه:

أخشى على أربدَ الحتوفَ ولا ... أرهب نوءَ السماك والأسد

فجعني الرعد والصواعق بالفـ ... ـارس يوم الكريهة النجد[١]

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مسعدة بن سعيد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس أن أربد بن قيس بن جزء بن جليد بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل» قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر. قال رسول الله ﷺ: «لا»، فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله»، فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فنعطيهم الدية. قال أربد: أفعل، فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسلَّ أربد السيف، فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سلَّ السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع، فانصرف عنهما، فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرة - حرة راقم - نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فقالا: اشخصا يا عدوي الله لعنكما الله، فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير [الكاتب][٢]، فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقم[٣]، أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته، فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قرحته في حلقة ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية، ترغب أن يموت في بيتها، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً، فأنزل الله فيهما ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨] - إلى قوله: - ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الآية[٤].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق ابن جريج بنحوه، وسنده معضل، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس (المعجم الأوسط ١٠/ ٥٠ ح٩١٢٣)، وفي سنده عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٧/ ٤١).

(٢) كذا في (حم) و(مح) والتخريج، وفي الأصل صحف إلى: «الغائب».

(٣) الرَّقَم: بفتح الراء والقاف، موضع بالمدينة، وإليه تنسب السهام الرميات (معجم البلدان ٣/ ٩٥٨، ومراصد الإطلاع ٢/ ٦٢٦).

(٤) تقدم تضعيفه وتخريجه في الرواية السابقة.

وقوله: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يشكّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره[١]، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل].

وعن علي رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ[٢].

وقال مجاهد: شديد القوة[٣].

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ۝١٤﴾.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير[٤].

وقال ابن عباس وقتادة ومالك، عن محمد بن المنكدر: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ لا إله إلا الله[٥].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾.

قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه[٦]؟.

وقال مجاهد: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً[٧].

وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر[٨]:

فإني وإياكم وشوقاً إليكم ... كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الآخر[٩]:

فأصبحت مما كان بيني وبينها ... وبينها من الودّ مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد كما أنه لا

---

(١) ذكره الطبري بلفظه.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سيف عن أبي روق عن أبي أيوب عن علي، وسنده ضعيف لضعف سيف، وهو ابن عمر التميمي، كما في التقريب.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي يحيىٰ عن مجاهد وأبو يحيىٰ هو القتات الكوفي، لين الحديث (التقريب ٦٨٦)، ومعناه صحيح.

(٤) أخرجه الطبري بالإسناد السابق، ويشهد له ما يليه.

(٥) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٦) أخرجه الطبري بالإسناد السابق الذي فيه سيف بن عمر بنحوه، ومعناه صحيح.

(٧) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) هو ضابيء بن الحارث البُرجمي ذكره أبو عبيد مستشهداً بالبيت نفسه (مجاز القرآن ١/ ٣٢٧).

(٩) استشهد به الطبري وقال محققو تفسير الطبري بإشراف معالي الدكتور عبد الله التركي: هو أبو دهبل الجمحي، والبيت في ديوانه ص١١٥، والأغاني ٧/ ١٣٩، والدر الفريد ٤/ ١٢٩، والزهرة ١/ ١٨٣، ونسب فيه للأحوص ولا يصح.

ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من المشركين ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي البُكر ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السمٰوات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً؛ أي: لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره، أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء، ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك[1]، وكما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم] فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل مجرد الرأي والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) تقدم عزوه إلى صحيح مسلم في تفسير سورة يوسف آية رقم ١٠٦.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل.

وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية؛ أي: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ أي: إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام [له][1]، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة، ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ أي: لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر، وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت] وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2].

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ الآية هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ وهو اليقين، وكما يُجعل الحليُ في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك[3].

وقال العوفي، عن ابن عباس: قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا

---

(١) زيادة من (حم) و(مح).

(٢) سيأتي تخريجه في تفسير سورة العنكبوت آية ٤٣.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له وبقي، كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه، ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق[١]. وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة[٢]، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب ﷺ في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩]، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين:

أحدهما: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً»[٣].

ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ الآية [النور: ٤٠].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، ورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٤]. فهذا مثل مائي.

وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها - قال: - فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمَّ عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها»[٥]. وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري[٦].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوى بسابقه ولاحقه.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي رجاء عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول عطاء أخرجه الطبري بسند حسن من طريق طلحة بن عمرو عنه.

(٣) أخرجاه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] (ح٤٥٨١)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (ح٣٠٢).

(٤) صحيح البخاري، العلم، باب فضل من عَلِم وعَلّم (ح٧٩)، وصحيح مسلم، الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (ح٢٢٨٢).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣١٢)، وسنده صحيح.

(٦) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص] =

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ أي: لم يطيعوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة؛ أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذب، ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ﴾ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل][1] أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم [بمنه وكرمه][2].

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن اتّصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة

= (ح٣٤٢٦)، وصحيح مسلم، الفضائل، باب شفقته ﷺ (ح٢٢٨٣).

(١) الزيادة من (حم) و(مح). (٢) زيادة من (حم).

والنصرة في الدنيا والآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، فيراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله ﷻ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٣٥﴾ [فصلت]، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسّر ذلك بقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ والعدن: الإقامة؛ أي جنات إقامة يخلدون فيها.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قصراً يقال له: عدن، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[(١)]، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد[(٢)].

وقال الضحاك في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. رواهما ابن جرير[(٣)].

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً. كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم[(٤)] بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ أي: وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين، مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

---

(١) الحبَرة ـ بكسر الحاء وفتح الباء ـ: ضرب من برود اليمن منمَّر.
(٢) أخرجه الطبري وفي سنده علي بن جرير، أشار الأستاذ محمود شاكر إلى أنه مجهول.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(٤) في الأصل: «ذرياتهم» وهي قراءة متواترة أيضاً.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثنا معروف بن سويد [الجذامي][(١)]، عن أبي عشانة المعافري، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، - قال: - فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»[(٢)].

ورواه أبو القاسم الطبراني عن أحمد بن رشيدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن أبي عشانة سمع عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب. وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبحك الليل والنهار، ونقدس لك، مَنْ هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عَزَّ وَجَلَّ: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»[(٣)].

وقال عبد الله بن المبارك، عن بقية بن الوليد: حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له: أبو الحجاج، يقول: جلست إلى أبي أُمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن فيقول للذي يليه: ملك يستأذن، ويقول الذي يليه للذي يليه: ملك يستأذن، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا، فيقول أقربهم للمؤمن: ائذنوا له، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له، حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير[(٤)].

---

(١) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وفي الأصل صحف إلى: «الحداني».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: إسناده جيد (المسند ١١/ ١٣١، ١٣٢ ح٦٥٧٠) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، وأخرجه ابن حبان من طريق سعيد بن أبي أيوب به (الإحسان ١٦/ ٤٣٨، ٤٣٩ ح٧٤٢١)، وأخرجه الحاكم من طريق عمرو بن الحارث عن أبي عشانة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٧١، ٧٢).

(٣) أخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن وهب وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٧١) وقال الهيثمي: رجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عُشانة وهو ثقة. (مجمع الزوائد ١٠/ ٢٦٢).

(٤) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن المبارك به وسنده ضعيف لإبهام شيخ أرطأة بن المنذر، وقد صرح ابن أبي حاتم بأنه يوسف الألهاني كما في الرواية اللاحقة. ولكن يوسف هذا ترجم له البخاري (التاريخ الكبير ٨/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٨/ ٣٥) وسكتا عنه.

ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبي الحجاج يوسف الألهاني قال: سمعت أبا أُمامة. . . فذكر نحوه[١].

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: «﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾»، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾.

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر ما لهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصِلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[٣]، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين، إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا[٤].

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ۝٢٦﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسّع الرزق على من يشاء، ويقتر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً، كما قال: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون] ثم حقّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾، كما قال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ

---

(١) في سنده يوسف الألهاني سكت عنه البخاري وابن أبي حاتم كما سبق في الرواية السابق.

(٢) أخرجه الطبري مرسلاً من طريق سهيل بن أبي صالح عن محمد بن إبراهيم، وأخرجه البيهقي موصولاً من طريق عباد بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً (دلائل النبوة ٣/٣٠٦) ولكن عباد بن أبي صالح هو السمان: لين الحديث (التقريب ص٣٠٨).

(٣) تقدم تخريج الروايتين في تفسير سورة البقرة آية ١٧٧ في تفسير آخر الآية.

(٤) لم أجد رواية أبي العالية، وإذا كان قد رواها ابن أبي حاتم فسنده واحد مكرر جيد، ولكن هذا الجزء من السورة من تفسير ابن أبي حاتم مفقود.

خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد، قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن [المستودر][1] أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة[2]. رواه مسلم في صحيحه[3].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مرَّ بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[4].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]. وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحوّل لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»[5]، ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس] وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام]، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن

---

(١) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وفي الأصل صُحّف إلى: «المسور».

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٢٢٨) وسنده صحيح.

(٣) أخرجه الإمام مسلم من طريق إسماعيل بن أبي خالد به (الصحيح، الجنة، باب فناء الدنيا ح٢٨٥٨).

(٤) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ (الصحيح، مطلع كتاب الزهد والرقائق ح٢٩٥٧).

(٥) أخرجه الإمام أحمد بنحوه وصحح سنده محققوه (المسند ٤/ ٦٠ ح٢١٦٦).

عباس: فرح وقرة عين[١].

وقال عكرمة: نعم ما لهم[٢].

وقال الضحاك: غبطة لهم[٣].

وقال إبراهيم النخعي: خير لهم[٤].

وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك؛ أي: أصبت[٥] خيراً. وقال في رواية: طوبى لهم حسنى لهم[٦]، ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هي أرض الجنة بالحبشية[٧]. وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة بالهندية[٨]. وكذا روى السدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة[٩]، وبه قال مجاهد[١٠].

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها، قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾، وذلك حين أعجبته[١١].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة[١٢]، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس ومغيث بن سُميّ وأبي إسحاق السبيعي، وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها[١٣].

وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة[١٤] من عسل وخمر وماء ولبن.

وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة.
(٢) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً عن عكرمة.
(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق منصور عن إبراهيم.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.
(٧) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير به.
(٨) أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.
(٩) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سفيان عن السدي به.
(١٠) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(١١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.
(١٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال شهر وضعف ابن حميد وهو محمد بن حميد الرازي، ويشهد للشطر الأول منه حديث سهل بن سعد التالي بعد ثلاث روايات، وهو في الصحيحين.
(١٣) هذه الآثار أخرجها الطبري، والشطر الأول له شاهد في الصحيحين كسابقه.
(١٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن أبي صالح عن معاوية عن بعض أهل الشام بنحوه.

الهيثم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ ـ [مرفوعاً ـ: «طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبي سعيد الخدري][٢]، عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله: طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٣].

وروى البخاري ومسلم جميعاً عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومي، عن وهيب، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها»[٤].

وفي صحيح البخاري من حديث يزيد بن زريع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة]، قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سريج، حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة»، اقرأوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾[٦]. أخرجاه في الصحيحين[٧]. وفي لفظ لأحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج، قالا: حدثنا شعبة: سمعت أبا الضحاك يحدث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين ـ أو مائة سنة ـ هي شجرة الخلد»[٨].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن وهب به، وصححه الألباني بالشواهد (السلسلة الصحيحة ح١٩٨٥) والصحيح أن الشطر الأول هو الذي يتقوىٰ بالشواهد كما في الرواية بعد التالية.

(٢) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (حم) و(مح).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وضعف سنده محققوه بسبب ضعف رواية دراج عن أبي الهيثم (المسند ٨/ ٢١١ ح١١٦٧٣) ويشهد لشطره الأول الحديث الآتي.

(٤) صحيح البخاري، الرقاق، باب صفة الجنة والنار (ح٦٥٥٢)، وصحيح مسلم، الجنة، باب (إن في الجنة شجرة) (ح٢٨٢٧).

(٥) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (ح٣٢٥١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وحسّن سنده محققوه (المسند ١٦/ ١٨٠، ١٨١ ح١٠٢٥٩).

(٧) صحيح البخاري، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (ح٣٢٢٥)، وصحيح مسلم، الجنة، باب (إن في الجنة شجرة) (٢٨٢٦).

(٨) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: صحيح دون قوله: «شجرة الخلد» وهذا إسناد ضعيف، أبو الضحاك عداده في أهل البصرة مجهول (المسند ١٥/ ٥٣٧ ح٩٨٧٠).

وقال محمد بن إسحاق: عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى، فقال: «يسير في ظل الغصن منها الراكب مائة سنة ـ أو قال: ـ يستظل في الفنن منها مائة راكب، فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال» رواه الترمذي(١).

وقال إسماعيل بن عياش: عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلام الأسود، قال: سمعت أبا أُمامة الباهلي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها فيأخذ من أي ذلك شاء، إن شاء أبيض وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن»(٢).

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: طوبى شجرة في الجنة، يقول الله لها: تفتقي لعبدي عما شاء، فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة(٣).

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً وعجيباً، قال وهب رحمه الله: إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط(٤)، وورقها برود(٥)، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، فبينما هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة، بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح حسناً، ووبرها كخز المِرعزي(٦) من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق فينيخونها يقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه. قال: فيركبونها فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجباً من غير مَهَنة(٧)، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا برك رحلة برك الأخرى، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه، قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تعالى عند ذلك: أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت

---

(١) أخرجه الترمذي من طريق يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب (السنن، صفة الجنة، باب صفة ثمار أهل الجنة ح٢٥٤١) وفيه عنعنة ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية هنا، إذ أخرجه في الزهد (ح١١٥)، وأخرجه الحاكم من طريق يحيىٰ بن عباد به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا من طريق إسماعيل بن عياش به (صفة الجنة ح١٤٦) ونسبه إلى ابن أبي الدنيا ابن القيم (حادي الأرواح ص٢٩١)، وسنده ضعيف لضعف سعيد بن يوسف (التقريب ص٢٤٣).

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وفي سنده شهر بن حوشب فيه مقال.

(٤) الرياط: جمع ريطة، وهي كل ثوب لين رقيق. (٥) برود: جمع برد، هو من ثياب الوشي.

(٦) المرعزي: هو الزغب الذي تحت شعر العنز، وهو ألين من الصوف.

(٧) المَهَنَه: الخدمة والعمل.

رحمتي ومحبتي، مرحباً بعبادي الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمري، قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا في السجود قدامك. قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته، فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: ربي تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيها من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرت بك أمنيتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، وسأتحفك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نكد ولا تصريد[1]، قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال، قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب، مفرغة في كل قبة منها فرش من فرش الجنة، متظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحييانه، ويقبلانه، ويتعلقان به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له[2].

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم، فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، أبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور يفور من أبوابها، وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مسخر إذاً لالتمع الأبصار[3]، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقري الأحمر، وما كان فيها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حَكَمة[4] برذون

---

(١) التصريد: التقليل.

(٢) أخرجه الطبري من طريق عبد الصمد بن معقل عن وهب، ووهب هو ابن منبه معروف برواية الغرائب والإسرائيليات، وما يذكره لا يؤخذ إلا من حديث شريف أو أثر موقوف على صحابي له حكم الرفع، وعليه فإن سنده ضعيف معضل.

(٣) أي: لأذهب ضوءها.

(٤) الحَكَمة: ما أحاذ بحنكي الفرس من لجامه.

من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف[١] بهم ببطن رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم، وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم، وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم، قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا. قال: برضاي عنكم حللتم داري، ونظرتم إلى وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فهنيئاً لكم، ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ليس فيه تنغيص ولا تصريد، فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأدخلنا دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب، ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور. وهذا سياق غريب، وأثر عجيب[٢]، ولبعضه شواهد؛ ففي الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل يكون آخر أهل الجنة دخولاً الجنة: تمنّ؛ فيتمنى، حتى إذا انتهت به الأماني يقول الله تعالى: تمنّ من كذا، وتمنّ من كذا، يذكره، ثم يقول: ذلك لك وعشرة أمثاله[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ، عن رسول الله ﷺ، عن الله ﷻ: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر...». الحديث بطوله[٤].

وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة رواه ابن أبي حاتم[٥].

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن

---

(١) أي: تسرع بهم.

(٢) درجته في الضعف كسابقه. وذكر الحافظ ابن كثير بعض الشواهد لبعض فقرات هذا الأثر.

(٣) صحيح البخاري، الأذان، باب فضل السجود (ح٨٠٦)، وصحيح مسلم، الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (ح٢٩٩).

(٤) صحيح مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم (ح٢٥٧٧).

(٥) سنده ضعيف لإرسال خالد بن معدان وهو تابعي.

قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام] أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنِفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري[1]. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن»[2].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترف، مقر له بالربوبية والألوهية، ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورهم، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خففت على داود القراءة فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»[3] انفرد بإخراجه

(١) الصحيح، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (ح٢٧٣١).
(٢) الصحيح، الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم. . . (ح٢١٣٢).
(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ٣١٤) وسنده صحيح.

البخاري[١]. والمراد بالقرآن: هو الزبور.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبينوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنه ليس ثَم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٢]، معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفي قال: قلت له: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ قال: نعم عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ[٣]. وكذا روى ابن عباس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الآية[٤]، والله أعلم. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم[٥].

وقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: أي: لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً[٦].

وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا[٧].

وقرأ آخرون: ﴿أفلم يتبين ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٨].

وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً[٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب

---

(١) أخرجه البخاري من طريق عبد الرزاق به (الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] ح٣٤١٧).

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة يونس آية ٣٨.

(٣) سنده ضعيف لضعف بشر بن عمارة، كما في التقريب.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة لكنه مرسل.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحوه.

(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن علي بن أبي طالب ﷺ.

(٩) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ (الدر المنثور ٨/ ٤٥٩).

تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف] وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة[١]. وهذا هو الظاهر من السياق.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن قتادة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: سرية، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قال محمد ﷺ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال: «فتح مكة»[٢]. وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في رواية[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم[٤]. وكذا قال مجاهد وقتادة[٥].

وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس: ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نكبة. وكلهم قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة[٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم].

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أنظرتهم وأجّلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود][٧].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن قتادة به.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي داود الطيالسي به.

(٣) قول عكرمة أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول سعيد بن جبير تقدم مع رواية ابن عباس السابقة، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به ويتقوىٰ بالآثار التالية.

(٥) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن الحسن البصري.

(٧) تقدم تخريجه في تفسير سورة هود آية ١٠٢.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد]، وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها، لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له، لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول[1].

وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول[2]، أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم] قال مجاهد: قولهم، أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه[3] آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت]، ﴿وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه: أنه لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق دعوا إليه، وصَدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم، أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صُدوا به عن سبيل الله[4]، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند فيه إبهام شيخ الطبري، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود، وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

(٤) القراءتان بفتح الصاد وبضمها متواترتان.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ [للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[١]، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه][٢]، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان]، ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً؛ أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع [لها][٣] ولا فناء، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت[٤]، فقال: «إني رأيت الجنة - أو أُريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[٥].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبو عقيل، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة، قال له أُبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مطولاً (الصحيح، كتاب اللعان ح١٤٩٣).

(٢) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (حم) و(مح).

(٣) الزيادة من (حم). (٤) أي: توقفت.

(٥) أخرجاه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (صحيح البخاري، الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة ح١٠٥٢، وصحيح مسلم، الكسوف، باب «ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف» ح٩٠٧).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بنحوه من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر رضي الله عنه، قال محققوه: إسناده =

وروى مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر شاهداً لبعضه[(١)].

وعن عتبة بن عبد السلمي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع[(٢)] ولا يفتر»، رواه الإمام أحمد[(٣)].

وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا ريحان بن سعيد، عن عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»[(٤)].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم جشاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس» رواه مسلم[(٥)].

وروى الإمام أحمد والنسائي من حديث الأعمش، عن ثُمامة بن عقبة، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه»[(٦)].

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشوياً»[(٧)].

وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى[(٨)]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ

= ضعيف لتفرد عبد الله بن محمد بن عقيل بهذه السياقة (المسند ٣٥/١٧٣، ١٧٤ ح٢١٢٥٠)، ويشهد لبعضه سابقه في الصحيحين، وأخرجه الضياء المقدسي من طريق عبد الله بن عمرو به (المختارة ح١١٩٣)، وكذا الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٦٠٤).

(١) صحيح مسلم، الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ من صلاة الكسوف (ح٩٠٤).

(٢) الغراب الأبقع: الذي جمع لونه بين السواد والبياض.

(٣) أخرجه أحمد عن عتبة مطولاً وقال محققوه: إسناده قابل للتحسين (المسند ٢٩/ ١٩١، ١٩٢ ح١٧٦٤٢)، ونقل الحافظ ابن كثير عن الضياء المقدسي أنه قال: لا أعلم لهذا الإسناد علة (البداية والنهاية ٢/ ١٥٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني والبزار . . . ورجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات (مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٤).

(٤) سيأتي تخريجه في تفسير سورة الواقعة آية ٢٠.

(٥) تقدم تخريجه في تفسير سورة يونس آية ١٠.

(٦) أخرجه الإمام أحمد عن أبي معاوية عن الأعمش به بنحوه، وصححه سنده محققوه (المسند ٣٢/ ١٨، ١٩ ح١٩٢٦٩)، وأخرجه النسائي من طريق الأعمش به (السنن الكبرى، التفسير ح١١٤٧٨) ونسبه الهيثمي إلى الإمام أحمد وقال: رجاله رجال الصحيح غير ثُمامة وهو ثقة (مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٩).

(٧) أخرجه الحسن بن عرفة بسنده ومتنه (جزء ابن عرفه ح٢٢) وسنده ضعيف للانقطاع، فإن عبد الحارث لم يسمع من ابن مسعود شيئاً (جامع التحصيل ص٢٠٨).

(٨) أخرجه هناد من طرق ضعيفة (الزهد ١/ ١١٨، ١١٩).

قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان]، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء].

وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾[1]. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾. كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تقبلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]، والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون في جنة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾. رواه ابن أبي حاتم[2].

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: بعض ما جاءك من الحق[3]. وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[4]، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أي: إنما بعثت

---

(١) تقدم تخريجه في الآية ٢٩ من هذه السورة الكريمة. (٢) أخرجه أبو نعيم (حلية الأولياء ٥/ ٢٣١).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول عبد الرحمن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبل ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ أي: إلى سبيله أدعو الناس ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي ومصيري.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ أي: آراءهم ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: من الله سبحانه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل [اللحم](١)، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، [والختان](٣)»(٤). وقد رواه أبو عيسى الترمذي عن سفيان بن وكيع، عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي [الشمال](٥)، عن أبي أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو [الشمال](٦)(٧).

---

(١) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «الدّسَم».

(٢) أخرجاه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بنحوه (صحيح البخاري، النكاح، باب الترغيب في النكاح... ح٥٠٦٣)، وصحيح مسلم، النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... ح١٤٠١).

(٣) في المسند والأصول الخطية والطبعات من تفسير ابن كثير: «الحناء»، وما أثبت هو الصواب كما جزم الحافظ المزي، وكذا رواه المحاملي عن شيخه الترمذي (نقله ابن القيم في زاد المعاد ٤/ ٢٥٢) وكذا جزم العراقي، وقد رَّد من قال بلفظ: «الحناء» فقال: والحناء ليس من السنن ولا ذكره المصطفىٰ في خصال الفطرة، بخلاف الختان (ينظر: فتح القدير للمناوي ١/ ٤٦٦).

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه مع الخلاف المتقدم وضعف سنده محققوه (المسند ٣٨/ ٥٥٣، ٥٥٤ ح٢٣٥٨١)، وأخرجه عبد الرزاق من طريق الحجاج بن أرطأة بلفظ: «الختان» (المصنف رقم ١٠٣٩٠).

(٥)و(٦) كذا في سنن الترمذي، وفي الأصل (حم) و(مح): «أبو السماك» وهو تصحيف، وأبو الشمال مجهول (التقريب ص٦٤٨).

(٧) أخرجه الترمذي من طريق سفيان به (السنن، النكاح، باب ما جاء في فضل التزوج والحث عليه ح١٠٨٠)، وسنده ضعيف لجهالة أبي الشمال.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكلِّ مدة مضروبة، كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: أي: لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين[(١)]، فلهذا ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ منها، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني: حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ اختلف المفسرون في ذلك فقال الثوري ووكيع وهشيم: عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت[(٢)]. وفي رواية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما[(٣)].

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران[(٤)].

وقال منصور: سألت مجاهداً، فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللَّهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء؟ فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير[(٥)].

وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: اللَّهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحه واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أُم الكتاب. رواه ابن جرير[(٦)].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، عن أبي حكيمة عصمة، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب ﷺ، قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللَّهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة[(٧)].

---

(١) أخرجه الطبري بنحوه بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من الطرق المذكورة.
(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
(٤) أخرجه الطبري من طرق صحيحة عن منصور عن مجاهد.
(٥) أخرجه الطبري من طريق منصور به وفي سنده ابن حميد، وهو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف لكنه يتقوىٰ بالرواية السابقة.
(٦) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وسنده صحيح.
(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

وقال حماد، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شريك عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكيم، عن ابن مسعود بمثله[١].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف، عن أبي حمزة، عن إبراهيم، أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ الآية[٢].

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما ورواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان ـ هو: الثوري ـ، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[٣]، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري به[٤].

وثبت في الصحيح: أن صلة الرحم تزيد في العمر[٥].

وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان[٦] بين السماء والأرض»[٧].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت ـ والدفتان: لوحان ـ لله ﷻ، كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب[٨].

وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت» وذكر تمام

---

(١) أخرجهما الطبري بسنديهما ومتنهما، ويقوي آحدهما الآخر.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً لأن أبا حمزة ـ وهو: ميمون الأعور ـ متروك، وروايته عن إبراهيم لا يتابع عليها، كذا قال العقيلي (ينظر: تهذيب التهذيب ١٠/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، قال محققوه: حسن لغيره، دون قوله: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» (المسند ٣٧/ ٦٨ ح٢٢٣٨٦).

(٤) قال المنذري: رواه النسائي بإسناد صحيح (الترغيب والترهيب ٢/ ٤٨١)، وأخرجه ابن ماجه من طريق وكيع به (السنن، المقدمة، باب في القدر ح٩٠) وقال البوصيري: سألت شيخنا أبا الفضل العراقي عن هذا الحديث فقال: حسن (مصباح الزجاجة ١/ ٦٢)، وحسنه الألباني باستثناء العبارة السابقة في المسند (صحيح سنن ابن ماجه ح٧٣).

(٥) أخرجه الشيخان بنحوه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (صحيح البخاري، البيوع ح٢٠٦٧)، وصحيح مسلم، (البر والصلة ح٢٥٥٧).

(٦) أي: يتصارعان.

(٧) أخرجه الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي فقال: زكريا بن منظور مجمع على ضعفه (المستدرك ١/ ٤٩٢)، وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٤٣)، مما يؤكد ضعف الحديث.

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده عنعنة ابن جريج والمتن فيه غرابة.

الحديث. رواه ابن جرير[١].

وقال الكلبي: يمحو الله ما يشاء ويثبت، قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، فقيل له: من حدّثك بهذا؟ فقال: أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبي ﷺ، ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية، فقال: يكتب القول كله حتى إذ كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، ودخلت وخرجت، ونحو ذلك من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب[٢].

وقال عكرمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت[٤]. وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب[٥].

وقال قتادة في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦][٦].

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم، إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم[٧].

وقال الحسن البصري: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: من جاء أجله يذهب، ويثبت الذي

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً، لأن زيادة بن محمد منكر الحديث (التقريب ص٢٢١).

(٢) أخرجه الطبري من طريق همام عن الكلبي به، وسنده ضعيف جداً لأن الكلبي وهو محمد بن السائب متهم بالكذب بتصريحه، كما في ترجمته في التهذيب التهذيب.

(٣) أخرجه الطبري والحاكم كلاهما من طريق حماد بن سلمة عن سليمان التيمي عن عكرمة به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٤٩).

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) أخرجه الطبري من طريق ابن أبي نجيح به، وسنده مرسل.

هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: الحلال والحرام(١).

وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله(٢).

وقال الضحاك، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين(٣).

وقال سُنيد بن داود: حدثني معتمر، عن أبيه، عن يسار، عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً(٤).

وقال ابن جريج عن ابن عباس: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال: الذكر(٥).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد، بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض(٦).

وقال في رواية: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية(٧).

وقال مجاهد وعكرمة: ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾، قال: خرابها(٨).

وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين(٩).

وقال العوفي، عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها(١٠).

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مالك بن دينار عن الحسن.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه شيخ الطبري مبهم.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق سنيد به.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق حجاج عن ابن جريج به، وابن جريج لم يسمع من ابن عباس، وقال الطبري: لا أدري فيه ابن جريج أم لا.اهـ. فإذا لا يوجد فيه ابن جريج فالانقطاع أشد.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عكرمة عن ابن عباس، وعلي بن عاصم هو ابن صهيب الواسطي: وهو صدوق يخطئ ويصر (التقريب ص٤٠٣).

(٨) قول مجاهد أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي جعفر الفراء عنه، وأبو جعفر الفراء اختلف في اسمه، وهو ثقة (التقريب ص٦٢٩).

(٩) قول الحسن أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري وسعيد بن منصور (السنن، التفسير قم ١١٧٥) من طريقين يقوي أحدهما الآخر.

(١٠) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض[١].

وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك[٢]، ولكن تنقص الأنفس والثمرات[٣]، وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه، ولكن هو الموت[٤].

وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها[٥]، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء[٦].

وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئي بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجري بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمُتْ عالم منها يمُت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية [كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير][٧].

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]، وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ﴾ الآية [النمل].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ﴾ أي: أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعلمه (وسيعلم الكافر)، وقرئ ﴿ٱلْكُفَّٰرُ﴾[٨]، ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ أي: ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَىٰ

---

(١) أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً بنحوه. (٢) أي: مكان قضاء الحاجة.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن وكيع، وهو سفيان، وفيه مقال.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الزبير بن الخريت عن عكرمة.

(٥) أخرجه الطبري والحاكم من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس، وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بأن طلحة بن عمرو: متروك (المستدرك ٢/ ٣٥٠) ويتقوى بالأثر التالي.

(٦) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق منصور عن مجاهد.

(٧) زيادة من (حم) و(مح). (٨) وكلتاهما قراءتان متواترتان.

بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبي الله هو الشاهد علي وعليكم؛ شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: نزلت في عبد الله بن سلام. قاله مجاهد(١)، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى(٢).

وقال قتادة: منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري(٣).

وقال مجاهد في رواية عنه: هو الله تعالى(٤).

وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد عبد الله بن سلام ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها (ومن عنده عُلِمَ الكتابُ) ويقول: من عند الله(٥)، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري(٦).

وقد روى ابن جرير من حديث هارون الأعور عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿وَمَنْ عِندَهُ عُلِمَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات(٧). قلت: وقد رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم(٨)، وهو ضعيف، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه مرفوعاً كذلك ولا يثبت، والله أعلم، والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ الآية [الشعراء]، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الأحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة.

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة، وهو كتاب جليل: حدثنا سليمان بن

---

(١) أخرجه الثوري والطبري بسند ضعيف من طريق ليث، وهو ابن أبي سليم، عن مجاهد، ونقد متنه الحافظ ابن كثير، والصحيح عن مجاهد ما سيأتي بعد روايتين.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الحكم، وهو ابن عتيبة عن مجاهد.

(٥) أخرجه سعيد بن منصور (السنن، التفسير رقم ١١٧٧)، والطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير. والقراءة المذكورة شاذة تفسيرية.

(٦) وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الحكم بن عتيبة عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وتعليقه بنحوه، وسنده ضعيف، لأن فيه الحسين وهو ابن داود وهو ضعيف، وأخرجه أبو عمر الدوري من طريق سليمان بن أرقم عن الزهري به (قراءات النبي ﷺ ح٧١ بتحقيقي) وسنده ضعيف أيضاً لضعف سليمان بن أرقم.

(٨) مسند أبي يعلى (٥٥٧٤).

أحمد الطبراني، حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه عبد الله بن سلام أنه قال لأحبار اليهود: إني أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عيداً، فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله ﷺ بمنى والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال: قلت: نعم، قال: «ادن». قال: فدنوت منه. قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدني في التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعت ربنا، قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ . . .﴾ [الإخلاص] إلى آخرها، فقرأها علينا رسول الله ﷺ، فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة، فكتم إسلامه، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لي أجذها، فألقيت نفسي فقالت أمي: [لله](١) أنت لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقي نفسك من رأس النخلة، فقلت: والله لأنا أُسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث(٢).

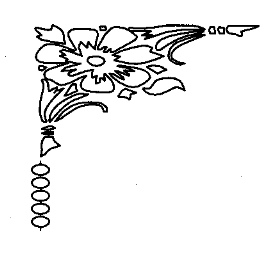
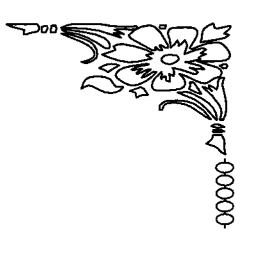
وهذا حديث غريب جداً.

آخر تفسير سورة الرعد، ولله الحمد.

---

(١) زيادة من (مح) و(حم) والتخريج.

(٢) أخرجه أبو نعيم بسنده ومتنه (دلائل النبوة ١/ ١٢٥)، وفي سنده حمزة بن يوسف لم يدرك جده عبد الله بن سلام. كذا قال الهيثمي (مجمع الزوائد ٧/ ١٤٩)، واستغربه الحافظ ابن كثير.

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ الآية [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ أي: العزيز الذين لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره.

وقوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً، وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة[1]، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح.

---

(١) القراءة برفع لفظ الجلالة وبالجر قراءتان متواترتان.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾.

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عمر بن ذرّ قال: قال مجاهد، عن أبي ذر: قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله ﷻ نبياً إلا بلغة قومه»[١].

وقوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٢]. وله شواهد من وجوه كثيرة. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا.

قال مجاهد: هي التسع الآيات[٣].

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى [وبصيرة][٤] الإيمان، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المنَّ والسلوى إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣٥/٣٢٣ ح٢١٤١٠) وضعّف سنده محققوه بسبب الانقطاع بين مجاهد وأبي ذرّ، وصححوا المتن مستشهدين بالآية نفسها.

(٢) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ١٥٨.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحفت إلى: «ونصر».

(٥) قول مجاهد بلفظ: «بنعم الله» أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وكذا أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بلفظه.

وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه حيث قال: حدثني يحيى بن عبد الله مولى بني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفي، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، [عن ابن عباس، عن أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: «بنعم الله»[1]، ورواه ابن جرير][2][3] وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به، ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً، وهو أشبه[4].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار؛ أي في الضراء؛ شكور أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له»[5].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٧]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كما قال: [﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقال هاهنا][6]: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسنده ومنه وضعّف سنده محققوه وصححوه بالشواهد (المسند ٣٥/٦٦ ح٢١١٢٨)، وأخرجه الإمام مسلم من طريق أبي إسحاق به مطولاً وفيه: «وأيام الله نعماؤه وبلاؤه» (الصحيح، الفضائل، باب من فضائل الخضر ﷺ ح٢٣٨٠/١٧٨).

(٢) الزيادة من (حم) و(مح) ومسند أحمد. (٣) أخرجه الطبري من طريق محمد بن أبان به.

(٤) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده من طريق الطيالسي عن محمد بن أبان موقوفاً (المسند ٣٥/٦٧ ح٢١١٢).

(٥) أخرجه مسلم من حديث صهيب ﷺ (الصحيح، الزهد، باب المؤمن أمره كله خير ح٢٩٩٩).

(٦) الزيادة من (حم) و(مح).

وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[١].

وفي المسند: أن رسول الله ﷺ، مرَّ به سائل فأعطاه تمرة، فسخطها ولم يقبلها، ثم مرَّ به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهماً، أو كما قال.

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصيدلاني، عن ثابت، عن أنس، قال: أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحش بها ـ قال ـ: وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ، فقال للجارية: «اذهبي إلى أُم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها»[٢]. تفرد به الإمام أحمد، وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان وأحمد ويعقوب بن سفيان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه، وعن أحمد أيضاً أنه قال: روى أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك وضعفه الدارقطني. وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وفي صحيح مسلم: عن أبي ذرٍّ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[٣]. فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨﴾.

قال ابن جرير: هذا من تمام قيل موسى لقومه، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأُمم المكذبة بالرسل، وفيما قال ابن جرير نظر[٤]، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه

---

(١) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة يونس آية ٣٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٠/ ٣٦ ح١٢٥٧٤) وضعف سنده محققوه لاختلاف النقاد في عمارة الصيدلاني وهو ابن زاذان. وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار باختصار، وفيه عمارة بن زاذان، وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر، وبقية رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣/ ١٠٥).

(٣) صحيح مسلم، البر والصلة، باب تحريم الظلم (ح٢٥٧٧).

(٤) ذكره الطبري بنحوه.

الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم، لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة، والله أعلم، وبالجملة فالله تعالى قد قصَّ علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال [أبو إسحاق]،[(١)] عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: كذب النسَّابون[(٢)].

وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان[(٣)].

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل بأمرهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله ﷻ.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل.

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: ومعناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم[(٤)].

قال ابن جرير: وتوجيهه أن ﴿فِىٓ﴾ هنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب: أدخلك الله بالجنة، يعنون في الجنة، وقال الشاعر:

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سِنبس لست أرغب[(٥)]

يريد أرغب بها. قلت: ويؤيد مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فكأن هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

وقال سفيان الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال: عضوا عليها غيظاً[(٦)].

وقال شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي هبيرة بن يريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً[(٧)]. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[(٨)]، ووجهه ابن جرير مختاراً له بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال العوفي، عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[(٩)].

---

(١) كذا في رواية الطبري، وفي النسخ الخطية صحف إلى: «ابن إسحاق».
(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق، وهو السبيعي، به.
(٣) ذكره السيوطي ونسبه إلى أبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير.
(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بنحوه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر بن أبي نجيح عنه بنحوه.
(٥) استشهد به الفراء (معاني القرآن ٢/ ٧٠)، والطبري.
(٦) أخرجه الطبري من طريق الثوري وإسرائيل به، وسنده صحيح.
(٧) أخرجه الطبري من طريق شعبة به.
(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد.
(٩) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكاً قوياً.

﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾.

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ وهذا يحتمل شيئين:

(أحدهما): أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بدّ لهما من صانع وهو الله لا إله إلا الله هو خالق كل شيء وإلٰهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي: في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجّين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولمّا نرَ منكم معجزة؟ ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: خارق نقترحه عليكم ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ﴾ على وفق ما سألتم.

﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ أي: من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء]. و﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وعيدي، هذا لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات] وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن].

وقوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة[1].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأُمم على أنفسها كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عنه، ويتقوى بقول مجاهد الذي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وبقول قتادة الذي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه.

﴿هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢][١].

ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق].

وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق، فتقول: إني وكلّت بكل جبار عنيد...»[٢] الحديث. أي: خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ وراء هنا بمعنى: أمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] وكان ابن عباس يقرؤها: (وكان أمامهم ملك)[٣]؛ أي: من وراء الجبار العنيد جهنم؛ أي: هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص].

وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم[٤].

وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده[٥].

وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم[٦].

وفي حديث شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»[٧]. وفي رواية: «عصارة أهل النار»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أخبرنا صفوان بن عمرو، عن

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، وهو عبد الله، عن عبد الرحمن.

(٢) أخرجه الترمذي بنحوه من حديث أبي هريرة ﷺ ثم قال: حسن غريب صحيح، (السنن، أبواب صفة جهنم، باب صفة النار ح٢٥٧٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٢٠٨٣).

(٣) وهي قراءة شاذة تفسيرية.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري بسند فيه مبهم عن الضحاك وليس عن قتادة.

(٧) أخرجه الإمام أحمد من طريق شهر به وأطول، وقال محققوه: حديث صحيح لغيره (المسند ٤٤/٥٧٨ ح٢٧٦٠٣).

(٨) أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ مرفوعاً مطولاً (السنن، الأشربة، باب من شرب الخمر لم تُقبل له صلاة ح٣٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢٧٢٢).

عبيد الله بن بُسر، عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قال: «يقرب إليه فيكرهه، فإذا أُدني منه شوىٰ وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره». يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ الآية [الكهف: ٢٩][(١)]، وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك به، ورواه هو وابن أبي حاتم من حديث بقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو به[(٢)].

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتغصصه ويتكرهه؛ أي: يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يزدَرِده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه.

قال عمرو بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق[(٣)].

وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره.

وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة[(٤)] أي: من جسده حتى من أطراف شعره.

وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وخلفه[(٥)]، وفي رواية: وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت، لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦][(٦)]، ومعنى كلام ابن عباس ﷺ: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ؛ أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات] فأخبر أنهم تارة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وتوقف محققوه في الحكم عليه إذ قالوا: رجاله ثقات معروفون غير عبيد الله بن بسر فقد اختلف فيه (المسند ٣٦/ ٦١٥ ح٢٢٢٨٥)، وأخرجه الحاكم من طريق عبيد الله بن بسر به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥١).

(٢) أخرجه الطبري من عدة طرق عن ابن المبارك ومن طريق بقية.

(٣) ذكره السيوطي ونسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح من طريق العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي (المصنف ١٣/ ١٣٢) وكذا أخرجه الطبري وأبو نعيم (الحلية ٤/ ٢١٢).

(٥) ذكره الطبري بلفظ: «أمامه وقدّامه».

(٦) ذكره السيوطي بنحوه ونسبه إلى ابن أبي حاتم، وسنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس ﷺ.

يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۝٤٤﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان]، وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ۝٥٨﴾ [ص] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه، وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله ﷻ جزاءً وفاقاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة].

وقال في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾.

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحارى، وقفار وبحار،

وأشجار ونبات، وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال: ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر]، وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار؛ أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حقَّ علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقَّت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا عنه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله ﷻ، تعالوا نبكِ ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[1].

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بنحوه.

﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]، وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ].

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس ـ لعنه الله يومئذٍ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال.

﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: أي: بسبب ما أشركتمون من قبل.

وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله ﷻ[1]، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ

(١) ذكره الطبري بلفظه.

غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف]، وقال: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل، لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم، وهذا لفظه، وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد: حدثني دُخين الحَجْري، عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء»، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم، وذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي؛ فيأتوني، فيأذن الله لي أن أقوم إليه فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتي ربي فيُشفِّعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ﴾[(1)]. وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه ابن المبارك عن رشدين بن سعد، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعُم، عن دُخين، عن عقبة به مرفوعاً.

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: لما قال أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته، مقتوا أنفسهم فنُودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠][(2)].

وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٩]، قال: ويقوم إبليس ـ لعنه الله ـ فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ﴾ الآية[(3)].

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ

---

(١) أخرجه الطبري من طريق رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد به، وسنده ضعيف لضعف رشدين وعبد الرحمن، وأخرجه الطبراني من طريق رشدين به (المعجم الكبير ١٧/ ٣٢٠)، وضعفه الهيثمي لضعف عبد الرحمن (مجمع الزوائد ١٠/٣٧٩).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن محمد بن كعب.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي.

عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماء[١]، وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء[٢].

وهكذا رواه السدي، عن مُرَّة، عن ابن مسعود قال: هي النخلة[٣]. وشعبة، عن معاوية بن قُرَّة، عن أنس: هي النخلة[٤]. وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس أن رسول الله ﷺ أتي بقناع بسر فقرأ: (ومثل كلمة طيبةً كشجرة طيبة) قال: هي النخلة، وروي من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفاً[٥]، وكذا نصّ عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم.

وقال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل، عن أبي أُسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو ـ كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحبُ إليّ من كذا وكذا[٦].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه مختصراً، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق حصين عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه.

(٣) أخرجه الطبري والخطيب البغدادي (موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٤٦٠) بسند حسن من طريق السدي به.

(٤) أخرجه الطبري والبغوي (الجعديات ح١١١) كلاهما بسند صحيح من طريق شعبة به.

(٥) أخرجه الطبري والترمذي كلاهما من طريق حماد به (السنن، التفسير، باب ومن سورة إبراهيم عليه السلام ح٣١١٩)، ثم قال الترمذي: وروىٰ غير واحد مثل هذا موقوفاً ولا نعلم أحداً رفعه غير حماد بن سلمة، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه. اهـ. والصواب وقفه، ويشهد له ما يلي، وأخرجه الحاكم من طريق حماد بن سلمة به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٢).

(٦) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، سورة إبراهيم ح٤٦٩٨).

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتي بجُمَّار، فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم» فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»[١]. أخرجاه[٢].

وقال مالك وعبد العزيز، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن». قال: فوقع في شجر الوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، أخرجاه أيضاً[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان ـ يعني: ابن زيد العطار ـ، حدثنا قتادة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، فقال: «أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء، أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟» قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء»[٤].

وعن ابن عباس: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: هي شجرة في الجنة[٥].

وقوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غدوة وعشياً[٦]، وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان، رواه شعبة عن معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل[٧].

وقال أبو بكر البزار الحافظ: حدثنا يحيى بن محمد السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة، عن معاوية بن قرة، عن أنس أحسبه رفعه، قال: (ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/ ١٢) وسنده صحيح.

(٢) أخرجاه من طريق سفيان به (صحيح البخاري، العلم، باب الفهم في العلم ح٧٢، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب مثل المؤمن مثل النخلة (ح٢٨١١) الحديث الرابع).

(٣) صحيح البخاري، العلم، باب الحياء في العلم (ح١٣١)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب مثل المؤمن مثل النخلة (ح٢٨١١).

(٤) سنده مرسل ولبعضه شواهد في الصحيحين (صحيح البخاري ح٨٤٣، وصحيح مسلم ح٥٩٥) .

(٥) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.

قال: هي النخلة، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال: هي الشريان[١]، ثم رواه عن محمد بن المثنى، عن غندر، عن شعبة، عن معاوية، عن أنس موقوفاً[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد ـ هو: ابن سلمة ـ عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة» فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع. ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به[٣].

ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال: حدثنا غسان عن حماد، عن شعيب، عن أنس أن رسول الله ﷺ أتي بقناع عليه بُسْر[٤]، فقال: ومثل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ فقال: «هي النخلة». ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ قال: «هي الحنظل»، قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع[٥].

وقوله: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلت ﴿مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾.

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»، ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت[٧] به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب لقبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال:

---

(١) تقدم الكلام على ترجيح وقفه.
(٢) تقدم في الذي قبله.
(٣) تقدم الكلام على ترجيح وقفه، وأن حماد بن سلمة تفرد برفعه.
(٤) القناع ـ بكسر القاف ـ: الطبق الذي يؤكل عليه الطعام أو الفاكهة، والبُسْر ـ بضم فسكون ـ التمر قبل أن يرطب ولم ينضج.
(٥) مسند أبي يعلى ٧/ ١٨٢ ـ ١٨٣ (ح٤١٦٥)، وفي سنده حماد بن سلمة تفرد برفعه، ويشهد له ما في الصحيحين قبل ثلاث روايات.
(٦) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] (ح٤٦٩٩)، وصحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار (ح٢٨٧١).
(٧) أي: يضرب الأرض به.

«إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط[1] من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ـ قال: ـ فتخرج تسيل، كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها ـ يعني على ملأ من الملائكة ـ، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ـ قال: ـ فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربِّ أقم الساعة ربِّ أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي».

قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح[2]، فجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب ـ قال: ـ فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له ـ ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً ـ ثم قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي

---

(١) الحنوط: ما يطيب به الميت.
(٢) المسوح: جمع مِسْح، وهو كساء من شعر.

فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تقم الساعة». ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو[١] به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن يونس بن خباب، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة... فذكر نحوه، وفيه «فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ﷻ أن يعرج بروحه من قبلهم»، وفي آخره «ثم يقيض له أعمى أصم أبكم، وفي يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله ﷻ كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين» قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار[٢].

وقال سفيان الثوري، عن أبيه، عن خيثمة، عن البراء في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال: عذاب القبر[٣].

وقال المسعودي، عن عبد الله بن مخارق، عن أبيه، عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أُجلس في قبره فيقال له: ما ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، وقرأ عبد الله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[٤].

وقال الإمام عبد بن حميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسنده: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة»، قال النبي ﷺ: «فيراهما جميعاً».

قال قتادة: وذُكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة[٥].

---

(١) تقدم تخريجه وثبوته في تفسير سورة يونس في آخر تفسير آية رقم ٦٤ مختصراً، وفي سورة الأعراف آية ٤٠ كاملاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه مطولاً، وضعفه محققوه لضعف يونس بن خباب (المسند ٣٠/ ٥٧٦ ـ ٥٧٨ ح١٨٦١٤).

(٣) أخرجه مسلم من طريق الثوري به (الصحيح، الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار ح٢٨٧١/ ٧٤).

(٤) أخرجه الطبري وعبد الله بن الإمام أحمد (السنة ح١٤٢٩)، والبيهقي (عذاب القبر ح٩) كلهم من طريق المسعودي به، وسنده حسن، ويشهد له ما تقدم.

(٥) أخرجه عبد بن حميد بسنده ومتنه (المنتخب من مسند عبد بن حميد ح١١٨٠)، وسنده صحيح إلا مرسل قتادة، وقد جاء هذا المرسل في صحيح مسلم كما سيأتي في الرواية التالية.

رواه مسلم، عن عبد بن حميد، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتَّاني القبر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاءه ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: إنه رسول الله ﷺ وعبده، فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما، فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي، فيقال له: اسكن، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار» قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه»[٢]. إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد، عن داود بن أبي هند، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري، قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق من حديد فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول له: صدقت ثم يفتح له باباً إلى النار، فيقول: كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باباً إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه فيقول له: اسكن ويفسح له في قبره، وإن كان كافراً أو منافقاً فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً، فيقول: لا دريت ولا تليت[٣] ولا اهتديت، ثم يفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله ﷻ أبدلك به هذا، فيفتح له باباً إلى النار ثم يقمعه قمعة بالمطراق، فيصيح صيحة يسمعها خلق الله ﷻ كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك»، فقال رسول الله ﷺ: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»[٤].

وهذا أيضاً إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقروناً، ولكن ضعفه بعضهم.

---

(١) صحيح مسلم، الجنة وصفه نعيمها، باب عرض مقعد الميت (ح٢٨٧٠)، وسنن النسائي، الجنائز، باب المسألة في القبر ٤/ ٩٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير وليس عن ابن جريج (المسند ٢٣/ ٦٥، ٦٦ ح١٤٧٢٢) وصححه محققوه بمتابعة ابن جريج لابن لهيعة، فقد أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج به (المصنف رقم ٦٧٤٤ و٦٧٤٦).

(٣) أي: ما استطعت.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٣/ ٣) وقال عنه الحافظ ابن كثير: إسناد لا بأس به.اهـ. ويشهد له سابقه ولاحقه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول»[(١)]. ورواه النسائي وابن ماجه من طريق ابن أبي ذئب بنحوه[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها ـ قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك ـ قال: ـ ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه ﷻ، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد: ـ وذكر من نتنها، وذكر مقتاً، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل» قال أبو هريرة: فردَّ رسول الله ﷺ ريطة[(٣)] كانت عليه على أنفه هكذا[(٤)].

وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا زيد بن أخزَم، حدثنا معاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قَسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا: مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم، فيقول: قد مات أما أتاكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أُمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين (المسند ١٤/٣٧٨ ح٨٧٦٩).

(٢) السنن الكبرىٰ، التفسير، (ح١١٤٤٢)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (ح٤٢٦٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٣٤٣٧).

(٣) الريطة: ثوب رقيق.

(٤) أخرجه مسلم بنحوه (الصحيح، الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار ح٢٨٧٢).

فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض»(١).

وقد روى أيضاً من طريق همام بن يحيي، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، قال: «فيسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان، ما فعلت فلانة؟ قال: وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذهب بها إلى باب الأرض، تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه، فيبلغ بها الأرض السفلى».

قال قتادة: وحدثني رجل، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو قال: أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية، وأرواح الكفار تجتمع ببرهوت سبخة بحضرموت، ثم يضيق عليه قبره(٢).

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت ـ أو قال: أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال: لأحدهما منكر والآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، وينور له فيه، ثم يقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون: فقلت مثلهم لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب(٣).

وقال حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ـ قال: ـ ذلك إذا قيل له في القبر: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث»(٤).

وقال ابن جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد، قالا: حدثنا يزيد، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده،

---

(١) أخرجه ابن حبان بسنده ومتنه (الإحسان ٧/ ٢٨٤، ٢٨٥ ح٣٠١٤)، وصححه محققه، وأخرجه الحاكم من طريق معمر عن قتادة به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان بسنده ومتنه ثم قال: الجابيتان باليمن، وبرهوت من ناحية اليمن (الإحسان ٧/ ٢٨٤ ح٣٠١٣)، وصححه محققه بدون قول قتادة، وأما قول قتادة فيرويه عن رجل مبهم فسنده ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه وحكمه (السنن، الجنائز، باب عذاب القبر ح١٠٧١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح٨٥٦).

(٤) أخرجه الطبري من طريق آدم بن أبي إياس عن حماد بن سلمة به وسنده حسن، وأخرجه الإمام من طريق حماد بن سلمة به مختصراً، وحسّن سنده محققوه (المسند ١٤/ ٢٣٣ ح٨٥٦٣)، وأخرجه الحاكم من طريق حماد به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٨٠).

إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعني حتى أصلي، فيقال له: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول به، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب»، وذلك قول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[(١)]. رواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمر، وذكر جواب الكافر وعذابه[(٢)].

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة أحسبه رفعه، قال: «إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين، فيود له خرجت ـ يعني نفسه ـ، والله يحب لقاءه وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك، وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ما جيء به إلينا، وإن المؤمن يجلس في قبره فيسأل، من ربك؟ فيقول: ربي الله، ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد نبيي، فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام، فيفتح له باب في قبره فيقول ـ أو يقال ـ: انظر إلى مجلسك، ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة، وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره أو أجلس، فيقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري، يقال: لا دريت، فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره. ثم قال: لا نعلم من رواه إلا الوليد [بن القاسم][(٣)(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه بنحوه، وسنده حسن، ويشهد له سابقه ولاحقه، وأخرجه ابن أبي شيبة عن يزيد بن هارون به (المصنف ٣/ ٣٨٣)، وأخرجه عبد الرزاق من طريق محمد بن عمرو به (المصنف رقم ٦٧٠٣)، وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ٣/ ٥٥).

(٢) الإحسان ٧/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢ (ح٣١١٣) وحسنه محققه شعيب الأرناؤوط.

(٣) كذا في (حم) و(مح) والتخريج، وفي الأصل صُحِّف إلى: «من مسلم».

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٨٧٤)، ومختصر زوائد مسند البزار ١/ ٣٦٤ (ح٥٩٦)، وقال =

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا حُجين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء ـ يعني بنت الصديق رضي الله عنهما ـ، تحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أحف به عمله الصلاة والصيام، قال: فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده، قال: فيناديه اجلس فيجلس، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل ـ يعني: النبي ﷺ ـ؟ قال: من؟ قال: محمد، قال: أشهد أنه رسول الله، قال: وما يدريك، أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله، قال: «يقول: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث، وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده فأجلسه، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، قال له الملك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث، قال: ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط، ثمرته جمرة مثل غرب البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه»[(١)].

وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية، قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره، وأما الكافر فتتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم ـ والبسط هو الضرب ـ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤][(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم [الأودي][(٣)]، حدثنا شريح بن مسلمة، حدثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له ذلك مرات، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت، وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري

= الهيثمي: في الصحيح طرف منه رواه البزار، ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي فإني لم أعرفه (مجمع الزوائد ٣/ ٥٢)، وتعقبه الحافظ ابن حجر فقال: هو موثق ولم يتفرد به (مختصر زوائد مسند البزار ح٥٩٦).

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن محمد بن المنكدر لم يذكروا له سماعاً من أسماء بنت أبي بكر، وهو قد أدركها... وسلف نحوه بإسناد صحيح برقم ٢٦٩٢٥ (المسند ٤٤/ ٥٣٦ ح٢٦٩٧٦).

(٢) أخرجه الطبري، مقطعاً، والبيهقي (عذاب القبر ح٢٥٦) كلاهما بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٣) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صُحِّف إلى: «الأزدي».

كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[١].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المسألة في القبر[٢].

وقال قتادة: أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ في القبر[٣]. وكذا روي عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع، عن ابن أبي فديك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أُمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه، فردَّ عنه، ورأيت رجلاً من أُمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلاً من أُمتي قد احتوشته الشياطين[٤]، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم، ورأيت رجلاً من أُمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً مِن أُمتي يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أُمتي والنبيون قعود حلقاً حلقاً، كلما دنا لحلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذه بيده فأقعده إلى جنبي، ورأيت رجلاً من أُمتي بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلاً من أُمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه فكلموه، ورأيت رجلاً من أُمتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت له ستراً على وجهه وظلاً على رأسه، ورأيت رجلاً من أُمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أُمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله ﷻ، ورأيت رجلاً من أُمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله، فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه، ورأيت رجلاً من أُمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه[٥] فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أُمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلاً من أُمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا، فاستخرجته من النار، ورأيت رجلاً من أُمتي قائماً على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً، فجاءته صلاته عليّ، فأخذت بيده، فأقامته

---

(١) في سنده عامر بن سعد البجلي وهو مقبول (التقريب ص٢٨٧)، ويتقوىٰ بالشواهد السابقة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أي: اجتمعت حوله الشياطين.

(٥) أي: أولاده.

ومضى على الصراط، ورأيت رجلاً من أُمتي انتهى إلى باب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة»[١].

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه: هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة، أورده هكذا في كتابه التذكرة[٢].

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثاً غريباً مطولاً فقال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النكري، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان، حدثنا أبو عاصم الحبطي، وكان من أخيار أهل البصرة، وكان من أصحاب حزم، وسلام بن أبي مطيع، حدثنا بكر بن خنيس، عن ضرار بن عمرو، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك، عن تميم الداري، عن النبي ﷺ قال: يقول الله ﷻ لملك الموت: انطلق إلى وليي فأتني به، فإني قد ضربته بالسراء والضراء، فوجدته حيث أُحب، ائتني به فلأريحنه، فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة، ومعهم ضبائر الريحان[٣] أصل الريحانة واحد، وفي رأسها عشرون لوناً لكل منها ريح سوى ريح صاحبه، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر[٤]، فيجلس ملك الموت عند رأسه وتحف به الملائكة، ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه، ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه، ويفتح له باب إلى الجنة، فإن نفسه لتعلل[٥] عند ذلك بطرف الجنة تارة بأزواجها، وتارة بكسوتها، ومرة بثمارها كما يعلل الصبي أهله إذا بكى، قال: إن أزواجه ليبتهشن[٦] عند ذلك ابتهاشاً، قال: وتبرز الروح».

قال البرساني: يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب، قال: «ويقول ملك الموت: اخرجي يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، قال: ولملك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها، يعرف أن تلك الروح حبيب لربه، فهو يتلمس بلطفه تحبباً لديه، رضاء للرب عنه، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ـ قال: ـ وقال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة] ـ قال: ـ روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابله، ـ قال: ـ فإذا قبض ملك الموت روحه، قالت الروح للجسد: جزاك الله عني خيراً، فقد كنت سريعاً بي إلى طاعة الله، بطيئاً بي عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت ـ قال: ـ ويقول الجسد للروح مثل ذلك، قال: وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة، ـ قال: ـ فإذا قبض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم، وحنوط قبل حنوط بني آدم، ويقوم من باب بيته إلى قبره صفان من الملائكة

---

(١) في سنده عبد الله بن نافع وهو مولى ابن عمر وهو ضعيف (التقريب ص٣٢٦).
(٢) التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة ص٢٤٠، ٢٤١.
(٣) أي: باقة الريحان.
(٤) أي: عطر المسك الخالص الجيد.
(٥) أي: تتشاغل.
(٦) أي: يسرعن إليه.

يستقبلونه بالاستغفار، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده ـ قال: ـ ويقول لجنوده: الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم؟ فيقولون: إن هذا كان عبداً معصوماً ـ قال: ـ فإذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة، كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه ـ قال: ـ فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خر الروح ساجداً ـ قال: ـ يقول الله ﷻ لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود، وطلح منضود وظل ممدود، وماء مسكوب ـ قال: ـ فإذا وضع في قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر ـ قال: ـ فيبعث الله ﷻ عنقاً(١) من العذاب، قالوا: فيأتيه عن يمينه ـ قال: ـ فتقول الصلاة: وراءك، والله ما زال دائباً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في ـ قبره قال: ـ فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك ـ قال: ـ ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك ـ قال: ـ ثم يأتيه من عند رجليه فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك، فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مساغاً إلا وجد ولي الله قد أخذ جنته ـ قال: ـ فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج ـ قال: ـ ويقول الصبر لسائر الأعمال: أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي، إلا أني نظرت ما عندكم فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان ـ قال: ـ ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها(٢) ـ قال: ـ فيقولان له: اجلس ـ قال: ـ فيجلس فيستوي جالساً ـ قال: ـ وتقع أكفانه في حقويه(٣)».

قال: «فيقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟» قال: قالوا: يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك وأنت تصف من الملكين ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ ـ قال: فيقول: ربي الله وحده لا شريك له، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكة، ونبيي محمد خاتم النبيين، قال: فيقولان له: صدقت، قال: فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعين ذراعاً، وعن شماله أربعين ذراعاً، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً، ومن عند رجليه أربعين ذراعاً، قال: فيوسعان له مائتي ذراع».

قال البرساني: فأحسبه وأربعين ذراعاً تحاط به، قال: «ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة، ـ قال: ـ فيقولان له: وليّ الله هذا منزلك إذ أطعت الله»، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً» ثم يقال له: «انظر تحتك ـ قال: ـ فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ـ قال: ـ فيقولان: ولي الله نجوت آخر ما

---

(١) أي: قطعة.
(٢) أي: لم يرفعوها.
(٣) أي: خصريه.

عليك». قال: فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً» قال: قالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله ﷻ[1].

وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك الموت: انطلق إلى عدوي فأتني به، فإني قد بسطت له رزقي، ويسرت له نعمتي، فأبى إلا معصيتي فأتني به، لأنتقم منه، قال: فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة رآها أحد من الناس قط، له ثنتا عشر عيناً، ومعه سفود من النار، كثير الشوك ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار لينهالين السياط، وهي نار تأجج ـ قال: ـ فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر ـ قال: ـ ثم يلويه لياً شديداً ـ قال: ـ فينزع روحه من أظفار قدميه ـ قال: ـ فيلقيها في عقبيه ـ قال: ـ فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفّه ملك الموت عنه ـ قال: ـ وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط ـ قال: ـ فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من عقبيه فيلقيها في ركبتيه، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه ـ قال: ـ فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط ـ قال: ـ فينتره[2] ملك الموت نترة فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها في حقويه، فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه ـ قال: ـ فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط ـ قال كذلك إلى صدره ثم ـ كذلك إلى حلقه ـ قال: ـ ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه ـ قال: ـ ويقول ملك الموت: اخرجي أيتها الروح اللعينة إلى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ـ قال: ـ فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عني شراً فقد كنت سريعاً بي إلى معصية الله، بطيئاً بي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت ـ قال: ـ ويقول: الجسد للروح مثل ذلك، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار ـ قال: ـ فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه حتى تدخل اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى ـ قال: ـ ويبعث الله إليه أفاعي دهماً كأعناق الإبل، يأخذن بأرنبته[3] وإبهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه ـ قال: ـ ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصي وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما: منكر ونكير، في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها ـ قال: ـ فيقولان له: اجلس، فيستوي جالساً وتقع أكفانه في حقويه ـ قال: ـ فيقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا تليت، فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ثم يعودان، قال: فيقولان: انظر فوقك فينظر،

---

(١) سنده ضعيف لضعف يزيد الرقاشي، وبكر بن خنيس صدوق له أوهام وتكلم فيه ابن حبان (ينظر: التقريب ص١٢٦)، وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً كما سيأتي، وعزاه الحافظ ابن حجر لأبي يعلى ثم قال: هذا حديث عجيب السياق، وهو شاهد لكثير مما ثبت في حديث البراء الطويل المشهور، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف (المطالب العالية ٤/ ٣٨٢).

(٢) فينتره: أي يجذبه بعنف.

(٣) الأرنبة: طرف الأنف.

فإذا باب مفتوح من الجنة، فيقولان: عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله». قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً». قال: «ويقولان له: انظر تحتك، فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار فيقولان له: عدو الله هذا منزلك إذ عصيت الله»، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً» قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها[١].

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشي راويه عن أنس له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم، ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام ـ هو ابن يوسف ـ، عن عبد الله بن بحير، عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»[٢]. تفرد به أبو داود.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٣]، حديثاً مطولاً جداً من طرق غريبة عن الضحاك، عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً[٣].

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾ [البقرة: ٢٤٣] البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨] هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء. سمع ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة[٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جَبَلَة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم[٥].

والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردَّها وكفرها دخل النار، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول.

---

(١) سنده ضعيف، وهو تتمه لسابقه.

(٢) أخرجه أبو داود بسنده ومتنه (السنن، الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت ح٣٢٢١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٧٥٨)، وأخرجه الحاكم من طريق هشام بن يوسف به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٣٧٠).

(٣) وسنده ضعيف أيضاً لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ...﴾ [إبراهيم: ٢٨] (ح٤٧٠٠).

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بالشواهد التالية عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: هم كفار قريش يوم بدر[(١)].

حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا يعلى بن عبيد، حدثنا بسام ـ هو الصيرفي ـ، عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين من الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: منافقو قريش[(٢)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على معقل، عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار[(٣)].

وقال السدي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى، عن علي أنه قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة؛ فأما بنو المغيرة، فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أُحد، وكان أبو جهل يوم بدر، وأبو سفيان يوم أُحد، وأما دار البوار فهي جهنم[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث أبو منصور، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن مرة قالا: سمعت علياً قرأ هذه الآية ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، ورواه أبو إسحاق عن عمرو بن مرة، عن علي[(٥)]، نحوه، وروي من غير وجه عنه.

وقال سفيان الثوري، عن علي بن زيد، عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين[(٦)]. وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هذه الآية ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾؟ قال: هم الأفجران من قريش: أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى

---

(١) سنده حسن.

(٢) أخرجه الحاكم من طريق بسام الصيرفي به، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٢).

(٣) في سنده ابن أبي حسين وهو عبد الله بن عبد الرحمن لم يسمع من علي، وقد توبع بما تقدم فيتقوىٰ بهما.

(٤) في سنده السدي لم يصرح بالسماع عن مسلم وفيه تشيّع، وقد توبع في أغلب المتن إلا ذكر أبي سفيان فإنه لم يتابع عليه كما سيأتي في الروايات التالية.

(٥) أخرجه الحاكم من طريق سفيان عن أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٢).

(٦) أخرجه الطبري من طريق الثوري به، وفي سنده علي بن زيد وهو ابن جدعان: وهو ضعيف.

حين[١]. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر[٢]. وكذا رواه مالك في تفسيره، عن نافع، عن ابن عمر[٣].

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: مرجعكم وموئلكم إلينا كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي في الخفية، والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحديد: ١٥]، وقوله: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾.

قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هناك العدل والقسط، والخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلاناً، فأنا أخالله مخالة وخلالاً، ومنه قول امرئ القيس:

هرفت الهوى عنهنَّ من خشية الردىٰ ولست بمقلي الخلال ولا قالِ[٤][٥]

وقال قتادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالُّون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلامَ يصاحب؟ فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه[٦].

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري من طريق حمزة الزيات به، وسنده حسن.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه شيخ الطبري مبهم، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٣) سنده صحيح.

(٤) ديوان امرئ القيس ص٣٥.

(٥) ذكره الطبري بلفظه مستشهداً بقول امرئ القيس.

(٦) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد عن قتادة.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

يُعدِّد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السمٰوات سقفاً محفوظاً والأرض فرشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع. وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]، ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1] [لقمان: ٢٩].

وقوله: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقرأ بعضهم (وآتاكم من كلٍّ ما سألتموه)[2].

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طَلْق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نِعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين[3].

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهم لك الحمد غير مكفيٍ ولا مودعٍ ولا مستغنىً عنه ربنا»[4].

---

(١) ورد في الأصل: «ألا وهو العزيز الغفار»، والتصويب من القرآن الكريم.

(٢) هذه القراءة شاذة تفسيرية ذكرها الطبري ونسبها أبو حيان إلى ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم (البحر المحيط ٥/٤٢٨).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعد بن إبراهيم عن طلق، وكذا البيهقي (شعب الإيمان رقم ٤٥٢٢).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه (الصحيح، الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه ح٥٤٥٨).

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبَّر، حدثنا صالح المري، عن جعفر بن زيد العبدي، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة [ثلاثة][1] دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه ـ أحسبه قال: في ديوان النعم ـ: خذي ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تنحى وتقول: وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم، فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت لك عن سيئاتك ـ أحسبه قال: ووهبت لك نعمي ـ»[2] غريب وسنده ضعيف.

وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم[3].

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: [الحمد][4] لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤدي ماضي نعمة بأدائها، نعمة حادثة توجب عليه شكره بها[5].

وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة ... تثني عليك بما أوليت من حسن

لكان ما زاد شكري إذا شكرت به ... إليك أبلغ في الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)﴾.

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام بمكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلاً.

وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم

---

(١) كذا في (حم)، وفي الأصل (ومح): «ثلاث».

(٢) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح٣٤٤٤) وسنده ضعيف جداً لأن داود بن المحبَّر: متروك، وصالح المري ضعيف، وضعفه الحافظ ابن كثير سنداً ومتناً.

(٣) أخرجه البيهقي (الجامع لشعب الإيمان ح٤٤١٤).

(٤) سقط في الأصل واستدرك من (حم) و(مح) والرسالة للشافعي.

(٥) ذكره الشافعي في الرسالة ص٧.

ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك.

وقال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه، عن [عبد الرحمن بن جبير][1]، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم، أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وبكى فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[2].

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثانٍ بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال: (أفئدة الناس) لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم[3]، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختصَّ به المسلمون.

وقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه وادٍ غير ذي زرع فاجعل له ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء

---

(١) في النسخ الخطية: «ابن جرير»، والتصويب من صحيح مسلم.
(٢) أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن وهب به (الصحيح، الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه... ح٢٠٢).
(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق منصور عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر.

في الأرض ولا في السماء[١]، ثم حمد ربه ﷻ على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ وقرأ بعضهم: (ولوالِدي) بالإفراد[٢]، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون؛ أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعدُّه عليهم عدًّا ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ [يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ][٣] ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ الآية [المعارج: ٤٣].

وقوله: ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم[٤]. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ﴾ أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية[٥]، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: ﴿هَوَآءٌ﴾ خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ:

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ

---

(١) ذكره الطبري بمعناه. (٢) وهي قراءة شاذة.
(٣) ما بين معقوفين سقط من الأصل واستدرك من (حم) و(مح).
(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، يتقوى بقول مجاهد الذي أخرجه الطبري من طريق ابن أبي نجيح عنه.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون]، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر]، قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذاك.

قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨][1]، ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر].

وقد روى شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن أن علياً رضي الله عنه قال في هذه الآية ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ قال: أخذ ذاك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه نسرين صغيرين، فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبًّا، قال: فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت وجوّعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوت عصاً على رأسه اللحم فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ما ترى؟ قال: أرى كذا وكذا حتى قال: أرى الدنيا كلها كأنها ذباب. قال: فصوب العصا، فصوبها فهبطا جميعاً، قال: فهو قوله عز وجل: (وإن كاد[2] مكرهم لتزول[3] منه الجبال)[4].

قال أبو إسحاق: وكذلك هي قراءة عبد الله (وإن كاد مكرهم)[5].

قلت: وكذا روي عن أُبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنهما قرآ (وإن كاد)[6] كما قرأ

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد، وابن جريج لم يسمع من مجاهد، وفيه أيضاً الحسين وهو ابن داود وهو ضعيف.

(٢) هذه القراءة شاذة تفسيرية. (٣) وهي قراءة متواترة.

(٤) أخرجه الطبري من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به بنحوه، وفي سنده عبد الرحمن وهو ابن أُذُنان ذكره البخاري (التاريخ الكبير ٥/ ٢٥٥)، وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٥/ ٢١٠) وسكتا عنه، وذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ٨٧).

(٥) و(٦) هذه القراءة نسبها أبو حيان إلى أُبي بن كعب وعمر بن الخطاب وأبي إسحاق السبيعي وابن مسعود (البحر المحيط ٥/ ٤٣٧) وهي قراءة شاذة تفسيرية.

علي، وكذا رواه سفيان الثوري وإسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمن بن [أذنان][(١)]، عن علي... فذكر نحوه[(٢)]، وكذا روي عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمروذ ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام فرعون ملك القبط في بناء الصرح فعجزا وضعفا، وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر.

وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر، وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نودي أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه، فصوب الرماح فصوبت النسور، ففزعت الجبال من هدتها، وكادت الجبال أن تزول من حسِّ ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[(٣)].

ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها (لَتزولُ منه الجبال) بفتح اللام الأولى وضم الثانية[(٤)]، وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال[(٥)]. وكذا قال الحسن البصري[(٦)]، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم.

قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء]، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقول: شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآية [مريم: ٩٠][(٧)]، وهكذا قال الضحاك وقتادة[(٨)].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الطور]، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم، عن سهل بن

---

(١) كذا في تفسير الطبري وكذا تُرجم له كما تقدم، وفي الأصل صحّف إلى: «أرباب».
(٢) أخرجه الطبري من طريق سفيان به، وفيه عبد الرحمن بن أذنان تقدم.
(٣) أخرجه الطبري من طريق أبي نجيح عن مجاهد بنحوه، وسنده صحيح إلى مجاهد لكنه مرسل.
(٤) قد أخرجه الطبري بسنده ضعيف عن ابن جريج به والقراءة متواترة كما تقدم.
(٥) سنده ضعيف لضعف العوفي والرواة عنه.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عن الحسن.
(٧) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.
(٨) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيّ ليس فيها مَعلَم لأحد»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن داود، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»[٢]، رواه مسلم منفرداً به دون البخاري[٣]، والترمذي وابن ماجه من حديث داود بن أبي هند به، وقال الترمذي: حسن صحيح[٤]، ورواه أحمد أيضاً عن عفان، عن وهيب، عن داود، عن الشعبي عنها، ولم يذكر مسروقاً[٥].

وقال قتادة، عن حسان بن بلال المُزني، عن عائشة ﵂ أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قالت: قلت: يا رسول الله، فأين الناس يومئذٍ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي، ذاك أن الناس على جسر جهنم»[٦].

وروى الإمام أحمد من حديث حبيب بن أبي عمرة، عن مجاهد، عن ابن عباس: حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] فأين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم»[٧].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ فأين الناس يومئذٍ؟ قال: «إن هذا شيء ما سألني عنه أحد ـ قال: ـ على الصراط يا عائشة»[٨].

ورواه أحمد عن عفان، عن القاسم بن الفضل، عن الحسن به[٩].

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الحلواني، حدثني أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد ـ يعني أخاه ـ أنه سمع أبا سلام، حدثني أبو أسماء الرحبي، أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت نائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه

---

(١) صحيح البخاري، الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (ح٦٥٢١)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب في البعث والنشور (ح٢٧٩٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٦/ ٣٥) وسنده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم من طريق علي بن مسهر عن داود به (الصحيح، صفات المنافقين، باب في البعث والنشور ح٢٧٩١).

(٤) سنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة إبراهيم (ح٣١٢٠)، وسنن ابن ماجه، الزهد، باب ذكر البعث (ح٤٢٧٩).

(٥) المسند ٦/ ١٣٤.

(٦) أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة به في آخر تفسير الآية المذكورة، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٧) أخرجه الإمام أحمد من طريق عنبسة بن سعيد عن حبيب بن أبي عمره به، وصحح سنده محققوه (المسند ٤٢/ ٣٤٩، ٣٥٠ ح٢٤٨٥٦).

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لعدم سماع الحسن من عائشة ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٩) أخرجه الإمام أحمد عن عفان به (المسند ٦/ ١٠١)، وحكمه كسابقه.

حَبرٌ من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت[١] رسول الله ﷺ بعود معه فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة[٢]؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تُحفتهُم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد الحوت» قال: فما غذائهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «أينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة، أذكرا[٣] بإذن الله تعالى، وإذا علا منيّ المرأة منيّ الرجل، أنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به»[٤].

قال أبو جعفر بن جرير الطبري: حدثنا ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنصاري أن حبراً من اليهود سأل النبي ﷺ فقال: أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه»[٥]. ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به[٦].

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون، وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل، فقلت له عن عبد الله فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال: أراه قال: قياماً حتى يُلجِمهم العرق[٧]. وروي من وجه آخر عن شعبة، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن ابن مسعود بنحوه، وكذا رواه عاصم عن زرّ، عن ابن مسعود به. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون: لم يخبر به[٨]، أورد ذلك كله ابن جرير[٩].

---

(١) أي: ضرب بالعود الأرض. (٢) أي: الجواز والعبور.

(٣) أي: كان الولد ذكراً بإذن الله تعالى.

(٤) صحيح مسلم، الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة... (ح٣١٥).

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف ابن أبي مريم، وهو أبو بكر بن عبد الله.

(٦) سنده ضعيف كسابقه.

(٧) أخرجه الطبري من طريق يحيىٰ بن عباد عن شعبة به، وفيه ترد أبي إسحاق، ولكنه جزم في روايات أخرىٰ أنه رواه عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، وسنده صحيح.

(٨) أخرجه الثوري عن أبي إسحاق به. (٩) أخرجها كلها الطبري مما تؤكد صحة الرواية.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب، حدثنا جرير بن أيوب، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة» ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب، وليس بالقوي(١).

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سنان، عن جابر الجعفي، عن أبي جبيرة، عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإني أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة» فلما جاءوا سألهم، فقالوا: تكون بيضاء مثل النقي(٢)(٣)، وهكذا روي عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر أنها تبدل يوم القيامة بأرض بيضاء من فضة(٤).

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: تصير الأرض فضة والسموات ذهباً(٥).

وقال الربيع، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب، قال: تصير السموات جناناً(٦).

وقال أبو معشر، عن محمد بن كعب القرظي أو عن محمد بن قيس في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم(٧)، وكذا روى وكيع، عن عمر بن بشير الهمداني، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه(٨).

وقال الأعمش: عن خيثمة قال: قال عبد الله بن مسعود: الأرض يوم القيامة كلها نار، والجنة من ورائها ترى كواعبها، وأكوابها، ويلجم الناس العرق أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب(٩). وقال الأعمش أيضاً، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترسخ في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسَّه الحساب، قالوا: ممَّ ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون(١٠).

---

(١) أخرجه البزار بسنده ومتنه وتعليقه (المسند ٢٤٦/٥ ح١٨٥٩)، وسنده ضعيف، قال الهيثمي: وفيه جرير بن أيوب البجلي وهو متروك (مجمع الزوائد ٤٨/٧) ويشهد له ما تقدم.

(٢) أي: الخبز الأبيض.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لضعف جابر الجعفي، ويشهد له ما سبق.

(٤) أخرج هذه الروايات بأسانيد تؤكد على ثبوته وتشهد لسابقه.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مجهول عن علي.

(٦) سنده جيد.

(٧) أخرجه الطبري من طريق وكيع عن أبي معشر به، وسنده ضعيف لضعف أبي معشر.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عمر بن بشير الهمداني عن سعيد بن جبير.

(٩) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وفيه خيثمة وهو ابن عبد الرحمن لم يسمع من ابن مسعود شيئاً، هكذا قال الإمام أحمد (جامع التحصيل ص٢٠٩)، ولكنه توبع بواسطة قيس بن السكن كما في الرواية التالية.

(١٠) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وسنده حسن.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن [أبي العالية، عن أُبي بن][١] كعب في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قال: تصير السمٰوات جناناً، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها[٢].

وفي الحديث الذي رواه أبو داود: «لا يركب البحر إلا غاز» أو حاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً ـ أو تحت النار بحراً ـ»[٣].

وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يبدل الله الأرض غير الأرض والسمٰوات فيبسطها ويمدها مد الأديم[٤] العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدلة»[٥].

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذٍ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير] وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان] وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص] والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد[٦]، وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا [بالنهاب][٧] وبالسبايا وأُبنا بالملوك مصفَّدينا[٨]

---

(١) في الأصول الخطية والنسخ المطبوعة وتفسير الطبري: «عن الربيع بن أنس عن كعب»، وما أُثبت هو الصواب إذ تكرر السند وجزء من المتن قبل عشرة سطور، وكذلك ورد في الدر المنثور إذ قال: وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أُبي بن كعب...

(٢) وسنده جيد.

(٣) أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (السنن، الجهاد، باب في ركوب البحر في الغزو ح٢٤٨٩)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (ح٤٧٨).

(٤) أي: الجلد.

(٥) تقدم تخريجه وضعفه مطولاً في تفسير سورة الأنعام آية ٧٣.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ: في وثاق، وقول الأعمش أخرجه الطبري بسند فيه الحسين، وهو ابن داود: ضعيف ويتقوي بما سبق، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٧) كذا في (مح) وتفسير الطبري وشرح القصائد التسع لابن النحاس ٢/ ٨٢٠، وشرح القصائد السبع ص٤١٢، وفي الأصل و(حم) والطبعات جميعها بلفظ: «بالثياب»، وهو تصحيف.

(٨) استشهد به الطبري.

وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهنأ به الإبل، أي: تطلى قاله قتادة[١]، وهو ألصق شيء بالنار.

ويقال فيه: قَطِران، بفتح القاف وكسر الطاء[٢] وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم:

كأن قطراناً إذا تلاها ترمي به الريح إلى مجراها[٣]

وكان ابن عباس يقول: القطران هنا النحاس المذاب، وربما قرأها (سرابيلهم من قطرٍ آن) أي: من نحاس حار قد انتهى حره[٤]، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة[٥].

وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا يحيى بن إسحاق، أنبأنا أبان بن يزيد، عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يتركن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[٦]. انفرد بإخراجه مسلم[٧].

وفي حديث القاسم عن أبي أُمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «النائحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار سرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار»[٨].

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يوم القيامة كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَّا

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٢) هذه هي القراءة المتواترة وما سواها المذكور بعدها شاذ.

(٣) ديوان أبي النجم ص٨٣، واستشهد به الطبري بعد أن ذكر القراءات السابقة.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وأخرجه الطبري بسند حسن من طريق عكرمة عن ابن عباس. والقراءة شاذة تفسيرية.

(٥) قول عكرمة أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بأسانيد يقول بعضها بعضاً، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق قتادة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٣٤٢) وسنده صحيح.

(٧) أخرجه مسلم من طريق أبان به (الصحيح، الجنائز، باب التشديد في النياحة ح٩٣٤).

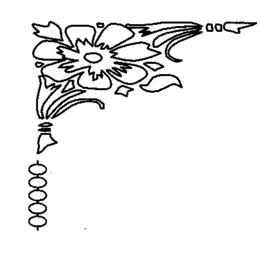
(٨) أخرجه الطبراني من طريق عبيد الله بن زُحر عن علي بن يزيد عن القاسم به (المعجم الكبير ٨/ ٢٣٨ ح٧٨١٨)، وقال الهيثمي: وفيه عبيد الله بن زُحر وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٣/ ١٧).

خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: ليتعظوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوي العقول.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.




سُورَةُ الحِجر

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين.

ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين[١].

وقيل: إن المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً.

وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام]. وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار[٢].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا [ابن أبي جروة العبدي][٣] أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾[٤].

(١) إسناده ضعيف لأن السدي خلط فيه بين الصحيح والسقيم من الطرق.

(٢) أخرجه الطبري من طريق سفيان به، وسنده صحيح.

(٣) كذا في تفسير الطبري وكذا ترجم له البخاري (التاريخ الكبير ٥/٣٧٦)، وابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٥/٣١٤)، وفي الأصول الخطية وجميع النسخ المطبوعة صُحِّف إلى: «ابن أبي فروة».

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفيه ابن أبي جروة سكت عنه البخاري وابن أبي حاتم كما في المصدرين السابقين وذكره ابن حبان في الثقات ٥/٦٧، ويشهد له الروايات اللاحقة، وأخرجه البيهقي من طريق القاسم به (البعث والنشور رقم ٨٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن حماد، عن إبراهيم، وعن خُصيف، عن مجاهد قالا: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك، قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، قال: فعند ذلك قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾[١]، وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم[٢].

وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن العباس هو الأخرم، حدثنا محمد بن منصور الطوسي، حدثنا صالح بن إسحاق الجهبذ - دلني عليه [يحيى][٣] بن معين - حدثنا معروف بن واصل، عن يعقوب بن أبي نباتة، عن عبد الرحمن الأغر، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: لا إلا الله وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة، فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين»، فقال رجل: يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار» نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا، ثم قال الطبراني: (تفرد به الجهبذ)[٤].

(**الحديث الثاني**): قال الطبراني أيضاً: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبو الشعثاء علي بن حسن الواسطي، حدثنا خالد بن نافع الأشعري، عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا. فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾»[٥] [الحجر: ١ - ٢]، ورواه ابن أبي حاتم من حديث خالد بن نافع به، وزاد فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم) عوض الاستعاذة[٦].

(**الحديث الثالث**): قال الطبراني أيضاً: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا إسحاق بن راهويه،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وهو مرسل ويتقوى بسابقه ولاحقه.

(٢) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول أبي العالية أخرجه الطبري بسند جيد من طريق الربيع بن أنس عنه.

(٣) زيادة من (حم) و(مح).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (ح٨٢٩٣) قال الهيثمي: وفيه من أعرفهم (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٠)، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٥) نسبه الهيثمي للطبراني وضعفه لضعف خالد بن نافع (مجمع الزوائد ٧/٤٨)، وأخرجه الحاكم من طريق أبي الشعث به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٢٤٢)، وله شواهد سابقه.

(٦) سنده كسابقه.

قال: قلت لأبي أُسامة: أحدثكم أبو روق، واسمه: عطية بن الحارث، حدثني صالح بن أبي طريق قال: سألت أبا سعيد الخدري فقلت له: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝﴾؟ قال: نعم، سمعته يقول: «يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم» وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين، قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم، فتشفع لهم الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم - قال - فذلك قول الله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝﴾ فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يا رب أذهب عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم»؟ فأقرّ به أبو أُسامة، وقال: نعم[(١)].

(الحديث الرابع): قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس [بن][(٢)] الوليد النرسي، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد، عن محمد بن جبر، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنوبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومَن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد: آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم في النار سواء، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى، فيخرجهم إلى عين في الجنة، وهو قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝﴾»[(٣)].

وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝﴾ [المرسلات]، ولهذا قال: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: عن التوبة والإنابة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝﴾.

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أُمة حان

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (ح٨١٠٦)، وأخرجه ابن حبان من طريق عبد الله بن عمر بن أبان، عن أبي أُسامة به وصححه محققه شعيب الأرناؤوط (١٦/ ٤٥٧، ٤٥٨ ح٧٤٣٢) وفيه صالح بن أبي طريف فيه مقال لكنه يتقوىٰ بالشواهد السابقة ونسبه الهيثمي إلى الطبراني في المعجم الأوسط وقال: ورجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفي وهو ثقة (مجمع البحرين ح٤٨٢٠)، وصحح سنده السيوطي كما في الدر المنثور، وصححه الألباني في ظلال الجنة (ح٨٤٤).

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحفت إلى: «عن».

(٣) وسنده ضعيف قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح وفيه جماعة مجاهيل (العلل المتناهية ٢/ ٤٥٦ ح١٥٦٨)، وبعضه يتقوىٰ بالشواهد السابقة المتعددة.

هلاكها عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: الذي تدعي ذلك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿لَّوْ مَا﴾ أي: هلا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت من الصادقين، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف]، ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان]، وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: بالرسالة والعذاب(١).

ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، والمعنى الأول: أولى وهو ظاهر السايق.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى.

قال أنس والحسن البصري: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الشرك(٢).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن قوّة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) قول أنس نسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وقول الحسن البصري أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حميد الطويل عنه.

فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾.

قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا(١).

وقال قتادة، عن ابن عباس: أخذت أبصارنا(٢).

وقال العوفي، عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا(٣).

وقال الكلبي: عميت أبصارنا(٤).

وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، السكران الذي لا يعقل(٥).

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

يذكّر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، وبهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب.

(قلت): وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان]. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر.

وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور الحرس(٦). وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرّد [وتقدم](٧) منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية.

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال علي، وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول ابن كثير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن جريج عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، ويتقوى بسابقيه.

(٢) أخرجه الطبري من طريق معمر عن قتادة به، وسنده منقطع لأن قتادة لم يسمع ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن الكلبي.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد.

(٦) سنده ضعيف لضعف العوفي والراوي عنه. (٧) زيادة من (حم) و(مح).

بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا؟ فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء[١].

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة.

وقال ابن عباس: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي: معلوم[٢]، وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عتيبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة.

ومنهم من يقول: مقدر بقدر[٣].

وقال ابن زيد: من كل شيء يوزن ويقدر بقدر[٤].

وقال ابن زيد: ما يزنه أهل الأسواق.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة.

وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ قال مجاهد: هي الدواب والأنعام[٥].

وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدوابّ والأنعام[٦]، والقصد أنه تعالى يمتنُّ عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه دون لفظ: «أو الكاهن» (الصحيح، التفسير، سورة الحجر، باب ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر] ح٤٧٠١).

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حصين عنه بلفظ ابن عباس، وقول عكرمة أخرجه سفيان الثوري بسند حسن من طريق خُصيف عنه بلفظ: «بقدر»، وقول أبي مالك وأبي صالح أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح أو عن أبي مالك بلفظ: «بقدر»، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «مقدور بقدر»، وقول الحكم بن عتيبة أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن يونس عنه، وعبد الله بن يونس مجهول الحال (التقريب ص٣٣٠) ويتقوىٰ بما سبق، وقول الحسن بن محمد أخرجه الطبري وفيه عبد الله بن يونس فهو كسابقه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح من طريق معمر عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) ذكره الطبري بلفظه.

من جميع الصنوف ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة.

قال يزيد بن أبي زياد، عن أبي جحيفة، عن عبد الله: ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه بينهم حيث شاء عاماً ههنا وعاماً ههنا، ثم قرأ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾، رواه ابن جرير[(١)].

وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم، عن الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال: ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس، وولد آدم يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت[(٢)].

وقال البزار: حدثنا داود هو ابن بكير [التستري][(٣)]، حدثنا حيان بن أغلب بن تميم، حدثني أبي، عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له: كن، فكان» ثم قال: لا يرويه إلا أغلب وليس بالقوي، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة[(٥)]. وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة[(٦)].

وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء.

وقال عُبيد بن عمير الليثي[(٧)]: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[(٨)].

وقد روى ابن جرير من حديث عبيس بن ميمون، عن أبي المُهزِّم، عن أبي هريرة، عن

---

(١) أخرجه الطبري من طريق يزيد بن أبي زياد به، وسنده ضعيف لضعف يزيد.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده الحسين وهو ابن داود ضعيف، ومتنه لا يؤخذ إلا عن صحابي.

(٣) زيادة من (حم).

(٤) سنده ضعيف لضعف أغلب بن تميم، قال البخاري: منكر الحديث (لسان الميزان ١/ ٤٦٤).

(٥) أخرجه الطبري من طريق الأعمش به، وسنده حسن.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عنه، ويتقوىٰ بما يليه، إذ قول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق الأعمش عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، ويتقوىٰ بما سبق.

(٨) أخرجه الطبري وأبو الشيخ (العظمة ح٧١٩) كلاهما بسند صحيح من طريق حبيب بن أبي ثابت عنه عُبيد بن عمير.

النبي ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي [التي][١] ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس»[٢]، وهذا إسناد ضعيف.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جُعْدُبة الليثي، أنه سمع عبد الرحمن بن مخراق يحدث عن أبي ذرٍّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح بسبع سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأذيب[٣]، وهي فيكم الجنوب»[٤].

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة]، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين[٥]، ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم قال تعالى مخبراً عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة[٦]، وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم[٧]، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

---

(١) الزيادة من (حم) و(مح).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف جداً لأن أبا المُهَزِّم متروك (التقريب ص٦٧٦)، وضعف سنده أيضاً الحافظ ابن كثير.

(٣) الأذيب: أي السريع، ويقال: الأزيب، كما في الفائق للزمخشري.

(٤) أخرجه الحميدي بسنده ومتنه (المسند ١/ ٧٠ ح١٢٩)، أخرجه البزار من طريق سفيان به، قال الحافظ ابن حجر: ويزيد بن جعدبة: كذاب (مختصر زوائد مسند البزار (٢/ ٢٦٢، ٢٦٣ ح١٨٣٦).

(٥) ذكره الثوري في تفسيره، وأخرجه الطبري بسند صحيح عن الثوري.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس بنحوه.

(٧) قول عكرمة أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري من طريق خُصيف عنه ويتقوىٰ بسابقه ولاحقه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف لإبهام شيخ الطبري، وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه أبو معشر، وهو السندي ضعيف.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن رجل، عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[١].

وقد ورد فيه حديث غريب جداً، فقال ابن جرير: حدثني محمد بن موسى الجرشي، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا، يعني لئلا يروها، وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٢]، وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحداني[٣]، وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحكي عن ابن معين تضعيفه، وأخرجه مسلم وأهل السنن، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق، عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك، وهو النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾[٤]. فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس، والله أعلم، وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر، عن أبيه أنه سمع [عون][٥] بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ الميت والمقتول ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من يخلق بعد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً[٦].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس[٧]، والظاهر أنه كقوله تعالى:

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن مروان بن الحكم.

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف، نوح بن قيس: صدوق رمي بالتشيع (التقريب ص٥٦٧) وروايته هذه مردودة لأنها لا تليق بمقام الصحابة رضي الله عنهم وقد تفرد بها.

(٣) المسند ١/ ٣٠٥، وسنن الترمذي، التفسير، باب ومن سورة الحجر (ح٣١٢٢)، والسنن الكبرىٰ، التفسير (ح١١٢٧٣)، وسنن ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب الخشوع في الصلاة (ح١٠٤٦).

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وفي سنده أيضاً جعفر بن سليمان، وهو الضُّبعي وهو صدوق لكنه كان يتشيع (التقريب ص١٤٠) وسنده كسابقه.

(٥) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل صحّف إلى: «عروب».

(٦) أخرجه الطبري من طريق محمد بن أبي معشر، به، وسنده ضعيف لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن، وفيه أيضاً إرسال محمد بن كعب.

(٧) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير بلفظ: «التراب المدقق»، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق مسلم البطين عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن].

وعن مجاهد أيضاً: ﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ المنتن[١]، وتفسير الآية بالآية أولى.

قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: الصلصال من حمأ، وهو الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر[٢]:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشي في مرمر مسنون

أي: أملس صقيل، ولهذا روي، عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب[٣].

وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحاك: أن الحمأ المسنون هو المنتن[٤]. وقيل: المراد بالمسنون ههنا المصبوب.

وقوله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل[٥]، وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السموم بالليل والحرور بالنهار.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمر الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[٦].

وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار[٧]، وفي رواية: من أحسن النار.

وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس[٨].

وقد ورد في الصحيح: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[٩]. ومقصود الآية التنبيه على شرف آدم ﷺ وطيب عنصره وطهارة محتدة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه وتشريفه إياه أمر الملائكة بالسجود له،

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) هو عبد الرحمن بن حسان، وقد قاله في رملة بنت معاوية، كما في الشعر والشعراء ١/ ٤٨٤.

(٣) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «من طين رطب».

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق التميمي، وهو أربدة وهو ضعيف، عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري من طريق ابن داود به، وسنده صحيح وأخرجه الحاكم من طريق أبي إسحاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٤٧٤).

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٨) نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار.

(٩) أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵂ (الصحيح، الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة ح٢٩٩٦).

ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرىٰ، [﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾][1] [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء].

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما خلق الله الملائكة قال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص] قالوا: لا نفعل، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة أخرى فقال لهم مثل ذلك، [فقالوا: لا نفعل، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة أخرى فقال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة فقال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له][2] قالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين[3].

وفي ثبوت هذا عنه بعد، والظاهر أنه إسرائيلي، والله أعلم.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

يقول آمراً لإبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه رجيم، أي مرجوم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رنَّة، فكل رنَّة في الدنيا إلى يوم القيامة منها. رواه ابن أبي حاتم[4]، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مردَّ له، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة، قبّحه الله.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.

(قلت): ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم عليه السلام ﴿فِى

---

(١) زيادة من (مح). (٢) ما بين معقوفين زيادة من الطبري و(مح).
(٣) أخرجه الطبري من طريق أبي عاصم عن شبيب بن بشر به ومن الطريق نفسه أخرجه أبو الشيخ (العظمة ح١٠٣٩)، واستغربه الحافظ ابن كثير، وبيّن أنه إسرائيلي.
(٤) سنده مرسل وفيه غرابة.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها وأؤزهم إليها، وأزعجهم إليها إزعاجاً ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كما أغويتني وقدرت عليّ ذلك ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي، قاله مجاهد والحسن وقتادة(١)، كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقرأ قيس بن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة ﴿هذا صراط عليٌّ مستقيم﴾(٢)، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف] أي: رفيع، والمشهور القراءة الأولى.

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.

وقد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك، عن عبد الله بن موهب، حدثنا يزيد بن قُسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستنبئ ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأله ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني: إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال: فردَّد ذلك ثلاث مرات، فقال عدو الله: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم مرتين؟ فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف]، وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك. قال عدو الله: صدقت بهذا تنجو مني، فقال النبي: أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال: آخذه عند الغضب والهوى(٣).

قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله.

قال إسماعيل بن عُلية وشعبة، كلاهما عن أبي هارون الغنوي، عن حطان بن عبد الله، أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون -

---

(١) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الحسن وقتادة أخرجه الطبري بسند حسن عنهما.

(٢) وهي قراءة متواترة قرأ بها يعقوب.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لإرسال يزيد بن قُسيط.

أطباقاً بعضها فوق بعض[١].

وقال إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن يريم، عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تمتلئ كلها[٢].

وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق[٣].

وقال ابن جريج: سبعة أبواب: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية[٤].

وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه[٥]، وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً[٦].

وقال قتادة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ هي والله منازل بأعمالهم[٧]، رواهن ابن جرير.

وقال جويبر، عن الضحاك ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب، وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً[٨].

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حُميد، حدثنا عثمان بن عمر، عن مالك بن مِغول، عن حميد، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي» أو قال: «على أمة محمد» ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول[٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعني: ابن يحيى -، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ قال: «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته[١٠]، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾»[١١].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن إسماعيل بن علية به (المصنف ١٣/ ١٥٤) وسنده صحيح، وأخرجه الطبري من طريق شعبة به. وسنده صحيح أيضاً.

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق إسرائيل به.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق جهضم عن عكرمة ويشهد له سابقه.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند حسن من طريق حجاج عن ابن جريج (صفة النار ص٨) وسنده حسن إلى ابن جريج، ولكن مثل هذا المتن لا يؤخذ إلا بحديث مرفوع أوله حكم الرفع، وهذا ليس من ذلك القبيل.

(٥) سنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٦) حكم هذا القول كحكم القول في أثر ابن جريج.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة.

(٨) سنده ضعيف جداً لأن جويبر متروك.

(٩) أخرجه الترمذي بسنده ومتنه وتعليقه (السنن، التفسير، باب ومن سورة الحجر ح٣١٢٣).

(١٠) أي: معقد الإزار.

(١١) في سنده سعيد بن بشير وهو ضعيف، وقد تابعه شيبان بن عبد الرحمن في رواية مسلم لكن بدون ذكر الآية (صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها، باب في شدة حر نار جهنم ح٢٨٤٥/ ٣٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: سالمين من الآفات، مسلم عليكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ روى القاسم عن أبي أُمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ هكذا في هذه الرواية[١]، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أُمامة ضعيف.

وقد روى سنيد في تفسيره: حدثنا ابن فضالة، عن لقمان، عن أبي أُمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري[٢]. وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة: حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمن من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار. فيقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذن لهم في دخول الجنة»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام، عن محمد هو: ابن سيرين قال: استأذن الأشتر على علي ﷺ، وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذِن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما حبستني لهذا، قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني وقال: أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٤].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا الحسن، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي ﷺ بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحّب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً، فقال علي ﷺ: قوماً أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟ وذكر أبو معاوية الحديث بطوله[٥].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق بشر البصري عن القاسم بن عبد الرحمن به، وضعفه الحافظ ابن كثير.
(٢) أخرجه الطبري من طريق الحسين بن داود، ولقبه سُنيد به، وسنيد فيه مقال، ويتقوىٰ بالرواية اللاحقة.
(٣) صحيح البخاري، الرقاق، باب القصاص يوم القيامة (ح٦٥٣٥).
(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح.
(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفيه أبو حبيبة ترجم له البخاري وسكت عنه (التاريخ الكبير، الكنىٰ ص٢٤) ويشهد له سابقه.

وروى وكيع، عن أبان بن عبد الله البجلي، عن نعيم بن أبي هند، عن ربعي بن حِراش، عن علي نحوه، وقال فيه: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟[١].

وقال سعيد بن مسروق، عن أبي طلحة، وذكره وفيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي رضي الله عنه فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمن هم يا أعور إذا لم نكن نحن؟ وقال سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً ثم أذن له فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، فقال علي: بفيك التراب إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بنحوه[٢].

وقال سفيان بن عيينة، عن إسرائيل، عن أبي موسى سمع الحسن البصري يقول: قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[٣].

وقال كثير النوّاء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: وليي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربي حربكم، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر؟ فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦] تولهما يا كثير فما أدركك فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين[٤].

وقال الثوري، عن رجل، عن أبي صالح في قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال: هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة، والزبير وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين[٥].

وقوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض[٦]، وفيه حديث مرفوع:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين، عن إبراهيم [القرشي][٧]، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ؛ فتلا هذه الآية ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض[٨].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق والحاكم من طريق وكيع به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٣).
(٢) أخرجهما الطبري بسنديهما ومتنهما، وأحدهما يقوي الآخر.
(٣) أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عيينة به، وسنده منقطع لأن الحسن لم يسمع من علي رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الطبري من طريق إسماعيل الزبيدي عن كثير النوّاء به بدون الجملة الأخيرة ما بعد الآية، وسنده ضعيف لضعف كثير (التقريب ص٤٥٩).
(٥) سنده ضعيف لإبهام شيخ الثوري.
(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٧) كذا في (حم)، وصحف في الأصل إلى: «القومسي».
(٨) أخرجه البخاري بهذا الإسناد وضعفه حيث قال: هذا إسناد مجهول لا يتابع عليه (التاريخ الصغير ١/ ٢٥٠).

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «أن الله أمرني أن أبشّر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»(١).

وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مرَّ رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال: «اذكروا الجنة واذكروا النار»، فنزلت ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾. رواه ابن أبي حاتم، وهو مرسل(٣).

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله، عن ابن أبي رباح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول لك: لم تقنط عبادي؟ ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾»(٤).

وقال سعيد، عن قتادة في قوله: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورَّع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع(٥) نفسه»(٦).

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع

---

(١) صحيح البخاري، العمرة، باب متى يحل المعتمر؟ (ح١٧٩٢) وصحيح مسلم فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها (ح٢٤٣٣).

(٢) صحيح مسلم، الجنة، باب دوام نعيم أهل الجنة (ح٢٨٣٧).

(٣) إضافة إلى الإرسال فإن فيه موسى بن عبيدة ضعيف، ومصعب بن ثابت لين الحديث.

(٤) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن مصعب بن ثابت لين الحديث (التقريب ص٥٣٣).

(٥) أي: قتلها غيْظاً.

(٦) أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وسنده صحيح إلى قتادة لكنه مرسل.

كالزور والسفر، وكيف ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون.

وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قرّبه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف، (وبشروه بغلام عليم) أي: إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود[1]، ثم ﴿قَالَ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ وقرأ بعضهم: (القنطين)[2]، فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنَّت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، أنه شرع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين، ولهذا قالوا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: الباقين المهلكين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكُّون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو إنما يكون ساقة يزجي الضعيف ويحمل المنقطع[3].

---

(١) أي قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١].

(٢) هي قراءة شاذة قرأ بها الأعمش ورويت عن أبي عمرو في غير المتواتر (ينظر: البحر المحيط ٥/٤٥٩).

(٣) أخرجه أبو داود من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه (السنن، الجهاد، باب لزوم الساقة ح٢٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٢٢٩٨).

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حلّ بهم من العذاب والنكال ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾، وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سياق سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر. ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

قال عمرو بن مالك [النُّكري][١]، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقاؤك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. رواه ابن جرير[٢].

وقال قتادة: ﴿لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون[٣].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لعيشك ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يتمادون[٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس

---

(١) كذا ترجمته في التقريب (ص٤٢٦) وأصوله، وفي النسخ الخطية صُحِّف إلى: «البكري».
(٢) أخرجه الطبري من طريق الحسن بن أبي جعفر عن عمرو بن مالك به، وسنده حسن.
(٣) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم، وقد تقدم الكلام على السجيل في [سورة][١] هود بما فيه كفاية[٢].

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين[٣].

وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين[٤].

وقال قتادة: للمعتبرين[٥].

وقال مالك، عن بعض أهل المدينة: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتأملين.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العبدي، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ رواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس الملائي، عن عطية، عن أبي سعيد، وقال الترمذي: لا نعرفه إلّا من هذا الوجه[٦].

وقال ابن جرير أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات بن السائب، حدثنا ميمون بن مهران، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإن المؤمن ينظر بنور الله»[٧].

وقال ابن جرير: حدثني أبو شرحبيل الحمصي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحبي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي، حدثنا وهب بن منبه، عن طاوس بن كيسان، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله وبتوفيق الله»[٨].

وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»[٩]، [ورواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن

---

(١) زيادة من (حم) و(مح). (٢) في تفسير الآية رقم ٨٢.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عنه، ويتقوىٰ بسابقه.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٦) أخرجه الطبري والترمذي من طريق عمرو بن قيس به (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجر ح٣١٢٥) وفي سنده عطية وهو العوفي: ضعيف، وضعف سنده الألباني في السلسلة الضعيفة (ح١٨٢١) وله شواهد في الروايات الأربع التالية ويتقوىٰ بها.

(٧) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف لأن الفرات بن السائب منكر الحديث (التاريخ الكبير ٧/ ١٣٠).

(٨) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده ضعيف (السلسلة الضعيفة ح١٨٢١).

(٩) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وحسنه السخاوي (المقاصد الحسنة ص٢٠ ح٢٣) وحسنه أيضاً الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٦٩٣). وانظر تحسين الحديث التالي.

بحر، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا أبو بشر يقال له: ابن المزلق، قال: وكان ثقة، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم][(١)»(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات].

وقال مجاهد والضحاك: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ قال: معلم(٣).

وقال قتادة: بطريق واضح(٤).

وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسوله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب.

قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف(٥).

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر(٦)، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) ما بين معقوفين زيادة من (حم) و(مح).

(٢) أخرجه البزار بسنده ومتنه، وحسنه الحافظ ابن حجر (مختصر زوائد مسند البزار ٢/٥٠٦ ح٢٣٠٢) وحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/٢٦٨).

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٥) قول قتادة أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عمرو بن عبد الله عنه ومعناه صحيح، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، بنحوه.

(٦) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي ويتقوى برواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «على الطريق»، أخرجه الطبري أيضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «بطريق مَعْلَم»، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري بنحوه.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى أنهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكو فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[1].

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: بالعدل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف].

وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال[2]، وهو كما قالا، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض،

---

(١) أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه تقدم تخريجه في تفسير سورة الأعراف آية ٧٣.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جابر وهو الجعفي: وهو ضعيف، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، لكنه مرسل.

كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنّ إلى الدنيا، وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء] أي ألِن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطوال[(١)]؛ يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، ويونس، نصَّ عليه ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقال سعيد: بيَّن فيهنَّ الفرائض والحدود والقصص والأحكام[(٢)].

وقال ابن عباس: بيَّن الأمثال والخبر والعِبر[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر قال: قال سفيان: المثاني: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة سورة واحدة[(٤)].

قال ابن عباس: ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطي موسى منهن ثنتين، رواه هشيم، عن الحجاج، عن الوليد بن العيذار، عن سعيد بن جبير عنه[(٥)].

وقال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أوتي النبي ﷺ سبعاً من المثاني الطوال، وأوتي موسى عليه السلام ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع[(٦)].

---

(١) قول ابن مسعود أخرجه الطبري من طريق محمد بن سيرين عنه، وابن سيرين لم يسمع ابن مسعود، وقول ابن عمر أخرجه الطبري من طريق رجل مجهول عنه، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول سعيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر جعفر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٢) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٤) سنده صحيح إلى سفيان.

(٥) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وفي سنده الحجاج وهو ابن أرطأة: وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس (التقريب ١٥٢) ولكن يتقوىٰ بالرواية الصحيحة التالية.

(٦) أخرجه أبو داود (السنن، الصلاة، باب من قال: هي من الطول ح١٤٥٩) والحاكم كلاهما عن الأعمش به وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٣٥٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١٢٩٥).

وقال مجاهد: هي السبع الطوال، ويقال: هي القرآن العظيم[(١)].

وقال خُصيف، عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: أعطيتك سبعة أجزاء آمُرْ، وأنَهَ، وأبشر، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدِّد النعم، [وآتيتك][(٢)] بنبأ القرآن. رواه ابن جرير[(٣)]، وابن أبي حاتم.

(والقول الثاني): أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصَّكم الله بها[(٤)]، وبه قال إبراهيم النخعي، وعبد الله بن عبيد بن عُمير، وابن أبي مليكة، وشهر بن حوشب، والحسن البصري، ومجاهد[(٥)].

وقال قتادة: ذكر لنا أنهنَّ فاتحة الكتاب وأنهنَّ يُثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع[(٦)]. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، ولله الحمد، وقد أورد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ههنا حديثين:

(**أحدهما**): قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلَّى قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ألا أعلمك سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الفاتحة] هي السبع المثاني والقرآن الذي أوتيته»[(٧)].

(**والثاني**): قال: حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا المقبري، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[(٨)].

فهذه نصٌّ في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك، لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن مجاهد.

(٢) كذا في (مح) ونسخ الطبري المطبوعة والمحققة، وفي الأصل (وحم) والنسخ المطبوعة من تفسير ابن كثير بلفظ: «وانبئك».

(٣) أخرجه الطبري والبيهقي (شعب الإيمان ح٢٤٢١) كلاهما من طريق عتاب بن بشير عن خُصيف به، وعتاب وخصيف كلاهما كثير الخطأ.

(٤) قول علي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عبد بن خير عنه، وقول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه عبد العزيز بن جريج لين (التقريب ص٣٥٦)، وقول ابن مسعود أخرجه الطبري بسند ضعيف.

(٥) هذه الآثار أخرجها الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وهذا القول هو الراجح كما سيأتي دليله من الأحاديث الصحيحة.

(٦) أخرجه الطبري وابن الضريس (فضائل القرآن ١٥١) كلاهما من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وهو سند صحيح لكنه مرسل ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٧) صحيح البخاري، التفسير، باب ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر] (ح٤٧٠٣).

(٨) المصدر السابق (ح٤٧٠٤).

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن هٰهنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح[١]: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢] إلى أنه يستغني به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن وكيع بن الجراح، حدثنا موسى بن عبيدة، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: «يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب» قال: لا، إلا برهنٍ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه» فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . .﴾ إلى آخر الآية [طه: ١٣١]، كأنه يعزيه عن الدنيا[٣].

قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه[٤].

وقال مجاهد: ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هم الأغنياء[٥].

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ البيِّن النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: المتحالفين؛ أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ الآية [النمل: ٤٩] أي: نقتلهم ليلاً.

قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا[٦]. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾

---

(١) أخرجه الطبري معلقاً عن ابن عُيينة.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [الملك: ١٣] ح٧٥٢٧).

(٣) سنده ضعيف لضعف موسىٰ بن عبيدة، وكذلك رواه ابن أبي حاتم معلقاً عن وكيع.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن العوفي به.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

[النحل: ٣٨] ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله[١].

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»[٢].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: جزءوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أنبأنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[٣].

حدثنا عبيد الله بن موسى، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس قال: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض اليهود والنصارى[٤].

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك[٥].

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قال: السحر[٦].

وقال عكرمة: العضه: السحر، بلسان قريش تقول للساحرة: إنها العاضهة[٧].

وقال مجاهد: عضوه أعضاء[٨]، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن، واستشهد عبد الرحمن بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النمل].

(٢) صحيح البخاري، الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (ح٧٢٨٣)، وصحيح مسلم، الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته (ح٢٢٨٣).

(٣) صحيح البخاري، التفسير، باب قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر] (ح٤٧٠٥).

(٤) صحيح البخاري، التفسير، باب قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر] (ح٤٧٠٦).

(٥) أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة عن مجاهد والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير.

(٦) سنده حسن وأخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن عكرمة.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة عن عكرمة.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «سحراً أعضاءً».

وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقالوا: مجنون، وقال: كاهن، فذلك العضين[١]، وكذا روي عن الضحاك وغيره[٢].

وقال محمد بن إسحاق: عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ أصنافاً ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله[٣].

وقال عطية العوفي، عن ابن عمر في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ قال: عن لا إله إلا الله[٤].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري، عن ليث هو: ابن أبي سُليم، عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ قال: عن لا إله إلا الله[٥].

وقد روى الترمذي وأبو يعلى الموصلي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي، عن ليث بن أبي سُليم، عن بشير بن نُهيك، عن أنس، عن النبي ﷺ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ قال: عن لا إله إلا الله[٦]. ورواه ابن إدريس عن ليث، عن بشير، عن أنس موقوفاً[٧].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق طلحة عن عطاء، ويشهد له ما سبق.
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق فيه إبهام شيخ الطبري، ويشهد له ما سبق.
(٣) أخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق به (دلائل النبوة ٢/ ١٩٩)، وسنده حسن سبق بحثه في مقدمة التفسير الصحيح، وأخرجه الحاكم من طريق أيوب السختياني عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه، وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٥٠٦).
(٤) أخرجه الطبري من طريق عطية العوفي به، وعطية فيه مقال وله شواهد لاحقة تقويه.
(٥) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وفيه ليث بن أبي سليم فيه مقال، ولكنه توبع في تفسير الثوري فرواه عن أبيه عن مجاهد.
(٦) أخرجه الترمذي (السنن، التفسير، باب ومن سورة الحجر ح٣١٢٦)، والطبري وأبو يعلى (المسند ح٤٠٥٨) كلهم من طريق ليث به وسنده ضعيف لسوء حفظ الليث تفرد برفعه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث ليث بن أبي سُليم.
(٧) ذكره الترمذي كما في المصدر السابق، وفيه أيضاً ليث.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك، عن هلال، عن عبد الله بن عكيم، قال: وقال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟[1].

وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلّتين يوم القيامة: عم كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين[2].

وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا يونس الحذاء، عن أبي حمزة البيساني[3]، عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه، فلا ألفينَّك يوم القيامة واحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك»[4].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾.

ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا[5]؟

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أمضه[6]، وفي رواية: افعل ما تؤمر[7].

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة[8].

---

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وأخرجه الطبراني من طريق شريك به (المعجم الكبير ح٨٨٩٩)، وفي سنده شريك فيه مقال.

(٢) أخرجه الطبري من طريق أبي جعفر به، وسنده جيد.

(٣) كذا في الأصل وفي (حم): «الشيباني».

(٤) أخرجه أبو نعيم من طريق أحمد بن أبي الحواري (الحلية ١٠/٣١) سنده ضعيف لأن أبا حمزة لم يسمع من معاذ ذكر هذا الحافظ ابن كثير كما سيأتي في تفسير سورة الفجر آية ١٤.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس ويتقوىٰ بسابقه.

(٨) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقال أبو عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، فخرج هو وأصحابه[(١)].

وقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾ أي بلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم] ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، كقولك تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن محمد بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كَهمس، عن يزيد بن درهم، عن أنسٍ قال: سمعت أنساً يقول في هذه الآية، ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ قال: مرَّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل، أحسبه قال: فغمزهم، فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا[(٢)].

قال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان[(٣)] وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي الأسود بن المطلب أبي زمعة، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: «اللَّهم أعمِ بصره، وأثكله ولده» ومن بني زهرة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومن بني سهم ابن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد بن - عمرو بن ملكان -. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[(٤)].

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنة، فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، ومرَّ به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرحٍ بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين، وهو يجز إزاره، وذلك أنه مرَّ برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتفض به فقتله، ومرَّ به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص قدمه[(٥)] فخرج على حمار له يريد

---

(١) أخرجه الطبري من طريق موسىٰ بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة به بدون ذكر ابن مسعود، وسنده ضعيف لضعف موسىٰ بن عبيدة وهو الربذي.

(٢) أخرجه البزار بسنده ومتنه ثم قال: تفرد به يزيد بن درهم عن أنس، ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن معين تضعيفه (مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٨٩ ح١٤٧٥).

(٣) أي: الأكابر.

(٤) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به وحسنه السيوطي في الدر المنثور.

(٥) أي: باطن قدمه.

الطائف، فربض على شبرقة[١]، فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومرّ به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله[٢].

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم[٣]، وهكذا روي عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحاق به، عن يزيد، عن عروة بطوله، إلا أن سعيداً يقول: الحارث بن غيطلة، وعكرمة يقول: الحارث بن قيس[٤].

قال الزهري: وصدقا هو: الحارث بن قيس، وأُمه غيطلة[٥]، وكذا روي عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا خمسة[٦].

وقال الشعبي: كانوا سبعة[٧].

والمشهور الأول. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنك ذلك ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكّل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن نعيم بن [همّار][٨] أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره»[٩]، ورواه أبو داود [والنسائي][١٠] من حديث مكحول عن كثير بن مرة بنحوه[١١]، ولهذا كان

---

(١) بين الطبري الشبرق فقال: الشبرقة: المعروف بالحسك. والحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل (الوسيط (باب ح س ك)).

(٢) إسناده ضعيف لتردد في الراوي هل هو عروة أم غيره؟

(٣) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لإبهام الراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ويشهد له ما يليه.

(٤) قول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر، وهو جعفر بن إياس عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عمرو بن دينار عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق أبي بكر الهزلي عن الزهري به، وأبو بكر الهذلي فيه مقال لكن المعنىٰ صحيح.

(٦) قول مقسم أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق قتادة وعثمان عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حصين عن الشعبي.

(٨) كذا في (حم) والمسند، وفي الأصل و(مح) صحّف إلى: «عمار».

(٩) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ٣٧/ ١٣٧ ح٢٢٤٦٩).

(١٠) الزيادة من (حم) و(مح).

(١١) سنن أبي داود، الصلاة، باب صلاة الضحىٰ (ح١٢٨٩)، والسنن الكبرى، الصلاة، باب الحث على الصلاة أول النهار ١/ ٤٦٧.

رسول الله ﷺ إذا حزَبه أمر صلى[(١)].

وقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت[(٢)]، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ قال: الموت[(٣)]، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره[(٤)]، والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدثر].

وفي الصحيح من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أُم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أُم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبي وأُمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»[(٥)].

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[(٦)].

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه.

ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

آخر تفسير سورة الحجر، والحمد لله رب العالمين، [وحسبنا الله ونعم الوكيل][(٧)].

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (السنن، الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل ح١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح١١٧١).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً، ووصله الفريابي في تفسيره وعبد بن حميد والطبري كلهم من طريق الثوري عن طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله (ينظر: تغليق التعليق ٤/ ٢٣٤)، وسنده حسن.

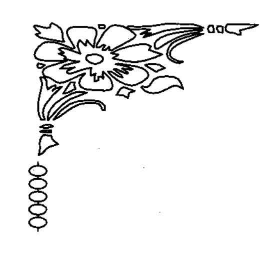
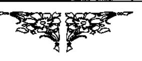
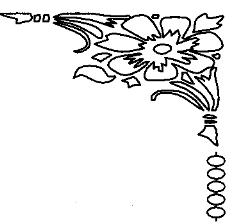
(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مبارك بن فضالة عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٥) صحيح البخاري، الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت... (ح١٢٤٣).

(٦) صحيح البخاري، تقصير الصلاة، باب إذا لم يُطق قاعداً صلى على جنب (ح١١١٧).

(٧) زيادة من (مح).

سُورَةُ النَّحْلِ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾.

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر] وقوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ أي: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه، يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أنه يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ [العنكبوت].

وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده[(١)].

وقد ردَّه ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكذيباً.

قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾ [الشورى].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة، عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن حجيرة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم، فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم، فيقولون: نعم، ثم ينادي الثالثة، يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه»[(٢)] قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جويبر عن الضحاك.

(٢) ذكره بنحوه.

ـ قال ـ: ويشتغل [الناس][(١)(٢)].

ثم إنه تعالى نزَّهَ نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥] وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال في هذه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾.

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السمٰوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ثم نزّه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبّه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بُسر بن جَحَّاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: «يقول الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم

---

(١) زيادة من (حم) و(مح).

(٢) سنده ضعيف لأنه معلق، وقد أخرجه الحاكم موصولاً من طريق يحيىٰ بن آدم به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٥٣٩)، وكذا أخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١٧/ ٣٢٥) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله مولىٰ المغيرة وهو ثقة (مجمع الزوائد ١/ ٣٣٤).

قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة»(١).

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾.

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمدّه خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١﴾ [غافر]، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ [يس]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: ثياب(٢)، ﴿وَمَنَافِعُ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾: نسل كل دابة(٣).

وقال مجاهد: لكم فيها دفء؛ أي: لباس ينسج، ومنافع: مركب ولحم ولبن(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (المسند ٢٩/٣٨٧ ح١٧٨٤٤) وحسن سنده محققوه، وأخرجه ابن ماجه (السنن، الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ح٢٧٠٧) وصحح سنده البوصيري، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (ح٢١٨٨).

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبُلغة[١]، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام، وأفردها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، أنبأنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة، أنّ ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب، وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس[٢] بمثله، وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضاً رضي الله عنه[٣]، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد، عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب، عن أبيه، عن جده، عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير[٤]. وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث صالح بن يحيى بن المقدام وفيه كلام[٥].

ورواه أحمد أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدلّ منه فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليم، عن صالح بن يحيى بن المقدام، عن جده المقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة، فقرم أصحابنا إلى اللحم فسألوني رمكة[٦] فدفعتها إليهم، فحبلوها[٧] وقلت: مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله فأتيته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم، ثم قال: «أيها الناس: إنكم قد أسرعتم في حظائر[٨] يهود،

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسنديه ومتنه، والسند الأول فيه مولى نافع بن علقمة لم يصرح باسمه ولكنه توبع في السند الثاني بواسطة سعيد بن جبير فيتقوى سنده، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق ابن علية به (المصنف ٨/ ٧١).

(٣) أخرجه الطبري وفي سنده ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٨٩) وسنده ضعيف لأن مداره على صالح بن يحيىٰ بن المقدام وهو لين (التقريب ص٢٧٤).

(٥) سنن أبي داود، الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل (ح٣٧٩٠)، وسنن النسائي، الصيد، باب في أكل لحوم الخيل ٧/ ٢٠٢، وسنن ابن ماجه، الذبائح، باب لحوم البغال (ح٣١٩٨) وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه.

(٦) و(٧) و(٨) هذا الغريب وضحه الحافظ ابن كثير بعد الحديث.

ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها وحرام عليكم لحوم الأُتن الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[(١)].

والرمكة: هي الحجرة، وقوله: حبلوها؛ أي: أوثقوها في الحبل ليذبحوها، والحظائر والبساتين القريبة من العمران، وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم، فلو صحَّ هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل[(٢)].

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل[(٣)].

وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة[(٤)].

فهذه أدلُّ وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلّلها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليه السلام[(٥)].

وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله أعلم. فقد دلَّ النص على جواز ركوب هذه الدوابّ ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن إنزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

قال الإمام أحمد: حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة عن الشعبي، عن دحية الكلبي قال: قلت يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس فتنتج لك بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون»[(٦)].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبّه على الطرق المعنوية الدينية،

---

(١) المسند ١٩/٤ وفي سنده أيضاً صالح بن يحيىٰ بن المقدام.

(٢) صحيح البخاري، المغازي، باب غزوة خيبر (ح٤٢١٩)، وصحيح مسلم، الصيد، باب في أكل لحوم الخيل (ح١٩٤١).

(٣) المسند ٣٥٦/٣، وسنن أبي داود، الأطعمة، باب أكل لحوم الخيل (ح٣٧٨٩) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح٣٢١٩).

(٤) صحيح مسلم، الصيد، باب في أكل لحوم الإبل (ح١٩٤٢).

(٥) سنده صحيح.

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، الشعبي لم يسمع من دحية الكلبي.اهـ. ثم ذكروا له شاهداً صحيح السند (المسند ٣١/ ٩٠ ح١٨٧٩٣).

وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسيّة إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر].

قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله[(١)].

وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الإسلام[(٢)].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان؛ أي: يبين الهدى والضلالة. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه[(٣)]، وكذا قال قتادة والضحاك[(٤)].

وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: حائد مائل زائغ عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية[(٥)].

وقرأ ابن مسعود (ومنكم جائر)[(٦)].

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بُلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) لم أجد من أخرجه، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق العوفي وابن أبي طلحة كلاهما عن ابن عباس، والطريق الأول ضعيف يتقوىٰ بالثاني.

(٤) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري من طريقين يقوي أحدهما الآخر.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بلفظ: «الأهواء المختلفة».

(٦) أخرجه عبد الرزاق من طريق معمر عن قتادة عن ابن مسعود، وقتادة لم يسمع من ابن مسعود، والقراءة شاذة تفسيرية.

أي: جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون(١).

ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس(٢).

وقوله: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السمٰوات نوراً وضياء ليُهتدىٰ بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف] ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

وقوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ لما نبه تعالى على معالم السمٰوات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند ضعيف يتقوى بسابقه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسندين يقوي أحدهما الآخر، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه من طريق الربيع بن حبيب عن نوفل بن عبد الملك عن أبيه عن علي (السنن، التجارات، باب السوم ح٢٢٠٦)، قال البوصيري في الزوائد: في إسناده نوفل بن عبد الملك، والربيع بن حبيب، وضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه، وأخرجه الحاكم من طريق الربيع به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢٣٤)، والراجح ضعفه لأن نوفل بن عبد الملك مستور (التقريب ص٥٦٧)، والربيع ضُعِّف في روايته عن نوفل (التقريب ص٢٠٦).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره؛ أي: تشقه[(١)].

وقيل: تمخر الرياح[(٢)]، وكلاهما صحيح، بجؤجئها ـ وهو صدرها المُسنَّم ـ الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو، عن سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كلَّم الله البحر الغربي وكلَّم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حامل فيك عباداً من عبادي فكيف أنت صانع فيهم؟ قال: أغرقهم، فقال: بأسك في نواحيك، وأحملهم على يدي، وحرمت الحلية والصيد، وكلَّم هذا البحر الشرقي فقال: إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي وأكون لهم كالوالدة لولدها، فأثابه الحلية والصيد.

ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهل عن النعمان بن أبي عياش، عن عبد الله بن عمر موقوفاً[(٣)].

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد؛ أي: تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات].

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدرِ الملائكة مِمَّ خلقت الجبال[(٤)].

---

(١) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(٣) أخرجه البزار (ينظر: كشف الأستار ح١٦٦٩) وسنده ضعيف جداً وضعفه البزار والهيثمي حيث قال: وفيه عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر العمري وهو متروك (مجمع الزوائد ٥/ ٢٨٥).

(٤) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده صحيح لكنه مرسل، ويشهد له الأثر بعد التالي.

وقال سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن قيس بن عباد، أن الله لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها[١].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثني حجاج بن منهال، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما خلق الله الأرض قَمصت[٢] وقالت: أي ربِّ تجعل عليَّ بني آدم يعملون الخطايا ويجعلون عليَّ الخبث؟ قال: فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحم يترجرج[٣].

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ أي: جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلاً أي: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق.

وقوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس[٤].

وعن مالك في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ يقول: النجوم وهي الجبال[٥].

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير.

وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة[٦].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سعيد به، وسنده صحيح لكنه مرسل لأن قيس بن عباد تابعي، ويتقوىٰ بالرواية التالية.

(٢) أي: اصطربت.

(٣) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن، وله حكم الرفع.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، ومعناه صحيح.

(٥) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن الكلبي، ولم أجد من أخرجه عن مالك.

(٦) ذكره الطبري بنحوه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾﴾ [صٓ] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر] وقوله: ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ولهذا قال ههنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ﴾ معرضين عن الجواب ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين؛ أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان] أي: يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان] وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي[1] لما ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر] أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله قال تعالى:

---

(١) سيأتي ذكره في تفسير سورة المدثر آية ١٨ ـ ٢٤.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت] ولهذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أنها كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٢].

وقال مجاهد: يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يُخفِّف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً[٣].

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح[٤].

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد نحوه[٥].

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[٦].

وقال آخرون: بل هو بختنصر[٧]، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا كما قال في سورة إبراهيم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [٤٦].

وقال آخرون: هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح] أي: احتالوا في إضلال الناس بكل

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، العلم، باب من سنَّ سُنَّة حسنة أو سيئة... ح٢٦٧٤).
(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بنحوه.
(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بما يليه.
(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح.
(٦) أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق به، وسنده صحيح إلى زيد بن أسلم لكنه مرسل.
(٧) ذكره الطبري بدون سند.

حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الآية [سبأ: ٣٣].

وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال الله ههنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق] أي: تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان»[1] وهكذا يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الربُّ تبارك وتعالى مقرعاً لهم وموبخاً ﴿أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحقَّت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذٍ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوٓءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوٓاْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

---

(١) صحيح البخاري، الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر (ح٣١٨٨)، وصحيح مسلم، الجهاد، باب تحريم الغدر (ح١٧٣٧).

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: ﴿خَيْرًا﴾ أي: أنزل خيراً؛ أي: رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به. ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل] أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير؛ أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى] وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى] ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن؛ أي: مقام يدخلونها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وفي الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً، فيكون ذلك»[1].

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم].

(١) سيأتي تخريجه وضعفه في تفسير سورة النبأ آية ٣٣.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة[1].

﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه، قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أُمة؛ أي: في كل قرن وطائفة رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك]. ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ أي: من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أي استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم ﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لا بدّ منه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر] وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقال: في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ أي: أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما ... يقول له كن كائناً فيكون

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، أخبرني عطاء، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ قال: وقلت: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأما شتمه إياي فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وقلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]. هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة[٢] الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رُقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عمِّ الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسود في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة[٣].

وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد[٤]. ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم

---

(١) سنده ضعيف لأن ابن أبي حاتم رواه معلقاً، ويتقوىٰ بما أخرجه البخاري من طريق آخر عن الأعرج عن أبي هريرة بمعناه دون ذكر الآيات المستشهد بها، (الصحيح، بدء الخلق ح٣١٩٣).

(٢) ذكر هذا السبب قتادة فيما أخرجه الطبري من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، لكن سنده مرسل.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، وقول الشعبي أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ولهذا قال هشيم عن العوام، عمّن حدثه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني: أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] ليسوا من أهل السماء كما قلتم[2]، وكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب[3]، وقاله مجاهد والأعمش[4].

وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر][5] صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر[6]، ومراده أن هذه الأُمة أهل الذكر، صحيح فإنه هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة، وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلي وابن عباس وابني علي الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو

---

(١) أخرجه الطبري من طريق هشيم به، وسنده ضعيف لإبهام شيخ العوام.

(٢) أخرجه الطبري من طريق الضحاك به، وسنده ضعيف لأن الضحاك لم يلق ابن عباس.

(٣) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مجاهد به.

(٤) قول مجاهد أخرجه الطبري بأسانيد يقوي بعضها بعضاً، وقول الأعمش أخرجه الطبري بسند فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال، ويتقوىٰ بسابقه.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب، وهو عبد الله، عن عبد الرحمن بن زيد.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق جابر عن أبي جعفر الباقر، وجابر هو الجعفي وهو ضعيف ويتشيع.

محمد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين.

والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء] وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة.

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب كما قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم[1]. والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القمر] وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾.

يخبر تعالى عن [حلمه][2] وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ [الملك].

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية.

---

(١) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية العوفي عنه، ومعناه صحيح ويشهد له ما يليه، وهو قول مجاهد الذي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري ويتقوى بسابقه.

(٢) كذا في (حم) و(مح)، وفي الأصل: «حكمه».

قال قتادة[١] والسدي: تقلبهم أي: أسفارهم.

وقال مجاهد والضحاك وقتادة: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في الليل والنهار كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك[٢]، وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم[٣].

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: [«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[٤]][٥] وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود][٦] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال؛ أي: بكرةً وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله ﷻ[٧]، وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم[٨]. وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بنحوه، ويشهد له ما يليه.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري ويتقوى بسابقه.

(٤) صحيح البخاري، الأدب، باب الصبر في الأذى (ح٦٠٩٩)، وصحيح مسلم، صفات المنافقين، باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ (ح٢٨٠٤).

(٥) زيادة من (حم) و(مح) و(ح).

(٦) تقدم تخريجه في تفسير سورة هود آية ١٠٢.

(٧) أخرجه الطبري بسند جيد من طريق منصور عن مجاهد.

(٨) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق معمر عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ثابت عنه.

وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وذكر الجبال[(١)]، قال: سجودها فيؤها.

وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته[(٢)]، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تسجد لله؛ أي: غير مستكبرين عن عبادته ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: يسجدون خائفين وجلين من الربِّ جلَّ جلاله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره، وترك زواجره.

﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي: دائماً[(٣)].

وعن ابن عباس أيضاً: أي واجباً[(٤)].

وقال مجاهد: أي خالصاً له[(٥)]، أي له العبادة وحده ممن في السمٰوات والأرض، كقوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ [آل عمران] هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب؛ أي: ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً وأخلصوا لي الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد بنحوه، وابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٢) ذكره السيوطي ونسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٣) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه سفيان بن وكيع فيه مقال ويتقوىٰ بالآثار التالية: فقول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول عكرمة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي حصين عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٤) أخرجه الطبري من طريق يعلى بن النعمان عن عكرمة عن ابن عباس ويعلىٰ ترجم له البخاري في التاريخ الكبير وسكت عنه وكذلك ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل.

(٥) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بلفظ: «الأخلاص».

[الإسراء: ٦٧] وقال ههنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قيل: اللام ههنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا؛ أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم وأنه المُسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝٥٦ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾.

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنَّهم عليه، وليجازينَّهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أخسَّ القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم].

وقوله ههنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: كئيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يكره أن يراه الناس من ﴿سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا﴾ إي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي: يئدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾ [الزخرف] وقال ههنا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الربَّ جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى أي: لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

قال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجُعَل[1] أن يعذب بذنب بني آدم، وقرأ الآية ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ وكذا روى الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله: كاد الجُعَل أن يهلك في جحره بخطيئة بني آدم[2].

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخزاعي، حدثنا محمد بن جابر الحنفي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه[3]، قال: فالتفت إليه، فقال: بلى والله حتى إن الحباري[4] لتموت في وكرها بظلم الظالم[5].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليد بن عبد الملك، حدثنا عبيد الله بن [مسرِّح][6]، حدثنا سليمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مشجعة بن ربعي، عن أبي الدرداء ﷺ قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد، فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر»[7].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم،

---

(١) هو حيوان مثل الخنفساء.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (المصنف ١٣/ ٣٠٠) والطبري كلاهما من طريق سفيان الثوري به، وسنده صحيح إلى أبي الأحوص لكنه مرسل.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا (العقوبات ص٢٧٣) والطبري كلاهما من طريق الأعمش به، وسنده ضعيف لأن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود.
(٤) هو طائر شبيه بالوزّة.
(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده محمد بن جابر الحنفي صدوق ذهبت كتبه فساء حفظه وخلط كثيراً وعمي فصار يُلقن (التقريب ص٤٧١).
(٦) كذا في (حم) و(مح) وفي الأصل صُحف إلى: «شرح».
(٧) سنده ضعيف لضعف سليمان بن عطاء (الضعفاء الكبير ٢/ ١٣٤، ومجمع الزوائد ٧/ ١٩٨).

كقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود] وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فصلت]. وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم] وقال: إخباراً عن أحد الرجلين أنه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف] فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق إنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السيئات وتجزون الحسنات؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب[١].

وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾ أي: الغلمان[٢].

وقال ابن جرير: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ﴾ أي: يوم القيامة كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد، ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بدّ منه ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون[٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وعن قتادة أيضاً: مفرطون أي: معجلون إلى النار من الفرط[٤]، وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي: يخلدون.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥﴾.

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنَّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/١٩٦.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق أبي بشر جعفر بن إياس عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الحسين عنه.

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، بدون من الفرط.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبيِّن للناس الذي يختلفون فيه؟ فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: لمن تمسك به ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أفردها ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ [المدثر] وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل] أي: المال.

وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته، ما بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لا يغصُّ به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتنَّ به عليهم فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دلَّ على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودلَّ على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السُّنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك.

كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما[1]، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله[2]، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخلٌّ ونبيذ، حلال يشرب قبل

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً (تغليق التعليق ٤/ ٢٣٧)، ووصله الثوري عن الأسود بن قيس عن عمرو بن سفيان عن ابن عباس، وسنده جيد، وأخرجه عبد بن حميد في تفسيره من طريق سفيان الثوري به (ينظر: تغليق التعليق ٤/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه عبد بن حميد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس (المصدر السابق) وسنده حسن.

أن يشتد كما وردت السُّنة بذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصِّها بحيث لا يكون في بيتها خلل.

ثم أذِن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها؛ أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دُبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة[(١)] وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ أي: مطيعة، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس][(٢)] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم؟ والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق؛ أي: فاسلكيها مذللة لك، نصّ عليه مجاهد[(٣)].

وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح[(٤)].

وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا سُكينٍ بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عمرُ الذباب أربعون يوماً، والذباب كلُّه في النار إلا النحل»[(٥)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) ذكره الطبري بنحوه.

(٥) أخرجه أبو يعلىٰ بسنده ومتنه (المسند ٧/ ٢٣١ ح٤٢٣١)، والحديث ضعيف سنداً ومتناً، فسنده فيه عبد العزيز بن قيس العبدي قال أبو حاتم: مجهول (ينظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٣٥٢) وشقه الأول ضعيف لأن الذباب يعيش أكثر من أربعين يوماً. وجعله ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٢٦٦، وحسنه البوصيري كما في حاشية المطالب العالية ٢/ ٢٩٦، والحق الوسط وهو أن الحديث ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل شفاء للناس؛ أي: من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس؛ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوىٰ بضده.

وقال مجاهد بن جبر في قوله: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن[1]، وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه فبرئ[2].

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحلَّلت، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل، هذا لفظ البخاري[3].

وفي صحيح البخاري من حديث سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي»[4].

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ليث عن مجاهد، وليث هو ابن أبي سُليم فيه مقال.

(٢) صحيح البخاري، الطب، باب الدواء بالعسل (ح٥٦٨٤)، وصحيح مسلم، السلام، باب التداوي بسقي العسل (ح٢٢١٧).

(٣) صحيح البخاري، الأشربة، باب شراب الحلواء والعسل (ح٥٦١٤)، وصحيح مسلم، الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (ح١٤٧٤).

(٤) صحيح البخاري، الطب، باب الشفاء في ثلاث (ح٥٦٨٠).

وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة، سمعت جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم، أو يكون في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي»(١). ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة، عن جابر به(٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب، حدثنا عبد الله بن الوليد، عن أبي الخير، عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان في شيء شفاء: فشرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية تصيب ألماً، وأنا أكره الكي ولا أحبه»(٣) ورواه الطبراني عن هارون بن سلول المصري، عن أبي عبد الرحمن المقري، عن عبد الله بن الوليد به، ولفظه: «إن كان في شيء شفاء: فشرطة محجم» وذكره(٤)، وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه: حدثنا علي بن سلمة هو اللَّبقي، حدثنا زيد ابن الحُباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله هو: ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»(٥) وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان هو: الثوري به موقوفاً وهو أشبه(٦).

وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشترِ به عسلاً فليشربه بذلك فإنه شفاء(٧)؛ أي: من وجوه، وقال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] وقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] وقال في العسل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خداش، حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «من

---

(١) صحيح البخاري، الطب، باب الدواء بالعسل (ح٥٦٨٣).

(٢) صحيح مسلم، السلام، باب لكل داء دواء (ح٢٢٠٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ١٤٦) وفي سند عبد الله بن الوليد وهو التُجيبي: لين الحديث (التقريب ص٣٢٨)، ويشهد له ما تقدم. وصححه الحافظ ابن كثير.

(٤) المعجم الكبير ١٧/ ٢٨٨.

(٥) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه (السنن، الطب، باب العسل (ح٣٤٥٢) وفي سنده زيد بن الحُباب صدوق يخطئ في حديث الثوري (التقريب ص٢٢٢)، ومن خطئه في هذا الحديث رفعه، والصحيح أنه موقوف على ابن مسعود ؓ كما قرر ابن عدي (الكامل في الضعفاء ٣/ ٢١٠)، والبيهقي (الجامع لشعب الإيمان ح٢٥٨١).

(٦) أخرجه الطبري بسنده ومتنه وفي سنده سفيان بن وكيع ولكنه توبع فقد أخرجه الحاكم من طريق ابن أبي شيبة عن وكيع به موقوفاً وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٤/ ٢٠٠)، وصححه الألباني موقوفاً وضعف المرفوع (ينظر: السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٣)، وصححه ابن عدي والبيهقي كما في الرواية السابقة.

(٧) قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير بسند حسن (فتح الباري ١٠/ ١٧٠).

لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء»[١] الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابي، حدثنا عمرو بن بكير السكسكي، حدثنا إبراهيم بن أبي [عبلة][٢]: سمعت أبا أُبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالسنا[٣] والسنوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: «الموت». قال عمرو: قال ابن أبي عبلة: السَّنوت: الشِّبت.

وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زِقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السمنْ بالسَّنوت لا ألبس فيهم وهم يمنعون الجار أن يُقرَّدا

كذا رواه ابن ماجه[٤]، وقوله: لا ألبس فيهم؛ أي: لا خلط. وقوله: يمنعون الجار أن يُقرّدا؛ أي: يضطهد ويظلم [كذا قال شيخنا المزي][٥].

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، ﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة، كما قال الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم].

وقد روي عن علي رضي الله عنه: أرذل العمر خمس وسبعون سنة[٦].

وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف، وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف، ولهذا روى

---

(١) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه (السنن، الطب، باب العسل ح٣٤٥٠)، وسنده ضعيف لأن الزبير بن سعيد لين الحديث (التقريب ص٢١٤).

(٢) كذا في (حم) و(مح) وسنن ابن ماجه، وفي الأصل صحف إلى: «عميلة».

(٣) السنا: نبات معروف من الأدوية، ومفرده: سناة.

(٤) أخرجه ابن ماجه بسنده ومتنه وتعليقه (السنن، الطب، باب السنا والسنوت ح٣٤٥٧) وسنده ضعيف جداً لأن عمرو بن السكسكي متروك (التقريب ص٤١٩).

(٥) زيادة من (مح).

(٦) أخرجه الطبري من طريق سعد بن طَريف عن الأصبغ بن نباتة عن علي بن أبي طالب، وسنده ضعيف جداً لأن سعد بن طَريف متروك ورماه ابن حبان بالوضع وكان رافضياً (التقريب ص٢٣١).

البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم، وأرذل العمر وعذاب القبر، وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات»[١]. ورواه. . .[٢].

وقال زهير بن أبي سلمة في معلقته المشهورة:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعشْ ... ثمانين عاماً لا أبا لك[٣] يسأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم[٤]

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)﴾.

يبيِّن تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ﴾ الآية [الروم: ٢٨].

قال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٥].

وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم[٦]؟

وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلهة الباطلة[٧].

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزه منك[٨].

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً،

---

(١) أخرجه البخاري بسنده ومتنه (الصحيح، التفسير، باب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] ح٤٧٠٧).

(٢) كذا في الأصول الخطية وفي الأصل بياض بعد ورواه، ولعل تتمته: ورواه مسلم، فقد أخرجه مسلم من طريق هارون بن موسىٰ الأعور به (الصحيح، الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل ح٢٧٠٦/ ٥٢).

(٣) كلمة تستعمل في التعبير عند الغلظة وتشديد الأمر.

(٤) ديوان زهير ص٢٩.

(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن ابن عباس، وهو لم يلق ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد بنحوه.

(٨) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب ﷺ هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله، رواه ابن أبي حاتم(١).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد(٢).

قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: بنين وحفدة، وهم الولد وولد الولد(٣).

وقال سُنيد: حدثنا حجاج، عن أبي بكر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل:

حفد الولائد حولهنَّ وأُسلمتْ ... بأكفهن أزمَّةُ الأجمال(٤)(٥)

وقال مجاهد: بنين وحفدة ابنه وخادمه(٦).

وقال في رواية: الحفدة الأنصار والأعوان والخدام(٧).

وقال طاوس وغير واحد: الحفدة الخدم(٨). وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري(٩).

---

(١) لم أقف على سنده لأن هذا الجزء من تفسير ابن أبي حاتم مفقود.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عنه، وقول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف، فيه إبهام شيخ الطبري، ويتقوىٰ بسابقة وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق عبد الله بن وهب عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق محمد بن جعفر عن شعبة به.

(٤) أخرجه الطبري من طريق سُنيد به، وسنده ضعيف لضعف سُنيد.

(٥) هذا البيت استشهد به أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ ونسبته إلى جميل (مجاز القرآن ١/ ٣٦٤) ونسبهُ أبو عبيد إلىٰ الأخطل (غريب الحديث ٣/ ٣٧٤) ونسبه ابن دريد إلى الفرزدق (الجمهرة ٢/ ١٢٣) ومعمر أخبرهم بأشعار العرب واعتقهم.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٨) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه زمعة وهو ضعيف ويتقوىٰ بما يلي.

(٩) قول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق التيمي عنه.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك[١].

قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها[٢].

وقال العوفي، عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه[٣]، ويقال: الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا أي: يعمل لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل، وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي[٤]، ورواه عكرمة عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار[٥].

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: وإليك نسعى ونحفد[٦][٧]، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بدّ أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، كما قاله الشعبي والضحاك، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نضرة بن أكثم «والولد عبد لك» رواه أبو داود[٨]. وأما من جعل الحفدة الخدم، فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتَربع؟»[٩].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده حسن.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عطية به، ويتقوى بما يليه

(٤) قول ابن مسعود أخرجه الطبري بسند حسن من طريق زرٍّ عنه، وقول أبي الضحىٰ أخرجه الطبري بسند حسن من طريق الأعمش عنه وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عطاء بن السائب عنه، وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق مغيرة عنه.

(٥) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي به.

(٦) أخرجه ابن خزيمة عن عمر عن أُبي بن كعب رضي الله عنه مطولاً، وصححه الألباني (صحيح ابن خزيمة ٢/ ١٥٥ ح١١٠٠).

(٧) ذكره الطبري بنحوه.

(٨) أخرجه أبو داود من حديث صحابي من الأنصار (السنن، النكاح، باب في الرجل يتزوج المرأة فيجدها حبلىٰ ح٢١٣١) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (ح٤٦٥).

(٩) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطولاً (الصحيح، كتاب الزهد والرقائق ح٢٩٦٨).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين [الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك ومع هذا][١] يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السمٰوات والأرض شيئاً؛ أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم؛ أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن[٢]. والحق تعالى يعني أن الوثن: أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كل أي: عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقيل: الأبكم مولى لعثمان، وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير[٣].

وقال العوفي، عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن إبراهيم، عن عكرمة، عن يعلى بن أُمية[٤]، عن

---

(١) الزيادة من (ح) و(مح).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) ثبت هذا القول عن ابن عباس ﷺ كما سيأتي في رواية الطبري المسنده بعد التالية.

(٤) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به.

ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده[١]، يعني قوله: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية [النحل: ٧٥]، وفي قوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان: قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونه، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما[٢].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السمٰوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر] أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

ثم ذكر تعالى منتَّه على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات والأبصار التي بها يحسون المرئيات والأفئدة، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما تردَّدت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بدّ له منه»[٣].

---

(١) رجل من قريش هو: هشام بن عمرو الذي أنفق ماله سراً وجهراً، وعبده هو أبو الجوزاء الذي كان ينهاه (ينظر: أسباب النزول للواحدي ص٢٨٥).

(٢) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده حسن، وأخرجه الواحدي من طريق عبد الله بن عثمان بن خيثم به (المصدر السابق).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (الصحيح، الرقاق، باب التواضع ح٦٥٠٢).

فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله ﷻ، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله ﷻ، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي» ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الملك].

ثم نبَّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أَثَٰثًا﴾ أي: تتخذون منه أثاثاً وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعمّ من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة.

وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع[١]، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة[٢].

وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر[٣]. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي عن ابن عباس بلفظ: «المال»، ويتقوىٰ بالآثار التالية.

(٢) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه بلفظ: «المال».

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

﴿ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي: حصوناً ومعاقل، كما ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ﴾ هكذا فسره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُونَ﴾[1] أي: من الإسلام.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾: هذه السورة تسمى سورة النعم[2].

وقال عبد الله بن المبارك وعبّاد بن العوام، عن حنظلة السدوسي، عن شهر بن حوشب[3]، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (تَسْلَمُونَ) بفتح اللام، يعني من الجراح[4] رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عبّاد، أخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة.

وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر[5].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وقد أديته إليهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون أن الله تعالى هو المُسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ فقال الأعرابي: نعم، قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولّى الأعرابي، فأنزل الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾[6].

---

(١) وهي قراءة متواترة.
(٢) ذكره السيوطي ونسبه إلى ابن أبي حاتم (الإتقان ١/ ٧٢).
(٣) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن المبارك به وفي سنده شهر بن حوشب فيه مقال، والقراءة شاذة تفسيرية.
(٤) وكلا الوجهين من طريق شهر بن حوشب.
(٥) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه، وعثمان ضعيف.
(٦) نسبه السيوطي في الدر المنثور إلى ابن أبي حاتم، وسنده ضعيف لإرساله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كما قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات] فلهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: الذين أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك[1]، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلهاً آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء].

ثم أخبر تعالى عن تبرئ، آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم] وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف][2] والآيات في هذا كثيرة.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ (الصحيح، الجنة، باب في شدة حر نار جهنم ح٢٨٤٢).

(٢) وفي النسخ الخطية ورد بلفظ: «وقيل ادعوا شركاءكم».

وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذَلُّوا واستسلموا يومئذٍ[١]؛ أي: استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذٍ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة]، وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] أي: خضعت وذلّت واستكانت وأنابت واستسلمت.

وقوله: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ الآية، أي عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدِّهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي: ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦] وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبد الله في قول الله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال[٢].

حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش، عن الحسن، عن ابن عباس في الآية أنه قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وببعضها في النهار[٣].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني أمتك؛ أي: اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء] فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان[٤].

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٢) أخرجه أبو يعلى بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٦٥ ح٢٦٥٩) وسنده صحيح وأخرجه الحاكم من طريق الأعمش به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٥، ٣٥٦) وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٦٦ ح٢٦٦٠) وفي سنده الحسن وهو البصري لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تقدم تخريجه في تفسير سورة النساء آية ٤١.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بيَّن لنا هذا القرآن كل علم وكل شيء[١].

وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام[٢]، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: بالسنة[٣].

ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أن المراد ـ والله أعلم ـ إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر] ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو مُتَّجه حسن.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنه، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله[٤].

وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته[٥].

وقوله: ﴿وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ

---

(١) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن ابن مسعود.
(٢) أخرجه الطبري بعدة أسانيد يقوي بعضها بعضاً.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ونسبه إلى ابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة به.
(٥) أخرجه الطبري معلقاً عن سفيان بن عيينة.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وأما البغي فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[١].

وقوله: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقال الشعبي، عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، رواه ابن جرير[٢].

وقال سعيد، عن قتادة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامِّها[٣].

(قلت): ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها»[٤].

وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب «معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المنكدري، حدثنا عمر بن علي المقدمي، عن علي بن عبد الله بن عمير، عن أبيه، قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله» قال: ثم تلا عليهم هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، قالوا: اردد علينا هذا القول، فردَّده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر - أي: شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهنَّ أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا أذناباً[٥].

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به

---

(١) أخرجه أبو داود (السنن، الأدب، باب النهي عن البغي ح٤٩٠٢)، والترمذي وقال: حسن صحيح (السنن، صفة القيامة ح٢٥١١) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٦)، كلهم من حديث أبي بكرة ﷺ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح٩١٨).

(٢) أخرجه الطبري من طريق الشعبي به وسنده حسن، وأخرجه الطبري من طريق الشعبي أيضاً (المعجم الكبير ح٨٦٥٩) وأخرجه الحاكم من طريق الشعبي به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٤) أخرجه الخرائطي (مكارم الأخلاق ح٢٣)، والحاكم كلاهما من حديث سهل بن سعد ﷺ وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ١/ ٤٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ح١٣٧٨).

(٥) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢/ ٤٢٠ وذكره ابن عبد البر وأنكر كون أكثم بن صيفي من الصحابة (الاستيعاب ١/ ١٤٦)، ولهذا حكم عليه الحافظ ابن حجر بأنه مرسل (الإصابة ١/ ١١٩).

عثمان بن مظعون، فكشَّر[١] إلى رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى، قال: «فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه[٢] ما يقال له، شخص[٣] بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة، فقال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس» قال: رسول الله؟ قال: «نعم»، قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ[٤].

إسناد جيد متصل حسن قد بيِّن فيه السماع المتصل، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً[٥].

حديث آخر عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُريم، عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾» الآية[٦]، وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة،

---

(١) أي: تبسم وظهرت أسنانه من التبسم. (٢) أي: استعلم.
(٣) أي: تحول.
(٤) أخرجه الإمام بسنده بنحوه (المسند ٥/ ٨٩ ح٢٩١٩) وضعف سنده محققوه. ونقل الترمذي عن الإمام أحمد قوله: لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب (السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب ح٣٢١٥)، ولهذا قال الحافظ ابن كثير: إسناد جيد متصل حسن.
(٥) سنده كسابقه.
(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢٩/ ٤٤١ ح١٧٩١٨)، وضعف سنده محققوه لضعف ليث وهو ابن أبي سُليم، وصححه أحمد شاكر (المسند ح٢٩٢٢) وكاد أن يحسنه الهيثمي (مجمع الزوائد ٧/ ٤٨) ولهذا قال عنه ابن كثير: إسناد لا بأس به.

ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وبين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها ـ وفي رواية ـ وكفرت عن يميني»(١) لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: الحلف(٢)؛ أي: حلف الجاهلية.

ويؤيده ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن محمد ـ هو ابن أبي شيبة ـ حدثنا ابن نُمير وأبو أسامة، عن زكريا هو ابن أبي زائدة، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير بن مُطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»(٣). وكذا رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به(٤).

ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين عن عاصم الأحول، عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا، فمعناه أنه آخىٰ بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك(٥)، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا عبد الله بن موسى، أخبرنا أبو ليلى، عن مزيدة في قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صَخر بن جُويرية، عن نافع قال: لما خلع الناس

---

(١) أخرجاه من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه (صحيح البخاري، الإيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٢٥] ح٦٦٢٣)، وصحيح مسلم، الأيمان، باب ندب من حلف يميناً... (ح١٦٤٩).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٤/ ٨٣) وسنده صحيح.

(٤) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه... (ح٢٥٣٠).

(٥) صحيح البخاري، الكفالة، باب قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] (ح٢٢٩٤)، وصحيح مسلم، فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ (ح٢٥٢٩).

(٦) أخرجه الطبري بسنده بنحوه، وسنده ضعيف لإرسال مزيدة وهو ابن جابر وقد ضعف، وهو من اتباع التابعين كما في التقريب.

يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعنَّ أحد منكم يداً ولا يُشرفنَّ أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صيلم[١] بيني وبينه»[٢]. المرفوع منه في الصحيحين[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حجاج، عن عبد الرحمن بن عباس، عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً لا يريد أن يفي له به، فهو كالمدلي جاره[٤] إلى غير منفعة»[٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾.

قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة[٦] خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه[٧].

وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده[٨]، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر، ﴿نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ أي: أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان أي: لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ أي: خديعة ومكراً ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ أي: تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

---

(١) أي: قطيعة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وصحح سنده محققوه (المسند ٩/ ١٠٤، ١٠٥، ح٥٠٨٨).

(٣) صحيح البخاري، الجزية، باب إثم الغادر للبر والفاجر (ح٣١٨٨) وصحيح مسلم، الجهاد، باب تحريم الغدر (ح١٧٣٥).

(٤) أي: كالذي يخذل جاره ويتركه بلا ناصر ولا معين.

(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه، وضعف سنده محققوه بسبب تدليس حجاج وهو ابن أرطأة وقد عنعنه، وقال الهيثمي: وفيه الحجاج بن أرطأة وهو ثقة مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٤/ ٢٠٥).

(٦) المرأة هي ريطاء بنت عمرو بن كعب بن سعد كما في تفسير مقاتل (ينظر: فتح الباري ٨/ ٣٨٧).

(٧) قول عبد الله بن كثير أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف، وقول السدي أخرجه البخاري معلقاً عن سفيان بن عيينة عن صدقة، ووصله ابن أبي حاتم من طريق سفيان بن عيينة عن صدقة عن السدي (تغليق التعليق ٤/ ٢٣٧)، وصدقه هو ابن أبي عمران الكوفي صدوق (التقريب ص٢٧٤)، وسنده حسن.

(٨) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي وهب عنه.

وقد قدمنا - ولله الحمد - في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم، وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عبسة: الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلنَّ عقده حتى ينقضي أمدها»، فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش[١].

قال ابن عباس: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر[٢].

وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثرَ منهم وأعزَّ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهُوا عن ذلك[٣]. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه[٤].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة، رواه ابن أبي حاتم[٥].

وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر[٦].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي: لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود]، وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير.

ثم حذَّر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي: خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق

---

(١) تقدم تخريجه في تفسير سورة الأنفال آية ٥٨.

(٢) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٤) قول الضحاك أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عنه، وقول ابن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن وهب عنه.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ونسبه إلى ابن أبي حاتم.

(٦) ذكره الطبري بنحوه.

بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له؛ أي: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ﴾ أي: يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ أي: وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب تعالى متلقىٰ باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم؛ أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت.

وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب[١].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة[٢]، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه[٣].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أنها هي السعادة[٤].

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة[٥].

وقال الضحاك: هي الرزق الحلال[٦] والعبادة في الدنيا.

وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح[٧] بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق أبي مالك عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق رجل مبهم عن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبري بسند ضعيف عن الحسن البصري، وفيه الحسين وهو ابن داود ضعيف.

(٤) أخرجه الطبري بسند ثابت من طريق ابن أبي طلحة به.

(٥) قول الحسن أخرجه الطبري بسند حسن من طريق عوف الأعرابي عنه، وقول مجاهد أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين أيضاً وهو ابن داود، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه ابن وكيع وهو سفيان فيه مقال.

(٧) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف.

أيوب، حدثني شرحبيل بن أبي شريك، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»(١)، ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقري به(٢).

وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجنبي، عن فضالة بن عُبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدي للإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به». وقال الترمذي: هذا حديث صحيح(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام [بن](٤) يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً»(٥)، انفرد بإخراجه مسلم(٦).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية(٧)، ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه(٨).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٢/١٦٨) وسنده صحيح.
(٢) صحيح مسلم، الزكاة، باب الكفاف والقناعة (ح١٠٥٤).
(٣) سنن الترمذي، الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر (ح٢٣٤٩)، والسنن الكبرىٰ، الرقاق (ح١١٠٣٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (ح١٩١٥).
(٤) كذا في (حم) و(مح) والمسند، وفي الأصل صحف إلى: «عن».
(٥) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه وصحح سنده محققوه (المسند ١٩/٢٦٦ ح١٢٢٣٧).
(٦) صحيح مسلم، صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته... (ح٢٨٠٨).
(٧) احتجوا بذلك على أن إعراب الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ حرف عطف للتعقيب والترتيب، والصحيح أن الفاء رابطة لجواب الشرط.
(٨) أخرجه الطبري معلقاً من طريق زافر بن سليمان عن الثوري ووصله ابن أبي الدنيا بسند حسن من طريق زافر به (التوكل ٢٥).

وقال آخرون: معناه: لا حجة له عليهم.

وقال آخرون: [كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر](١).

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه(٢).

وقال آخرون:](٣) اتخذوه ولياً من دون الله(٤). ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوا في عبادة الله. أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية؛ أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه: أنه شركهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كذَّاب، وإنما هو الرَّب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها(٥).

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦](٦)، فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله(٧).

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلِّمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء

---

(١) أخرجه الطبري بسند جيد عن الربيع بن أنس بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق ابن جريج عن مجاهد وابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(٣) الزيادة من (مح) و(ح)، وسقط من الأصل: و(حم).

(٤) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بنحوه.

(٥) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة.

(٧) كذا في الأصل: و(مح) ورسوله، وفي (حم) و(ح): «ورسله».

اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بدّ منه، فلهذا قال الله تعالى: رادًّا عليهم في افترائهم ذلك ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أُرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من العقل!

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾[(١)]. وكذا قال عبد الله بن كثير، وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش[(٢)].

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً[(٣)] بمكة، وكان اسمه بلعام[(٤)]، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾[(٥)].

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي[(٦)]، وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة.

وقال عبيد الله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان النبي ﷺ يمرُّ بهما فيقوم فيسمع منهما، فقال المشركون: يتعلم منهما، فأنزل الله هذه الآية[(٧)].

وقال الزهري، عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتدَّ بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة[(٨)]، قبحه الله.

---

(١) ذكره ابن هشام (السيرة النبوية ١/ ٣٩٣)، وسنده ضعيف لأن ابن إسحاق رواه بلاغاً، ويتقوىٰ بالروايات التالية.

(٢) قول عكرمة أخرجه الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عنه، وسنده صحيح لكنه مرسل يتقوى بالمرسل الصحيح عن قتادة الذي أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، أما قول عبد الله بن كثير أن اسم الغلام: جبر، فقد أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه الحسين وهو ابن داود: ضعيف.

(٣) القين هو الحداد والصائغ.

(٤) هو بلعام القين ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ١٦٩.

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده مسلم الملائي ضعيف كما في التقريب.

(٦) أخرجه الطبري بسند ضعيف فيه إبهام شيخ الطبري، والضحاك من أتباع التابعين فالسند معضل أيضاً.

(٧) أخرجه الطبري والواحدي (أسباب النزول ص٢٨٧)، كلاهما من طريق حُصين عن عبيد الله بن مسلم وصحح سنده الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر تخريج البغوي من هذا الطريق (الإصابة ٢/ ٤٣٩) وقد صحف في تفسير الطبري فورد بإسم عبد الله بن مسلم، والصواب عبيد الله بن مسلم وهو صحابي كما ذكر ابن أبي حاتم (الجرح والتعديل ٥/ ٣٣٢) وتهذيب التهذيب ٧/ ٢٤٨.

(٨) أخرجه الطبري من طريق الزهري به وسنده صحيح لكنه مرسل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفترٍ ولا كذَّاب، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرَّهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله ﷻ[1].

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الرِّدة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: لا بدّ ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ـ وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى مايقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية[2]. وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك[3].

---

(١) أخرجه الشيخان مطولاً (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي ح٦؛ وصحيح مسلم، الجهاد، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل ح١٧٧٣).

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بما يليه.

(٣) قول الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة عن جرير عن مغيرة عنه (المصنف ٤٩/١٣)، وسنده حسن، وأخرجه =

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد»[١]. ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما تركت حتى سببتُك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[٢].

ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه.

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدُّوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله» وكنت أقاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: ويح أم ابن عباس[٤]، رواه البخاري[٥].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب، عن حميد بن هلال العدوي، عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهودياً فأسلم، ثم تهوَّد ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه، فضربت عنقه، فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال: «من بدَّل دينه فاقتلوه»[٦]. وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر[٧].

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال

= الطبري من طريق جرير به، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة عنه، وقول أبي مالك أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق حُصين عنه وهذه المراسيل يقوي بعضها بعضاً.

(١) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وسنده صحيح لكنه مرسل (ينظر: فتح الباري ١٢/ ٣١٢)، ويشهد له ما سبق.

(٢) أخرجه البيهقي من طريق عبد الكريم الجزري به (السنن الكبرىٰ ٨/ ٢٠٨) وسنده كسابقه.

(٣) ينظر: أسد الغابة ١/ ٤٤٣.

(٤) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ١/ ٢١٧) وسنده صحيح.

(٥) صحيح البخاري، استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة (ح٦٩٢٢).

(٦) أخرجه الإمام أحمد بسنده ومتنه (المسند ٥/ ٢٣١) وسنده صحيح.

(٧) صحيح البخاري، الموضع السابق (ح٦٩٢٣) وصحيح مسلم، كتاب الإمارة (ح١٧٣٣).

له: تنصر وأنا أشركك في مُلكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصُلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه، فقال: إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمِّتك بي، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كلِّ مسلم أن يُقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبَّل رأسه رضي الله عنهما[1].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها؛ أي: تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾ أي: تحاج ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزاد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

هذا مثل أُريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهكذا قال ههنا: ﴿يَأْتِيهَا

---

(١) ينظر: أسد الغابة ٣/ ٢١٢، وهذه القصة مشهورة تنصُّ على منقبة عظيمة لعبد الله بن حذافة رضي الله عنه.

رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئاً سهلاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي: جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم] ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لمّا استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز[1]. وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ الآية [الطلاق]، وقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدَّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحُكَّامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس[2]، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله[3].

وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه أنه سمع [مِشرح][4] بن هاعان يقول: سمعت سُليم بن عِتر يقول: صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان ﷺ محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا: قتل، فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية ـ تعني: المدينة ـ التي قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ قال ابن شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول: إنها المدينة[5].

---

(١) تقدم تخريجه وصحته في تفسيرسورة يوسف آية ٤٦.

(٢) أخرجه الطبري بسند ضعيف من طريق العوفي به، ويتقوىٰ بما يلي.

(٣) قول مجاهد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح، وقول قتادة أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة، وقول عبد الرحمن بن زيد أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي وهب عنه.

(٤) كذا في (ح) و(مح) وتفسير الطبري، وفي الأصل صحف إلى: «شرخ»، وفي (حم): «سرح».

(٥) أخرجه الطبري بسنده ومتنه، وفي سنده مِشرح بن عاهان مقبول كما في (التقريب ص٥٣٢)، والشق الأخير فيه إبهام شيخ عبد الله بن المغيرة.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشۡكُرُوا۟ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١٧﴾﴾.

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إليه أي: احتاج من غير بغي ولا عدوان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة[1] بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلَّل شيئاً مما حرَّم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، وما في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصدرية؛ أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس].

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرَّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر ﷻ ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلى قوله: ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ أي: فيما

---

(١) في الآية رقم ١٣٧.

ضيقنا عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء].

ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل.

﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك الفعلة والزلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين، عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأُمة القانت، فقال: الأمة معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله(١).

وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلِّم الناس دينهم(٢).

وقال الأعمش، عن يحيى بن الجزار، عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نسأل إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعود رقَّ له، فقال: أخبرني عن الأُمة، فقال: الذي يعلِّم الناس الخير(٣).

وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، وقال إنما قال الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ فقال: أتدري ما الأُمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأُمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله(٤)، وكذلك كان معاذ. وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود، أخرجه ابن جرير(٥).

وقال مجاهد: أُمة؛ أي: أُمة وحده، والقانت المطيع(٦).

---

(١) أخرجه الطبري من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان الثوري به وسنده صحيح.

(٢) سنده منقطع لأن مالكاً لم يسمع من ابن عمر، ويشهد له سابقه ولاحقه.

(٣) أخرجه الطبري من طريق الأعمش عن الحكم عن يحيىٰ بن الجزار به وسنده حسن.

(٤) أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن فراس به وأخرجه الحاكم من طريق عبد الرزاق به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٣٥٨/٢)، وأخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١٠/ ٧٠ ح٩٩٤٣) من طريق الثوري به وقال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٧/ ٤٩).

(٥) أخرجه الطبري من عدة طرق عن ابن مسعود.

(٦) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أُمة أي: مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار.

وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله[١].

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم] أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه كقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء]، ثم قال: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أي لسان صدق[٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما قال في الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه، وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصَّاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأَخْذِه مواثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾.

قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة[٣]. ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي عروبة عن قتادة.
(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.
(٣) أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد.

قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد» لفظ البخاري[(١)].

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق» رواه مسلم[(٢)].

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة.

قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

وقوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الآية؛ أي: قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضلَّ منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله[(٣)]، وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري، الأيمان والنذور، باب قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢٢٥] (ح٦٦٢٤)، وصحيح مسلم، الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (ح٨٥٥).

(٢) المصدر السابق (ح٨٥٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق بسنده ومتنه، وسنده حسن، وأخرجه ابن أبي شيبة من طريق خالد به (المصنف ٧/ ٢٢٥).

(٤) قول مجاهد أخرجه آدم بن أبي إياس والطبري بسند صحيح من طريق ابن أبي نجيح عنه بلفظ: «لا تعتدوا»، وقول إبراهيم النخعي أخرجه الطبري بسند حسن من طريق منصور عنه.

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد[(١)].

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابة، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة ﷺ ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن أظهرني الله عليهم لأُمثِّلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنُمثِّلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ. . .﴾ إلى آخر السورة[(٢)]، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم.

وقد روي هذا من وجه آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المري، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب ﷺ حين استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مُثِّل به، فقال: «رحمة الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأُمثِّلنَّ بسبعين كمثلتك» فنزل جبريل ﷺ على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، فكفَّر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك[(٣)]. وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث، وقال الشعبي وابن جريج: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مُثِّل بهم لنُمثِّلنَّ بهم فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هديّة بن عبد الوهاب المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربيّن عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم، فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة، فقال رسول الله ﷺ: «نصبر ولا نعاقب»[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري من طريق عبد الله بن وهب عن ابن زيد وسنده صحيح لكنه معضل لأن عبد الرحمن بن زيد من أتباع التابعين.

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق به، وسنده ضعيف لإبهام شيخ ابن إسحاق، ويشهد لبعضه حديث أُبي بن كعب ﷺ الآتي بعد التالي.

(٣) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (ح١٧٩٥)، وفي سنده: صالح بن بشير المري وهو ضعيف ويشهد لبعضه الحديث التالي عن أُبي بن كعب.

(٤) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند بسنده ومتنه، (المسند ٥/ ١٣٥)، وسنده حسن، وأخرجه الترمذي من طريق الفضل بن موسىٰ به وقال: حديث حسن غريب (السنن، تفسير القرآن، باب =

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ الآية [الشورى: ٤٠]. وقال: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥] وقال في هذه الآية: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ ثم قال: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ أي: غم ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك. فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢] وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠][(١)].

وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤] وكقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي: تركوا المحرمات، ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا مسعر، عن عون، عن محمد بن حاطب: كان عثمان رضي الله عنه من الذين اتقوا والذين هم محسنون[(٢)(٣)].

آخر تفسير سورة النحل، ولله الحمد.

= ومن سورة النحل ح٣١٢٩)، وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد (صحيح سنن الترمذي ح٢٥٠١)، وأخرجه الحاكم من طريق الفضل بن موسى به وصححه ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/ ٣٥٨) وكذا ابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٣٩ ح٤٨٧) وحسنه محققه، وكذا أخرجه الضياء (المختارة ٣/ ٣٥٠ ح١١٤٣) وحسنه محققه.

(١) أخرجهما الشيخان من حديث البراء رضي الله عنه (صحيح البخاري، المناقب، باب علامات النبوة (ح٣٦١٥)، وصحيح مسلم، الزهد (ح٢٠٠٩).

(٢) سنده صحيح.

(٣) ورد في آخر الجزء ما يلي: تم الجزء الأول من تفسير ابن كثير بحمد الله وحسن توفيقه، ويتلوه في الجزء الثاني أول تفسير سورة الإسراء والحمد لله على التمام والله المسؤول أن يعين على إتمام باقيه في عافية وأن يجمع بيننا وبين من كتب له هو: الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ مشائخ الإسلام، ماضي النقض والإبرام، محيي العدل في الأنام محمد أبو السعادات بن نور الدين كان الله معه في سفره وحضره، ورزقه السلامة من آفات البر والبحر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم. والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

سورة الأنفال

الموضوع | الصفحة

سورة التوبة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الرعد

الموضوع الصفحة

سورة إبراهيم

الموضوع الصفحة

سورة الحجر

سورة النحل

الموضوع	الصفحة

